

اصوات

في الثقافة السودانية

محمدي أبو قريظ





DAWAYA
SUDANESE BOOKS

اصوات

في الثقافة السودانية

مكتبة أبو قريظ

سيف

SEFSABA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSABA.NET

مكي أبو قريجة/مصحفي وكاتب من مواليد مدينة كوستي بالسودان
وتلقى دراسته الأولية والوسطى في مدارسها ثم المؤتمر الثانوية بأم
درمان، تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم. وصدر
له «اليهود في السودان» (مطبعتان)، «أصول في الثقافة السودانية»
(مطبعتان)، «الأمل والفشل في بلاد الأرنؤوط»، «سيرة بني عثمان في
ملاحم الثورة المهدية»، وله مجموعة شعرية تحت الطبع.

أصول في الثقافة السودانية

مكي أبو قريجة

الطبعة الثانية يناير 2016

رقم الإصدار 2014/25916

الترقيم الدولي: 978-977-5154-34-7

جميع الحقوق محفوظة ©

هذا حالات التراجمة والتقديم والبحث والاقتباس العادية،
فإنه لا يسمح بالتأجير أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء
من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا
بإذن كتابي.

No part of this book may be
reproduced or utilized in any
form or by means, electronic
or mechanical including
photocopying, recording or by any
information storage and retrieval
system, without prior permission in
writing of the publishers.

الناشر
محمد البطي

أخراج فني
علاء فتويهي

الأوامر الواردة في هذا الكتاب لا تعتبر بالضرورة
من رأي دار منشأه.



دار منشأه للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى من ش القشبة الجيزة ج م ج.

أصوات

في الثقافة السودانية

الفهرس

8	الإهداء
9	مقدمة الطبعة الأولى
11	مقدمة الطبعة الثانية
12	تهنئة الطيب
16	شيء من تذكيراته في زمن الطيب
22	صومعته.. كلية غريون
26	رحيله.. حريق مكتبة الإسكندرية
30	الطبيب صالح وخلفائه الملوك
34	ذاكرة السودان العتقنة
39	الواقعي يتجاوز المتخيل
44	المجنون في مزرعة الحرية
50	رسائله إلى ديزي الأمير
55	جمال محمد أحمد
60	التاريخ السوداني في نصوص بورخيس
66	ما بين لوركا والطفل
71	صلاح أحمد إبراهيم
74	بين شاهين زقودة وود العادج
80	تحرط على الكتابة والإبداع
85	حمزة الملك طميل
91	محمد المكي إبراهيم بين الشعر والنثر
97	شابيو- الشاعر نور القلب الزن
102	كمال الجوزولي.. قبح الكلام
106	عرفات.. المنطق العرف والكتاب الطبيعي
118	الطبقات.. بين هراية الوقائع وعذوبة النص
124	إسماعيل البقلاشي
129	هشام حسن أحمد
135	القصص ونواير.. مع ، أصوات وخلفاء
141	الدكتور أحمد الطيب
145	صلاح بشري وكمال عبدالمجيد
151	محمد أحمد محبوب

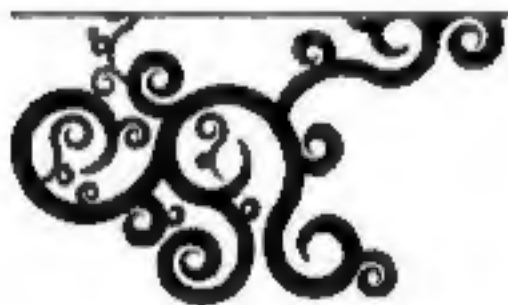
156	«موت بشيا».. جميلة الحب والمعرفة
162	غمامة تحت غمامة
168	جوزيفينا بخيلة
173	الفتى الذي قلعتاه في مالمفيل
177	مدرسة رميلة
183	موت حلم
188	يوميات ازماي توماس في السودان
193	فيليبيا.. مدرسة بريطانية زوجة لأول رئيس سوداني
197	ولغا تحت جبل المشقة
203	الفتى ضحير المدينة
211	امبراطورية رايح فضل الله
215	إبراهيم زكريا.. زعيما لعمال الحام
221	إحسان عباس.. مدرسا بجامعة الخرطوم
226	ابن عمر القوتوسي.. وتاريخ دارفور
232	نعوم شافير.. كما رأه أبو سليم
238	يوسف ميهائيل.. مؤرخا بمحطى الصدفة
243	ملأمة مؤرخ.. الفرنسية الخاطب
249	مذكرات يوسف بدري
255	أم نرمان.. صبية بين العدائن
260	أم نرمان.. صبية بين العدائن -2
265	ملأمة الطنج
270	عطيرة مدينة الحديد والذئ
274	منهج العفافة النعيم
278	أحمد خير المحامي.. «كناج جيل»
284	البابية وريثة الحضارة السودانية القديمة
289	عبدالرحمن عبدالله.. الشفاطية ونفاس المسكة
295	السودان.. حروب الموارد والهوية
300	حروب الموارد.. المؤلف
304	برلمبل.. المستبد العليل
308	الأميرة نعمة وحوريات مارتجان
313	القارب.. وقصة مشروح الجزيرة
319	مأمون بحيري والخدمة المدنية

325	عبدالرحمن علي طه .. التربوي المؤسس
330	إبراهيم أحمد .. حقة اليد واللسان
336	الطهطاوي في السودان
342	إبراهيم أحمد عبدالقريم .. الرحيل الميقات
345	عبدالله رجب .. المصلحية والمنايرة
351	محمود حاج الشيخ عمر
355	القدال رئيسا لمكومة حضري موت
361	التجاني الماضي .. النظامي البارز والعلام الموسوي
366	مكتبة التجاني الملحي
371	المرأة السودانية .. تاريخ طويل وتجربة خصبة
378	د. فاطمة بلخير محمود
380	الاتحاد النسائي السوداني
387	صورتان لملكة أمته
396	الحاجة ست البنات أم سيف
400	موت رائع لامرأة شجاعة
405	انقراض البشار في أحداث 1924
409	حيوية الحزب المشايخ
414	رؤى جديدة حول مسألة الهوية
418	في عون الشلالة خالدة
424	رواج الثقلي وثلاثي السباسي
428	البحام في مملكة العميان
434	صالح مؤمن .. لوروي لاخطئه فعين
438	مومجان في وثائق من التاريخ السوداني المعاصر
444	شيكاز .. المعركة الأسطورية
450	مجنات الضمير من أنصار الثورة المهدية
456	بدليات الحركة المسرحية في السودان
461	حسين شريف .. البدايات الأولى للمصالاة السودانية
467	الخرطوم في القرن التاسع عشر
473	الثقافة في مواجهة التسلط والفقر السياسي
478	معاوية نور .. صورة وخبر
482	الاستعمار في النيل وضمير الخلف
487	لقاء في بحر المانش



إهداء

إلى والدي
الذين رباني وأحسن إلي
وأودعا بين جوانحي حب الوطن
عليهما رحمة الله ورضوانه 4



متدنية الطبعة الأولى

قطرات من بحر النيل

الثقافة السودانية عورها عميق وروافدها متعددة وأساقها متشابكة فقسمايتها تشكلت عبر آلاف السنين شاركت في صبح الحضارة الإنسانية - إن لم تكن ينبوعها لأول - ثم لم تلبث أن ران عليها انقطاع لست بعدد لإحاطة بكل ذلك، وما كنا عليه عاكفين ولكن حاولنا تقصي بعض تجلياتها من خلال رؤى سمرت بعد قراءات ومشاهدات ومساهمات واستعراض عميق لموروثنا من لحكايات ولروايات المتصلة بحضائرها تلك الثقافة ومظاهرها المتنوعة.

نعمل ذلك في دُجى ليل هذا الهويل، فستدعي بمحبة واحتفاء وجوهاً هريرة تنفر كريم من مبدعيها، أدباء وهنئين ومؤرخين ومعلمين ومثاقيلين ونقائيس ومنصوفة وفديسين، رجالاً ونساء وأشخاص عاديين من عمار الناس - صبح الأرض - مروا سراعاً كأنفس الصباح، لا أن آثارهم بقيت كعظمة لإمانوج ورسوخ جبل مرة وكبرياء انداير ستدعي أيضاً بعضاً من أيام أمنا الولود معاركها وبطولاتها وفتناراتها، وكساراتها، أيامها البصرات ومراقفها المشرفات وأعيادها المشرفات

وهي إعتقادنا الجازم أن ما يحق لأن بوطننا من محن وأزمات ما هو إلا تعبير عن قصور وعيا بتاريخنا وثقافتنا وما لسياسة - في أرقى حداثتها - لا تجلي الوعي بالذات والعمل من أجل حياة عمية مشرفة راحرة بالشاهد الإنساني الحلاق

هذه الكتابات بشرتها صحيحة ولإتحاده بأبوظبي على مدى خمس سنوات (2000 2004) كم أعادت نشرها صحف عربية وسودانية أردنا بها أن نقدم

أصوات

مباح من الثقافة السودانية لأجيل منقطع بها حجتها الظروف السالبة
لما حقة عن رؤية ذاتها وتحدثتها المهاجر والمباني - ما أنفت لها صهراً أردنا أن
نشد من أثر تلك الأجيال ونقول إن لها تاريخاً مجيداً وحضارة حادثة ثرية ووعتنا
جديراً بالإشعاء إليه وقد سرت هذه الكتابات كثيراً من القراء فأعربوا عن سعادة
عامرة وفخر مشيوب وبولا ذلك بما أقدمنا على جمعها في كتاب أما أصدقاءنا
لمشغفون الحاديون العارفون في هوى نوح وهمومه فقد أبدوا حماساً غانقاً بمد
لوحة الأديب طلوا مثابرين على الاتصال والتبويه عقب كل مقام . وجدوا فيها
تعبيراً عن صورة ذلك الوطن السعيد وكثير منهم ساهم بشكل إيجابي في إثراء
تلك الكتابات مروءة بالكتب البادرة والمعلومات المفيدة والمصانيع العالية وهي
مقدمتهم انعم انكدود الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه الذي أشرع قدمه -
دور من ودعاء - يقف مناصفاً عن تاريخ أمته وحقوقها ومصالحها وحدودها
لسياسية ومياه بينها وموروثها من القيم الأخلاقية البهرة ولا عرو فهو اليث من
ذاك الأسد كما لا يعوت أن يذكر بالخير الأستاذ الكريم راعي لثقافة السودانية
محمود صابح عثمان صالح لإهتمامه ومتابعته وتشجيعه الدلوب وإتزامه بطبع
لكتاب من خلال مركز عبدالكريم ميرعي الثقافي . والشكر للصدیق الشاعر
راشد سيد أحمد الذي رُودنا بالصور البادرة من العاصمة البريطانية . وسوق النشاء
أيضاً للأصدقاء الأستاذين الغنائين تشكيليين مهاب لبيب ويوسف شعبان وكل
من الأساندة عبدالحجار عبدالله وحلمي مصطفى وجلال بشرى وعلي لطيب
والأنسة رحاب محمد عبدالله وغيرهم من الفضلاء الكرام الذين طوقوا عني بما
قدموا من صروب التعاون الصادق بكل تجرد وسماحة

مكي أبو قريجة

أبوظبي 2005

mekkihas@hotmail.com



مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب بأبو طليح عام 2005 من مؤسسة لأمارت للإعلام، حيث كنت أعمل محرراً سياسياً وأحياناً ثقافياً بصحيفة «الاتحاد» إلى أن تم إنهاء خدماتي في تلك المؤسسة بعد أكثر من ثمانية عشر عاماً.

عدت إلى السودان وحاروا في أمر توزيع الكتاب وأحفظت وحدة النشر التابعة لها وتوقف نشاطها، وقدم توزيع أقل من ثلاثمائة نسخة فقط من الكتاب بالسودان وعندما وصلت نسخة منه طرف الصديق الدكتور محمود صالح عثمان صالح راعي الثقافة السودانية قرر على الفور طبع ألفي نسخة وتوزيعها من خلال مركز عبد الكريم ميرعي الثقافي وحالت دون ذلك أسباب تقع مسؤوليتها على عاتقي ولا أرى من الضروري الخوض فيها والآن تصدر الطبعة الثانية كما كانت الأولى إلا من تنقيح حفيف وإدخال مقالات في الكتاب «ألقى ضمير المدينة» «وصورتان للمبكرة أمينة» ومارالت الظروف التي ضللت هذه المقالات كما هي لا تبرح مكانها والأزمات السياسية والاقتصادية والأخلاقية تأخذ بتلابيب البلد ومارت يؤكد أن محرراً هو الإهتمام بثقافتنا وتاريخنا لشحن الوعي السياسي لهذا الجيل حتى يمكن من الإمساك بمصيره ويصنع مستقبله يكون حديراً بهذا الشعب العظيم.

للمؤلف

17 مايو 2014م

متابعتا التراث... مستشرقا الحدائق

عبد الله الطيب



في ذلك المساء البعيد من عام 1945 كان مسرح معهد التربية بجامعة لندن يحتشد بجمع عفير حين عتلى الحشبة شابان أسمران نحيلان ذكيان الملامح - أحدهما مفصود الخدين - وأحدهما يشدون ويرحمان قصيدة حميلة ذات رنين صاوح كانت القصيدة من تأليف أحدهما وهو عبد الله الطيب وترجمها الآخر - أحمد الطيب - وكانا آنذاك مبعوثين إلى إنجلترا وبعد أن فرغ من ذبذ الإشاد العذب تداعبت نحوهما العذارى ولتمس حولهما بطيس توقيعهما على النسخة الإنجليزية التي تم طبعها بانرونيو وتوريمها على الحضور. جاء في القصيدة التي جلد فيها عبد الله الطيب لعاصمة البريطانية كما لم يستطع أبلغ شعرائها أن يفعل -

حياتك (نفس) ريحان له أرج من الرياض النصيرات العنكب
ما أن يحف إذا حف الربيع ولا يمسى يصوحه من المهاريق
صوب العقول حياه فهو مكنهل ريسان بقرهر ذو ونسي الفخايف

ولا أذهب بعيداً إذ رعت أن قصيدة أخرى لعبد الله الطيب كتبها في أبريل 1946 وعنوانها «الكأس التي تحطمت» وكانت تصور بلا صمود من حيوات «صباً في لندن شاركه فيها صديقه أحمد الطيب.. ولعجب في أمر هذه القصيدة الجميلة أنها تعتبر من شعر بحر ابي ناصبه الدكتور عبد الله انصب عداً ثم يحف أوره إلا أخيراً حتى هذه القصيدة التي سقت في الرمان قصيدتي «كوليرا» بذكر العلائكة و«بلوبولاند» للدكتور لويس عوض لم يحاول الشاعر من خلالها أن يرغم ريادة تلك لحدثه الباكراً حتى حجب حاول بعض النقاد إثبات ذلك وقال إنها مجرد محاكاة لنفس شاعر إنجليزي أشار إليه. غير أنني أرى أن القصيدة لرائعة للشاعر محمد امكي إبراهيم «هايدي» فيها نفس عميق من «الكأس التي تحطمت»

والدكتور عبد الله الطيب هو أحد أبرز العلماء والمثقفين السودانيين الذين انتمعت بهم بلادهم وقف ستمين عاماً في قاعات لدرس يعلم ويحاضر ويكتب ويؤلف ويصحح المصاحف والمقررات وهو عزمه وما كل ساعده وما خيب أملاً لأمنه - لا تأمر عليها ولا شارك في وُد حريتها ولا ركض وراء الاستمرار بصلب حاد وما نتج عن حصوماته في جامعة الخرطوم بشأن منصب المدير سوى الشعر العظيم ولا عجب في ذلك فالرجل يتحدر من هرة كريمة جمعت من العلم حياة به. فالمجاهدين نورهم لا يخفى على أحد؛ علماء وشعراء وُدء وثواراً رفعوا شعلة العلم والقيادة في الدامر وامتشقوا السيوف ذوداً عن الوطن أنصاراً للإمام المهدي في الشمال والشرق واحتسبوا هدداً من لشهداء. ذلك غير ما قدموه في امصاصة السودانيين ضد الأتراك في عشرينيات القرن التاسع عشر.

بعد تخرجه في كلية عربون ائتدكارية عمل عبد الله الطيب في التدريس بالمدراس الوسطى بأم درمان الأهلية وروى لي زميله العم الأستاذ مبارك بديكر البشير - عليه رحمة الله - أنهما كانا يدرسان اللغة الإنجليزية للصف الرابع - وكان فصلين - وحدث أن تموق فصل الأستاذ مبارك على تلاميذ عبد الله

أصواته

لطيف وفُسر لي العم مبارك السبب - صاحبكاً - أنه كان يلتزم بالمقرّر ويجوده
أما عبد الله الطيّب فكان يحلق بهم في سماءات أخرى من المعرفة ويتشعب في
الحديث فينحط مسارب شتى

وتجد تلك العادة مستقرة لدى الدكتور عبد الله في الحديث وفي الكتابة فإذا
استمعت إليه يشجيك بصوته المديد وأحاديثه الطلية المتنوعة ويقودك إلى
عوالم ساحرة في اللغة والمعرفة وقد قرأت نشره يأخذ بلبك ويمشي بك في
دروب بتاريخ والسحر والحرفات والناس بمختلف أنماطهم فتقلب بين معيم
لمعرفة وطرافة الحديث

كانت حياته الأكاديمية والعلمية راحرة حيث عاد للتدريس في كلية الحقوق
لجامعة واستمر معاصراً أطوارها المختلفة حتى اكتملت في طورها الحالي
جامعة من أكثر تغيراتها عراقية في العالم. وتولى عمادة كلية الآداب بجامعة
لغزطوم ربحاً من الزمان نعم فيها طلابه الذين كثيراً ما كان يشي عليهم ويرعاهم
ويشعر مبهودتهم بمفهم علومه لرحم وحضور شخصيته الطاعية. ثم أصبح
مدير الجامعة لمدة عام ومديراً للجامعة جوباً عاماً آخر صدرت له عدة دواوين
من الشعر الرصين منها أصداء الليل وبانت رامة وعاني الأصيل واهتم
بالمسرح فألف مسرحية رواح السمر وغيرها أما كتابه المرشد لفهم أشعار
لعرب فقد حل مرجعاً نقدياً عميقاً يلتزم فيه بالمنهج العلمي متناولاً قو في الشعر
وأورانه تدون المجد القادر على عصم التراث.

ظلّ عبد الله الطيّب عضواً بمجمع لغة العربية في مصر منذ عام 1961 وقام
بتأسيس جامعة باييرو في كاتو بيمبيريا، كما عمل أستاذاً للغة العربية في كلية
لآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله في المغرب، وقضى فترة يدرس في
معهد بحث الرضا بتدريب المعنيين وإعدادهم في التدوين وساهم بحمد مقدّر
في إعداد المساهج وكثيرون ممن عاصروه من المعصمين يذكرون خلاقاته مع

متر فريث الذي أسس المعهد فأوسعها وأجأ إلى سلاح الشعر الذي
يود به كلما أحس بصيم

وعهد بخت الرضا لما تحيفنا ثافي
وكان صغيراً تالها صلفاً
وانت كتب الاطفال طائفة
من الأحاجم قيسا كيدهم كلفاً

وما ربا تذكر كتب المطالعه بمرحلة الوسطى التي قام بتأليفها بلغة حرة
سائعه سبت عقوباً لعصاة في تلك الأيام وأسعدت حكايات «السيد» و«الرح»
ومرحية «عمرو بن برموج» اللتين صاعها شعر ومرحبة «أبو الحسن وهارون
الرشيد» وغيرها وما رل كتاب «الأحاجي» الذي صم مجموعة طريقة من
الفصص ولأساطير السودانية بعد طبعه للأطفال عاماً بعد عام ويشهد حيالهم
وينمي عادة القراءة فيهم.

أما كتابه من «نافذة القطار» فيصل من أمتع ما قرأت من نثر لحديث - ولا
أتمس به نظيراً من حسه الأدبي غير أنه أقرب إلى الهايكو الياباني وهو صرب
من الشعر يكفي بيت منه للتعبير عما تأتي به قصيدة كاملة ففي ذلك النثر لكل
كلمة صده - سرراً مائتاً بالقطار يطوف بث على المعارف والوداد والحكم
وينقل فتحتويك لدهشة ولأعجاب.

حمنت إليب الأساء أخيراً أن الدكتور عبد الله الطيب الذي وصل إلى إسحترا
في إجارته السوبة كعادته هي كل صيف ألت به عارض رائل - يدر الله - وأبرمه
سرير حسشعي هوجفت القلوب - إلا أن ما تواتر من أنه بعد ذلك أهد
بتحسن صحته واستقرارها ولا يملك إلا أن يرفع لأكف بالصراغة ليعلي التقدير
أن يمس على ذلك العالم الموسوعي الكبير بالصحة ويمتعه بالعافية فالدنيا هي
عياب أمثاله ماسحة عجور وعاطل جيدها عن كل حلية

22 يونيو 2000

شيء من ذكرياته هي زمن المثلث

عند بله الطيب

في شهر الماضي شاهدت حلقة تلفزيونية أحسبها ضمن برنامج «من الأس» يستضيف فيها الشاعر اسراحي إبراهيم عبادي وآخر ثم يوفق مقدم البرنامج في إبرر اسمه. كما تم يوفق في كل ما فعل. أحال أن ذلك اتسحين جرى في أوائل سنوات الثمانين.. كان المقدم جهما عليظ الحس ومحدود القدرات حتى أنه لم يكن يعي دوره- طرأ أنه هو محور الحلقة وتصرف على حد الأساس- لا أنت تكاد لا تحطري إشرافات العبادي وطرافة ذكرياته كان في تمام كيفه ورعبته في الحديث لو لا تسلط مصيغه وجهه بقيمة ما يحتزبه من معارف

تحدث العبادي عن الحر دلو ود أبوس في مشهد أمام الحلقة عبد الله يستسمحه فيه بشأن الحيفة شريف ويحاول راب الصدع في الخلاف الذي نشأ بين أهل البيل والحيفة. ولقد كان غني أن الحر دلو تم يستسمع الحيفة لا بشأن ابن عمه عمارة ود أبوس. كنت توافي لأن أسمع المرید من تلك الأحبار، ولكن لأح الإعلامي لحطير حرمي والمشاهدين عمدا وتحدث العبادي عن شاعر يدعي كباسة تباري مع نظير له أمام الشيع العبيد ود بدر الذي أجاز كل واحد منهما بسافة الحديث كان طليا وبدرًا- لولاه سامحه الله والعزيز في الأمر أن كباسة ذلك هو صاحب العث لدي سارت به الركبان «عمى كباسة» وأوصح العبادي أن كباسة ولد أكمها بلا عينين إلا موصحهما. أسوق ذلك بمناسبة ما يضيغ من معلومات تتعلق بتاريخنا لإجتماعي وثقافتنا الوطنية.

أصرت بما الشفاهية.. وحتى هي لم تستعد منها بالتسجيل والتوثيق. فأسلاما

الدين يعيبهم الردي واحداً تلو الآخر ممن كانوا جزءاً مشاركاً في ذلك التاريخ بمثابة مكتبات تحترق كما عثر المستشرق الفرنسي جاك بيرك ولكي أرى لأن وميضاً من أمل أحداً في الانتشار في مجال الكتابة وخاصة المدكرات التي عالما ألفت أصوة ساطعة على اتريخ الإجتماعي بلأمم. فاجأ الدكتور موسى عبدالله حامد المهتمين بكتابة إبداعية حقيقية حين كتب عن ذكريات الطفولة وأيام الطلب في مدرستي أم درمان الأميرية الوسطى وخور طقت الثانوية. رعدت تلك الأيام بذاكرة فوترغرافية متوقدة، حصاة بعد حصاة وحدثاً تلو حدث بلغة رصينة أحادة كان ذلك أحر لمساهمات في هذا الإنعاش وإن لم أحظ بقراءة انحرء الأخير منها حتى الآن.

ولكن تبقى ذكريات الدكتور عبدالله الطيب التي صممتها مجموعته الشريئين من نافذة القطار ومن حقيقة الذكريات وغيرهما أعمالاً مدهشة تكتسب الطابع الروني الملحمي لما فيها من عسى هي البعة والمصامير ومن عرص للثراء الذي تميز به ذلك لرمز للإستثنائي كتب الرجل مخلصاً عادر شاردة ولا واردة مما مر عليه من أحداث. لم يحصع لثريين أو تكسيت شأن معمار الرواية الحديثة التي خلعت ألباب سقّاد. يتناول حكايات ويربط بينها وبين ما يناسبها من أشعار وأخبار تاريخية وأدبية تنتشعب الشجون وهو ممسك بحيوطنه شأن الحادق الماهر اندروب تكاد تجد فيما يقول بعضاً من ذلك أيام الدراسة وإن اختلفت الأحوال بتقدم الأيام والتبدلات التي طرأت.

التعظيم عندما حتى نهاية المهديّة كان ديباً إلا أنه كان لا يقل مستوى عن أي مكان أحر في العالم الإسلامي، بما في ذلك الأهر والريتوة، وعندما هم الإمام المهدي في أيام اضط بالتروحه إلى مصر بصحه بعض شيوخه بأن مالمقه في بلاده من علوم لم يريد عليه هناك والحرير في أن يظل مقبماً، وتحلى ذلك الرعم حينما حاوره الأب أهروهلدر النفس الألماني الأسير ولذي ألف كتاباً طمع بالحقد وبعضه

أصوات

«عشرة أعوام في لأسره، إلا أنه اعترف بأنه حين حاور السهدي وتحدث معه في شؤون اللاهوت وجد فبحراً لا يسير له عور».

في بداية ثمانينيات القرن العشرين أعاد المعهد الجديد المدارس الابتدائية التي كانت قائمة في المعهد التركي وأشأ كلية غردون وهي التي عُرفت بالكلية القديمة في الأوقات اللاحقة. كثير من رؤاد الأوائل في لتعليم والفكر والسياسة والثقافة والصحافة والطب تخرجوا من تلك الكلية وكثير منهم أيضاً تخرجوا مستوى بعد ذلك لينتقل بالجامعات المصرية أو جامعة بيروت الأمريكية أو جامعات بريطانيا إلا أنهم ظلوا يتذكرون الكلية كأنهم ما قرأوا بعدها

بما استعد عبدالله الطيب لأداء الامتحانات لدخول الكلية في ديسمبر عام 1935 كانت هناك بصح عشر من المدارس الوسطى، ثم تكن كلية غردون مدرسة ثانوية حقاً، كانت مدرسة إعدادية لتوظيف كانت «التجهيري»، ثم صارت ثانوية فيما بعد حين أدخل في نظام التعليم امتحان شهادة كمبردج وقامت المدارس العليا التي إنتقل إليها اسم كلية غردون ومهدت بقيام جامعة الخرطوم. وعندما التحق عبدالله الطيب بالتجهيري كان يستطيع أن يحدد الدراسة التي يرغب فيها وكان لقصص الشرعي طموح الجميع ووقف على التلاميذ الأكفاء - وكان هو في مقدمتهم - إلا أن إختيار هؤلاء كان يتم كل خمس سنوات، وما كان صاحب يميل كثيراً بقصصه، بل كان إلى التدريس أقرب، يستعجل السوات يتوسط بسرعة بسب ظروفه العائلية ثم يستحب لدعوت معلميه في الالتحاق بالقضاء لده كانت حيلة أمل مسر سكوت كبيرة . وهذا الحوجة فصل كبير على التعليم في السودان فعندما إلتقاء بعد سنوات وهو يدرس في معهد بحث الرضا قال له متحسراً «إنك كنت أدكى تلميذ مر على الكلية»، وقيل إن مسر سكوت رار اسودان بعد ذلك عام 1967 كدأبه من وقت لآخر في فصل الشتاء، وكان قد أسس وحمل يتابه بعض السيان. جمعتهم مائدة إفطار عامرة في شهر رمضان أقامها ابراهيم إسماعيل الأهرري للضيف

الرائر وكان الأهرري قد درّس عبدالله الطيب الرياضيات في الكلية عام 1939 وظلّ يُدرّس إلى ما بعد منتصف عام 1945 ليتقاعد متفرّغاً للعمل الوطني.

عندما دخل عبدالله الطيب الكلية كان للدكتور أحمد الطيب قد تخرّج فيها إلا أنه اتحد مع غيره صكاً له - عبر أولاد مدرسة بربر - ألقى ذكراً حبة عطرة تتداولها الألسن حيث كان قد نظم قصيدة هزبية صاب فيها «ريس العاهدين أمسي» صابط العداءات لنداءات بريدة سكر شاي الصباح بصف قطعة حيث كان المقرّر قطعتهن وتصفاً ولم يستجب الرجل طبعاً وظلّ يحال كما هو إلا أن صبت القصيدة تجاور جدران الكلية حتّى أن محلات «جودسبح» للساعات والظارات بالخرطوم أجارت أحمد عليها بساعة منه.

كان عبدالله طيب يعرف شكل الكلية حيث رآها مرّة عام 1931 مع والده - الذي كان مدرساً أيضاً - وأبلغه أنه سينتقل بها يوماً ما وسيخلق شعرة «كاريه» وسيدّهب إلى أوروبا، ويقول الدكتور عبدالله إن والده عرف ذلك عن طريق الكشف حيث كان الرجل صالِحاً إتفق حوله جماعة من المقرّ - تحدّث عبدالله الطيب عن الداحيات وقال إن أغلبية أولاد العاصمة كانوا يحتلون «كتشنر» و«كرري» وأولاد «سالك» من أولاد بربر والداير وعطيرة وشدي وسائر الشمال وأولاد الغرب يسكنون في «داحية» «مفي». وكان من بين داحيتي «وحت» و«أرثر» سافر، على الرغم من أن معظم طلابهم من بيئات ريفية مُحصّة في البدوة. وكان أولاد «وحت» يظفرون إلى مستقبل الوظيفة بجد وصرامة، وكانوا «كبابين» في نظر سائر التلاميذ، أم أولاد «أرثر» فلا يعترفون لأنفسهم ببدوة، وكانوا يحاولون تحدي أولاد العاصمة ببرار حصالصهم الريفية كنوع من لأصالة، إلى درجة أن بعضهم ربما جاء معه بدهن «لكركار» ليصنع به جسمه إمعان في إبراز خصوصيته إلا أن وصفه صابور لصباح يطل لأطراف حيث يأتي رئيس الرؤساء بنيه كالتاؤوس يرتدي جلابة من سكروطة، أو بويلين أو تيل هراز وفوق رأسه طاوية حرير حمراء وفي قدميه

أصوات

شُيِّب من جلد النمر، بمشي في حياء كسائر رؤساء الد حلبات، يمشون في حياء كالعمد ونظر القاتل في إحتفال 17 بدير، دث الإحتفال لدي كان يقام في عواصم المديرية بتجديد ذكرى زيارة الملك جورج الخامس إمبراطور الهند وملك بريطانيا لعبد بورنسودان عام 1912 في طريقه إلى الهند.

لَمْ يكن الجميز مرحاً خفيف الظل كما كان في لمرحتين السابقتين - الأولى والوسطى - كان ثقيلاً على النفس بسبب العنت ويراد به الإحصاع والصعد - وقد ذاق منه صاحباً فيما يبدو الأمرين فقد كان مشرف الدخيلة الإنجليزي يأتي بصحبة كلبه برندي الشورت والجورب الطويلة الشحبة وكان الشورت لباس لمكاتب أيضاً يبدو وكأنه يحضر عس التشهير وروح الجند التي أشاعها الحكام لبريطانيون بين الناس

لَمْ ينس عبدالله الطيب أن يلاحظ رجلاً شيعياً كان يجلس تحت شجيرات ليمون ظليلات أمام فصول السنة الأولى الخمسة وكان الطلاب يرددون أن هذه الأرض كانت جروف ولده قبل أن تستولى عليها الحكومة ورعموا أنه كان يبيع السجائر لثلاثميد الدين يندحونها كانت السجائر مصنوعة في بكية لأنهم سمحوا بها في فصول لامنحاح في المدرس العليا كما يتم بس «مستورة» التي كانت تبيع العوب بالقرب من مقهى الطلاب وكان فولها جيداً ذهبي الحبات، كامل الاستواء، ومعه سلطة فعلية متوقدة وريت متجاد، كما كان رغبها بلدياً شبيب حياً.

تلك التكريات التي صاغها عبد الله الطيب بمحبة ودقان جديدة بالقراءة وحليقة أيضاً بأن تغري الآخرين ليكتبوا عما رأوا وأحسوا سرسي تقليداً إيجابياً سبقت إليه لأمم الحادقة.

19 يونيو 2001م



الجنرال ماجبة والجنرال

صومعته.. كلية غردون

عبد الله الطيب

كان لمقتل الجنرال تشارلس غردون حاكم السودان في 26 يناير 1885 رنة حزن وأسى عميقين في أوساط الشعب البريطاني الذي رأى فيه رمزاً متألفاً في ذلك العهد الفيكتوري، المرهق بانتصاراته وعضته، إعتبروه قديماً وقب وقفته لأخيرة يصارع الهمجية من أجل بشر المدينة والإستدارة! ما رأوه دحيلاً عاصياً كما رأه الثوار صبيحة اقتحامهم لقصره وقتله أمام شاطئ النيل بالخرطوم، ولصيصيون لا يزالون ينظرون بإكبار لذلك الشعب الذي ثار بهم من غردون الذي عرفوه مستهداً عاشقاً ببال مهمة له في الصين كانت الرعية في الإنتقام تعتمل في نفوس الصباط الإنجليز حين كرو فاتحين كانوا معنيين بالصعينة والبارود فمشوا فوق أجساد عشرة آلاف من المقاومين الشهيد في عريقهم إلى الخرطوم عبر معركة أم درمان وحين عاد قائد الفتح الجنرال كتنشر إلى بريطانيا مُدلاً بعصره، فترح إنشاء مدرسة كلية في الخرطوم إحياء لذكرى غردون فتخصص له الشعب البريطاني وتداهى للإكتتاب في حملة عاطفية بادرة الحدوث، وقبعت الملكة فيكتوريا راية تلك المؤسسة وكانت أول المتبرعين عيباً وبغداً، أما رئيس وراثتها النورد سالسبوري فقد وصف المشروع بأنه «إلتزام إمبراطوري لإرادة ما بين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية وبشر الثقافة الإنسانية» ما أراد بذلك إلا التفاق المحض فأبى ثقافة إنسانية تذل التي تعرضها مدافع العكسيم لإخضاع شعب واستراع حريته أرادت السياسة البريطانية للكلية التي تم افتتاحها في أكتوبر عام 1903 أن تكون مؤسسة لإعداد موظفين صغار أُممديه لا حيلة لهم لإدارة دولاب العمل في دواوين الحكومة إلا أن طلابها كسروا الطوق وقاوموا العربة وتطلعوا إلى المعارف ووسعوا مداركهم ليصبحوا مباحد لأمل لأمتهم.

كان لمصر نصيب لا يسى في تأسيس الكلية وأصبح أحمد هدايت بك أول باطر بها تحت إشراف جيمس كرى مدير مصلحة المعارف هدايت هذا كان أحد حريجي كلية برا رود وبقي في الكلية حتى عام 1911 وصمت الكلية عدداً من الأساتذة والعلماء المصريين الأعداد أمثال عبد الرؤوف سلام ومحمد الحصري ومحمد أبو المجد وعبد الوهاب انجار ومحمد ماضي أبو العرائم وغيرهم من الذين عرفتهم الجامعات المصرية والمحافل الأدبية والعلمية ذلك إلى جانب عدد من الأساتذة السوريين أبرزهم الشاعر فؤاد الخصب، الذي كان أستاذ للأدب العربي.

قبل أن يشتد ساعد الحركة الوطنية وتسفر عن وجهها السياسي استخدمت لأدب وسينة لإستهراض لهم وانتشر بالقيم السينة وماضي البطولات وساهمت الكلية بأبرز شعراء تلك الفترة من طلابها وحريجيها ومنهم عبدالله محمد عمر البيا وعبدالله عبدالرحمن أمين ومحمد الأمين القرشي وأحمد المرصى ومعدثر البوشي. وهؤلاء تخرجوا في قسم اللغة العربية ولقصة لشريعيس أما أبرز الشعراء اندس تخرجوا في قسم اللغة الإنجليزية وعلوم الحديث منهم أحمد محمد صالح وعبدالفادر إبراهيم، ومن قسم الهندسة لشعراء علي نور وعبدالرحمن شوقي ويوسف مصطفى التني ومحمد أحمد محبوب اندي ستأثر بالكتابة التقدية إلى جانب الناقد محمد عشري الصديق ومعظم هؤلاء لعبوا دوراً أساسياً في النهضة الأدبية الحديثة والحركة الوطنية وتسلم بعضهم مناصب قيادية عليا بعد نيل لإستقلال

وعندما شكّلت الجمعيات السياسية السرية في سنوات العشرين وأصبحت عن هوية متصلة بالكفاح المشترك لوادي النيل كان من أهدافها العمل على رفع مستوى بعض الطلاب وإرسالهم إلى مصر للدراسة الجامعية، فهرب إلى القاهرة في عام 1923 الطالبان توفيق أحمد البكري وبشير عبدالرحمن ثم بحق بهما بعد

أصوات

عم للدودي أحمد إسماعيل كانت تجربة جريئة أرعجت الإدارة البريطانية فصبت عليهم الحقائق ومعت أهدبهم من تقديم المساعدات إليهم وحرمتهم من العودة إلى السودان فلاقوا مشقة وعث لولا عطف وأريحية الأمير عمر طوسون الذي أجرى عليهم إعانات شهرية مكثهم من الإستمرار بجامعة مؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) والتخرج فيها

بعد تلك التجربة سمحت السلطات البريطانية لبعض الطلاب بالسفر إلى لبنان للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت ومنهم معاوية محمد نور وعبد الله عشري الصديق. ثم أوفدت بعدهم عبدالفتاح المصري ومحبوب الصوي وعبدالمور وإسماعيل الأزهرى.

بعد الانتفاضة العسكرية لعيفة انتي قادها ضباط سودانيون ضد الجيش البريطاني في عام 1924 ران على البلاد جو خائف من الكبت والإرهاب والملاحقات البوليسية وتحذت السلطات إجراء ت قاسية لكسر الإرادة الوطنية فأعلقت الكلية لحرية وبرر تجاه لإعلاق كلية حردون أيضاً.. إلا أن ذلك إستبدل بممارسات قمعية ضد لطلاب أطلع محمد أحمد محبوب في وصفها في اموت دساة

وفي عام 1931 والأزمة الإقتصادية العالمية في عنفوانها برنأت الحكومة تحميم مرتبات حرجي الكلية في إطار برنامج نقشي لتجاوز الأزمة فسعت بدلت دون أن تدري إلى إذكاء ما كان يستمر من العصب المكبوت فمقد طلاب الكلية إضراباً هز المجتمع العاصمي واستمر حتى تدخل الوسطاء وتمارلت السلطات حثياً عن موقفها أدى ذلك للإضراب إلى كسر الحمود الشباسي وتجاوز آثار ثورة 1924 ووضع المعلمين أمام مسؤولية تنظم أنفسهم لمواجهه العصور فاستمر المحاض ألبما حتى برر مؤتمر الحرجين العام في أواخر أعوام الثلاثين

كما كان ذلك الإصرار خطوة أولية نحو تغيير برامج الدراسة الثانوية بتتجه نحو الثقافة العامة وإعداد الطلاب للدراسات الجامعية وتزويدهم بالمعرفة التي تثرى الروح وتشجّد القدرات. وإن كان عبدالله اضيق قد وصف تلك الدراسة بأنها كانت جوفاء لانهاء إلى القلوب، على الرغم من أنه أشار إلى أن الطلاب كانوا يناقشون قصايا فلسفية في غاية العمق كالشك والقدر وحرية الإرادة والمعري ومساجلات طه حسين والرافعي عن كمر بشر ومجون أبي نواس ومقاه الحلاج قوما في لجة بلا لله، وتحدث عن أساتذة بريطانيين كانوا يتحدثون على استحياء فيما يتعلق بالأفكار التي كان يتداولها الطلاب كمسكن سكوت الذي أتاح فرصة الكتابة والمقد للطلاب الأمر الذي قابله البعض بريبة والتوجس كما تحدث عن أساتذة سودانيين يحبو أمثال عوض ساني والنصري حمرة وإسماعيل الأهرري

وفي أوئل عام 1939 تم افتتاح المدارس العليا وكانت فوق المستوى الأكاديمي لكلية كردون - وهي مدارس لهندسة والبيطرة والزراعة والعلوم ثم الآداب فالحقوق وكانت قد أسست في وقت سابق لذلك مدرسة كتشستر الصحية في 28 فبراير 1924 كأول مدرسة عيا بالسودان وفي عام 1940 تم نقل كلية كردون التذكارية من الخرطوم إلى أم درمان وحصلت مبانها لقوات الحلفاء في الحرب الثانية واحتفظت باسمها حتى عام 1945 حين سُميت مدرسة أم درمان التي انقسمت بدورها إلى المدرستين الشهيرتين وادي سيدنا وحتنوب وكانت المدرس لعلي قد أطلق عليها اسم الكلية بقديمة ثم أصبحت كلية جامعية ترتبط أكاديمياً بجامعة سدن، وفي يونيو 1956 أصبحت جامعة الخرطوم.

10 أكتوبر 2000م

رحيله.. حريق مكتبة الإسكندرية

عبد الله الطيب

كان يرى لدعة العربية في مصاحبه السودانيين، ولا ينكسر عليهم ذلك كمستمرين وهجاء- وإنما يحدد في التاريخ مدياً ويقول إنه يرى جزءاً عربياً من السودان وانجيرة العربية كانا رفقاً واحداً، قبل أن يصجر الأحود الأفريقي العظيم ويسبح بحر القلزم. لم يحدث ذلك في أرمان عبيرة بعيدة، ولكن حتى وقت قريب- سبياً في التاريخ- كان البحر عمراً مائياً حقيقاً يتردى شاطئاً ويتنادى من الضفتين قبيل ويقول إنه قرأ في كتاب هيرودوتس «لتاريخ» إن عرباً من البلاد الواقعة جنوب مصر قاتلو إلى جانب دارا، إمبراطور العرس في القرن الرابع قبل الميلاد وما تلك البلاد التي أشار إليها إلا السودان

مثل عبدالله الطيب المودح الأسمى للمثقف السوداني الذي جمع براعة بادرة ما بين موروثه لشقاهي المصارب في القدم، وبين ما اكتسبه من وعي وإدراك من تيارات الحداثة العربية حسبه ولّد وبشاً في المنطقة نفسها التي يقال إنها كانت مهد الإنسان في طفولته الأولى، ومسرح إبداعه الحضاري الذي أهدى للبشرية العذبة في ثبث العصور السحيقة

تفتحت عيناها في حلاوي بآله المجاديب، العر العيايين، الأتقياء الثقات أهل العهد ولصدق، الدين ما تراجعوا أمام عدو عاصب وما انشوا قاوموا الأثر كالعراة وشهدو مقتلة سليمان الربير في بحر لعرال، وخرج بعضهم مع رابع فصل الله إلى عرب أفريقيا راهبين المحصوع، وسارعوا يمتشقون الحسام، يتصرون لدعوة الإمام المهدي حين أعلن الجهاد.

ندرج في مراحل التعليم الرسمي متعوقاً في كل عام، وأبدى ضرورياً من المجابة

وانحرم، حتى ولح كلية عردون التذكارية، وكانت أملاً عزيز المال وهناك تجلّت قرئحه واردة في معارفه حتى تخرّج معصاً في المدارس الوسطى. بات أديباً مرموقاً ولا يزال طالباً في الكلية، توجّه إليه الدعوات ليحاضر في لمنتديات العامة، حول الأدب والثقافة والتاريخ، وهو دون العشرين سنّاً معلماً طوال حياته لا يريم بالمدرّس الوسطى ويحت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية والجامعة قدّم للأجيال بعير من ولا ادعاء، وساهم في تأليف المناهج شعراً ونثراً وفي تدريب المعلمين وإعلاء التجربة التعليمية إلى جانب رفاقه المعلمين الأعداد الذين يدين لهم الوطن لكنّ ما قدموه لأبائهم من فصل حريل، هاجر إلى أوروبا في منتصف سنوات الأربعين فأكمل دراسته الجامعية وواصل من بعد دراساته العليا حتى ظهر باندكتواره.

ظنّ أحد الأعلام البربرين والأكاديميين المرموقين على مستوى القارة الأفريقية وانعم العربي في مجال الأدب واللغة العربية، وأدهش مؤلفه المرشد إلى فهم أشعار العرب وصاغت لها لأدباء العرب في سنوات الخمسين وقد قام بتأليفه ولم يكن قد تجاوز لثلاثين بكثير، قدّم له صديقه وحده في مجمع اللغة العربية الدكتور طه حسين الذي ما انك براسه طول حياته، ويشركه في كل ما يتصل بشؤون العربية والأدب.

يتحدّث عن كبار شعراء الإنجليز شكسبير ومايرون وشيلي وتي من إليوت وأودن وسيسر ينتقد ويترحم بعض أعمالهم ويجاريه أحياناً وما قصيدته «الكأس التي تحطمت» إلا مجازاة رائعة لأحدهم كتبها في أبريل عام 1946 وحين حاول بعض النقاد إسناد فصل ريادة الحداثة الشعرية إليه بسببها رفض تلك الساحة وتمسك بموقعه التقليدي الرخص للتجديد في الشعر

كتب شعراً كثيراً - وله دواوين عديدة - إلا أن بعضاً من الناس راه متحمياً لا يعبر عن الإنسان المعاصر وانصرفوا عنه لكنّ ذلك لا يعتني بخلوه من الصور

أصوات

لجمالية الإبداعية اللعوية والعاطفة الفيضة وقد أعجبتني كثير من قصائده، أعود إليها من وقت لآخر متدوقاً مستعدباً، وخاصة مرثيته المترعة باللوعة الإنسانية والعرن المبيل.

أما في كتابة الشرفلا يسري بمصاولته كاتب فقد إمتلك باصية اللغة فانقادت إليه سلسة مطاوعه جمع وحرر عدداً من الأحادي السودانية بالأطفاك ولكن من ناهضة القطارة وحقيقية لذكريات من بين أعماله الشرية تمثال عدي دروة لفص واستداعي هي الحكيم مع عمق التجربة وتنوعها . كلم فرأتهما إردادتا بصارة وشرافاً وأسهما في انعمالك الروحي وثرء وجدانك . أوعل بهما أبعذ مما يعرف لأن بالواقعية السحرية لغة رصينة جادة ومعدرات شاردت عابثات ضاحكات، ومواقف عادية مشحونة بالدلالات والرؤى يتعالى ضجيجها الإنساني ليشكل جسماً روائياً غير مسبوق.

لثم يكن عبدالله الطيب رجلاً سلس الفياذ يؤثر لسلامة ويتعاضد الرحام وإنما كان يدافع بصراوة دوت ما يراه الحق، وما موقعه من إعدام الأسد محمود محمد طه إلا مثال واحد بوقفات جهيرة، كتب قصيدة شجيرة مؤثرة يرثي فيها المشكر لشجاع ويعتد مناقبه واصفاً بإياه بالشهيد لا المارق كما جاز للجهلاء أن يتقولوا.

كان يطل على أبناء شعبه من حلال البرامج الإبداعية يمسر القرآن الكريم فيجذب إهتمام العامة ولخاصة، ويحدث أثراً طيباً في النفوس وهي البرامج لتلغوية - في أوقات لاحقة- كان يحدثهم بعدوة المحب وترفق المعارف لصعود يتناول شتى أنواع المعارف والثرات . يشفق الحديث ويتنوع فلا يرداد لا روعة وجمالاً يكاد يفهم قومه الجميع فلا عموص ولا تنطع ولا ريف ولا دعاء

كان حين يتحدث يستدعي الرمان ولحكاك والشعراء والأدباء والمحدثين والعلماء والملوك والسلاطين فتراهم أمامك شاحصين يتكلم فيتمثل بالشعر

والحديث لما أثر فتطفر بعض عوامض اللغة فيعود للشرح والتفسير شأن المعلم الحاذق والمربي الرؤوف

وُلد البروفيسور عبدالله الطيب في الدامر عام 1921 وتزوج الصانعة التشكيلية البريكانية جريلا دة طيب في عام 1949 في لندن التي أحبها وحضر حفل الزفاف جميع المبعوثين وسهروا في «بيت السودان» يستمعون للأغاني التي رُددتها الأستاذة إديس البهاء وبا للمحبي وفي مساء الخميس الماضي شيعت العاصمة السودانية العلامة الكبير بعد مرض أدخله في غيبوبة طويلة. أمطرت قمره سحائب الرحمة والرحوان، وأحرّ التعاري لآل «مجدوب الكرام».

24 يونيو 2003م

سمح السجايا وعبقري الرواية لطيب صالح وحلفاية الملوك



الطيب صالح عبقري الرواية العربية - كما وصفه لنقاد - نجده أحياناً برماً - بصورة يغلب عليها حيالُه المعهود - يتلف محاوره من الصحافيين على توقع المريد من إبداعه الروائي - يرون أنه قد توقف صوبلاً ولم يتحف معجبيه بجديد يتوج عمله الملهمي - يرد عليهم يكاد يقول لهم : يا جماعة لست تررباً أفضل ما تريدون ولكني أشهد وأحشد وأكتب ما أراء ملائماً وليس شرطاً أن يكون روايةً والمتابع لكتباته المنتثرة في الصحف والمجلات يجد كثيراً من نفسه لإبداعي العميق الذي لم يقطع يدُخص تجاربه في السفر والقراءة ويكتب أشياء ممتعة بروح شطافة تستبص المشاهدات لانعوته شاردة ولا واردة

بالأمس القريب كان في زيارة لنيويورك فكتب عن تلك الرحلة في عمود بالملحق الثقافي في صحيفة «للاتحاد» كلمات نصرات إحتفى فيها بالمحتتمين

به. وكان مغموراً بسعادة لا توصف فعكس عن أمسية مازدة فصاها بمسرح عديقه
الديلماسي السود بي العاتج إبراهيم حمد مدير اليوسكو في نيويورك. أعجبه
بقاءه بأصهار العاتج من أهل حلماية الملوك، المدينة التي كانت عاصمة لمملكة
العبدلاب في أرمم عاترة- ولتي استوطن فيها الشقيقة في أوقات لاحقة للعرو
التركي في عشرينات القرن التاسع عشر وهي لائزال رابضة على الضفة اليسرى
لنهر النيل على بعد أميال شمال الخرطوم كأنها تتوث لاستعادة أمجاد أمة
تحرر الكاتب عنها وعلى بعض أهلها الذين هجروا ماضيهم التي كانت أمة بهم
حتى وقت قريب قبل أن تسفوها لرياح المادرة وأحدو يتوجهون نحو المهاجر
البعيدة طلباً للأمان والعيش الهنيء- وكأنما لسان حالهم يقول احيث يكون
الحبر وتكون الحرية يكون وصفاً هناك. يحتزل الطيب صالح ذلك المشهد
المأساوي في تجربة السيدة ستا شقيقة كل من الموسيقار المعروف بشير
عباس والسيدة إقبال قرية صاحب الدار فوصفها بالتمودج الأكمل للمرأة
السودانية في زمانها الذي حدها فيه شعراء الحفية

لا بد أن الكاتب الروائي قد قرأ عن سلف بها حملت اسمها- هي الملكة ستناملكة
شندي التي ذكرها رحالة أوروبيون راروا السودان في القرن السابع عشر قالوا إنهم
رأوا ملكة يجمعها الجلال والكمال. جميلة كأن وجهها صحيفة من ذهب، رغم أنها
كانت تلقاهم من وراء حجاب- الملكة ستا هذه كانت إمتداداً لملكات مروي-
الكنداكات- اللاتي رعين حصارة مروي في نفس المنطقة قبل وبعد الميلاد، وجئن
بالمسيحية قبل كل مكان حين كانت العيون لا تزال بليدة بالجمع غداة صلب السيد
المسيح حصارة لا تزال آثارها شاحصة للعيان تذهل علماء الآثار في فجر كل يوم
جديد كانت موطناً لتعدين الحديد حتى أطلق عليها المؤرخون المحدثون وصف
بيرمنجهم أفريقيا. السيدة ستا المعاصرة نسعى الآن لدحاها بشقيقتها في كندا هرباً
من عت الأيام ومثل السياسيين الجوف في الخرطوم

أصوات

أماجت تلك المشاهدات في أشجاناً هاجمة فصاحب الدر الفاتح من أهل
عدينتي - كوستي - ألا سقي ورعياً لأيامها الزاهرات كان يقض في طفولته في
حيثما يسبق بسنوات قبيلة في الدرامنة كما نرى تميد مشاغف - ذلك الشعب
الذي يستحق الإعجاب - حتى انتقلت عائلته إلى أم درمان لتقبت به قبل
سنوات صبيحاً في دار صديقي الأستاذ معاوية الطاهر لمحامي في البحرين، حيث
كان مديراً إقليمياً ليونسكو مقيماً بالدوحة وتحدثنا طويلاً عن تلك الأيام التي
ذهبت ولن تعود

في صيف العام الماضي قُدر لي أن أزور العاصمة البريطانية لأول مرة تلبية
لدعوة كريمة من صديقي الشاعر راشد سيد أحمد الذي عمره هو وأصدقائه
بكرمهم الفياض وأريحيتهم العذبة وقصصاً أمسيات سعيدة في دورهم العامة،
الدكتور محمد سليمان محمد العالم الكدود والأديب المبدع والمترجم
الألماني، والدكتور أحمد الطيب فرح مستشار الطب النفسي المعروف بالشعر
والراوي بسكت والملح وكثيراً ما جلسنا نستمع للدكتور محمد سليمان يقرأ
لنا أشعار الألماني «برنولت برشت» التي قام بترجمتها على نحو عر نظيره في
تاريخ الترجمة إلى العربية أصاف إليها بألفه لغتان وطافته الروحية التي لا
نصيب، كان قد أبى من مرضى حزون قاومه بعريته الجارة وحب أصدقائه
الذين أحاطوا به كالسوار بالمعصم ما فارقوه لحظة حتى انزعوه من برائن
الموت.

أما ليلة العناية فقد قصصها في دار الصديق كمال سوار الذهب في كيمجر
سنون حيث حموا بأصدقاء فارغاهم منذ سنين وفي مقدمتهم الدكتور حمودة
فتح الرحمن لطيب وداعية حقوق الإنسان - خدين الطفولة والصبا - وأخوه
إبراهيم وعائلته الصغيرة وأستاذنا الصحفي المعروف محبوب عثمان

ما كان يدور في خلدي أنا بتنا أسرى حلفية الملوك كما حدث للأستاذ

الطيب صالح يومذاك - وباله من أسر سبجه من توهج الروح الإنسانية وعدوية السلوك - حيث وقف الجميع صاحب ائدار وأفراد أسرته يكرمون وهاثنا في كل لحظة ما انشعروا بأنفسهم ولا بمصهم فقط كانت تجربة جذيرة بالاحتفاء في زمن تشابكت فيه الأمور

في تلك اللحظات وصل بعض أهلهم من باريس - أسرة كاملة معظمها من النساء كن سيدات مثقفات لسان وحفريات، هردانت لدار بهن وامتد بعد آخر من الحديث تناول أحوال الوطن وأخباره التي لا تني تحبط الأمل، إلا أن ذلك المحصور الرائع أصاب شجعة في لدجة الحالكة وأفسح حيراً لأن تنوق إلى فجر حديد وهكذا تقاربت تجربة لروائي الطيب صالح بما لقيناه من أهل تلك القلدة من كبد الوطن.

13 يونيو 2000م

ذاكرة السودان المتنقلة

الطيب صالح

كتب محمد بن عيسى المثقف والوزير المغربي كلمات طيبات حبايات معجبات عن صديقه الكاتب الروائي السوداني الطيب صالح فقال «سيد الطيب هو ذاكرة السودان المتنقلة، يحفظ لكتبه وشعرائه - رجاله على الأحرص - يحسن لوعده الأم ويحسن بأحسانه تشرق وهو يتحدث عن السودان، مجالسه التي يستعجلها هي مجالسه مع السودانيين، من حيرة مفكرها وعلمائها ممن عرفت، ولكن لطيب صالح هو بسان كل الديب، يستنسخ الثقافات، ويقرأ لكل الكبار وفي مقدمتهم لإبخلير سيدي الطيب يحدثك عن أي أمر، إلا عن نفسه وأعماله. ويحدثني عن كل الأمور بما في ذلك نفسه وأعماله، تحدث مرات هاتفا بين واشنطن ولندن للتصوير بحلن تكريمه في أصيلة، شيء لا يصدق، في كل مناسبة كنت أشعر بأن الطيب صالح كان يتهرب في عفوية العمل أو امتعاض لعداء، ثم يستنسخ فط فكرة تكريمه، فلا يراجل والله لا استحق التكريم، هناك عيري من يستحقونه، كان يردد لي ذلك كلما فأنحته في الموضوع حتى أحسست فعلاً أنه لا يرغب وأنه فعلاً غير قادر على الرقص، وصارحته بذلك واعترف، وأحيراً رصع»

لخص محمد بن عيسى رأيه في ذلك الرجل بقوله «هكذا هو سيدي الطيب الحشوم الوفور المتواضع المتكشف، البسيط، الإنسان المسالم بقلبه ووجدانه وعقله ونصرفاته وقلمه»، لا جدان فيما كتب هذا المثقف المغربي.. فالطيب صالح هكذا وبزيد..

صلاح أحمد محمد صالح الشاعر والدبلوماسي السوداني المعروف راسل

الطبيب صالح هي المرحلة الثانوية بوادي سيدنا إلا أنه لم يتصل به عن كثب وفي لندن إلتقيا حيث عملاً معاً في هيئة الإذاعة البريطانية توجس صلاح في بداية أمره من قدرات ذلك الصني الرهيف العادم لتوه من الحرطوم وحاف على سبعة السودان إلا أنه بات يدهشه في كل يوم بجديد ويشير إعجابه، فقد حقق في إذاعة لندن ما لم يبلغه سوى قلة من السوايح فقد كان المديع اللامع د الصوت انداقىء لودود والذي يشد الأذن والقلب معاً، حين يقرأ حديثاً تشعر وكأنك تستمع إلى صديق تأس إليه، يحدثك من مقعد مريح مقبل وأنتما تجلسان حول مائدة،، وحين يدبر حواراً يسحر صيفه بقدر ما يسحر المستمع،.

نال الطبيب صالح مكانة اجتماعية وأدبية سامية في مجتمع الإذاعة وأروقنها ومندياتها، ويذكر صلاح أنهم اعتادوا الجلوس خلال ساعات العمل في كافيتريا الإذاعة وكان يدور نقاش حدي يتناول مواضيع شيسية وأدبية في شتى الفصايا يشرك فيه عرب من جنسيات مختلفة وبريطانيون وآخرون وكان أكثر ما يبههم وهم يستمعون إليه بلاحته وتمككه من الكلمات عربية كانت أم إنجليزية وحق ثقافته وسعة إطلاعه، كان يحاور البريطانيين في أدب شكسبير وتيسون ولورد بيرون وميتز جرنيد ووزبورن ويحاور العرب بالعمق والتمكن دانهما في الأدب العربي من عصور دي الرمة وأبي نواس وابن الرومي والمتنبي مرورا بشوقي وحافظ وصه حسين إلى عصر نجيب محفوظ ويوسف إدريس وبنار قباني وصلاح عبدالصور وأحمد عبدالمعطي حجازي ويطوف معهم في بساتين بيرم التونسي وصلاح جاهين وعزاد حماد والمجدلو والعبادي وود الرسي . ويحفظ من أقوال هؤلاء وأشعارهم الكثير. يفعل كل ذلك بتواضعه ووقاره المطبوع

أما الدكتور عبدالواحد عبدالله يوسف فقد رأى الطبيب صالح إنساناً زكيً، بغزاد واسع صدر، عريز النفس، معتدل المراح والتفكير لا يجح شرقاً أو غرباً، يتحدث ببساطة وعمق في آن واحد وفي أدب جم ودعائة خلق أشبه سلوك

بصالحين، فيه من تصوف ابن عربي وصدق العراقي لشيء الكثير وفيه من
المنسى وشحمه وجرأته وقدرته على الإبداع الشيء الكثير أيضاً كان
يمتلي لا يزال من أحب الشعراء إلى نفسه، ولكن نصيب بعيد عن صلب
المتنبي وطموحه إلى السطة والجاه، الطيب إسماعيل بسيد غاية في التواضع».

في كتاباته غير الروائية - بالمعنى المحدد للرواية - يتحدث نصيب صاحب
جسماً أدبياً نجد صعوبة في تصنيفه فحين يكتب عن ذكريات أو تجارب أو رء
حول الناس والأشياء نجد متعة كأنها مريح من تدفق الشعر العظيم والبشر المعجم
والحكيم البارع المشوق. كأن ما نقرأه ليس واقعاً، أهى الواقعية السحرية كما
يتحدث السقادر؟ تلك قصة أخرى.

يصف زميلته في الإذاعة ليلى طنوس فيقول «مسيحية كالمسلمين، عربية
كالأوروبيين، رستقراطية كبات البلد تشربت حباً للغة العربية من الجامعة
لأمريكية في بيروت، ومن البستاني والعلالي ومازون عبود. فيها من رومانسية
جبران وجاذبية لبان. تتلمس الكلمات العربية وهي تحفظ كأنها قطع من عملة
أجنبية نادرة» وتحدث عن آخر يدعى صاحب محبس لندن فقال: «كان من
دمشق أو من حلب، جاءه يحمل درجة لذكوراه من السوربون وروجه فرسية،
كان حجة في نودر برهت من العرب، يحفظ منها قدر هائلاً، شعراً ونثراً، تعود
يعيش مع الفرنسيين لما رافقه بحية في لندن كان يكره الإذاعة ويحترق
لأوروبيين عموماً. كل الجهود لتعليمه الإذاعة بدأت بالفشل، مات بعد ذلك في
حادث سير في الكويت ويصف موسى المسعودي «لعله كان أحسن قارئ
أخبار. جاء من القدس، كريم مثلاً صريح هوان به مطلب واحد يحصل عليه
دون مشقة كان مريحاً عجيباً من العار والضعف، قابلناه في جنيف عام
1973، عبدالرحيم الرفاعي وأنا، وكان قد طلق زوجته الإنجليزية وتزوج هولندية،
وحصل على درجة الدكتوراه وأصبح أستاذ في جامعة بيرن نظراً إليه فلم يعرفه

لأول رحلة، فقد فعل فيه الرمن فعله، إلا أطلال وسامته للافقة للطر، وأصداء بعيدة من صوته الجميل». ووصف مدير الإذاعة العربية مسير حوردون ووترفيلد بأنه «كان رجلاً صحفاً بجميع المعاني، جسمانياً، وعقلياً وروحياً، فيه ترفع الأرستقراط وتسامح الفصاح ورحابة صدر لعورح كان يستحق أن يكون مديراً عاماً لهيئة الإذاعة البريطانية بأسرها أو نائباً في البرلمان أو سفيراً أو وزيراً، لكنه لم يكن طموحاً ولم يكن يبالى وكان يهضم شؤون القسم العربي الكبير بلا كبير جهد ويهرع إلى قلعة في إيطاليا خلال أشهر الصيف يقرأ ويكتب وكان مع وفاره صحوك يعجبه مزاج عبدالرحيم الرفاعي لأنه مصري، ومزحجي لأنه يعمل كرميل له في مهنة الكتابة، فقد كانت بعض تراجم كتاباتي بدأت تظهر في لندن تلك الأيام وكان يعجبه قول عبدالرحيم الرفاعي أن بريطانيا وطنه القومي، ساعراً بذلك من الرعم اليهودي بأن فلسطين هي الوطن القومي لليهود

والطيب صالح فأحبا القراء العرب والمثقفين المتابعين بصورة خاصة مفاجأة أذهلتهم في أواخر سنوات الستين الماضية حين صدرت أعماله وانتشرت وما فتئت حديث كل سنان وبغية كل قلم وهكذا ملأ الدب وشعل الدس، فأعماله قرئت في عشرين لغة حية وإلى جانب العربية تُرجمت أعماله إلى تسعة عشرة لغة هي الإنجليزية والفرنسية، والألمانية، والصينية، واليابانية، والروسية، الإيطالية، والإسبانية، والهولندية، والتركية، والبولندية، والروماني، والبلغارية، والسلافية، والتشيكية، والمجرية، وبنماركية، والكورية، والعبرية، وتناولت إبداعه الأوساط الأدبية العربية والأجنبية بالدرس والتحليل واحتفت به أجمع حدود. كما كانت أعماله الروائية مادة للدراسة والأطروحات الجامعية لسبل درجات الماجستير والدكتوراه، حيث مع عددها ثمانى أطروحات لدرجة الماجستير وعشرات لأطروحات لدرجة الدكتوراه بالعربية والإنجليزية والفرنسية والمجرية، وهكذا تربع لطيب صالح بعمه الأصيل في قمة العالمية حيث حثرت بجدارته هذ أنكم الهائل من لعب البشر

أصوات

لا يزال أستاذنا الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه يتحفا بكل ما يصل إليه من إصدارات حديثة. يعمده إطلاع القراء على مستجدات الفكر السوداني ومتابعة الحركة الثقافية، ولا عرو فهو أحد سدنها لأرلين يحتفي بها ويقدرها بمستوى علمه فقد أشركنا في التمتع بالسهر الرائع الذي حرره صديقه الدكتور حسن أبشر الطيب وأصدره في مجلد جَدُّ فاحر أبيض يليق بجلال المناسبة وبمستوى ما خطه كبار الكتاب والأدباء، أصدقاء الطيب صالح وعارفو فضله بمناسبة ندوة السبعين.

كتبوا كثيراً عن الطيب الإنسان وسجاياه. عن نبيله ومروءته وشجاعته وكرمه المعاصر، عن تواضعه وبساطته، وعن دعاياته وروحه المرحية. وتضمن الكتاب أيضاً لقاءين مع الكاتب ومقالات نقدية في غاية العمق والتنوع والموضوعية شارك فيها نقاد عرب وأجانب.

الواقعي يتجاوز المتخيل

الطيب صالح

حين أشرت إلى المجلس الأدبي الذي برع فيه الطيب صالح بكتابته عن شخصية واقعية صحته زماناً وثقلت علاقته بها في عهد سابق - عمل لا هو روائي ولا من جس لتراجم - كتابة مباشرة حية عن شخصية واقعية فعدت ذلك وقد كنت أحسب أنني أعود وشيكاً لأقرأ ذلك النص وأغوص في أعواره لمعمره. فالطيب الروائي الموهوب ثم يجد كبير عناء في الكتابة عن المنسي كان في معمره كمن يتناول مادته من قريب لا يتلفت كثيراً ولا يتعمّل ولا يستدعي خياله فكل مواقف البطل كان شاهداً عليها بل ومشاركاً فيها ويبدو أن الطيب كان أبداً يتسلى بروايات ذلك لرحل العربي ويستمتع بتصرفاته لشاذة، وذلك بطبيعة الفنان الذي يسعد الحروح عن لمأثور حين كتب الطيب صالح رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال» ظل كثير من النقاد العرب أن مصطفى سعيد هو الكاتب نفسه بروي تجربته في ذلك المصائب الروائي العريد. والمثقفون السودانيون حسبوا البطل أحد أوائل الطلاب الذين ابتعثوا إلى إنجلترا وركبوا بصفة خاصة على الدكتور أحمد الطيب.. فتجربته غير بعيدة عن قصة مصطفى سعيد المثقف السوداني الوميم الذي يتروح من بريطانية تديقه الولايات - مثلما فعلت جين مورس - تتلاعب بعواطفه وتغشّل في التعامل مع عبقريته وتباليغ في الانتقام من هوائه الصغيرة وهي مقبيلات صحفية كثيرة نص الطيب صالح أن يكون لأمر كذلك فالإبداع ليس صورة فوتوغرافية من الواقع ومصطفى سعيد جمع في ذاته ملامح بعض الشخصيات ربما يكون أحمد الصيب أحدهم حتى أذكر أخيراً الأستاذ على

أصوات

أوسن فأعلن أنه هو مصطفى سعيد لا غيره.

كان المسي أعرب من الواقع بكثير ومهما شط بك الخيال وجمع لا يمكن أن تصور شخصاً واحداً يمكن أن يتميز بكل هذا النشاط والحركة والحيوية والتنوع. ويبدو أن لطيف صالح ثم يفكر في الكتابة عنه إلا حينما مات بصورة مفاجئة بسرطان الكبد مثلما احتفى مصطفى سعيد فجأة محلله استسالات حول حقيقة مصيره. وعندما كتب قان في مثل هذا الوقت من العام لماضي توفي رجل ثم يكن مهماً بموارين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواصمه، وأحبوه على علاقته، رجل قطع رحلة الحياة لفصيرة وثباتاً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه صوصاء عظيمة، حمل عدة أسماء، أحمد مسي يوسف، مسي يوسف بسطاوروس، مايكل جوريف، ومثل على مسرح الحياة عدة أدوار، حملاً وممرضاً ومدرساً وممثلاً ومترجماً وكاتباً وأستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرجاً، ولد على ملة ومات على ملة ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة وأسطبلات خيل، وسيارات رولر رويس وكاديلاك ومرسيدس وجاغوار وماركات أخرى، وحلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية فرجين بالولايات المتحدة وبيتاً في واشنطن ومطعماً وشركة «سياحة». هذه هي الصورة التي يندر بها لطيف صالح قصة المسي، وهي رواية واقعية من أجمل ما قرأت، بطلها قبلي مصري جاء يتعاون مع قسم لدراهم في هيئة الإذاعة البريطانية، حيث كان يعمل الروائي «سوداني»، التقى به وتوثقت بينهما العلاقات رغم الاختلاف الكبير بين شخصيهما فالعيب طبعاً رجل شديد الحياء، جرم التواضع، بسيط وزاهد كهوفي لا يسعى للظفر بالدنيا ولا يبحث عن الأصواء ومواقع محصورة - مثلما كان مصطفى سعيد - والمسي شخصية ديناميكية جريئة لائتاني مفعمة بالحياة جاء إلى لندن في عام 1952. لا يملك غير معرفته باللغة

الإنجليزية يستخدمها بسرعة في مختلف المواقف ويال بها مأربه ويحقق أهدافه عامر وتلاعب واستخدم «الأوبه» و«المهلوه» حتى يستهاع الولوح إلى جامعة يعربون ومن ثم انطلق في المجتمع البريطاني كواحد من أفراد.

وصف الطبيب صالح صديقه المسي بأنه كان مترهلاً بكرش صحمة ومؤخرة باررة- كأنه كرة شقت إلى نصفين- إلا أن وجهه كان يكسوه شيء من الوصمة، فلم يعدم ساء يحببه، «بعضهم كن جميلات فارعات الطول، يبدو قرما إلى جانب الواحدة منهن» تروح فتاة من أسرة إنجليزية عريقة يحدر أسلافها من سلالة سير توماس مور، الوزير الأول للملك هنري الثامن. فقام الدنيا ولم يقعدا بالنباهي والافتحار بأصهاره هؤلاء. اقتحم دارهم الوسيعة المكونة من طابقين فاستوى على الطابق العلوي. «هالدا مارلا أمرا ناهيا» وقلب تلك الدار رأسا على عقب، يستضيف أصحاب من البشر، ما كان يحظر على بال السلاء الأرايبب الراقدين في قورهم المعصمة هي أشراف إنجلترا أن يروا أمثالهم وحين يفتح لك الباب تزكمت روائح الموحية وكمومية والكوراع والمسقعة ثم يكتف بذلك حين أحس بقوة مركزه الاجتماعي فصاهر أسرة عربية موسرة أسبغت عليه كثيرا من معائنها وحرص مستفيدا من تلك التجربة.

مصطفى سعيد كان هجريا نابعا منذ طفولته قفر مراحل التعليم قفرا. كلية عربون القاهرة وأخير أوكسفورد، منذ البدايات الأولى كانت لغته الإنجليزية معجزة. بهرت أقرانه ومعلميه فلقبوه بالإنجليزي الأسود أصبح أستاذ في جامعة أوكسفورد ولا يرل في الرابعة والعشرين فتح له المجتمع الإنجليزي أبوابه فثم يهكر في المال والجاه، بل أحد يسمى نحو الحنس الذي ملا عليه أقطار نفسه كان يعيش حانات تشلسي وأندية هامبستد ومستديات بلومبري. يقرأ الشعر ويتحدث في الدين ولعسفة وروحانيات الشرق ويقد الرسم. يفعل كل شيء في سبيل إصطياد إمراة ثم لا يلبث أن يسرح بعيره باحثا عن أخرى من بين فتيات جيش

أصوات

الحلاص وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات العائيس واجتماعات أحزاب الأحرار أو العمال أو المحافظين أو الشيوعيين ينحل في كل مرة اسما محتفيا، مرة حسن وتشارلز وأمين ومصطفى وريتشارد. وحين عاد إلى السودان بعد قضاء عقوبة السجن لقتله جين مورس تسلس إلى قرية مسية في شمال وتزوج من فلاحه بسيطة ذلك بعد أن حلف وراءه أسطورة الرجل الوسيم لأسود المدلل في الأوساط لبوهيمية. قال عنه ذلك الاقتصادي الإنجليزي الذي يبدو أنه كان يفتته «إنه كان وجهة يحرصها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا في سنوات العشرين وأوائل ثلاثين يتظاهرون بالتححرر. ويقال إنه كان صديقا لورد فلان ولورد علان وكان أيضا من لأثيرين عند اليسار الإنجليزي كأنهم يريدون أن يقولوا أنظروا كم نحن متسامحون ومتحررون فهذا الرجل الإفريقي كأنه واحد منا تزوج بنا ويعمل معنا على قدم المساواة»

تعرف المنسي على مجتمعات الأدب والتي مستحداً صديقه الطيب صالح تارة، وأحيانا كان يفتحهم الميدان وحده مستعينا بجرأته وبعته الإنجليزية المطوعة وسكنه في شارع معروف في حي عريق ترفده العظمة التاريخية لأصهاره السلاء. ولم تعوره الحيلة للوصول إلى عالم صموئيل بيكيت المعنى تعرف عليه وصادفه وأصبح يذللته ويناديه به سام»

جاء المنسي مرة لطيب صالح وقال «أصلهم ناويين يتجوا فيلم عن «لورنس» تعرف من حيث مثل دور لورنس؟ لك عس في دور لعربي شاب، أما دور لورنس يفكروا في عمر الشريف، وأما ناوي ألش اندور المحرج حيكون ديفيد أحو تانمي، وتانمي وعدني يكلم أحوه «هكذا بكل بساطة وعموية كان المنسي يتصرف، إلا أن الطيب صالح قال إنه بقدره كان ممثلاً بارعاً في الحياة كان يمشل في الأدوار السيمائية التي عاباً ما يكون فيها «كوميكس» يستغرق دوره دقيقة أو دقيقتين، جرسون أو خادم، أو سائق تاكسي في القاهرة وكان رئيس قسم لراما في الإذاعة

البريطانية بحبه ويعضيه دور في أي تمثيلية يخرجها يستمتع بمعاشته وشتمه ويصرح فيه : يا واديا بن أنت طول الوقت عمال تننط وتترقص وأون ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تنهد الله يحرب بيتك ما تحط شوية من الأوبطة دي في الشغل !

لأن المعامرة الكبرى التي حاصها المسي كانت حين إستضاف مجلس لعموم البريطانيين في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم فاقص بالود المصري مقدس خدمانه، حجر هادق وتسوق وعبادات أطباء حتى بات بالفعل عضو في الود توجه إليه لدهوات بهذه الصفة وحين عاد رئيس الود لأسبب طارئة حل مكانه بطريقته واستأجر بدلة السهرة أو استعاره وتقدم ليحيى الملكة في صف طويل يقف وراءه محمد أحمد محبوب بقامته المديدة وسمته المهيب وقدراته العدة وثقته المعروفة. أحد المسي يتحدث إلى الملكة ويتحدث حول مهامها وحياتها العائلية وتربيتها لأطفالها. استغرقت المحادثة وقتاً سترعى الانتباه فتعرك دوق أدبره وجده من ذراعه يرفق ثم تمر المسألة كما اعتاد المنسي أن يخرج من لمأرق كالشجرة من العجين وهي أول صباح بعد المحادثة أحاط به رجال الأمن مزودين بكل صغيرة وكبيرة هنه وانهمرو بأنه عميل للمخابرات المصرية . بينما اتهمه الجاب المصري بأنه عميل لبريطاني. وبعد تحقيقات واسعة إتضح أن هذا الشخص إما أحمق أو مجنون لا يدري ماذا يفعل.

مصطفى سعيد المتحيل ظل طويلاً يشعله شاطئه المظلي والمسي الشخصية الواقعية إستخدم كل ملكاته وأساليبه ليصل إلى أهدافه، قال عنه الطبيب صالح إنه كان صديقاً دائماً على مائدة الحياة وحين التقى به لأول مرة حاول أن يرشوه بجوارب من نوع رخيص لقد استطاع الكاتب بقدراته انهضة أن يهزم المسي إلى عالمه الإبداعي الفريد.

6 نوفمبر 2001م

المجدوب.. بلود بمررعة الحرية



عثر المجدوب على فردوسه الأرضي في طفولته حين عاش فترة منها في مررعة عمى شاطيء النين ظلت تلامحه تجربته حول حياته بعد أن تركت فيها أثر لا يروى وجد فيها حريته التي تمّ تغيث أن صامت وتبددت لدى التحاقه بمؤسسات التعسف والتصيير.. التحرر والأوامر.. والنظام والانضباط.. دخل الخطوة حرياً باكباً وحين حاول الشبح تألفه بتصرات رماها به.. لا أنه لم يلبث أن استكان حين رأى حواراً مقبداً بقسوة ووقعت عيناه على عصا السلم المحوطة، لم يجد مفرّاً من الحفظ والمواظبة وأصياف المررعة لانفتاح تداعب خيانه وتشير فيه

حسناً دافقاً بهرمة الحصرة والحصاد وجمال الحيوان وحرية الطير وتلك الأعشاش المتقنة لصناعة وأصوات الليل عاش مع أقربه هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لم يكونوا يعرفون إلا الأرض والكد ولصحك والبساطة وقال إن ذلك كان عمراً حقيقياً له . حيث كانوا أحراراً وتعتمد منهم الحرية. وقد نشأت معهم تولوا تربيتي وخدمتي ولن أنسى حيواني صاهي أسية وأحاما الصور . ولصبر وفرح الله ممن كانوا يلودون بتلك المررة»

حلبت له انخرطوم حين إنتقل إليها صغيراً وأحس بجاذبية لها شديدة القسوة وعندما تدرج في المرحلة الدراسية شهد في كلية عردون التذكارية لوحات على جدران العصور. ذكر من بينها لوحة المونابيرا وذكر مستر ليس، الذي أنشأ أول جمعية للفنون شارك فيها مبارك رروق الذي كان يرسم وجوهاً حسناً بقلم الرصاص والحبر هاشم الذي كان يستخدم الأقلام الملونة والألوان المائية، وقد أحب مستر ليس هد ووصفه بالإبحليري الفاضل للإنسانيته وليس عريكته. كان المجدوب يتمنى لو كان رساماً. وقد بدل جهوداً جبارة لتحقيق هذه الأمنية، حيث أنه التحق بعد فترة طويلة - وقد تقدم به العمر- بالمعهد الفني ثم عاد والتحق بقسم الدراسات الإضافية. حيث تلقى دروساً في الرسم على يد السيدتين جريلدا لطيب وفاطمة عبدالفتاح، وحضر محاضرات في صندوق الفني قدمها الدكتور أحمد الربيع صغيرون وتحدث المجدوب عن أول معرض أقيم في السودان أقامه مستر ليس عام 1926 وقد رسم هو لوحات لحسابات أهله لبعض أصدقائه الذين رثوا بها منزلهم، إلا أن أفضل مشهد سي رآه وأعجبه في ذلك الرسم البعيد فقد حدث أمام الحفانية «دار الفصاء الآن» حيث وقف رجل «يردي جلالية دبلان لها ياقة كحلاليب لختمية» ويلبس عباءة مصممة لا حدقة فيها، أميل للمدانة، مجتمع الجسم، لو قمت إن لونه يبي لما كنت دقيقاً كان أنحصر فاتح الحصرة نصب خشبية مربعة لها قوائم

فرش عليها ورقة بيضاء ثقينة، ثبتها بدبابيس صغر، يرسم بقلم الرصاص امرأة واسعة العينين، مشلحة، وممتلئة وممشطة تتكئ على معدة، وتتحف فركة، حصرها بحيل وردفها ثقيل وأدهشتي قدرة الرجل في ذلك الزمن البعيد «البعيد». كان اسم ذلك الفن علي عثمان أو عثمان علي - ثم يقطع المجدوب الشك - إلا أنه كان مشهوراً وقتذاك. يقول به كان يعمل في مصلحة لسكة الحديد وقد انتشرت أعماله الملونة ملأت جدران المقاهي، «كان يرسم شيئاً حفظه حق». فهو يستعمل تسجيلاً دقيقاً. كان رسمه كشعر «الحقيقية» يحسم المرأة المحجوبة ويركز على مواضع بعينها، ويرى المرأة ولا يراها.. ويتحدث عن العذب والصون والكتمان فإذا جاءت الحرب صارت المرأة قالداً للأسطول أو عباً من الشم ومن العريب أن يستمر بعض الشعراء في هذا حتى الآن.

كان الفنان جملاً بأم درمان يفعل مثل ذلك. وقد اهتم برسم المرأة بشكلها التقليدي لتاريخي ذلك الذي يوحى إليك كأنها إحدى الكنداكات بشلوحتها وصفائرها وجمال تقاطيعها وامتلائها.

كان الشاعر محمد المهدي المجدوب يتحدث إلى لشاعر عبدالرحيم أبودكري في حوارية ثرية بشرتها لصحف في إحدى سنوات السبعين من القرن الماضي نجد فيها قدرات المجدوب في التعامل مع الشر وأظن ذلك الحديث كان مسجلاً- أي بلغة الكلام وليس بلغة الكتابة - وكُنّا قبل ذلك مفتونين بمقدمة ديوان «ار المجاذيب»، ثم بمقدمة «لشرافة والهجرة». ولما كنت قد سهرت تلك الليلة مع ملفات المرحوم عثمان حسن أحمد فقد عثرت على ملف يحتوي على بعض قصائد الشاعر ومجموعة من مقالات وكتابات ثرية فدخلت في عالمه الشري رعم محدوديته حيث لم يتجاوز بصع مقالات ومقدمات لدواوين شعرية

ومن أفضل ما جاء في تلك الحوارية رأيه القدي في الشاعرين شجاني يوسف

شبير، والناصر قريب الله، وذلك حين سأله أبودكري عن لأساس الموضوعي لتفصيله الناصر على التجاني فجاءت إجابته بسيطة وسهلة، أقرب إلى الملاحظات العابرة من النقد الصارم المحدد إلا أنها مشحونة بالدلالات والمهم العميق للجمالية الشعرية وحساسيتها فقال «التجاني شاعر عظيم خالد، وقد كنت ذكرت في مقالة سابقة أنه لم يكن متصوفاً بل شاعراً حسيّاً ولكن ثقافته وثنائه في أسرة دينية أملت عليه مظاهر صوفية انعكست على شعره وحين حاول الخروج على مستوى شعري آخر رماه النقد بالعموض ونقد كان يجيد ما يعرف بحادة متفردة . لقد حاول الصورة الشعرية ولم يستطع الإمساك بها . كان يحاف من الحياة . ومن الذي لا يحاف من العجز والضرورة . خصوصاً إذ كان عازي الأعصاب كشاعر العظيم التجاني مليئاً بالمرارة، عالماً بأنه عظمي صانع وقد كتب شعراً ينحصر لا يضارعه فيه أحد وشعره الذي تنعكس فيه ثقافته لدينية كان حديث حيران مع نفسه . يريد أن يعرف موقعه في العالم ومصيره . كان يحرص في أهماق نفسه ويستجلي حواطره ويتأمل عزلته في ثقافته وينشهى . أما الناصر فكان يحيل عينيه حوالبه في شجاعة من لا يبالي بالعواقب، ويعبر في جرأة وسماحة وقد شهدته في أيامه الأخيرة فلم أر أشجع منه ولا أكثر تعالوا وإيماناً بالحياة ولت أن تقارن بين أشاعرين العظميين في شعر الطبيعة، وهذا باب به خطر في الشعر التصويري . نعم أرجو أن تقارن بين قصيدة التجاني في توتي وشعر الناصر في طبيعة غرب السودان سوف يتبين لك أن التجاني كان ذكياً بليعاً والناصر فناناً ذا قدرة على الحق . وكان التجاني شديد الاهتمام بشعره عاكفاً عليه عارفاً بقيمته مدافعاً عنه متعرباً بأدعاء الشعر ولم يكن الناصر هكذا فقد كان الشعر عنده يحفظت بعينها حقاً ويمتدح فيها بالطبيعة والنس . ولم يتمرغ للشعر وكان صوته ناصعاً مبيكاً بالوداعة والعدوبة والمصعب والفرح أيضاً وكان التجاني هادئاً صافي الأسلوب في شعره . متمرد في هذه الناحية مع تأثره بشوقي، وليس هذا عيباً وغيره من الشعراء كان

كذلك، خصوصاً حمزة الملك طمبل وصاحب الشاطئ، الصخري، وقد اشتهر التجاني في مصر أولاً ولعل قلة إمام إخوانا المصريين بالشعر السوداني في ذلك زمان كان سبباً في دهشتهم أن يكون مثل هذا الشعر قاله شاعر سوداني من أم درمان ومدارنا نؤمن بالشهادات من الخارج ولا أدري متى يرول هذا ويتولى أمر أدبنا بأنفس حتى يعرف سادات المبدعين حق المعرفة.

لقد تأخر نشر ديوان الناصر - وهو معاصر للتجاني - ولم يتأمله القراء كما ينبغي ولذلك أنكروا قوله إنه أشعر من التجاني وأعرف نغماً يشيدون بشهرة شاعر على السماع قبل أن يقرأوه. لقد امتد الناصر في جملته بإستقلاله وعجلته في كتابة القصيدة. وامتد التجاني بتصفية أسلوبه الناصبي في أبيات معدودات. إني أحب التجاني حباً لا يوصف. مع الأشفاق عليه والبكاء والاحترام والتوقير، كما أحب الناصر الذي صاحبه فترة غير قصيرة وأعيد نفسي من التحير لأنه لا ينبغي. وللناس رأي والتحير غير مقبول في أمر فني.. والحقيقة أن الشاعر نفسه هو الذي يحدد موقفه لقد رأيت رأياً رخصه الكثيرون قبل أن يقرأوا الناصر قراءة حقة.. ولا عجب فقد هاجم أشياخنا - حماة اللغة - حمزة الملك طمبل قبل أن يفهموا قصيدته.

في محاضرة قدمها لقد سوداني مفرح قبل أشهر قليلة بالمجمع الثقافي بأبوظبي وصف الشاعر المجدوب بالمجون ويقسي أنه قد نحى عليه وأفرط،

والرجل كان محباً للحياة مقلداً عليها شديد الصراحة والسحرية من نفسه ومن الآخرين. وقد رأي البعض أيضاً أنه قد أسرف في حسنه عندما وصف تجربته في الحب في قصيدة «انطلاق» بإد قرأنا ما قاله عن نفسه يرول كثير من اللباس «هل أنا متصوف؟» لا أعرف كيف حُلّت الصوفية علي، قال الأستاذ عبد المجيد عبيد إني شاعر لتأمل الحسي وأنت ذكرت الوثنية.. أم

١ - حسين منصور الشاعر المصري الذي أفلام بالسودان مدرساً

قصة القضاء عدي هي الحث عن إسان سوي أما الحسبة في قصيدة «الانطلاق» فقد قلت لك إنني عشت في مررعة على شاطئ ليل قبل دخولي إلى الحلوة الصارمة- المطهرة

وعندما قلت إلى الجنوب استعدت حريتي الأولى تلك. لست صوباً وطريقة مشيحي هي شذلية ولا يعهدون بها إلا لحافظ مستقيم عفيف ولكني كنت أميل إلى حلقة القادرية ذات لطول والسوت . ثقافيرهم ورقصهم وهو يعيه إيقاع حلقة الذكر والكثير في الجريرة . وعجبت كيف طال بحثنا عن أمر العج وأدركهم باقية في هذا الرقص والإيقاع . وتعرف انتشار القادرية في الصعيد، ولعلك شهدت حلقاتهم هناك . دراويشهم يلسمون الودع والجلود . وقد بقيت في قصيدتي «انطلاق» نفسي من العرب شعفاً بجمال الجنوب وبساطته وقوته وعلمه المباشر بالحياة.. وقد عدي أحد لنقاد المصريين من الشعبويين والأمر لله من قبل ومن بعد.

26 مارس 2002م .

رسائله إلى ديزي الأمير

محمد المهدي المحذوب

تحدثت لفنائة الإنجليزية رورماري عن الشاعر السود بي محمد المهدي مجذوب قائلة: إنك لا تعرف مدى تأثير هذا الرجل عليّ. إنه يمتلك جوانحي واستلب عقلي.. لقد قتلتني وأنا أحشى أن أركع أمامه حين لقاء فهو أشبه بالقدوسين. سكن في داحله بركاب، ورغم أن صورته حلوة هادئة، لكن ابتسامته ساحرة. لقد أبغضني أنه تعلم بالسودان.. ولكن يبدو لي وكأنه يحتوي العالم بين يديه. إنه قوة جارفة. ماذا أفعل؟ كانت تلك لفنائة لم تلتق بالمجذوب بعد إلا عن طريق رسائل حارة ملتهبة محتشدة بالمعرفة والتأمل والفكر العميق.

كان المجذوب قد كتب إلى صديقه علي أبوس يطلب منه أن يختار له امرأة تكافئه «أريد امرأة تكتب إليّ. بين الثلاثين والأربعين. تكون أما وحيية. عرفها بأحزالي جميعاً والأمر جد ولا يحتاج إلى مزيد من الشرح ويحسن أن تكون وحيدة محرونة مثلي (تصوراً) تحسن الكتابة والوصوح والصرخة، وتكون ذات فهم عميق. عسى أن يفهمي ذلك هي تنظيم نفسي. أحذر لك أن تكون قبيحة أو سميكة أو عجوزاً ولا فالويل لك، أريدها ممشوقة خفيفة اللون رؤوم وأسكتب إليها لن أحشي عنها شيئاً ألا ترى في خطابي إسي هي حالة سيئة جداً. أحد المجذوب يكتب بانتظام إلى الأنسة رورماري في سدن بلعته الإنجليزية المرحمة حول الأدب والفن والفلسفة والأخلاق وعن سيرته الذاتية وأطباعاته العابرة جداً ومارحاً. ساحراً ومتبرماً. لا يتعذر ردودها غير المنتظمة إلا أنه بات يتحلل داتها ويسمو في شر يسها بطريقة أودت بها إلى نهاية مأساوية.

كثت ديري لأمير الحكات والقصة العراقية في مجلة «انتقاد» العدد (78) الصادر في في ديسمبر 1994 تشكو بمرارة من تصرف الناقد المصري رجاء النقاش فيما يتعلق باستيلائه على مجموعة هائلة من الرسائل طُلِّبَ بيعت بها المجدوب إلى ديري - حيلة سنوات - احتشدت بكل تجاربه وملاحظات في مختلف مجالات المعرفة وتأملاته وآرائه في الحياة في الناس بلغت الشاعرية الأسرة

كانت ديري الأمير قد لتقت بالمجدوب في بيروت حينما كان غائباً من مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في القاهرة في عام 1964 وكان ذلك أثناء مأدبة عشاء أقيمها الملحق الثقافي السوداني المتميز صرار صالح صرار بعدد من الأدباء. كان المجدوب - والذي كان أميناً عاماً لاتحاد الأدباء السودانيين وقيداً - نجم تلك ليلة بلا مزارع بلطعه الذي شمل كل الحاضرين وبحديثه لشيق وثقافته الواسعة ولباقته المعهودة.

ومن جانبها وُجِّهت ديري لأمير - التي كانت تعمل بالسفارة العراقية في بيروت - دعوة أيضا بعدد من الأدباء من بينهم صرار والمجدوب الذي مدد فترة مكوثه بالعاصمة اللبنانية.

بعد عودته إلى الخرطوم بدأ المجدوب يبعث بالرسائل إلى ديري الأمير التي لم تشأ أن ترد عليها لإعتبارات كانت ترها، منها سلوكها المحافظ المتمرت الذي يرى في الكتابة إلى برحان خروجاً عن مألوف التقاليد إلا أنه التقى بها في القاهرة عام 1968 خلال انعقاد مؤتمر الأدباء وعانته بمودة ولطف وتواضع، ومن ثم طبت أن سيل لرسائل سيقطع إلا أنه يدفع بأقوى مما كان وفي العام التالي إعددت أعمال المؤتمر في بغداد وكان ماحراً جداً أوصى عليه التوزيع روماً بالإصافة إلى كرم الاصفاة العرفية الذي أراح لمن أراد من الأدباء البقاء في بغداد لفترات طويلة، وظل أحداث ذلك المؤتمر مادة دسمة لرسائل المجدوب بعد عودته إلى السودان فكان يكتب إليها عن لأدباء لذين راقوا له

أصوات

والدين لَمْ يعجب بهم بأسلوب راقٍ ومهذب. كما كان يكتب عن تجارب طفولته وشبابه وصحاله السياسي مستقداً بمرارة الجواب السلبية في وطنه.

لَمْ لَمْ يلبث أن بدأ يكتب إليها عن حياته الخاصة وعائلته وصيفه وتبرمه بتقاليد إجتماعية لا يؤمن بها. أدركت ديري الأمير عمق شاعرية المجدوب وصدق تجربته وروح الصداقة التي يتحلى بها. إلا أنها كانت تتساءل عن سبب إختياره لها ليس عن همومه الدنية والعامة، وما يحتلج في أعماقه من إهتمامات سياسية عالمية ومحلية وثرائية وشخصية وعاطفية. وعندما علمت أن بعض صديقاتها يتلقين رسائل مماثلة من المجدوب تخففت قليلاً من حساسها بالمجدوب.

كانت ديري الأمير قد تعرفت على الناقد المصري رجاء المقاش وشأت علاقة وثيقة بين عائلتهما. والمعروف عن المقاش أنه كثير الإهتمام بالحياة الخاصة للأدباء وخاصة أولئك الذين يرغب في الكتابة عنهم. وكان يلح عليها أن تظعه على أي رسائل تلقتها منهم وكانت لا تلبس رغبته ثلث حتى لا تكون طرفاً مع من يتناول سيرته، وهي ذات مرة طالبتها بالتعديد برسائل المجدوب وألح عليها حتى رصحت على مصر بعد أن تحدث عن الظلم لدى حاق بالشاعر ولم يجد من يكتب عنه ما هو جدير به. كانت ديري الأمير تحشى أن يتعامل المقاش مع رسائل المجدوب كما فعل مع رسائل أنور المعداوي الناقد المصري الراحل التي سلمتها إليه الشاعرة الفلسطينية فدوى طوفان، ويبدو أنه كان قد علق على رسائل المعداوي بصورة لم تسر الكثيرين ممن همهم ديري الأمير.

استمرت رسائل المجدوب تترى على الكاتبة العراقية حتى رأيت أخيراً أن ترد برسالة قصيرة مقتضبة للشاعر تشكره على لفته بها وتزجي بحياتها لزوجته وأولاده الأمر الذي أثار حفيظة المجدوب واعتبرها إهانة وواصل كتاباته لمكتفة متناولاً هذا الموقف.

بعد وفاة المجدوب أسأف النقاش اتصالاته البريدية والهاتفية بطالب بالرسائل التي بانت نحشى عليها ديري لأمر من الصباغ في البريد بأن الحرب الأهلية اللسانية وأحيراً استطاع الشاعر بلد الحيدري، أن يقع ديري الأمير بعد أن سحر من محاورها- بشحن تلك الرسائل إلى رجاء النقاش عن طريق العاصمة البريطانية لندن تسلم النقاش الرسائل وكتب يشكر الكاتبة العراقية إلا أنه ظلّ يحتفظ بها منذ ذلك الوقت الذي امتدّ حتّى الآن إلى أكثر من ربع قرن دون أن تشر في أي شكل من أشكال الكتبة أصبح النقاش يتصرف بصورة عريضة منذ ذلك لحين مع ديري الأمير التي قطع صلاته معها وروت لكاتبة أنها عندما عادت إلى بغداد في منتصف الثمانينات التقت به مصادفة في بهو فندق الرشيد وسدت عليه المسافة حتّى لم يستطع أن يتفادها. ولكنها تأدياً لم تتطرق إلى ما بدا من تصرفاته ولم تعاتبه رغم الصداقة الوطيدة التي كانت تسمح لها بذلك. ووجهت إليه دعوة لشؤون العدة أو لعشاء موعد بالاتصال لتحديد موعد في دار برنامج زيارته.. إلا أنها فوجئت بمغادرته بغداد صبح اليوم التالي مباشرة إلى القاهرة.

أحسّت ديري الأمير بالإحباط والدم الشديد لتعريضها في رسائل المجدوب وعدم استئذنها للاحتفاظ بالأصول لأنها أرسلت إليها هي ولم ترسل إلى رجاء النقاش الذي حثّ بوعوده ولم يوطع تلك الرسائل في الكتانة من الشاعر السوداني.. بل ظلّ يلوذ بصمت مريب محتفظاً بأشياء لا تحصى

حين قرّرت «دار الطليعة» نشر رسائل الأدباء إلى أصدقائهم كتب الدكتور بشير الداعوق إلى ديري لأمر يطلب منها إرسال أية مجموعة تمتلكها فأشارت إليه أن يتصل برجاء النقاش ليرسل إليه مجموعة المجدوب التي استولى عليها ولكنه رفض أن يرد على الداعوق. وظلّ الأمر كما هو حتّى الآن. ويبدو أن هذه الرسائل ستصبح إلى الأبد ويصبح معها تراث ثري لا يقدر بشئ من يدع أشاعر المجدوب.

أصوات

كان لمجدوب يمتلك طاقة عاطفية هائلة وكان صديقاً وارف لظل يحيط
بسمه بالأدباء والمثقفين - وخاصة اشبال منهم - ينتقي بهم في جلسات طويلة
تحفل بدعابته وتعميقاته الساحرة ومرحه المباح إلا أن المرء كان يلاحظ فيه
حرناً ديباً وتبرماً بالوجود - لذي كان عميق الإحساس به - تجلى ذلك في كثير
مما قال في لقاءات ومقالات صحيفة.

كان يصيق درعاً بردي لأوضاع السياسية وفشل لرمات ويدي قهوطاً وبأساً مم
يحيط به من تقاليد متحلقة. ويبدو أنه كان يربح في سديد يأسه وحره بالكابة إلى
بعض الذين يأس إليهم ويهمو.

• قرأت في وقت لاحق في إحدى الصحف اليومية مقالة للكاتب النقاش
حول الشاعر المجدوب

الائق الأهريقي واللغة الباهرة

جمال محمد أحمد



كتب جمال محمد أحمد بلغة ذات ألق وبهرة . كانت معرداته تأتي جديدة كأن لم يكن يتداولها الناس ولم ترعرع بها المعاجم، كان يشحن كلماته بدلالات جديدة تحتصن في يسر أفكاره ورؤاه فيتلاشى الشكل في المحتوى فيبرر نص إبداعه محير .

جمال كان عجباً متمهلاً في كل ما تجده عنده، وصف مرة محمد إقبال الشاعر الباكستاني العظيم فقال «عدوية مصادر لهامه أعطته قدرات على ليسر، أيسر الألفاظ تأتيه طوعاً، لا يملكها إلا من ندر نفسه لحرف، في شعره وضوح وإبانة- كان يحيا رؤى التجاني، و«عبدك يا جمال»، وكان يحيا مذاق المديني «هل حباك الإله بالحسن»، كأنه يصف نفسه حين يكتب عن إقبال بلا شك فقد كان جمال يتقرب الكعبة بيديه بتحسسها كأنما يعرج صليلاً وبشكل حين ترجم «أفريقيا تحت أنصواء جديدة»

لنازل ديميدسون ترجمة تحرم بأنها أعشى أسلوباً من الأصل. أضاف بها إلى إسهاماته الكبرى في الحياة الثقافية. تمسيت لوقراها جميع الناس. كتابة تثرى الوجدان وتعمق الإحساس بعظمة أفريقيا. الكتاب يتناول أفريقيا جنوب الصحراء لا إشغال العربي يجد السودان فيه نصيباً تاريخ مروي الذي هو نقطة الانطلاق لتاريخ حضارة القارة تقرأ وتسمى ألا تفرغ من مهالعة ما تراه عيناك، يجسد المعاني فتتفجر الكلمات لتلف الأحاسيس جميعها كأنك ترى وتلمس وتسمع وتشم الشدى والعبير بذلك المعاصي

الثريد

كان صاحب وعي أفريقي مبكر عاصر في وجدان أفريقيا وكتب عنها بمحبة ووداء استعرض كثيراً من تاريخها ورموزها من المعظماء كما لو كان شريكاً في الذي حدث. جاء من أقصى الشمال وابتحق بكلية عردون وشارك في حياته الثقافية والاجتماعية وأصبح رئيساً لروساء الداحيات فيها، وعندها تخرج عمل بالمدرسة الأهلية الوسطى بأم درمان وتحدث حي بيت المال سكناً

كانت الحركة الوطنية في بواكيرها وفكرة مؤتمر الحريجين تراود المثقفين فانغمس في ذلك النشاط وشارك في إعداد التصورات الخاصة بأهداف المؤتمر وأبدى نشاطاً لعت الأنظار واستصاع أن يموثقة الجميع ولما بدأ العمل بتشكيل اللجنة التمهيدية تم إحتباره مقررًا لها كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ولكنه أدى المهمة بكفاءة عالية وبال أعجاب الحريجين جميعهم وشاءهم

كانت مدرسة أبوروف الفكرية التي تطورت فأصبحت قيادة بحرب الاتحاديين هي أقرب المدارس الفكرية إلى نفسه وقلبه فقد كان صديقاً لجميع أعضائها، يلقيهم ويشارك كثيراً في نشاطهم وسكبه ثم يستظم فيها عصراً كامل العصوره كما أنه لم يكن عضواً في جماعة القوميين رغم ما كان يربطه من صداقة بجميع أعضائها ولم يصو في عضوية الحزب الوطني الاتحادي، وفي الوقت نفسه لم ير بأساً في قبول وظيفة امترحم للجمعية التشريعية التي عارضها الجميع عدا جماعة الاسفلانيين كان لا

يقيم كبير وزن للظنون ولأقوال يفعل ما يريد بلا مجاملة ويصرف بما يقتنع بصحته، كان يحب أن يطلق جراً حملاً مكره ورؤاه

قال عنه الصيب صالح إن حديثه كان ودوداً وحريفة عجيبة في حديث ينسج علالة رفيعة من النجبة ويخلق مساحة من الإلفة يستحضر أصدفائه المعائبين ويداعب انحصارين ورغم حرارة علمه وتوقد ذهنه ورخابة آفاقه لفكرية فانه لم يكن يتحدث عن ثقافته والأدب إلا نادراً، وإذا فعل يلفي إيحاء بالفكر العميقة جراً في نديا كلامه العادي كان إنساناً جدياً إلى الدرجة التي باتت غير قليل من حواريه يتسبون طريقته في الكلام والتمشي والسلوك . كان في سلوكه على سجيته لمام لا يفعل شيئاً لا تألفه نفسه وحتى عندما كان صغيراً لم يكن يفعل ما يقوم به السمراء عادة، من محاملات كاستقبال في المطار وزيارة المرضى في المستشفيات، وقد تم تعييبه في سدن ثلاث مرات، في كل مرة يحدث شيء يقطع عليه إقامته، وفي المرة الأخيرة جاء أحد الوزراء في زيارة خاصة فأرسل من يستقبله في المطار ويدبر أمر إقامته بأحد الصداق واكتفى بذلك ولم يره ولم يسأل عنه وعاد الوزير المحطير إلى الخرطوم عاضباً وأتبع الحكومة بعزل جمال من منصبه¹، ويستطرد الصيب صالح في حديثه الصبي عن الرجل ويقول «كان جمال سبيح وحده بأدق معاني بكلمة، في حياته وفكره، وكان أسلوبه في الكتابة من الأساليب المميزة في الأدب العربي المعاصر يمكن أن يوضع جنباً إلى جنب مع طه حسين وأحمد ركني ومصطفى صادق الرافعي والمازني والمصري والمصري، إذ كتب خلق عالماً طريفاً مذهشاً تتماوح فيه الأصواء والظلال والابتسام والسخرية والفكر والأحاسيس شأن كل أدب عظيم»

أما رويس هودجكن² فقد كتب مقالة جاء فيها "كيف تأتى لجمال محمد أحمد أن يجمع ككاتب بلاطعاً لا يشق له عيار، ودبلوماسي ناجح، ومستشار حكيم لعدد من رجال الدولة من الإنجليز والسودانيين؟ لقد كان رجلاً أنيساً ودوداً بكل من صحبه،

2 ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي، صحيفة الأحداث 6 فبراير 2011

أصوات

وروي قصص عظيم الموهبة كان يروي القصص نمتعة والحكايات المشوقة وهو يقد من يحكي عنهم بحركات تمثيلية تكشف عن شخصياتهم ونهايتهم، وتثير عند مستمعيه ومشاهديه الضحك والسرور والتأمل أيضاً كان بجمال أصب ميرة عظيمة أخرى ألا وهي قدرته الفائقة على الإحساس بالمتعة عندما يسعد الأطفال ربما كانت تلك الصفات محبوبة في دواخل الرجل، بيد أنني أراهم أنها أصبحت تدمأ في مسوته لأخيرة في إنجلترا، خاصة وهو يدرس على يدي لروفيوسور السيدة قبل في جامعة إكسترا

لقد أنرى جمال محمد أحمد بحياة الأدبية والثقافية بعدد من المؤلفات ونشره في مجالات الأدب والفكر والدبلوماسية ونشرت له عدة كتب منها «مطالعات في الشؤون الأفريقية» (1968)، و«سالي فوجهر» (1970)، وهي المسرحية الأفريقية» (1971)، و«وجدان أفريقيا» (1972)، و«عرب وأفارقة» (1977) وهي الدبلوماسية السودانية» (1985)، و«الجدور المكونة لدقومية المصرية» - باللغة الإنجليزية (1961) كما صدر له ضمن كتاب «بحوث أفريقية» «عنصر اندهي في ليفة الجرائية» 1967 بكلية نعلو / أكسفورد وبحث متميز عن العلاقات العربية الأوروبية (صدر عن مؤسسة كوراد أدبناور، بون (1982)، وأصاف للمكتبة العربية معرباً «الدوة الاتحادية»، مادي وجاي وهامتون (1959) وكتاب بارل ديميدسون «أفريق تحت أصواء جديدة»، (1961) وله ولايات اسيل المتحدة والثقافة الأفريقية المعاصرة» عمل جمال مكرتيراً بدر الثقافة ومستشاراً ثقافياً لمجلة «حور»، وعصوا بهئة مجلة «التاريخ الأفريقي المعاصر»، وعصوا مؤسساً لمركز الدراسات لوحيدة العربية ومحطط ومشارك في الكتبة لمحلة «الصبيان» السودانية في لفترة ما بين (1946-1949)، وعصوا مؤسساً للموسوعة لأفريقية (1962)

وكان جمال قد تولى سكرتارية الهيئة السينية لمؤتمر بحريجين عام 1936 وقد تميرت مساهماته في مركز دراسات الشرق الأوسط «هرد» ومعهد الدراسات

الأفريقية والآسيوية «السودان» والمعهد الأدبي لدراسة اللغة العربية

ولد جمال محمد أحمد في عام 1915 في قرية شرق إحدى قرى وادي حلفا التي ابتعثها النيل، وقد بكى عليها كثير وتجمع وراثتها بمشاعر صادقة ثم أطلق اسم قريته هذه على داره الجامعة بالخرطوم إحياء لذكراها

وبعد أن أكمل تعليمه لأولي والأوسط في قريته في وادي حلفا انتقل إلى الخرطوم ليواصل تعليمه في الكلية التي تميز فيها على أقرانه بالفصاحة والخلق القويم حتى أصبح رئيساً لرؤساء الدخليات. وبعد أن أمضى فترة من الزمن بالمدارس الوسطى في أم درمان تم نقله إلى معهد التربية ببحر لصح الذي كان يدار أنواب بلعمل فيه حيث شارك في تفجير الثورة لتعليمية في سنواتها اللاحقة. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية سافر في بعثة دراسية إلى بريطانيا التي عاد إليها لسنة الثانية لدراسات العليا في جامعة أكسفورد وعند عودته إلى السودان حثارته كلية الخرطوم الجامعية عميداً للطلاب وفي تلك الفترة -تسع نشاطه الثقافي والفكري فقدم المحاضرات والبحوث وأتلف الصحف السيارة بمقالاته العميقة وخاصة صحيفة «الأيام» حيث كان يمهرا بتوقيعه «عارف سعيد» وبعد استقلال السودان وقيام وزارة الخارجية ولح أبواب الدبلوماسية فأصبح سفيراً لبلاده في العراق وسوريا ولبنان والأردن وتركيا وبريطانيا وإيطاليا المتحدة الأمريكية وأثيوبيا، وبرز في تلك العو صم دبلوماسياً ناجحاً وأديباً معروفاً ومحدثاً معوها تحتفي به الأوساط الفكرية والثقافية في حبه وترحاله وتدرج في مناصب وزارة الخارجية السودانية فأصبح وكيلاً ثم وزيراً، كما كان أول رئيس لاتحاد الكتاب السودانيين

طلت حياته عامرة ثرية، داعى الحبوية متوقد الدهن يقرأ ويكتب بهم ويقبل على مسرات الحياة ويستقبل أصدقاءه ويسعدهم بعزير ثقافته وثائق فكره وبأرائه السيرة وروحته العذبة إلى أن وافاه الأجل المحتوم في عام 986. - عليه رحمة الله

التاريخ السودي في نصوص بورحيس



29 مايو 2001م

يعقوب المريص، اندي كان أكثر حكام السودان قسوة قصي نحيه في قصيره في اليوم الرابع عشر من فمر برمهات عام 1842 تاركاً البلاد لصراوة جبهة الصرايب المصريين، وهاك من يرى أن عبد الرحمن المسعودي قد قتله إما بالسم أو الخنجر.. وربما قصي بصورة طبيعية حيث به تسمى بالمريص. وقد روى المسعودي الاعراف للقبطان ف. برتون عام 1853 وقائع القصة فقال «إنه نتيجة بمؤامرات التي حاكها أخي إبراهيم- مع الوعود الكاذبة بالمساعدة للرؤساء السود هي كردون الدين صللوه- قاسيت لأمرين أسيراً في قلعة يعقوب المريص».

هكذا بدأ الكاتب الأرجنتيني المعروف حورخي لويس بورحيس قصته «مرآة

الحبره التي قرأت ترجمه لها بالعربية شرب أحياناً

لا سبيل إلى التعامل مع هذه القصة التي يتبسطها أسلوب بورخيس المتشبع بانواقية السحرية إلا بتجريدنا من البظرة النقدية التقليدية الصارمة للنص فاندې يدهش حقاً ونحن بصدد أن ليست سحرية النص، وإنما وفائعه التي جرت في منتصف القرن التاسع عشر وفي موقع جغرافي لا تحيطه موسوعة بورخيس مهما بلغ مداها.

يجعلك النص تتأمل في كيفية الوصول إلى تلك المصادر العصبية حتى على الباحثين المختصين - عن تاريخ السودان - وتوطئتها في عمل إندى بنسجه كاتب مثل بورخيس، ما الذي دفعه إلى تلك الممارسة وهو لذي ظل يتمتع من معين لثرت الأمريكي اللاتيني اعراق في ثرائه الأسطوري وثقافته المتعددة بالإضافة إلى التاريخ الأوروبي وتناسل أحداثه في واقع انثقافة الغربية المعاصرة.

ويتداعى بورخيس في قصة ذلك لعراف الذي أُلقت به المفادير في قلعة يحقوب المربص بانتظار الإعدام - بعد أن قُتل أخوه في ذلك الطلع الأحمر الدامي - لولا أن أسعفته الحيلة باستخدام قدراته في السحر الأسود بيلهي بها الحاكم، فجاء بقدم من القصب ودواء وكتب الرقي والعزائم (الخرات) وأحرقها مع الكبرية واللبان الحوي واستعمل المسدل ليرى الحاكم في دائرة الحبر التي صبها في كفه حيداً رشيقة ترعى في سهوب واسعة ومُدناً ومباحث وممالك وكوراً محفية وسعاً تجوب البحار وآلات حرب وساء فائنات وملوك مدعوسين في بطون الأهرامات وأشباحاً بشيب سودانية وأحياناً بيزات نظامية. وحينما رأى الطاعية في دائرة الحبر رجلاً مثلاً يقتادونه إلى الإعدام طلب من العراف أن يكشف له عن لفظه ليتعرف على الرجل التمس، وحين فعل رأى العرافية صورته والياف يهوي على عبقها فأعور ثم سقط صريعاً

قصوات

لا بد أن بورخيس القارئ الأسطوري والذي تحيل العردوس هي طمولته مكتبة ضخمة قد قرأ كثيراً من المصومس والتقارير التي كتبها الرحالة الأوروبيون لديس زرو السودان خلال حقبة تاريخية متعاقبة، وفي طلي أن الطاعية يعقوب ما هو إلا حكماء السودان أحمد باث أبو ود د، الذي مات في الخرطوم في عام 1842 ودفن في إحدى القباب التي مارالت شاحصة في وسط العاصمة قرب شارع المعصر.

كان أبو وداد شحصة طموحة حدثته نفسه بالإستقلال عن محمد علي واني مصر والاتجاه إلى لسلطان العثماني يستمد منه شرعيته، ذلك بعد أن وطد صلاته مع السودانيين، وقيل إنه بدأ بالفعل في مراسلة الباب العالي لتفيد خطته لولا أن عاجله الموت، الذي لم يكن طبعياً فيما ذكرت المصادر بيد انوالي كانت الأسرع بطشاً

استخدام بورخيس طلالاً مما قرأ في إنتاجه للنص، لم يعرق في تفاصيل لتاريخ ولم يتحرر دفته. فذاك أمر لم يكن يعنيه، ترك الأسلوبية والمباحات لعامة تسيطر على قصته. لا أنك تكاد لا تعطين نوعية تلك اصاحات. أصاليب لعرايين وكتابة «البحر» وصناعة المبدل فتبرر صبور في عابه المروعة والعربة حتى لنهاية الدامية للطاعية

الواقعية، سحرية مصطلح شاع في سنوات اثناس من القرن لعشرين وارتبط بشكل عام بالابداع الروائي لكتاب أميرك اللاتينية، وخاصة بورخيس والكلولوجي جارسيا ماركيز، وقد تجلت بصورة عميقة في قصة بورخيس «كتاب الأمل» واتسمت بها معظم أعمال ماركيز، وقدم كل من الألماني جوتتر جراس والامحيري جون فاولر والإيطالي إيطانو كانفينو تجربته الخاصة في تلك الواقعية التي تميز سحرها كل نص عن الآخر

وُلد لويس جورج بورجيس عام 1899 في بويس أبرس، وقد هاجرت أسرته في طفولته إلى إيطاليا ودرس في سويسرا، وأقن عذّه لغات وأبدي عبقرية باكرة منذ صغارته وفي مرحلته الأولى تأثر بالشاعر الإنساني الأمريكي وولت ويتمان مع اطلاع عميق على مختلف الاتجاهات الأدبية السائدة في الأدب الإسباني والأوروبي بصفة عامة كتب شعراً بديعاً أحاذّ وبّت أحد الوجوه الإبداعية اللامعة بعد عودته إلى بلاده نشر نصوصه الإبداعية في الشعر والرواية وأحد بهم أجيالاً من الكتاب والأدباء في جميع أنحاء العالم باعتباره مثلاً فريداً للإنسان الذي تصبغه الثقافة الواسعة، والتف حوله النقد بعناية واهتمام واعتبروه أسطورة إبداعية تربى وجه القرن العشرين وقد صدر أول كتاب مهم يؤرخ لمرحلته الإبداعية الأولى عام 1954 بعنوان «بورجيس والجيل الجديد» ثم صدر «الجيل لصانع» في العام نفسه أصبح بورجيس أستاذاً في الأدب الإنجليزي في كلية الفلسفة بجامعة بويس أبرس وفي عام 1956 حصل على جائزة الدولة وأحد بصره في الصحف وانتلاشي حتى أطبق عليه العمى الكامل في عام 1960 ولم يعد قادراً على الكتابة والقراءة بولا أمه التي ابرت لهاتين المهمتين سيدخل مصطفاً جديداً في تجربته لإبداعية

شجّد العمى رؤيته وشفاهيته وقدرته على العوص في أعماق الأشياء وشكل بدايته الحقيقية مما دعا صديقه لأديب العرسي جان بيير برس لأن يقول «في نهاية الحمسينات بيع بورجيس أوج يصحبه الأديبي بفعل حياته القاسية والصحف الصعبة التي سبها له العمى، إلا أن الطريف حقاً أن ذهب بصره إلى مستوى جديداً من الكفاءة وسدّت بأسلوب جديد حرباً أكثر حيوية، وذلك حين استخدم اللغة الشفاهية» وقد ما إلى السطوة ورسم صور شعيرات وألوان من الحياة العادية المميصة، وكأنه يستسلم لمسجين ملامح واقع رتيب هادئ وشفاف لدرجة يبدو فيها النص أحياناً صرياً من الوصف الخارجى المحايد والبريء

أصوات

والمعجم بالسلامة

سبق بورحيس في تناول التاريخ السوداني كمادة للإبداع الروائي جورجى ريدان الذي حاص تجربة ثرية جدية بالإعجاب حين قام بتوظيف التراث الإسلامى في إثني وعشرين عملاً روائياً ألهمت خيالها هي مرحلة الطفولة وعبأت شعور ووجدان أجيال من الأطفال العرب خلال العقود المتتالية بلقرن العشرين، وقربت إلى لأدهان أحداث التاريخ الإسلامى الممتدة من رعاية بأفغانستان إلى القيروان في الشمال لأفريقي فالأندلس وكان نصيب السودان منها روايتين هما «المملوك الشارد» و«أسير المتهمدي»، والأولى دارت أحداثها ما بين مصر وبلاد الشام والسودان فبعد مذبحة القلعة التي قصص فيها الواسي محمد علي باشا على معظم المصلين وفرَّ بعضهم إلى السودان سيّر حملته بقيادة به إسماعيل لفتحه ولمطاردة فلولهم كانت الرواية العربية في طهرتها وقتذاك مجرد بناء سردي وحبكة تعتمد على العقدة التي تفك من نهاية سعيدة لا شك أن لكاتب قد اعتمد على الروايات الشعبية هي تلك الحوادث وبعض التقارير المستورة الصعبة الصبغة التي كانت تأتي في شكل رسائل من السودان إلى مصر فالصحف لم تكن قد برزت إلى الوجود في القاهرة بعد، والأخطاء التاريخية كانت مدمجة وذلك حين تناول في نصه حادثة اعتيال إسماعيل باشا في سندي، فقد كان يظن أن الملك عمر هو رعيم الشايقة.. وجعله يقيم في قصر ويرتدي لباساً وصفاً، فهي غير تلك التي كان يرتديها شيوخ العرب السودانيون في أيامه

أما رويته الأخرى «أسير المتهمدي» فقد جاءت نصاً متماسكاً تورعت الأحداث فيه ما بين مصر والسودان حول الثورتين العرابية والمهدية، ويبدو أنه قد توهرت لدى الكاتب المصادر ولزوايات الشعبية والصحف التي رصدت الأحداث الأمر الذي جعل منها رواية كلاسيكية تتقيد بوقائع لتاريخ. إلا من

هذه صغيرة في ترتيب الأحداث والطريف أن أحد أبطالها كان هو حسن حبشي الذي عمل كاتباً للأمير عبدالحليم مساعد. ويبدو أنه كان موصفاً مصرياً في ديوان المديرية بمدينة الأبيض. وذلك قبيل اندلاع الثورة المهدية والواضح أن جورجى زيدان وجد في شخصية حسن حبشي - لدى عرّ إلى مصر بعد موقعة توشكى - مجعاً غني لرواية الأحداث كما أنه قرأت مرة أن جورجى زيدان عمل أيضاً في محاورات الجيش البرياني مثلما كان يقوم شقير، وقد صحت حمده لايقاد أيضاً أنتى عادت خاتبة بعد أن مأكدا لها سقوط الخرطوم في يد الثوار في صبيحة 26 يناير 1885. وهكذا نسي له معرفة الكثير عن تفاصيل الثورة المهدية وقلدها وقدم وصفاً تفصيلياً لبعض الأحداث تكاد لا تجد في معظم المصادر لتاريخية، الأمر الذي يمكن أن يشكل مادة مهمة للمؤرخين.

كتب جورجى زيدان كثيراً حول الأدب وتاريخ الإسلام بالإضافة إلى هذه المجموعة الروائية. إلا أنه لم يلم من سهام الناقدين الذين رأوا في تلك المجموعة افتراءات على الإسلام والمسلمين، ثم يطلق هؤلاء النقد من وجهات اسعر لأدبية ودمش الكاتب في لعربة لتطويع لأحداث حسب مجريات القصص، إلا أنني لا أرى فيها ما يشكل إساءة للمعتقدات والدليل على ذلك صدور طبعاتها عشرات المرات ولا تزال تحتل مكانها في جميع المعارض بمختلف العواصم لعربية والمعروف أن لرجل أصدر مجلة «للهال» في مصر عام 1892، ومارالت تواصل الصدور، عاش جورجى زيدان - وهو لبناني الأصل في الفترة ما بين (1861 - 1914).

مايس بوركا و خليل



في المكان الذي تحتته عمارة مريح بالخرطوم في وقت لاحق كان بلحوجة
سوري شيخ أمين مطعم و«كُتُب» يتكبر من عرفة وصالة وحديقة داخلية
صغيرة. كان هذا هو المكان الوحيد الذي يستقبل المثقفين السودانيين لفضاء
سهرتهم في عشرينيات القرن العشرين. فقد كانت مثل تلك الأماكن تقتصر
على الأحياء فقط، وفي هذا «الكُتُب» كان المادل ليوناني يبي شراكة خفيف
لطن، هذب الصوت ينعم بداء ته لطبات الرباش بالحن شجية أسرة احدر بها
من بلاد الإفریق لا ريب وفي سنوات منتصف القرن وما بعدها بقيل عرف
ناس مقهى شاكه مكاناً يرتاده المثقفون ولأدباء والصحافيون وطلاب
بجامعات.

وكان أبرز رؤاد «كُتُب» الشيخ أمين الشاعر ولسان حبيب فرح الذي كان

مغمساً حتى مشاش العظم في الشعر والعناء والموسيقى والعمل لوطني
يشرك بحماس في تأسيس رؤية جديدة لوطن يزرع تحت وطأة الاحتلال كان
عبقريه عدة بكل المقاييس جاء إلى الخرطوم من فريته دبوسة في الشمال وهو
في عصارة الصبا بل لم يرح مدارج الصنولة بعد شاعراً بطم بلعته «سوية في
«سيدات» وحسما ولج كلية عردون التذكارية بقسم ورش البراديين بلغ صيته
مدية أم درمان فتحرك شعرها لسر عور ملك الموهبة فاحبروه - وهو لما يزل
تلميذا بالكلية - كما درجوا على ذلك كلما سمعوا بموهبة شعرية جديدة -
فاعترفوا بقدراته المتجاوزة.

لم تكن المعاد بني شاكّة تمرّ على الحليل دون أن تترك مضجعه وتشكّل له
هاجساً مستمراً فقد كان يرى ويسمع مالا يتسنى للآخرين، فعبر عن ذلك
بقوله:

يا بني يا بلبل أمين

صداح حميتني النوم يحين

فالحليل تميز بحساسية شعرية وعية عالية وكيمياء تحوّل المعادن لحسية
إلى ذهب تجسّد ذلك في سائر أعمانه الإبداعية التي لا تزال تكتشفها عوالم
من الشعر والدهشة المستمرة والتساؤل المشروع عن أسرار تلك الإمكانيات
التي لا حدود لها وما كان لحن أعبة «عرة» التي أصبحت كشيد «لمارسيير»
للأمة السودانية إلا نتاجاً لحن العارض العسكري المعروف

ود الشريف رأيه كمل

جيئوا له شالايته من دار قمر.

يستمع إليه الحليل مصدفة في القاهرة حيث كانت تؤديه فرقة للكشافات تابعة

أصوات

للجالية السودانية. ومثلما كان يفعل هيدريكو جريب لوركا الشاعر الإسباني يستلهم أغاني العجر في أشعاره ومسرحياته التي أدهشت العالم إستطاع التحليل - الذي رآه ورحل مبكراً مثله - أن يعترف من مختلف الياابيع ليؤسس اتجاهات جديدة ويحدث تحولات عميقة في الفن السوداني.

أكثر ما يدهش امرء جرأه التحليل في كتابة الشعر بتراكيب جديدة ومفردات عجيبة وبسهولة لمعية وصور «سورالية» لا تفتأ تصبح جرأاً من لروح الشعبية ووجدان الناس.

رأه يوماً الرعيم الوطني علي عبد المنيف يصحبه رفيقه الشاعر صانع عبدالقادر وكان عبد لطيف قد أفرج عنه لتوه من السجن وباغته التحليل بتلقائية مذهشة.

ماك غلمان.. ده هوى الأوطان.

وما لبثت هذه الكلمات أن أصبحت مطلعاً بقصيدة تحولت إلى أغنية ثورية تحذرها طلائع المدارس الحربية بشيد خلال تظاهرتهم المسلحة بني طافوا بها شوارع العاصمة متحدين قوى الاحتلال البريطاني في عام 1924م

شارك التحليل في تكوين الجمعيات السياسية سرية مدبو كيرها وبان أحد أبرز ناشطيها يكسب الأشعار الوطنية ويتحدى السلطة في مواجهات شجاعة لم يكن يبالي بنتائجها.

وعندما تفجرت أحداث ثورة 1924 وجهتها قوات الاحتلال بقسوة وشراسة وأعدمت قادتها عسكريين وأودعت الرعماء السياسيين السجن ولما في لم يستسلم التحليل ولم يؤثر لصمت فاستخدم أشعاره وأغانيه في المقاومة وكسب أغنية «أذكر بقعة أم درمان» شرارة شعلت حماس الناس فأحدوا برددوها في

بيوتهم ومساكناتهم الخاصة وذكر الشاعر حدياي عبد الحظيب في شهادة به
تصميمه كتب أصدره ابن الحليل مؤجراً بعنوان «محبون عزة» أن رخطاً من حسان
ثم درمان هرعن مشياً على الأقدام يقصدين منزل الحليل بالخرطوم - في حالة
مادة تحدث أنك - ليستمع إلى القصيدة من الشاعر نفسه ويستوثق من
كلماتها لأنها تنوء بأسلاف لهم كان لهم دور في الوطنية

أما قصيدته «نحن الشرف البادح» فقد كانت مانعستو سياسياً رغم عائلتها
وعبارها تحولاً نوعياً في النحس والموسيقى والأداء . إنشئت السلطات الأمنية
بأمره - لا تشدراها في أوطط العاصمة وكان صموئيل عطية - اللياني الجنية
- مسؤولاً في قلم المحابر لا أنه كان مُحباً للأدب والفن وصديقاً لعدد من
المثقفين السودانيين . وجه عطية الدعوة لأصدقائه لحضور ليلة ساهرة في داره
ودعا الحليل أيضاً ليقيم بعضاً من أغانيه.

فطن الحليل لتحدي مسؤول الأمن وقرر مبارلته في داره وتبع أصدقائه أن
سهرته الليلة في «عربن الأسد» ومنذ اللحظة الأولى إحتضن مرهرة وأحد يشدو
بالأغنية التي أفرغت سلطات الإحتلال «نحن ونحن الشرف البادح». فكان
موضع إعجاب الجميع لجسارته وجراته وأدائه الرائع الذي تجاوز روح القمع
والسلط.

لَمْ تمهله ذات الرثة طويلاً رغم تنقله بين الخرطوم والقاهرة طلباً للعلاج فميه
الردى في العشرين من يونيو عام 1932 وهو في شرح الشباب فترتعت البلاد
لعيايه الماجع وأقام أصدقائه الأدباء والشعراء والمثقفون حفلاً تأييباً في اليوم
الأربعين لوفاته وقف فيه عرفات محمد عبدالله خطيباً معذراً سجاياً ومناقب
الشاعر الراحل فكان «كان الحليل شهماً هماماً كريحاً متلاًفاً يؤثر على نفسه لا
يحشى الناس ولا الأيام والليالي، صريحاً لا يدس ولا يكيد، يترفع عن السقاسف
فب سمعته ولا رأيت مسدلاً ولا متلفاً، عريز في صمعه وقوته»

أصوات

ووصف عرفات قدرات صديقه الشاعر الذي لم يكن يعني إلا للصفاة من
أصدقائه وقال «وفاتكم إن الحبيب إذا جلس بين أصحاب أصفاء في هدوء الليل
وأرس في جوفه نعمة منموحة، نرسل في جوم السمعين قشعريرة حفيمة
ويكون قد سبي العالم الذي حوله غير متكلف ولا متصنع يحرج بعضاً لا يشبهه
صوت المرمر ولا أبين الميثارة، بن كان شيئاً لا يقاس بعيره قائماً بدته لا يدركه
إلا من دق حبه وصقل دوفه» أما محمد أحمد مجنون فقد رثاه بقصيدة بعنوان
«ماتم الفن» ومطلعها

عاب في الرمن حليل واستتر شاعر فذ ومكان أعمر

ومران الحليل يحيا في وجدان أمته وما رلت أشعاره تتوهج في كل يوم
جديد «عزة في هوائك» و«وفي الصواحي وطرف المدائن» و«فلق الصباح»
و«ينيلنا يا بين الحيا»، و«حبيب الشاطئ»، و«ما هو عارف» و«تم دور و دور»،
وغيرها.

5 سبتمبر 2000م

المواقف الجهيرة

صلاح أحمد إبراهيم



نَمْ يَكُنْ مَدَقَ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَعْمَلُ . كَمَا عُبِّرَ بَيْنَ الْأَحْفَافِ . بَلْ كَانَ قَوْلًا لَا يَصْعَبُ الْمَرْتَفِيقُ مَتَقَبُّ الْهَوَى شَأْنُ الشُّعْرَاءِ لِمَعْرُوفِي لِحَسَّاسِيَّةِ وَكَانَ وَاصِحًا كَالشَّمْسِ فِي رَأْدِ الصَّحَى وَصَفَ شَعْبَهُ مَرَّةً بِالْجَمْسِ الْبِشَارِي الَّذِي يَقُودُهُ الصَّغِيرُ بِالْمَعْرُوفِ . إِمَّا اهْتِنَاحُ دَقِّ الْعُنُقَا فَكَأَنَّهُ هُوَ مَا تَجُورُ وَصَفَ دَاتِهِ فِي ذَلِكَ وَكَتَبَ مَرَّةً عَنِ اسْتِثْقَافِ فَقَالَ الَّذِي لَمْ يَفْتَحْ مَعَ الْعَصَمِ حِسَابًا مَشْتَرَكًا . وَلَدَيْ نَمْ يَسْمَعُ حِينَ جَاعَ أَهْلُهُ لَا رَأْيَ وَلَا امْتَلَاكَ وَلِعَمْرِي كَانَ ذَلِكَ مَسْهُومًا فِي لِحَيَاتِهِ . فحَيَاتِهِ كَانَتْ تَحْدِيًا مُتَّصِلًا رَعِمَ هَدُونُهُ الْجَلِيلُ وَصَمْتُهُ الْمَتَسَامِي .. أَرَادَ لِحَيَاتِهِ هَذِهِ أَنْ تَكُونَ ثَوْرَةً لَا تَهْدَأُ مِمْدَ عَصَاةِ الْعَصَا وَخَتْنِ عِيَابِهِ الْفَاحِشِ

حين جئتم دكتاتورية عسكرية فاهرة على وطنه كان قد تخرج سنه في جامعة
المرطوم متطلعاً للالتحاق بالسلك الدبلوماسي يملئ كافة مؤهلاته ويريد
محدث أن تأمرت دور العرب على الكونغو ورعيته باتريس لومبا - استكثرت
عليه استقلاله والتمتع بحيراته ، وأحاطت به من كل جانب - إحاطة السوار
بالمعصم - تريد السلطة لأعوانها لصمان إستمرار تدفق الثروة نحو عواصمها وأراد
صلاح بحكومة بلاده أذاك موقفاً مشرفاً يكمل موقف عبد الباهر الذي وقف
إلى جانب لومبا لا يحيد ولما أعياه لسبيل كتب شعراً قاصداً مراً كالحنظل
ما ترك لوزير لحارحية حياً يرقد عليه . أنحنه بالجراح ، وكان يدرك ألا مطمع لديه
بالانتظام بالسلك الدبلوماسي ، بعد أن قال «والعام الدبلوماسي الأبق . يدفن
الهامة في كوم من اللفظ رشيق»

وحين إنتصف له الوطنيون واختاروه سفيراً بالحارحية - وهو الذي تجاوز
لغات اللدب من مال وجاء وبات أكبر من ذلك - يحتوي على الجموع كما
يقول ووت ويتمان ثم يعرف المنصب ولم يقف حائلاً بينه وبين مواقفه الجهرية
فتصدى لأكبر رأس في البلد - عندما حجب الرأس في حديث أدبي به لإحدى
المجلات - فأوسع سب وتقريراً وترك سفارته وتوجه إلى باريس ليعمل موظفاً
صغيراً في إحدى لسفارات العربية وكان في كل شاعر بالبو ميرودا عندما أعلق
فصلية تشبهي في مدريد وحمل انسدلية ليقاتل في صفوف الجمهوريين في
الحرب الأهلية الأسبانية.

تعلل صلاح بكل سجايا ومناقب أمته فاتصف بالأريحية وليس لعريكة والبدل
والنصحية والعداء وحب الآخرين والعصب العادل المشروع ، وأصبح نموذجاً
ساطعاً في انقاء والودم ، وكان لا يفتأ يردد اسم الشاعر المرحوم شيبون الذي
رامله في ثانوية حنتوب ، ووصفه بقوله شيبون حجرة الشعب وصوت بلادي
المشير وقفا هما الاثنان بصستر براون ناظر المدرسة الإنجليزية كشوك

الحرب في الحق في أوائل الخمسينيات والاستعمار البريطاني في حشجة الروح فحصلهما عن الدراسة أيام كانت مثل هذه التصحيحات تعد ضرباً من الجسور - ولكنهما انتصرا عليه عندما جلسا لامتحان الشهادة من امدرس الأهلية ونجحا في الالتحاق بالجامعة.

كان من الطبيعي أن يفيض صلاح بالمعرفة، وأن يكتب الشعر منذ نعومة الأظفار، حيث نشأ في بيت يجمع بالعلماء وللمؤرخين والمثقفين الأعداد - وعندما تخرج في الجامعة صدر ديوانه الأول، وشغل حيزاً مهماً في الشعر السوداني.

وكان صلاح كثيراً ما يردد قول اسبقه السوداني الأمين علي مدني « الشعر الجديد يتطلب باقداً جيداً، وذلك عندما يفاجئ لمتلقين بشعر جديد ولغة جديدة، مفترفاً من المعين اثرار للمربية الدارحة في السودان قيفجر المعدي، بما هو خليف بإبداع الشاعر المتفرد... ويقول شعري خشن كالخيش.. ربما لا يعجب بعض المستمعين من التقاد ولكني لا أمانى أما في الكتابة الشربة فقد عالج صلاح القصة القصيرة باقتدار ومارلت أذكر قصته «وهكذا يا أسناد» بني هرتنا حتى الأعماق عندما قرأها في عهد الحب.. وله مجموعة قصص صدرت في مؤلف مشترك مع صديقه الأديب المبدع البروفيسور علي الميث الذي سبقه إلى الدار الباقية وصوانها «البرجوارية الصغيرة» وكان لا ير لان طالين بالجامعة، أما مقالاته التي عبر فيها عن حصوماته الفكرية والسياسية ولأدبية جديدة بأن تحتل مكانها بين عيون النثر العربي الرليع وقد قدم الشاعر للقرء «عبية الأبوس» و«عصبة الهياي» و«محكمة الشاعر للسلطان الجائر» فصلاً عن ترجمة «الأرض لأثمة» للمصاحل الأفريقي باتريك دن رورسرح

نشر هذا المقال في «الاتحاد» في يونيو 1993 عدة وفاة الشاعر

1 أكتوبر 2002م

بين شاعرين، زفودة وود المادح



محمود العكي و عبد الحليم علي طه

أطلق محمود العكي على صديقه اللدود عبد الحليم علي طه لقب «ود المادح»، وذلك لأن شقيقه عبد الرحمن العكي الذي كان يعمل ضابطاً في قوة دفاع السودان مع عبد الله حليس وعبد الرزاق علي حه وقيمون معا في حامية شندي كان يلاحظ أن أهل وأقارب عبد الرزاق علي طه من قري منطقة شندي كانوا يروروه بالحامية وكثيراً ما يحملون بين أمتعتهم طاراً ولم يكن المتاع سوى محلاية أو محلايتين حيث لم تكن حقائب السفر معروفة في ذلك الوقت، ولم يتوان عبد الرحمن العكي في نقل تلك الملاحظة إلى شقيقه بدي سرعان ما استخدمها في هجاء عبد الحليم:

تاريخنا بين طابية ومطار
وحلافنا محلايتين وطار

وقال أيضاً.

نقرات طار أبوك بتصميم الأضنين
نقراتو لنقول عز الحلا أب قرنين
حاييم بين رفاعة وعلية والكاملين
ويراد لينتو قط ما راد على القرشين

يعني أن ولد عبدالحليم كان مادحاً متجولاً بين قرى الحرية.

ويبدو أن العريقين من آب علي طه والمكي إحتكما إلى عبدالله خليل في هـ
لشأن باعتباره شاهداً على الواقعة فرد بحزبه وهرامته المعهودة «محلاية شفت
لكي طار ما أعرش» إما عبدالحليم علي حه فقد لقب عريبه محمود انصكي
ب«رقوده» و«الحفيد» يشير إلى أنه من الحبيب ومن أحفاد حكيير حان

ويقول معاصروهم إن هذه الألقاب كانت شائعة في أوساط انحرجين وكان
يادوبهم بها بلا حرج كما أن لصحف في ذلك العهد كانت تتداول الألقاب
الشاعرين دون أن يثير ذلك أي نوع من انعصب أو العتاب في أوساط العائلتين
التي تقبلت ما كان يرد في قصائدهما من هجاء لادع وسحرية عندما يتعرّضان
للأسباب والأصول.

وبعد قيام مؤتمر انحرجين وبرور التكتلات لسياسية انحر عبدالحليم علي طه
إلى معسكر الاستقلاليين بينما وقف محمود إلى جانب المعسكر الإتحادي،
ولكن من لياحية الحزبية البحتة يقول بعض معاصري محمود إن عواطفه الحزبية
البحتة كانت تتأرجح بين لإتحاديين بحكم الجور وانسكى في «أوروبا»
وحرب الأشقاء بحكم علاقة صداقة وكان المعسكران يتقبلان إخوانيات
محمود وعبد لحليم السياسية بروح متسامحة تنهم المُلح والطرائف وتستمتع
بالمكاهة والدعاية بل يُهم كانوا دائمي التطلع للجديد من قصائدهما لتبديد الملل

وأشاعة روح انشراح ومي إحدى المناسات هجا عبدالحليم الإتحاديين بقوله:

ربات الحدود في جمالها ما بنعيب
كبح كوح إنفخ والمار وقع في لهب
والرول الثقيل ينقبض فيها قلبه
ولحلي المقرش سولي هو زربه
واللاسلكي هين يلقى فيه صربه
طبر إنقرع أبقانا داب السيه
ودحامد وقع والقاصي حالته صعبه

وقد قصد لشاعر بكبح كوح إسماعيل لأرهري وبالرول الثقيل بحس الفصلي
وبالحلي المقرش أميس ريدن وباللاسلكي براهيم جبريل لطول قامته وبالسبه
محمود الفصلي، والسبه هي ثلاثة عصي تعلق عليها قربة الماء، أما ود حامد فهو
علي حامد ويعتقد أن طبر هو بابكر القبلي والقاصي هو محمد أحمد المرصص.
أما محمود الفكي فقد أوسع الاستقلايين سباً لموافقته على لتطور الدستور
ومشاركته في الجمعية التشريعية.

سلسلة لسودسي الحويصة البعيد والداي
هل الحبة المنورة اللجنتم مسودة
هجر السورد والسوره وشرايم الككازورة
رئيس الجميع شقيطي وبايب الرئيس حمريطي
فيها العريان والميطي وقسو الحكم بربيطي
هل الباس البوجه المايومو عكس الموجه
ما بهيجو ساعة الهوجه وجون بون باقي ليهم حوجه
شيحا انكبير ماديو وود الأمير الحيو
لحكم لثاني بيحيو ومايرصي شيتا يقبو

وعندما نقل دنوي كلية عردون في النصف الأول من الأربعينات من الخرطوم إلى أم درمان سحبت الفرصة لمحمود الفكي بأن يراقب أوصع الأستاذ عبدالحليم علي طه المادية والمعيشية عن كثب ليستفيد من ذلك في قصائده الساحرة فقد لاحظ أن عبدالحليم خلافاً لزملائه المدرسين كإسماعيل الأزهري وأبوبكر عثمان وغيرهما لم يكن يملك سيارة صالون بل كان يستخدم دراجة في دهبه إلى المدرسة وإيابه، كما لاحظ أنه يسكن بالإيجار ويتنقل من مسكن إلى آخر فضاطره بهذه الأليات :

الناس ركبوا الصوالين ولجبت هرقاره
وت لاهن رديك لبشبه الشمساره
تفذل وتشفع في السكليت أب طاره
في لبقعة الوسيلة اللامة كل الأمه
لأفيت ليك مكان ولا جدير تنممه

وحاء في أشهر قصائد عبدالحليم التي هجا فيها محمود الفكي

في وصف الحفيد قالوا الحفيد اتمادي
في المعى والصلال رحص فتحلو عياده
راسمالو افرد حيران عنيهو قلاده
دربكة وطيل رمبارة جايه هواده
ما بنكر عليك صنعة حذودو أجادا
فتح لحله سمع تحت كدرو ممداده
جاب المويه جاب الرمله جابلو رمادا
أدى المحيط جيهنو تحت إيدو وماده
سككت في السحاس عني العتب يا ماده

كان الشاعران موظفين مرموقين لمكانة في لخدمة المدنية .. فالأستاذ عبدالحليم علي طه عمل مدرساً بكلية عردون ثم المدارس الثانوية ثم ملحفاً ثقافياً بسفارة السودان بالمملكة المتحدة وتدرج في وظائف حتى شغل منصب انوكيل

أصوات

لوزارة التربية والتعليم أما السيد محمود العكي فقد عمل محاسباً بمصلحة مالية ثم مديراً لملاذعة سودانية بعد الإستقلال وقد عاش حياة ثرية وأمتعا للناس ولا يزال من بقي من معاصريهما يرددون في حبور تلك القصائد الساحرة وتلك الأجواء التي كانت تعطر أماسي العاصمة في تلك الأيام، خالية من لصعائن وملثنة بالروح العذبة والأحلاق السودانية الأصيلة السمحة.

لَمْ يكن عبدالحليم ومحمود وحدهما في تلك الساحة، فقد عرف الناس «شعراء الكتيبة» وكان من أعضائها «بارزين محمد المهدي مجدوب ومحمد عبدالقادر كرف وإمام دوليب والحرجي وأحمد علي طه- شفيق عبدالحليم- ومنهر صالح عبدالقادر

وكانوا يجتمعون في مكتبة حسن بدري بأم درمان حيث كان يحتفظ بإنتاج لجماعة في درج بالمكتبة سموه «درج الفاسف»، وأما إمارة الكتيبة فقد كان يتنافس عليها شعراء حسن بدري والنور إبراهيم وقد أثبت الدكتور عبده بدوي في كتابه (الشعر في السودان) إخوانيات شعراء الكتيبة فذكر أن دستور الكتيبة ينص على أن عضوية الجمعية يستحقها من هجا أكبر عدد من الشعراء المؤسسين للكتيبة، وأن القادم والمساهم يجب أن يقال فيهما شعر، وأن التقرير السوي للكتيبة يجب أن يكون شعراً وفي مقدمة ديوان «الكتيبة» لشاعر النور إبراهيم، كتب مدير صالح عبدالقادر يقول «إنهم كان يعيشون عصر فساد سياسي، وأن «حلامهم في حياة فاضلة لم تتحقق فراحوا يتهاجون ليمسوا عن أنفسهم متحدين لرمز في الهجاء سبباً من أسباب الرحة النفسية»

صدر في مارس الماضي كتاب (بين شاعرين، مع إخوانيات عبدالحليم علي طه ومحمود العكي)، لمؤلفه الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه، حيث قام بشراء مركز عبدالكريم مير عني الثقافي بأم درمان، وقامت بالإشراف على توزيعه شركة رياض انريس للكتب والنشر ببيروت والدكتور فيصل عبدالرحمن كاتب عني

عن التعريف علماً يرفد المكتبة السودانية بمساهماته المتميزة في سياسة والتريخ والقانون والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات قدم المؤلف نشرها في صحيفة «التحرطوم» التي كنت تصدر في القاهرة - قبل أن تنتقل إلى نحرطوم - في الفترة ما بين 1999 و2000 وعبدالحكيم علي طه هو عم المؤلف، حيث استطاع من خلال هذه العلاقة أن يعثر على معظم شعره، إلا أنه لم يعثر إلا على قدر محدود من أشعار محمود المكي.

1 مايو 2001 م

تحريض على لكتابة والإبداع



بدور عبد المنعم

تفقيت بكلّ ترحيب وامتنان آخر إصدارات مركز عبد الكريم ميرعي الثقافي بام درمان «ذكريات وحوادث» تضمن عدداً من المقالات بقلم الكاتبة السودانية السيدة بدور عبد المنعم عبد الصفي سبق نشرها في صحيفتي «الإتحاد» بأبوظبي و«الحرطوم» حين كانت تصدر في القاهرة، وذلك خلال فترة إمدت منذ أواخر سنوات الثمانين حتى أواخر سنوات التسعين الماضية. كنت عن تجاربها وذكرياتها وما عرّ بها من حواطر ما وضعت الكتاب جانباً حتى انتهت صفحاته التي تجاوزت التسعين فأدهشي تماسك لحن واكتازه وثرأ اللغة وبدخها بلا تعمد أو تصنع واتباعي إحساس عامر بأن معظم هذه المقالات كان يمكن أن تكون أساساً لعمل إبداعي متميز في مقال بعنوان «أيام في الحرطوم» وردت صور تعبر عن واقع اجتماعي جديد يتشكل.

«مجموعة فتيت يتحدث بكرة عرس فلانة» تتم عارفين العريس ألماني؟
«نمرس في الوحوه» الشابة علي ألح دهشة أو استنكار... يخرق أدبي صوت

المغامرة الباكورة في التجديد الشعري

حمزة الملك طمبل



«محببة أمينة، مقدسة للشاعر...»

من حبها ينبثق عالم»

«كفا في»

نمّ يحط الشاعر وساقط حمزة لملك طمبل بكثير اهتمام بسبب فعل رباته وسبقه في محاولات التجديد الابداعي كما أن النقد والمؤرخين نمّ يبرروا دوره كما يسعى ويكاد اسمه الآن يتوارى في سجل التوثيق الأدبي وقد ظل هذا الشاعر ساقط يكتب منذ بدايات القرن العشرين وحتى سنوات الخمسين وصدر ادبوان لطبيعة» في طبعته الأولى في أبريل 1931 وبدوا أنه صدر مرة أخرى مع مقالاته النقدية في

معجون بالكآبة والقنوط. و الله يحبتها لقت ليها واحد يحرقها من الحفرة دي.».

« في معرض حديثها عن رواج ابسها في الحروطوم قالت لي «أول حاجة عملتها جيت لي ثلاث بسات من جامعة أم درمان الأهلية عملت لي الشي فور وانكحك بتاع العرس لأبي بيبي وبهيك ما يقدر على حق الخرفان و الطباخين البجيينهم للسوان البيض للخدمة من الأهل والأصحاب»

« أخرى كانت عاملة حبة حميلة في يديها وقدميها قالت رسمتها لها طالبة في جامعة الحروطوم ذكرت أن مواعيد لطالبة «الحانة» مرهونة بجدول محاضراتها.. يا لها من صورة جميلة رائعة لطالبات يكامحن لانتزاع التعليم ويواصلن من أجل لقمة العيش في ظل هذه العلاء الطاحن ما أروعهن وهن يقلن لا للإحراج ولكن ماذا نفعل الأخريات لحل هذه المعادلة الصعبة

« الساعة الثانية عشر ظهراً يدخل أحد الأعمام وهو يتصبب عرقاً من الحر «صلت من سوبا من لساعة الثامنة بالياص، واحد من اركاب قال بشوا منه ثلاثة ملايين. أحذو البياص كله للنقسم. أخيراً لقوا القروش واحد داسيها حوة بطيخة مقورها من حوة».. يا لها من عبقرية في من الشل تلت التي تعتقت في ظل لتوجه الحصري.

« في الصيدلية كنت أشتري دواء رهوبة للوالدة دحن واحد اشترى حبة صمط واحدة قدها في حلقه لاحظ دهشتي قال أصعل شو؟ الحبوب ثمنها عالي كلما أحسّ بالتعب اشتري واحدة وهم يتشدقون عبر القنوات انصالية أن الخدمات الصحية وصلت إلى أرقى مستوى وأن الدواء في متناول الجميع».

تمثل تلك الصور رصد لتحوّلات عميقة في المجتمع السوداني لا تحصى على أحد مثلاً يحدث في كثير من الأماكن في أرماء الحروب الطاحنة

أصوات

والأزمات الحادة المستمرة شيلسية أو إقتصادية. ليس لإبداعي لدي بحمها يكون أبلغ وأبعد أثراً من البيان السياسي أو التحقيق الصحفي فحين قرر لبلاتعة الغيام بالثورة السوفيتية وإحداث لتحوّل الإجتماعي العيف في روسيا لم يكنوا بالأدب السياسي والبيانات التحريضية بل طلبوا من الكاتب لروائي مكسيم جوركي أن يساعدهم برواية على عجل تناسب تطوّرات الأحداث فكانت «الأم» التي حثت مكاناً بارزاً في تاريخ الأدب السوفيتي وما استطاعت لكتب ولا المقالات الصحفية ولا البيانات السياسية العاصبة ولا شهود لأحداث لتي أعقبت بثلاث بيوشيه على الليدي في تشيلي وإرهاب الدولة والرحب اندي كان ن يحتلظ بالهواء ويتعطى في شوارع أن يعكس بالصبط ما وقع في تلك الأيام مثلما فعلت رواية «بيت الأرواح» للكاتبة التشيلية إبرايل لليدي. فقد تناولت الأحداث وتابعت القصة من خلال تجربتها الشخصية. بما هو أشبه بالواقعية السحرية، ليست واقعية ماركيز كما يرى بعض النقاد بل واقعية هي التي جسدتها بإمكاناتها وبوعيتها الخاص الذي تفجر في تلك الأيام.. ثم أعقبتها برواية «الحب والظلال» التي صورت فيها تداعيات الحدث بانتصار لديكتاتورية على الديمقراطية والتصفيات الدموية لوسعة النطاق ومطاردة المثقفين والسياسيين المعارضين الذين أرغم الأحياء منهم على لتسلل حارح الحدود

بررت لينيدي فجأة ككاسة ذات إبداع مدعش لتحتل مكاناً مربحاً إلى جانب كتاب أميركا اللاتينية العظيم أمثال جورج أمادو وجابرييل جارسيا ماركيز. لا تقل عنهم روعة ولا إمكاناً لم يكن أحد قد سمع عنها قبل سنوات فلائل لأنها باحتصار ما كتبت لرواية إلا حين تقدّم بها العمر ولكنها قبل ذلك كانت صحافية داب تجارب واسعة ومتنوعة عاصرت مأساة قريبها الرئيس الليندي وشهدت مصرعه كما كان مرر أسرتها يستقبل المثقفين لكبار والشعراء

أمثال نالو بيروود، إلا أنها ما كتبت الرواية إلا في وقت متأخر وهي ردها طرفة حين سئلت عن ذلك وقالت إنها لم تفكر في الأمر إلا في زمان بانت فيه حيرانها تحصر إما في رفو جوارب أحفادها أو الحوص في تجربة الكتابة وقد كان الحيار الثاني حيث حققت نجاحاً منقطع الطير وترجمت رواياتها إلى معظم اللغات وأمرعت محروون العمر الذي عاشته بصدق والفعال

في الأسبوع الماضي كنت قد كتبت عن «يوميات في السودان» لمليدة البريطانية أرماي توماس وعلى الرغم من أن روحها جرحاً كُتب «موت حلم» عن مشاهدته وجاربه في السودان إلا أنها تناولت ما ارتأته هي لا روحها. فسجلت ما هو جدير بالقرعة سواء أكانت صورة إيجابية أم سلبية. والكتابة بدور عبد المصمم نفسها تناولت تحارب ميديات بريطانيات أقمن في السودان مع أرواحهن في أيام احتلالهم للسودان. وكتبت إنطباعاتهن حيث أتحت لهن فرصة الوقت في أماكن يسودها السكون ولهدوء. انبسط في الدول «متمتدة» - كما طُل دُبهيم - يقرأون كثيراً ويكتبون أيضاً. يستجوبون تجاربهم وعواظهم. في داخل كل إنسان مبدع قابع

يأتي هذا الحديث تحريصاً لكتابنا ومبدعيها الذين لا يواصلون كدحهم في اتجاه تعميق رؤىهم لا لارتداد مساحات جديدة للإبداع وأحياناً يكتبون بالقدر القليل من الإبداع ويتوقفون وهم في تمام النضج والقدرات فالروائي المبدع الطيب صانع أدهش الناس في الدحل والجارح بروايته وقصصه ذات الرحمة الإنسانية الرفيع ووصفه بعض الأدباء بأنه كان أقدر وأفع من جميع إمكانيات إعلامنا منذ الاستقلال حيث لفت الأنظار لبلاذده وجذب لها كثيراً من الاحترام. الطيب صانع بات يتصابق كثيراً حينما يشير لنقاد إلى توقعه عن كتابة الرواية ويقول إنه يستعيف عن ذلك بأجناس أخرى من الإبداع كالمقالة

ومثله أيضاً الشاعر محمد المكي إبراهيم - الذي أعده أحد أفضل شعراء

العربية هي رمسا هذا - يقول أيضاً إنه تحول إلى كتابة المقالة شأن آخرى كثيرين
 ويعني نهاية موسم عطائه الشعري ولا يرى دعياً للمكابرة . ماذا نقول إزاء هذا
 الإعلان الذي يحبط محبيه الذين صلوا يتوقون رعم لشعر العظيم الذي كتبه،
 إلى مزيد من الأعمال الأكثر روعة وإبهاراً.. وخاصة عدم يتحدث عن آرثر رامبو
 الشاعر الفرنسي الذي توقف عن الشعر وهو دون العشرين - وظل أفضل
 الشعراء الذين قدمتهم البشرية في تاريخها الصويل. لا يراى مركز عبدالكريم
 مبرعني يحاشا بعطائه وعداقه بشعر الصوحن الجديرة بالقراءة والحفاوة، وذلك
 في إطار محاولاته الجادة والمسؤولة لتوثيق الفكر السوداني وإشاعة المعرفة
 وترسيخ الوعي انحصار بالذات القومية وحصائنها.

25 سبتمبر 2001

أصوات

فتعكس إن أشرقتم شمسه
بأعيننا ماله من صبور
أم الحمر إن أشرقتم نفسه يرى
الكون كالوهم فيها صهور

«غير أنه لا يصيب في الإجابة على مثل هذه الأسئلة حتى ولا أولئك الذين صفت
نفسهم وشعروا بمثل ما شعرت به أنت» ويسترس ذلك الباقد البارع المجهول في
تناوله لأشعار حمزة فيقول «لقد كنت شديد الوطأة على الشيخ والأعدي . ولا سيما
في قصيدتك (ذهب الودء) وإن كنت لم تقل إلا حقاً، وبإي أعلم أن شعورك فيها عام
يساوي العبقثين- المشائخ والأعديّة- في كل بلد إسلامي، كما أعلم أن مبعث هذا
الخط في نفسك هو صياغ مجدد الإسلام والمسلمين لأخلاقي. إن قصيدة
(لأصوات والصور) بل وقصيدة (المعاني والأشكال) صرت من المعسفة سقته إلينا
في أسعد الأساليب ولا يستكثر هذا على من يأخذ المعاني عن الجبال والأطلال
والأرواح والأشكال. إن عزلك حار لطيف ولكنه صريح نوعاً ولا بأس بهذا ما دمت
بقي الصحيفة فلا أقل للشباب من أن يتعلم. ومزيتك بليغة مؤثرة، وقد يشتم منها
بعض الناس عدم انحصار عن هذا الطغام الإلهي الذي استحوط ظلام لعدم بعد نور
الحياة، ولكني على يقين من حسن يقينك، وأعتقد أن الحيرة وفراط الحيرة هو
لدي جمع بك إلى حد انجانب قلت إنك لا تقصد أن تنتقم لنفسك بقصيدتك
في الدويم من أسماء إلبك فيها وما كنت محتاجاً إلى هذه الملاحظة لأن ذلك
واضح في قولك:

كربة في النفس قد فرحتها بكلام فيه للنفس شفاء

وأني للشاعر الأديب أن يسري عن نفسه بعير كظم عيظة أو مكب شعوره على
لورق ولعن بسى به بث حرته وهو يكاد يكون وحيداً بين هذه الأوساط الموبوءة».

وقت لاحق في مجلد واحد بعنوان «الأدب السوداني وما يجب أن يكون عليه وديوان الطبيعة» و«الديوان اشتمل على قصائد كتبت في الفترة ما بين 1916 و1930، تعددت أغراضها من وصف للطبيعة والغزل و لإخوانيات والمراثي والهجاء، وأغراض أخرى لم يتناولها إلا المحدثون في أشعارهم، فقد كانت بعيدة عن قصائد القصيدة التقليدية كان شاعر هذا مدرّكاً لشعوره الأسلوب الشعري الذي كان صائداً كما كان مدرّكاً أيضاً أن الدقة الشعرية للمتلقين عهد ذلك كانت تنحصر لمحمد سعيد لعباسي وعبد الله محمد عمر الب و عبد الله عبد الرحمن لأمين وأصبر بهم قد فقد جاء في مقدمته للديوان أنه كتب ذلك أشعر تعبيراً عن أحاسيسه الذاتية وفق ما يرمى أن يكون عليه الشعر في المستقبل وأصبح عن رؤيته الإبداعية الجديدة يائساً بقوله «وكانت ترددت في طبعه وشوّه على الناس الذين لا يحصهم من أموره شيء» وإن حصصهم لم يقرأوه، وإن قرأوه على بعضهم، وإن فهموه على بعضا به، وإن عثر به فلي يقدروه، وإن قدروه فس يحرك نفوسهم، وإن حركها فليشيء ربما لا ترصاه نفسي، ومع ذلك فإني أطيعه وأؤزعه عليهم بدافع طبيعي حفي يصوي تحت سر يرتبها الرد بالمجموع» وأعطى حمزة في مقدمته تلك أنه حالف اللغة في ذلك الديوان، وكشف عن ديوان له سابق عظمت مقلد بدافع شعوري الحفي بحمال الشعر ثم حدثته جملة لحلوله من التجديد، غير أنني نشرت بعضاً من قصائده في أول هذا الديوان للذكرى فقط»

يبدو أن الإحساس بضرورة التجديد في الشعر والأدب كان هاجس عدد من الأدباء والكتاب في سنوات العشرين، وإن لم يُعبر عنه بصورة واضحة وملحة غير حمزة البعث طميل ذلك قبل صدور مجلتي «لهضة» و«المحر» اللتين اصططلعت بمهمة التركيز على الأحاسيس الأدبية المختلفة وعكست رؤى وأفكار المبدعين المحدد. والطبعة الأولى لديوان حمزة تضمنت ثلاث مقدمات، أولها بحث تحليلي كتبه السائد الإنجليزي ماثيو أربولد عن الشعر-ترجمته مجلة مصرية- واحتوى على خلاصة الرؤية النقدية الجديدة التي برزت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

وهذا الشاعر إن هذا البحث يتعمق مع نظراته لشعر وذلك يعني أن حمرة اسمك طمبل ظل يكتب الشعر وعينه على التيارات النقدية العالمية الحديثة التي طلت تعدي شعوره بصرورة الحروح بالشعر من قوالبه التقليدية وأعراصه التي ما عادت تنمهي مع التعبيرات الحقيقة التي بات يشهدها ذلك القرن

أما المقدمة الثانية فقد كتبها أديب سوداني -لَمْ يَشَأْ أَنْ يَفصح عن اسمه- وكتب بعنوان «كلمة أح في موضوع الديوان» ووقع في ختام مقدمته بكلمة «أحوك» لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْمِي دَهْشَتِي وإعجابي بتلك البقدرة النقدية التي صرّت عن رؤية متجاوزة وأدوات لَمْ تَكُنْ لَتَنُوقِرْ في ذلك الرمان الباكر -قبل سبعين عاماً- ولأدب العربي كان لا يزال يحاول العكاز من أنماطه النقدية كما أن قواعد النقد الأوروبي الحديث لَمْ تعرف على نطاق واسع وَلَمْ تستخدم بعد... إلا أن الأصوات الشعرية والأدبية العربية التي هاجرت إلى الأمريكتين وتأثرت بالثقافة العربية كانت تجد طريقها إلى بعض العواصم العربية، والواضح أن محاولات الشاعر الكاتب عباس محمود العقاد ومدرسة الديوان كانت تستأثر بقدر كبير من الإهتمام. وقد ذكر ذلك الأديب السوداني -الذي صُنِّعَ له بما يعرفه اسمه- أنه حين قرأ أشعار حمرة فوجئ بمثل ذلك الشعر البديع الذي اعتبره -رغم كثرة إطلاعه- جديداً في لغته ومناه. وأشار إلى عدد من الفصائد التي رأى فيها عناوين جديدة في الشعر يدل على اتصال الشاعر بالطبيعة اتصال المفكر المتأمل -وبدا فهو جدير بحمل لقب شاعر الطبيعة. وأعجبه قصيدة «شجوحة شجرة» فقال «كما يرى الأشجار انشائمة-مثلاً- ولَمْ تَرِدْ ملاحظه الأعلى ما على أنها تصلح خشباً، ما أنت فقد استحلت منها عره أي عره -كذلك كان الحال في غيرها من قصائدك صرّت من أعماق صروب الإحساس ذلك الذي دفعك إلى الاستعظام في قصيدة «مطر» بالآيات الآتية

هل الكون وهم يكاد الدجى
يعني على حاله من أثر

الآن كاتب مقالة وهذا أمر حدث قبلي لكثيرين فقد انتهى موسم عطائي الشعري ولا داعي للمكافأة فالشعراء لهم موسم للعطاء ومواسم للبيات لشتوي وموسم للموت ومواسم بتكرار أنفسهم، وهو نوع آخر من الموت كان إليوت يقول إن الشاعر الحقيقي هو الذي يستمر في الكتابة حتى ما بعد الخامسة والعشرين. ولكن لم يقل لنا ما عمره الحقيقي؟ رامبو هجر الشعر قبل سن العشرين ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون شاعراً عظيماً ولكن روبرت فروست ظل يكتب إلى سن الثمانين، وكلما تقدم في العمر كلما أنتج شعراً أفضل كسبيل الذي يتعشق بمرور الزمن».

كان صديقاً إسحاق القرشي يسألني كثيراً عن محمد المكي - الذي لم يكن قد التقى به - بلزمة طريقة بلهجة ناس بحر أرق هذا الشاعر عامل في عمل ولا يمتأ بكرر قصة قصيدة «أيها الواقع في حرج الكركدن»، لتي ربما يكون قد كتبها محمد المكي وهو بالصف الثالث أو الرابع بمدرسة حورطقت الثانوية، عثر عليها إسحاق دخل كتاب مدرسي حين نقل إلى الصف، وكان الكتاب ينهض الشاعر الذي ينتقل وقتذاك إلى ادراسة في جامعة الخرطوم كان إسحاق يقول بدهشته الهائلة تلك هذه القصيدة كتبها فتى صغير كان يرتدي «الشورت» الحاكي والقميص البولين بكمين قصيرين ومارلت أحتعط بها، يرجو أن أحده عن ذلك

وحيث تحدثت عن بداياته في لكتابة قال محمد المكي «وبعد أن شيعت بسيرة تشيعه وجوته في كتيبات سلسلة أقرأ رحت أحلم بأن أكون كاتباً في يوم من الأيام، فأحسست أنني اقتربت من تحقيق ذلك الحلم يوم نشرت لي الصباح الجديد (محلة كان يصدرها الأستاذ حسين عثمان منصور) قصة قصيرة ثم نشرت صحيفة الطبيعة (لسان حال اتحاد العمال في السودان) قصيدة صغيرة كانت السبب في تعرفي على الأديب الفيلسوف عبد السلام نور لدين

استطاع ذلك السائد أن يمس شعرية حمرة الملك طمبل مساً شفيفاً نعد إلى جوهرها واستكبه جديدها. إلا أنه لم يستخدم قواعد نقدية صارمة. يستعان بثقافته وحساسيته إزاء الإبداع. فكأنه في ذلك كان إنطباعياً ولكن بصورة مدركة لا تخطئها العيون. أحسُّ بإرتباط الشاعر العميق بالطبيعة، وأشار ببعض نصيف إلى مواضع العظمة الشعرية في قصائده. كما أحسُّ بتأملاته الفلسفية وسياساتها في سيجته الشعري.

من الواضح أن انطباع العام لشعرية حمرة الملك طمبل رومانسي - شأن رمايه - واستخدامه لغة واستدعاء الصور والأخيلة أقرب إلى الواقعية فصوره حالمة ومعداته مباشرة وعارية من أساليب البلاغة. ومن يصبو في قصائده لأن يعرف عليه المتلقون من حلال مذهبه في التجديد، كما تمنى لو يعرفه عليهم دائرة عامة.

وبما أنني لا أذكر مسجى نقدياً في تناولي شخصية الشاعر حمرة الملك طمبل ولا أنقيد إلا بما أحسبه بعضي بعضي جواب تجربته وشعره، أحد نفسي مدحوا لاستشراف بعض من عالمه الذي ظل مجهولاً وما كنت أجزو على هذه المحاولة لو لا أن أتاح لي رؤية الديوان بأريحيته المعهودة الدكتور فيصل عبد الرحمن علي طه وكنت قبل أن أطلع على الديوان لا أعرف عن حمرة الملك طمبل سوى أن أباءه هم ملوك أرقو، الذين حكموا ممتلكاتها عقوداً من الزمن - وأنه عمل بالإدارة البريطانية ردحاً من الزمن.

لم يهتم حمرة بشعر الوطنية ولم تجد سياسة هوى في نفسه رغم أن قصائد الديوان هذه كتبت في أوج المعنويات الثوري الذي امتد من بداية تكوين الجمعيات السياسية وحتى هزيمة ثورة 1924 وما صاحب ذلك من أحداث دامية مأساوية تركت أثرها في معظم المثقفين السودانيين والأكثر من ذلك أن الديوان نص من مديح البلاط بصفحة واحدة ومباشرة. لم يحارب أن يحمي كنفه وهيامه بذوي العيون المحصر فقد استقبل الممدوح السامي البورد الليبي بقصيدة عصماء لدى زيارته

لندوم وكال له المدمع وحاطه بفتح القدس

وبدو المفارقة فادحة أن يكون الشاعر توفيق صالح حبريل - الذي ينحدر من نفس
الأرومة الملكية- قد استقل السبي شعر عاصم مجليل بداولته الألس وتقاصي
توفيق ثمه عسع وتصنيفاً وظل قائماً في وطبعة نثب المأمور، الأمر الذي ظل مصدراً
لندره وسحرته طوال حياته

وحمرة الشاعر الملك كان يرى للإنجليز فضلاً على أسرته - لتي ظنت من أبر
بيوتات الإدارة الأهلية- وقد نوه بذلك الفصل في قصيدته (على قرة) التي يرثي فيها
أباه الملك طعيل حمد فيقول

بيتك السبادر في حمرز حرير
هو يرعاه كرام الإنجليز
قد أجازوا كما كنت تجير
لم تزل أنت على الناس عزيز

لم يكن حمرة وحده الذي نأى بنفسه عن الحركة الوطنية وهام حياً بالمنعمين .
كثيرون مثله من المتعلمين رأوا في قادة الجمعيات السياسية والحركة الثورية الوليدة
عوعاء وسوقاً وطنوا الإنجليز مخلصين جديرين بالوفاء

وليس عذيراً لحمزة أنه كان أروستقراطياً يعيى إحساساً بمعنده السبيل ودمائه
الملكبة مترفعاً عن الشأن العام إلا أن ذلك الإحساس لا يد أن يكون قد شكّل
بصرته بالأمر ودفع به لاتحاد مثل هذا الموقف ويبقى من حمرة -مع ذلك- الشاعر
الذي حاص معامرة مسكرة في سبيل تأسيس هواء شعري جديد. ولد حمرة في عام
1893 وتوفي في عام 1960- عليه رحمة الله .

بين الشعر والنثر

محمد امكي إبراهيم



صديقنا الشاعر محمد امكي إبراهيم بقدر ما هو شاعر صانع فريد فهو أيضاً كاتب ناثر مختلف . إذا نثره أسلوب ليس لغيره منه نصيب . يطرح أكثر القضايا تعقيداً هي الفكر والسياسة والأدب بأصنعم الألفاظ وأيسرها ولا تخفى عليك سحرية الذكاء للادعة العميقة . كتب لي مرة بأن الجونة الأولى للتماوصات بين حكمومة الخرطوم وحركة فرق . كان يذكّرني بأيام مضت والرماد لم يذهب بالناس كما فعل الآن . ذكريات مضي عليها أكثر من عشرين عاماً ، وكنا عهد ذلك في ميعة الحب الوفاة . جمعنا أمسية نادرة تحت سماء الخرطوم بحري الصافية العميقة ، في حديقة البلدية ، مع مجموعة من لأصدقاء الشعراء . رسم صورة أخذة لبث اللقاء ، فقال . أذكر تلك الليلة القمر في حديقة البلدية حيث وحدثكم أنت وشابو وراشد . جئنا تحت قمر وهاج بحفنا بخيل عامص السويا ويتلامع من حولنا بين صامت ريح في حال سبيلو طعمنا وشربنا وتلدنا بالشعر وهالك رددت أنت أبياتاً استجودت على روعي رداً من الزمان هل تذكره فإنني قد أسيتها وما أسايتها إلا الشيطان (الذي يكمن هذه الأيام في

أصوات

تفاصيل مثاكوس). لك أن تستمتع سحره هذه العاشة الجميلة أو تتعجب من ذكرته الفوتوغرافية المدهشة فرغم مرور تلك السنين وحياته المحاولة لمدينة ظل يذكر قصيدة فيبت مرة واحدة في أمسية مباحثة عابرة. لولا ذلك لما كان محمد المكي لمثقف الموسوعي الممتلئ الوجدان، والمرتفع الحاضر والفيض الابدع

نحن الآن نتابع مقالاته السياسية حول الأزمة السودانية والقضايا العربية وملاحقها فهي محتشدة بالمعلومات والمشاهد التاريخية والتساؤل الحلقى.. للغة الجامعة والفلس الطويل والسحرية التي لا تخلو من غصب الشاعر وانفعالاته وهو يقول إن الكاتب في داخلي ظل يواصل ولكن دون حرص على الظهور - وهي عادة لم أتخلص منها إلا يوم علمت الدبلوماسية.. وتحت طلال لتعديل الدستوري الثاني (المادة التي تضمن حرية الكلام لكل سكان لولايات المتحدة وصيورها) لم يعد هنالك من مبرر للإنزواء. وتجذلي الآن أكتب في صحف عربية كثيرة ومن حين لأخر أناوش الصحف الأمريكية برسالة ومقالة في حياتي لم أعت خصوبة قلمية كنتك التي أعيشها الآن ولذلك أسباب كثيرة بينها قضية الوطن التي صدرت تفرق الكهل والشيخ والوليد جاء حديثه هذا في حوار ممتع أجرته معه مجلة «كتابات سودانية» قبل حوالي عامين. لحص فيه تجربته في القراءة والتكوين وفي الكتابة

طبعاً محمد المكي كتب شعراً جميلاً ولا ريب منذ بداياته الباكرة كان له صوته المفرد المجلج. لذا أدهش الناس وعبأ جيلنا بالفخر والإعتراف كان شاعر أكتوبر بلا مراع حين كتب شعره ذلك لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين بكثير. ولا تزال تلك القصائد تكتسب جدة وعموماً تنود بها كلما ألقت بما جاثحة وتراءى لنا الحظر..

ما ترك الشعر محاصداً فهو لا يزال يكتبه متألقاً متجاوزاً ولكنه بات مقلاً إنني

أصوات

جئت مصباحاً وسلوى

ها هنا السجاد وبالحرب تفصل

أنت شجرت السماء.

شاعر كالرمح جسماً وروحاً حاد الإتياء . وتوغل بالحديث إلا أنه بعيد الإصغاء بروح الحكماء . كلماته تصل صليل الأحراس وشعره يتعاقم في المكان فيستحيل سحر وأسطورة وشجراً دلوياً يأخذ بمجامع القلوب. شاعر يعوص في أحران وجودية لا سيبس إلى الإفصاح عنها ولا الفكك يستعين عليها بالصحت والإبتسام الدائم لتثال وتسرب في السديم، ثم لا تلبث أن تعود.. عيده ليرقان في شراسة الصقر ووداعة الممام. يحدثك فمعص في الكرم وروح المعاملة. لا تستطيع وصفه بالأرمنية أو ليس العربية فهو أكثر كان كثيراً ما يقول لي إن «الحساسية هي دأب لقديم» كأنها قد أدابت شحمه وأنت على لحمه فاستحال عيماً بحيلاً كشجر السيسان في يداه شيفاً كسحابة صيف هابرة. يحدثك عن معارف لا حدود لها ويحدثك في حينيك كأنما يعتذر عن علمه الوعير لا يتفصل وإنما يعطي ويمح، لا يمش ولكنه يتعطف لا يبحث عن ضوء ولا شهرة إلا إذا كانت المحرم تسمى لذلك

كتب شعر حميلاً منذ سنوات صباه وصدر به ديوان «أعشى لإيمان القرن الحادي والعشرين» في القاهرة عام 1968، و«عاطب الليل» في الخرطوم عام 1988 ويعبر من حين استبيات والرحيل لدى أسس مدرسة «أنادماك» نشرت له الصحف والمجلات داخل السودان وخارجه.

صحياه خلال سنوات ممرعة حصيبة. وما كان أسعدنا - نحن المتلفين - يجلس بين يديه كل مساء ونصغي لتلك العذوبة المنهمرة - كما عبر محمد المكي - «جانادات أمسية وهو يقرأ شعراً باللغة الإسبانية» كان من ديوان لشاعر

يا ترى هل كانت هي القصيدة التي تحدث عنها إسحاق؟

والدكتور إسحاق محمد الأمين القرشي كان شاعراً وسليلاً لدوحة شعر كما كان باعداً وكاتباً ومحدثاً برعاً منقطعاً كالشهاب في فضاء الثقافة وكان لا يزال بالجامعة وبكبه أثر الإنزواء وكف عن الكتابة وقيل إنه تصوف. تنسقط أحباره بظلمته عليه ولا تظهر بظلال يروي الطمأ فالرحل كان شيخاً محتلاً وهو يسقل الآن بين الجامعات الأوروبية والعربية مما رايته قلقة القديم - أكاديمياً وعالمياً لعوبا بدرس لغة العربية؟

تطوي نفس شاعرنا محمد المكي على حبٍ عظيم للوطن أصبح عنه بروائعه الخلدت.. «أمتي» شعر لا يتكرر. مارنا بحفظ منه الكثير وراجعته في كل حين. هذه ليست نظرات نقدية بقدر ما هي تجديد للإحتفاء بما صيغ الشاعر لأمنه ولما يكن لها من حب. «عجبي كثير» حديثه في ذلك الحوار الجميل عن كردغان والأبيض التي شهدت طفولته وبقاعته المفعمة بالكريات وهذا جزء من نشره الفحيم، فإن يوماً ما ستجد نفسك مجذب إلى «مناصي» باستمرار وأن الطقولة والصبا هي عماد حياتك وأد الآن هي نفس المرحلة. تطهر كردغان إلى ذهني ونفسي كل يوم. السودان القديم الذي عشت هو إلى حد كبير كردغان وخرطوم السببات. مررنا هناك تحول إلى أطلال وفكر يحوتي في ترميمه ثم وجدوا أن فصول مدرسة القبة التي انهارت أهم منه. ذلك عمل من أعمد أهل الحجة أسأل الله أن يثيبهم عنه أحسن الثواب وهو فعلاً مُقدم على ترميم بيت الطقولة ولكمني سأكمل ذلك المشروع ذات يوم وأذهب لأعيش جزءاً من زمانني مع أولاد الحلة.. النور صالِح حميد ومكي المساعد وباسم حنق، وكل ذلك تحت حلال شيخنا ورئيس سجادتنا الولي العارف السيد السكري تاج لأصفياء سبقني حد الروح فصيلي جماع وعاش في حي القبة وكتب فيه قصيدته بباهرة «شارع في القبة» ولكن ذلك كان في زمن راح وهذا زمن آخر فقد عدت إلى

مدسة الطفولة قبل أن أعاد السودان فأكبرتها تكراراً شديداً كل ما فيها تغير
للأسوأ وأيام ريدني كان حلاوة موفق الحيرية (وهي واجهة أمية) يصطادون
طلاباً من لشوارع ويأخذونهم إلى مشرف المدينة حيث يعدونهم ويتركبونهم
على قارعة الطريق يتفاد من نظراتهم التي أحرقته لهم بكلمة الإسلام (مد
متى كان للإسلام بؤك؟) هالك مشاريع عملية أحلم بها المدينة العمر لجميل
لإستعادة بيتها لني صاعث ويصان اسماء إليها من صاحبها العائنة في حوص
جوني، وكل ذلك ره برحيل الإخشيديين فيدونه تطل كل السكت مقطوعة
والمستقبل مرتهن».

أحر رسالة تلقينها من صديقي لشاعر محمد المكي إبراهيم بالبريد الإلكتروني
كنت في غاية الطرفة والإبهار.. «انجلو- أراب» عبرت بالعربية والإنجليزية
واستخدام دكي للعتين.. تصحكك وتسعدك وتفصح عن إمكانيات الشاعر
المدهشة وعبثه لمشاعب وتدفع الإبداع في كل ما يقول ويفعل.. لقد اشعلت
في الأيام الماضية وسافرت وأحشى ألا أكون قد فقت بالرد عليها. وأنا أطمح أن
تكون هذه الكلمات رداً مفتوحاً (على الهواء مباشرة كما يقولون) عليها تشفع لي
تقصيري في حق الشاعر لمصيم.

بعد أن من الله بالشفاء على الفنان الكبير محمد وردي وتكثرت العملية
الجراحية الصعبة بالنجاح في الدوحة كتب إليه صديقه محمد المكي من
واشنطن تهنئة جميلة جديدة بأن يقرأها الناس البساطة لمحتشدة بالمعاني
كتب يقول إلى حجرة الشعب السوداني المجلعة، أخي الحبيب محمد
النوردي، والحاجة والأنجاس والأحقاد - شكراً لك على هذه السعادة الكبرى
التي أدخلتها على قلب أحبك وقلوب محبيك في كل مكان باستجاباتك الطبية
لعلاج وقيل بذلك لهذه الهدية المقدمة إليك من فؤاد سليم وبنه حالصة
أنهص سالماً معافى فالكمل بانتظار إبداعك الماصح الجميل كتب الله لك عمراً

أصوات

جديداً ولا شك أنه سيتمحضر عن من جديد أجمل وأحلى من كل الجمال
والعدوية التي صمعتها في الأيام الأولى تقبل التهني مني ومن أفراد عائلتي
وكافة أصدقائي ودمت في صحة ورعي لأحبك محمد المكي إبراهيم-
واشنطن.

حمل إلى صديق للطرفين وهو صديق أيضاً لوردي هذه الكلمات التي أرسلت
إلى الفنان الكبير. وكتب هو أيضاً كلمات لا تقل روعة وجمالاً وطلب مني أن
أفعل مثلهما فعلاً حتى يسعد الفنان في فترة نقاهته، ولكي ترددت بكلماتي
ستمعدو حرقاً بالية إزاء ما صمعه من كلمات

الشاعر «ذو القلب الرنان الأجراس»

شابو



حين استعصر عن أحواله محمد المكي إبراهيم في إحدى رسائله الخاصة كتبت إليه أقول «أما شابو فأشاهده في برامج ثقافية تلفزيونية - نظر إليه بشغاف يجلس وسط أناس ملتحمين لا يعرفونه - كم حلت عليه لمة الهدد - يتحدثون بلغة محمد فريد أبو حديد وعلي الحارم وعبد العزيز جويش لا يتجاوزون مقررات اللغة العربية في المدرس يحاول شابو أن يحقق بهم فيقعدونه بنظرهم انبلاء وروح التعالي الأجوف علمت أن أموره مستقرة نسبياً حيث يعمل بالتدريس في معهد لتعليم اللغات

كان شابو ولا يزال يكن إعجاباً كبيراً ومودة خاصة لصديقه الشاعر، ففي قصيدته «أغنية لمكي إبراهيم» يقول عنه،

صرت إمكاً غرافياً وثوقاً
أه يا طبعاً كما لمح العجاء
جئت بيلي

كمان الجزولي..

قمح الكلام وبيل المرام



«حبيب علي الشاعر أن يحكي من أي شخص في بلده»

بول إيلوار

«٧٠ بقص من قصيد الحمار أن يحكي من أي شخص في بلده»
الشعب من غير ليس قافية مدح، والد له الوطني أو الثوري لا تشع شد من الشعر»

فيكتور هيجو

الشاعر كمال الجزولي، نصبح قمح الكلام في بياديه واستوي حبراً، وامتدت
كرمه وتعرشت طلاً وريماً، وعدت دمه معتقة شمية، رفع عقيرته بالعبء والنشيد
لعدب وشتار من عيون ما قان فأهدي للمبدعين الراحلين المجدود وأبودكري
وعلي عبد القيوم وغيرهم، كان يرمي بشظايا حيدل الشعر في الجمر قبضة قبضة
حتى قف شعر المكان واعتنق، وبمبالت السدوف غبطة وثاء وامتداد، وتحاولت
أصداء أنفاس الشعب وأساق وجده ووعيه أنفاسه الكامنة تحرك أوراق العشب

شيلي بابلو نيرود .. عقدت الدهشة الستند.. ثُمَّ لَمْ يَبِثْ أَنْ إِنْطَعَبَ مَتَرَحِمًا
لِلشعر فوراً بلغته العربية الصفيلة ومفرداته لغتانه. كان يترجم بلا توقف وكُنَّا
نتلهف ونود أن نتحفظ الكلمات ولدهشة تتصاعف. وبعد أن أوقف حدثنا عن
صفقة عقدها مع القس الإيطالي راهبي «كنيسة الكاثوليكية بالمدينة «كوستي»
أن يعلم كل واحد منهما الآخر - العربية والإسبانية. إتحدداً أحد فصول المدرسة
الضبة العليا - حيث كان شابو مديراً - مكاناً للقاء التعلمي وبعد مضي ستة أشهر
كان شابو يكرر بالحضور ويملاً السبورة بأشعار لوركا ونيرود ومقتطفات من الأدب
الإسباني، ذلك قبل أن يأتي صديقه القس فاعراً فمه من الدهشة حيث كان لا
يزل هو في مرحلة «حمد واولد ولجمال». ثُمَّ لَمْ يَسِرْ «أدم ساعر ناه»

عاش الشاعر عبدالله إبراهيم محمد موسى (شابو) أياماً قصيرة في مدينة
كوستي في سنوات السبعين من القرن الماضي، كان يتلقانا في داره مرحباً
متهدلاً، ويجلس إلينا موفور الشباب.. رافع المحيا، بهي السميت، طلي الحديث
إلا أنه يعيب أحياناً ليختلي بصديقه الشاعر عبدالعزير سيد أحمد.. وكان يلقبه
ب«بحر العلوم» كان يقيم غير بعيد عن داره ويحمل مهدياً في مشروع سكر
عسلاية يحتلن فيتاحيان ويرصدان المعجرات ويتحدثان في المعارف والعلوم
والشعر والأدب والتاريخ مرابط حيولهما «برمجة في براري الإبداع». يقول إن
بديعه ذلك كان يحيره في ما يكون عليه الحديث ذلك المساء من بات نعتن
الكبرى أو درب التبانة؟ أم عن حصاره الإيكاء، أم إكتشاف الحديد وعن صهره
حتى يشف كالبنور؟ كان شديد الإعجاب بصديقه الشاعر عبدالعزير سيد أحمد
وكانت تروقه عراية أطواره كان يحكي قصة كرامه لأصحابه فرسان الرريقات
حين جاء والزبارة في الحرطوم، ورأى الدبائح لاني بالمطلوب فعمد بشراء أكبر
بقرة سمك من جهة حزان جبل أولياء تزن ثلاثين كيلوجراماً أو تزيد وأمر أن
توضع على المائدة كما هي معشوة بالخضروات وتوبل فامتدت بطول

المائدة تمر عن رعبته العارمة في إكرام الصبي

ولد شابو بمدينة الكوة في النيل الأبيض، وظلّ ولوعاً بها كلفاً مشوقاً وحين
كتبت مرة عن الدكتور النجاني الماحي، كان لا بدّ لي أن أهدر الكلام بشابو
الذي يكنّ تقديرًا عظيمًا لقريبه العالم الموسوعي وتحدثت عن الكوة أيضًا من
خلال محبة شابو لها فأعجب المقال أهل المدينة وأسعدهم وأبغى شابو
فسمي ذلك فهم بعض أهلنا ويسا وببهم صلوات واشجة

عاش شابو في مصر ذلك المحاصر العظيم الذي أعقب ثورة يوليو وتأميم الفساء
والعدوان الثلاثي وحركة التحرير الأفريقية في إبانها فانصل بالحركة السياسية
والثقافية وعاصر حيلي عبدالرحمن وتاج السر الحسن ومحيي الدين فارس
ومحمد مفتاح الفيتوري، ورأى كيف كان عبدالوهاب نبياني يتعاشى المجالس .
راعباً في رؤية القليل ممن يحب وينظي في مقهى رهش.. سلوكك لشاعر الجامع
والمتأني عن العادي والمألوف.. تلك الفترة تركت بصماتها واصحة في تجربة
شابو.. وكان لا يفتأ يردد:

(إثنان ما لاقيت أقرى منهما

شمس الصبحي والشاعر الحساس)

وعندما عاد من بعثته الدراسية في الولايات المتحدة كان قد إكتسب تجربة
جديدة باتصاله بذلك المجتمع وقراءاته للأدب الأمريكي عن كتب فالتمس
بعينه في وولت ويزمان وريتشارد رايت وجيمس بديوي وغيرهم

عاد ليعمل معلماً بالكلية المهمة العليا وينال في مجال الأدب والشعر في
سنوات الستين.

في الشهر الماضي إلتقيت بعد سنوات في الخرطوم بمكتب صديقنا وتلميذنا
الأديب الدكتور أحمد الصادق أحمد مدير معهد اللغات «صيلتي»، كان شابو

قد أنفق تسع سنوات يدرس الإنجليزية في ذلك المعهد بعد أن تقاعد عن العمل بورارة التربية، فقصصها بهراً وصيماً طيباً ودارت بين أحاديث الذكريات، فأنحما بصيب حديثه لدي تحلته قرءات شعرية كان يتكلم عن الشعر وعروصه ويربط ذلك بالحنان "الجابودي" في بادية السودان فأسمعنا كل جديد ومثير وطلب منه الدكتور أحمد الصادق أن يقرأ قصيدة «حجر» التي يقول فيها

مادا عبيث إذا اهتمدت

مادا عبيث إذا انقصى زمن لغناء

وصوحت أمجاد عمرك في لربيع

حجر تكتف ثم أقص في طريق السابغة

مادا يفيد الناس من حزن العريق

فالعشب ينمو فوق ظهر الساقلة

والشمس تشرق دائماً في الشرق

تشرق دائماً

وتلون الأفاق بالبهج العتيق

مزال شابو يتربع على عرشة الشعري ويتألق في مجالات الشفاعة ويتمتع بصلات واسعة مع المبدعين شباناً ومحصرمين، ويعرفه جميع العاملين بالصحف اليومية، يوقروه ويمحسونه كثيراً من الود والإخلاص، ومار ل قلبه كما قال

في قلبي هذا لرنان الأجراس

تحنان يشعلني حباً كالبحر

ويقتلني مقتا

صاعقت الأحرز الوقت

ضاعقت الأحرز الوقت

عرفات..

امثقف لمرهف والكاتب لطليعي



عرفات محمد عبدالله

شهدت سنوات الثلاثين من القرن لماضي في السودان غياب ثلاثة من أبرز رموزه في الإبداع والفكر والسياسة.. فقد غيب الردي خلالها الشاعر لعد وصاد انوطية خليل فرح والشاعر العفري التجاني يوسف بشير والكاتب الطليعي عرفات محمد عبدالله، قصوا ثلاثتهم ومارالو في شرح اشياء يشاركون بوعي في التأسيس الفكري ولايداعي لامتهم يشقون جهامة بيل سويل ما كان يلوح في أفقه صباح كتب محمد أحمد محبوب مقالاً مطولاً يتحدث فيه عن الرائد عرفات في محله «الفجر» في 16 مارس 1937 فقال أتذكر يوم أن مات عرفات صرخت العاصمة المثلثة جميعها تشيعه إلى مقره الأخير باكية حريفة ألم تقبل يومذاك إنه انتصير لدعوتنا، وإن الذين كان يهدمون عرفات وأنصاره ويقتلون من قيمة ما يدعون إليه ويكيلون انتهم، كانوا في ذلك اليوم أول لباكين وفي طبيعة نمشيعين؟ ألم تقبل يوم ذلك إنها الخطوة الأولى لشي خطاها لسودانيون نحو القومية السودانية؟. وما هي الأيام تمضي سراعاً، وما نحن مازنا مكافح ومجادل، وما هي مبادئ عرفات تزداد كل يوم رسوخاً في لأدهان،

كان ربيع لعجربة فتكتسح اركاكة والبذاءة والعشائنة وما راد من تطع وفجاجة

جاء كمال الجرولي إلى دولة الإمارات بدعوة كريمة من لقائين على حواتر
سلطان لعويس لأدبية، لحضور حفل توزيعها فاستضافه لمجمع انصاف في
أبوظبي بالتعاون مع لجمعية الثقافية السودانية التي قدمته فقرأ شعر جديدا
ناصحا، ناصحا بالحكمة والمعرفة مرورا بتجربة خصوصية قليل من الشعراء من
تعرض لها حيث وجه السجن والمعتقلات والتهديدات المستمرة بالتصفية
الجسدية. ذلك ما عبر عنه في قصيدته «هيس»

ليس القتل ما أخافه،

ليس المينة المفجعة،

ليس انفجار هذا الباب فجأة

أو دخولهم - عند منتصف ليل -

بالأسلحة المشرقة

لا.. ليس دمي الذي يسبح في قهقهة

ولا جمجمتي التي تشظى على لجدار

لكنما أخوف ما أخافه

هو الحول ذاته

ذاك الذي إذ غمعت عنه لحظة سرى إلى مسام الروح،

ناقلا وسوس المعاذير المنمنمت

في هيس الانكسار.

في مراثية للشاعر القليل فيديكو جارسيا لوركا قال شاعر محمد امكي
إبراهيم، في دروة عطائه وكده الحلاق، «لا يقتل الشاعر في أسبانيا وإنما يعقى
ويستتاب» لا أدري حتى الآن ماذا وراء هذه الكلمات هي القصيدة، ولكنني أذكر
أنها أعجبتنا وقتذاك ومارلت شعر ود امكي يظل دائما كالحبيب سائعا

للشائرين في مراحل العمر المختلفة مهما تعيرت كيمياء الجسد وتبدلت، الشاعر والحقيقة صنوان. والحقيقة ملكة الشعب وروحه. والإعتداء عليه محاولة لرواد تلك الروح وقتلها

وبوركا شاعر إسباني استطاع أن يمسك بكلك يديه بالروح الأسطورية ويعتمد تجربته ببيانياتها وريفها وفجرها وتاريخها العابق بالأمشاح الثقافية العربية كتب الشعر والمسرحية بابتكار وحدة وعفوية فأدهش العالم الذي لا يزال يتعامل مع إبداعه بكثير من التقدير والإكبار. وحين أردت قوات الفالاح السوداء في أحرى الحرب الأهلية أن تصيب إسبانيا في كبدها ونفقد روح المقاومة لاحقت الشاعر بيتاً بيتاً حتى اقتدته إلى ساحة القتل كالعائر المقرور لتقع المأساة التي لا يزال هولها ماثلاً.

وكمكان الجرولي هو «بن الشعب». ولد بأم درمان في وقت كانت في قمة مراحلها الثوري تهباً للمحاضرات لعظيم وشأ فيها وتلقى تعليمه في مراحل الأوس بمدارسها ثم هاجر إلى كيبف لدراسة القانون ومد ميلاد قصيدته «أم درمان تأتي في قطار انشامة» بات أحد الشعراء السودانيين المعروفين وكان لا يزال طالب بالجامعة

كان لتجربته في الإنحداد السوفييتي أثرها حيث تعرف على كتب وشعراء مختلفين قادمين من أصقاع الأرض البعيدة. وعاصر مبدعين سودانيين كانوا مقيمين ودارسين في موسكو أمثال لشاعرين جيلي عبدالرحمن وعبدالرحيم أحمد عبدالرحيم «أبودكري» والفاس مصطفى مبارك مصطفى. وكان بينهم صداقة وود وطل هو وأبودكري يتراوران متنقلين ما بين موسكو وكيبف وقد تابع كمال «تجربة المأساوية بصديقا أبو ذكرى التي قادت في النهاية إلى موته

ومن عجب أنني كنت أفكر في الكتابة عنه هذه الأسبوع عندما عثرت بين أوراق

عنى حوار أجراه أبودكرى مع المجدوب هي أوائل سنوات الثمانين الماضية وبشرته إحدى الصحف السودانية أدخلني ذلك الحوار في العالم الشري للشاعر المجدوب الذي شاقني تناوله للغة واستخدامه للمعردة، كنت أنهي للكتابة عن ذلك لولا أن فاحأنا كمال الجرولي بربارته لمباغة

قبل سنوات نشرت صحيفة "الاتحاد" الطيبانية للشاعر كمال كنانة الشاكلة عن صديقه أبودكرى. كان داهلاً وحاصراً عديم كتب، وكان ماثلاً لديه ذلك اسبوع الشعري والمبقرية المفدة، فتفتح راصداً تلك الملحظات الأليمة والتحويلات المريعة التي كانت تحاصر روح الشاعر وتسوقه إلى مشارف الردى.

بعد سهرة عامرة بالود والمشاعر الغياصة جمعت عدداً من الأصدقاء بمصر صديقاً المبدع عثمان حامد سليمان، إحتفاءً بالشاعر الرائر، عدت مغتبطاً أتابط مجموعة من الأعمال الأدبية وفكرية من إنتاجه الأخير، ولم يهدأ بي خاطر حتى تصفحت كثيراً مما تضمنته فأطربني أيما طرب وملأت حواسي بالرحا والعرقان

فكمال ليس شاعراً مجيداً بحسب وإنما كاتب أيضاً واع بدوره ومسؤوليته كمنقذ وطني قبل كل شيء. كتب مقالات ثرية بصراحة الأكاديمية وعدوية الشاعر واستندى كثيراً من المراجع. التهمها بأناة وبصر. حكف عنها مشيراً، حاداً ودوياً. متمكناً من أدوته الأيدعية في الروية والإمعان. لم تمتعه روح المكاهة والمسامرة رغم ما احتوته تلك لنصوص من فصل الريادة الفكرية المبكر بقصيانا الشائكة المعقدة.. تشعر كأنك تفتح عالمًا فكرياً جديداً.. وأنا لا أريد أن أقصد عني لقارئ متعته قبل نشرها واستعجل فرحاً مجروراً وإنما سأعمل عني إتاحتها للجميع في موعد جدد قريب

19 أكتوبر 2002

حكى عنه يقول «إن رجلاً يدرك للحياة أسمى معانيها ذا عقل نفاذ وفكاهة حاضرة، شاعراً سواء أنظم الشعر أو دبح الشر، أو عنى بأثر المتقدمين أو المتأخرين، فدأ سواه أكان عارفاً على آلة أو معيماً، أو رساماً، أو عاشقاً بهذا أو ذاك من صروب الفن سيجد عيشاً الذي نحن فيه جداً ممل وعقيم، فإذا به يقرر أن الله لا يعير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا كُنا نحن محرومين من الكثير من مباحج الحياة ومقوماتها فلا أقل من أن نعي بما يخفف بعض الشيء من مرارة الحرمان، وإذا لم يكن في ميسورنا أن نشيء «نادي العمون والآداب»، نظراً لقلّة الذين سيقبلون على الانسحاب إليه، ولأن بيئتنا لم تمتد بعد إلى هذا اللون من اللذات المعنوية، ولا ندُّ لنا من نشر لدعوة الأدبية وتهذيب الأذواق، وترويض الناس على تذوق الفن، فلنبداً بجماعة صغيرة تلغون والآداب يقوم أعضاؤها بمهمة الرّواد في هذا الميدان.

صدر كتاب «موت دنيا» لمؤلفه محمد أحمد محبوب وعبد الحليم محمد في عام 1946، ولكن الواضح أنه كتب قبل ذلك، فالتجارب المتعلقة بسنوات الثلاثين وبديّة تكوين الجمعيات الثقافية بدت حارة متدفقة بحيوية التجربة وعنفوانها.

وافقت تلك المجموعة على إقترح عرفات الذي وجد هوى في عوسهم المتعطشة للمعرفة ولبعث الجديد في تلك الأيام المفقرة، وشرعوا في تكوين جماعة للفنون والآداب فقدموا المصاحرات لتأكيد دور الثقافة في حياة الناس، إلا أن هذه التجربة لم تعمر طويلاً حيث تعرّضت المجموعة لضغوط عراها المحجوب بجهات وصفتها بالرحمية عملت على الكيد لهم وبحثت في مسامها بحديثهم عن المصبي قداماً، ولكن يبدو أنهم ابرؤوا إلى حين ثم لم يلبثوا أن أعادوا الكرة بإحياء حميتهم التي عرفت بمجموعة لها شعاب والتي قدر لها أن

وترداد القلوب بها إيماناً، ولكن هل أدركت يا أخي أن المسؤولية قد تصاعقت وأن العبء قد ثقل، وما قد بدأ مرحلة جديدة من مراحل الجهاد، لقد تطور الأمر، فبعد أن كان محصوراً في دائرة جماعة تدعو إليه أصبح اليوم جهاد أمة»

يبدو أن عرفات لم يكمل دراسته في كلية عردون. إصطرنه ظروف ما لم يفسح عنها أحد إلى حجر مقعده وهو في الصف الثالث. وذلك رغم نوعه ومن ثم التحق بمصلحة لريد والبرق كاتباً ومترجماً.. وكانت تلك المصلحة تغص بشباب متوثب عالي الهمم، كانوا يقرأون بهم شديد ويتقارصون الشعر ويحنون الأدب، وأصبح عرفات ربحانة المجالس وقطب الرحى في حلقات الأسس والنقاش

وقد ساهمت هذه المصلحة بعدد وافر من الموظفين الذين شاركوا في أحداث ثورة 1924 وفي مقدمتهم عبيد حاج الأمين، وصالح عبد القادر

وبما بات عسراً في قيادة جمعية اللواء الأبيض، التي تبلورت أهد لها راشدة ساعدها خلال عامين أو ثلاثة من تأسيسها، رأت الجمعية أن تعث بعرفات إلى مصر كممثل لها هناك. حيث معقل النهضة ليهبلي بالأوار الذي حلفته ثورة 1919 وليؤسس مسيراً للجهر بحقوق الإنسان في السودان

ترك عرفات الوطنية ملياً نداء الوطن، كما ترك عائله الصغيرة، زوجته وطفليه- في وقت كان يعتبر فيه مثل هذا السلوك صريباً من صروب المغامرة وقد أعلن لدى وصوله إلى القاهرة قوله ما جئت إلى مصر طالب مال ولا باحثاً عن عمل ولكني جئت أعرض مطالب شعب وأدافع عن قضية أمة».

وفي 26 يونيو 1924 حين حثمت الإنتفاضة المعادية للإحتلال البريطاني في الخرطوم والمدن السودانية الكبرى وانطلقت التظاهرات وجّهت جمعية اللواء الأبيض نداءً لسودان إلى الأمة البريطانية». وقد ترجم عرفات النداء إلى اللغة

لإنجليزية ونشرته صحيفة «التايمز»، كما نشرت «الأهرام» نصه باللغة العربية. كان الهدف من النداء طرح القضية السودانية أمام الرأي العام البريطاني ويضع على حقيقة جمعية «اندواء الأبيض» وأهدافها، ورفض النداء للإدعاء بأن السودانيين راضون عن الإدارة البريطانية وانتقد أداء الحكومة في الخرطوم في مجال الاقتصاد والتعليم واعتبر مشروع الجزيرة مررعة خلعية لمصانع لاشكيز لإمدادها بحاجتها من الأقمص بأهص الأثمان.

ومي تلك الأيام لتي حفلت بالصحيح والحركة في مصر والسودان اعتيل لسير لي سناك سردار الجيش المصري في شوارع القاهرة واعتقل عرفات ومجموعة من رفاقه السودانيين متهمين بالتورط في حادث الاعتيل، وروح في لسجن سبعة أشهر أمصها متدرعا بانصير ومثالا للثبات.

ولما أفرج عه المي الجو ملبدأ بالعيوم والأمور قد تغيرت والترم الكثيرون دورهم تفاديا لحملات الضمع والإرهاب فاضطرته الظروف لأن يفتح حانوتا لبقالة ليسد رمقه هو وبعض من الطلاب السودانيين الذين هربوا إلى مصر طلبا لعلم، ثم لم يلبث أن توجه إلى سباء ليعمل في شركة إنجليزية للتعبدين حوالي العام، ومن هاك رحل إلى حدة وانتحق بالعمل موطفا في شركة انقاعة للسيارات، وكان يجد في أوقات مره متسعا لتقديهم دروس في اللعنين العربية والإنجليزية لبعض الراعبين وأصبحت داره قبلة لروار حدة من السودانيين ومصريين من لبحج وغيرهم.

بعد اعتر ب دام أكثر من خمسة أعوم عاد عرفات إلى السودان، والظروف كما هي. عسف وتصبيق. فكتب إلى أستاذة المستر هيلسون مساعد السكرنير لإداري في لشؤون لأهلية يطلب مه أن يسهن له سل العودة إلى الخرطوم متعهد بالمحافظة على الأمن انعام لمدة عامين.

وهللسون هد مستشرق معروف عمل مدرساً في كلية عردوب التذكارية، ونقلب في وظائف إدارية مختلفة، وحاء في رسالته لهيلسون «لقد اشتركت فيم اشترك في حركة سنة 1924 ندفعي إلى ذلك وطنيتي، ولد فشلت في مهمتي أريد العودة ايوم إلى بلادي ولا أقطع على نفسي عهداً بأنني إذا دعيتي ظروف الخدمة العامة في بلادي سأحجم عن ذلك»، عاد عرفات إلى الخرطوم لا لبيع في داره وإنما لينسل إلى لمجتمعات ولينعرف على الأوساط التي حال عهده بها، ووجد في نادي المخرجين صالته فشارك في المسرح، وشهد الناس مُخرجاً وممثلاً جيداً يؤدي دور محبوب ليلي فيتمتع الإعجاب والتعظيم، وحدث في سبيل دعم المشروعات الشعبية كالمدرسة الأهلية والأحفاد وملجأ العرش، فعل ذلك دون أن يجرفه التحرب أو الانشغال لعبير ما هو قومي كان نشاطه ذلك وصلاً لما انقطع بسفره خارج السودان، فقد كان يشارك في ليالي المسرحية التي شهدتها عام 1924 ووجدت إهتماماً وإقبالاً عظيمين للإجادة التي تميّزت بها تلك الجماعة المسرحية من شباب الموظفين والطلاب وفي مقدمتهم صديق فريد وعرفات محمد عبدالله وعبدالرحمن علي طه

حين عاد عرفات مكتسباً خبرات وتجارب جيدة خاصة خلال فترة وجوده في مصر، أبدى إهتماماً واصحاً بالثقافة، فتلقف فكرة محمد عباس أبو ابريش لإشياء مجلة «النهضة» وبدل وقته وقلمه في حماس أدهش الجميع وحين احتجبت بموت صاحبها أبدى حرجاً وأسفاً شديدين كان واصحاً إهتمام عرفات بدور المثقفين كمنهجية قادرة على الاصطلاح بمهمة النهوض بالوطن

كتب المحجوب في «موت دنيا» أن عرفات الذي التقاهم بعد عودته من الخارج وكانوا فتية أبعاعاً كان يحدثهم عن تجربة سواب مصت «كاست مُعصمة بالشعر ونفس وبالآدب والجمال» جمعيته ومهتمين آخرين، ومن المؤكد أنه كان يحثهم على حرص تلك التجربة ليشكلو جمعيات ثقافية تلعب دوراً في بورة

والإصرار وأعلن عرفات أن «المجلة ستركز اهتمامها على الفنون والآداب والثقافة وأكد أنها لن تكون ساحة لتصميمية الخلافات أو الإيجار لصرة حرب على الآخر لم تكن الأحرار السياسية قد برزت بعد وبقي لها عقد كامل من لسوات حتى تتطور الاتجاهات ويتم تأسيسها، إلا أن الخلافات بين «الشوقية» و«العاجية» على رعاة نادي الحريجين كانت تحيم على أجواء العاصمة.

وبعد عام من صدور حطت «العج» خطوة جديدة بإعلانها الإهتمام بالحياة السياسية والاجتماعية في إطار ما وصفته باستجديد الإصلاح الرشيدي وهي محاولاتها بحلق شعور قومي وتأكيد الهوية السودانية دعت جماعة «العج» إلى التأسيس الفكري والإبداعي القومي الذي يتماشى مع خصوصية شخصية السودانية ومكوناتها الثقافية.

كانت تلك لجماعة قد لوات الأدب العربي بصفة عامة والإجباري على وجه الخصوص خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والأدب العربي قديمه وحديثه وتوفرت على معارف شتى.

وعندما صدرت صحيفة «النهضة» وتلتها «العج» باتت تلك المجموعة مواجعة بإبداع سوداني يرتبط بحياة الإنسان في بلادهم.. ومن وضع للأسس النقدية وكثيرة بلقصة والأجناس الأدبية الأخرى «في بلد إنعدم فيه الفن وخلت مجالسه من المرح» كما عبّر محمد أحمد محجوب الذي أكد بأن العدد الأول لـ«العج» «زدهى بما بين ذهنيه من بحوث أدبية، وشعر جميل، ونقد اجتماعي أشبه بصنع الجراح الذي يعرف مكان الداء فيقتله معجلاً بالشفاء، وما كنا نتظر لمدح وإنشاء بقدر ما كنا نتظر النقد والتجريح ولم يحيب الناس طناً بهم، فلم يعجب بعضهم بحث صديق أديب عن «سافو» شاعرة لسيوس اليونانية المبدعة، ولم تعجب البعض لأخر نقداً «لرقيب» في صدى المجتمع، ولكنا لم نصدق درعاً بذلك، بل مصيباً في مسيلنا، وإذا بصحيفة يونانية تصدر في الخرطوم تحيي

تلعب دوراً أساسياً في التأسيس العقري وترسي تجارب عميقة متصلة بالثقافة السودانية وقد شاركت تلك النخبة بحماس في قيادة الحركة الفكرية والثقافية التي انتهت بقيام مؤتمر الحريجين العام، وسعت تلك المجموعة إلى تكوين ذاتها بالقرء المتصلة والمناقشات المستفيضة وألقت إماماً عميقاً بالنعش العربية والإنجليزية وتنامت تيارات الفكرية والثقافية السائدة وقتذاك حتى توفرت على ثقافة موسوعية

وعندما أصدر عرفات مجلة «الفجر» كان أفراد المجموعة هم كتّابها وشعراؤها بررت ناصجة ناهست مثيلاتها من المجلات العربية كـ «البلاغ» و «الرسالة» و «القيامة».

وإستضافت منذ ميلادها أن تستقطب قراء كثيرين كانوا يتسابقون لاقتنائها وقد كتب الأستاذ عبدالقادر حمزة - الكاتب المصري - في مجلة «البلاغ» الصادرة في الخامس من نوفمبر 1934 يقول «تصل إليّ في أوائل كل شهر مجلة سودانية تصدر باللغة العربية اسمها «فجر»، وهي من المجلات العربية القليلة التي أقبل على مطالعتها بعناية رائدة وبشعب غير قليل لأسباب عديدة منها طرافة ما يعالجها كتابها من موضوعات وجودة اللغة التي يكتبون بها وجرلة الأساليب وغير ذلك مما لا نجده في مجلات كثيرة تصدر في بعض بلاد الشرق العربي، وتدعي التفوق والترحم في الأدب الحديث».

تحدث السكرتير الإداري لحكومة السودان جيمس روبرتسون عن شعار «سودان للسودانيين» في عام 1945، وقال إنه نفاة حسين الحليمه شريف في عام 1928 تفرقت جماعة هذا الشعار، إلا أنه ظلّ يعمل في نموس بعض الموقوفين ولصباط حتى عاد للظهور مجدداً بعد بصع سنوات كمصدر إلهام لجماعة من الشباب المثقفين يعرفون باسم «جماعة الفجر» كان يقودهم عرفات

أصوات

محمد عبدالله الذي لعب دوراً بارزاً في اضطرابات عام 1924، ولم تعد لديه أوهام بشأن مصر.

كان حسين الحليفة شريف قد كتب في صحيفة «الحصارة» خلال شهري أغسطس وسبتمبر 1920 أربع مقالات بعنوان «السودان ومصر أو المسألة السودانية» تصدى فيها لمطالبات مصر الملكية والباشوات الإقطاعيين الذين أخذوا يتحدثون بصوت عال عن حقوق تاريخية في السودان حقوق الفتح والسيادة! وذلك في أعقاب ثورة 1919.

جند حسين شريف موقفه في شعار «السودان للسودانيين» وهي أوقات لاحقه تراجع عن موقفه المتشدد إزاء مصر ورأى «ضرورة إقامة نوع من الاتحاد بين مصر والسودان للحفاظ على الروابط التاريخية للبلدين»

كان عرفات أحد قادة حركة اللواء الأبيض قد عاد من مصر بعد سجنه في أحداث إغتيال السير بي سنالك وبعد خروج الجيش المصري من السودان إثر تلك الأحداث العاصفة التي بلغت ذروتها باصطدام فرقة عسكرية سودانية بالجيش البريطاني، وكان قد تردد أن هناك اتفاقاً جرى بين قائد الجيش المصري أحمد رفعت ومجموعة من اصباط السودانيين الذين قادوا لانتفاضة المسلحة. لا أن رفعت تراجع عن الدخول في معركة إلى جانب السودانيين ضد الإنجليز وانصاع لأوامر الملك فؤاد بمعادرة الخرطوم فوراً كان عرفات واحداً من بين عدد من المنقذين السودانيين الذين أحبطهم هذا الموقف ودعمهم للبحث عن دروب أخرى للتصال من أجل قضية السودان وكان أبرز هؤلاء إلى جانب عرفات، صالح عبدالقادر، وعبدالله خليل

كان كل ما يملكه عرفات حين تقدم هو ورفاقه لاستصدار رخصة مجلة «المجر» جيبها مصرياً واحداً، صدر العدد الأول في لثاني من يونيو عام 1934 بالعم

أصوات

«أيها الناس إننا نحترم العقائد والمبادئ والآراء ونرى في اختلافها ظاهرة طبيعية بل محمودة، وليس من رأينا أن نقول للتعبير طلقوا عقولكم ولا تطلب إلى أحد أن يقيد نفسه برأي غيره، بل إن رأينا الأمر قد حاز حدوده المحقوقة وأفسد على الناس تفكيرهم فإن نقول تعالوا إلى كلمة سوء» «إب نفهم، لو كان للمهم قيمة أن الحزبيين المحترمين يضم كل منهما جماعته من «المجددين» إلى أفراد من «المحافظين» أو من يسمون كذلك ولم أسمع مطلقاً بأن الحزبين يمثل أحدهما «الشباب المجدد» والآخر «الكهولة المحافظة» فكيف إذن يربك بوق بين هذا وبين التعبير الذي أفهم على مقال الأديب «س.» ما لم يكن أنفاساً من الشطط ما كنا في غنى عنه. إن هذا يذكرني بتلك القصص الظريفة التي جرت مجرى المش بين العوام عن «البعل في الأبريق» والجميل الذي طبع لمحلة والورة التي هي عز ونبو طارت». «إن رأيت في «الحربية» قد طرجهاء للملأ قبل اليوم. وهو أن نستكرها ونرتقب اليوم الذي لا نرى فيه إلا بنياناً مرصوحاً يشد بعضه بعضاً. وقد يسر المرء إذ يرى بيران الحرب الحربية تخمد بعض الشيء ويرى الناس كل يسير في عمله، ويمضي في سبيله لا شعب ولا حب». هذا نموذج من كتابة عرفات وأدائه الحكيم وسعيه لوحدة كلمة الأمة وقد شملت كتاباته السياسة والأدب والاجتماع والصحافة والمسرح والاقتصاد والتعليم والفلسفة واللغة

استطاعت «لعجرا» أن تصدر بصورة منتظمة حتى توقفت مؤقتاً لإصابة عرفات بداء الرئة وصراعه مع مرضه حتى توفي في عام 1936 ولثم يبيع الأربعين من عمره. كانت جرأة عرفات وشجاعته وريادته هو وأصدقائه الكتاب الذين لم يتناصوا أجرة قط سبباً في تحقيق تلك التجربة الثرية

كان إلى جانب عرفات من الكتاب الذين ساهموا بأقلامهم في مجلة «العصر» محمد أحمد محجوب ويوسف مصطفى النسي، ولنجاني يوسف بشير، ومرصفي

مجنث أحسن تحية وما صدر عدد من أعداد «المجر» إلا وأعقبته صجعة في دور الحكومة وفي المجتمع والحكومة غير راضية عن توجهاتها، صائفة درعاً بما توجهه من نقد لسياساتها. والمجتمع شك في أمره لأنه لم يتعود مثل تلك الصراحة في النقد ومجابهة الحاكمين ولا يراى يشكو من العقد النفسية. فقد الحوف وروح المشروع، ولهذا أصبح في حال لا يحسد عليها، لأن الحكومة تعتبره معادين بها، والمجتمع يحسبنا مماثلين للحكومة ولما سكنت عما وكم مرّت بنا من ظروف أظفقت علينا الحيرة عاقاً قائماً، إذا حاولنا نقد المجتمع والأمر وحدهم ضيق الصدر لا يرحبون بالنقد وإن كان للصالح العام والحكومة كصاحب بيت المبي من الرجاء ما رأيت حجراً مطوحاً في لعناء إلا طنه موحهاً إلى داره بقوس أركانها وكثيراً ما فكر بعصا أن يحطم القديم ويهجر انقراطس ويطلق الأعمال العامة، فأنها لا تورث صاحبها في ذلك الجوا البعس إلا لإنهم والحررة والألم.

هؤلاء كانوا يؤسسون ويدفعون صريخة الريادة واقتحام المجهول، إلا أنهم أكدوا أن عرفات كان أكثرهم احتمالاً للأذى، وكان يشجعهم على المضي قدماً في ذلك المشروع الأساسي ويطالبهم بعدم الإهتمام بالنقد وعدم الإهتمام بالشء واستقدير. وقد تميّز عرفات بالحرونة والحكمة فكان يهديء من ثورة لشباب إذا اشتعلت وتبدي صرامها ولكنه يدكي لهيبها إذا ما رأى لجم يوشك أن يصير رماداً وكانت يدرة الأمن العام تتابع بإهتمام بالغ ما تشاؤله المحنة ولا يكف جرس الهاتف عن التبرين مهددين نارة ومتوعدين أخرى، وعرفات ما من بجراته غير عابيه حتى حسبهم المعص على صلة بالنسطة خاصة بسبب علاقتههم بدور عطفية ندي كان مدرساً بكلية اردوس، وهو لسانى ماروسى كان عمه صموئيل عطية يعمل في قلم المحاورات ودور هذا عرف بعلاقاته الواسعة بالثقفين السودانيين وقد ألف كتاباً بعنوان «عربي يروي قصته» ورد فيه تحربة

معاوية محمد نور ومشاهد من المجتمع السوداني في ذلك الوقت.

طالب المحجوب على صفحات «المعرج» بالتعبئة القومية لتحقيق الإستقلال، لذاقي على الأقل إن لم يكن هناك نصيب من إستقلال سياسي وحددت المجلة الخطوات الأولى للحكم الذاتي بتوفير الوظائف ذات المسؤولية للحريجين حتى يتمكنوا من الإلحاح بقضايا الحكم ومشكلات البلاد ومن ثم المشاركة بفاعلية في تقرير مصيرهم.

وهاجمت «المعرج» توجه حكومة الإحتلال للإعتماد على الإدارة الأهلية، وأبدت اهتماماً عميقاً بالتعليم ودعت إلى رفع مستواه ومراجعة المقررات المدرسية لتلبي الاحتياجات التعليمية والثقافية في المستقبل. وطالبت بتوفير التعليم العالي للفرد السوداني فرصاً أفضل في نيل الوظائف والترقي كما اقترحت ألا يتلزم التعليم مع احتياجات الحكومة للموظفين وإنما يكون ضرورة من أجل ذاته، «لتحريج جيل مفيد حقاً وبعدد سودانيين راقين لا أشياء أجنبية» كانت الفترة التي صدرت فيها مجلة «المعرج» من أكثر المسعطات حدة في تاريخ السودان المعاصر، حيث أعقبت أحداثاً مهمة وقعت في عام 1924 تمخضت عنها نتائج طالت تؤثر بشكل مستمر في رؤى وأفكار الحريجين، وأصبحت تلك المجلة السبر الوحيد الذي يتم حووه المثقفون كتاباً وقراء حيث أتاح لهم الفرصة بلورة آرائهم ومواقفهم ومقترحاتهم الخاصة بتنظيم أنفسهم لمواجهة قضاياهم والتعامل مع سلطات الإحتلال

وعندما أعلنت فكرة مؤتمر الحريجين تبنتها «المعرج» وأحدث تعبّر عنها وتتابع وقائعها وأخبارها حتى قيام المؤتمر ليتوَّح مشروعها الفكري والسياسي وظل عرفات يبدل جهوده لتوحيد كلمة الحريجين وتنسيق مواقفهم وكان كثيراً ما يكتب ناصحاً وموضحاً كيفية الحوار وإدارته واحترام وجهات النظر المختلفة كتب مرة مقالاً حول ذلك جاء فيه:

عاماً يصحبه جماعة من الفقراء، وهناك أسدى صروباً من الكرامات كشفاء
امرصى وقضاء حوائج الناس كان يرفع يديه فتسقط فيهما الدنانير فيوزعها
لطلابها ولكن حدث أن رجلاً من الأشراف في مكة دعه يستعين به في قضاء
أمره ولما رأى حوارقه حاول أن يسببه مكنونه ولما أن أعينته الحيلة وصف له
كراً في السودان ليفتنه بالديار ولما عاد إلتمس الكفر فوجده ومن ثم اتسع
رقه. فكثر مواشيه وكلف بها خمسمائة من مريديه يركبون الحبل ويحملون
السيوف العزينة بالقصة ويقومون في قرى مفصلة لكثرتهم وشيد زريتين
لماشية ليبيع منها للأصفياء في كل صباح إلا أنهما لاتفنان تمثلان كما كانتا.

ذكر الشيخ عبدالصادق ولد حسين أنه حدث أن ر ر الشيخ حسن في بلدته.
إلا أنه لم يجد حيث كان يتعبد في الحلاء، فلما نظره لأيام سمع ذات صباح
هرجاً ومرجاً والنساء يصرعن، خرج بجميع يشاهدون عودة ذلك الشيخ الذي
وصفه بأن كان قصير القامة، أصعب، إلا أن به دوابت من الشعر مصفورة يرتدي
ثوباً من الدمر ويحمل عصا في يده رآه يشق الجمع حتى يبلج الحوش وهي
أوب النساء صرعت الطبول وفرشت سجادة رومية على لدكة أمام الديوان
وحرح إلى اساس يسلم عليهم ويقصي حوائج المحتاجين منهم. وفي ذلك
المجلس عرست عليه فتاة مريضة مطلب أوقية من الذهب مقدس شعائها ولما
جاء بها طلب من أمها أن تلبسها رجليها وأمرها أن تقوم فترقص وتلقى بعدائها
فوق أحد حيرانه الجالسين كان ذلك الشاب قد أسر قولاً في نفسه بيع أمره
الشيخ الذي رد عليه بذلك وأشبعه قولاً يؤكد عطلوته عند الله حتى أحمل
الشباب وفي ذلك المشهد أيضاً حلب من رعاء الصائغ الدملين معه أن يطلقوا
الحملات برصع م تشاء ومن ثم يهضون للحليب، وبعد ذلك تبقى من الناس
بعد اكفاء صغار لصائغ م يبلغ ثمانية عشرة وبة- وأطها القرعة الكبيرة أو
البرمة.

محمد خير (مهمان) والأخوان محمد وعبدالله عشري الصديق ولسيد النيل
وجمال توفيق بدوي، وصالح عبدالقادر والهدي عمرابي وغيرهم

4 ديسمبر 2001م.



سير لي ستاك (إلى اليمين)

الطبقات..

بين غرابة الوفائع وعدوبة النص

«قال ياكوفي أنا في حلوة راقدا، رأيت نجمة كبيرة في السماء تعلقت بها روحي وخرجت من جسمي، فطارت، فحرفت السموات السبع، فسمعت صرير لأفلام، فهو كان ياكوفي بعد محمد نبي نبات، ثم رجعت فوفعت في جزيرة من جزير المالح فعاءني رجل لايس كسيين من صوف فلقيني اسمي ومشى معي حطوتين وجاني في قوز الصنوبريات فوجدت الشيخ الربيع في الدرس ومعه ثمانية طلاب فلما قابلتهم رطت رعدة عجمية. فتركوا القراءة، ثم رجعت فوجدت رواسي عنده مركب، فأدخلني فيها، فجلست طالبا خلوتي فوجدت أبي في ساقته فحاطبني. أقعد يا فقير لا من سرك لخلوة فيها فقير محتل بنفسه فدخلت خلوتي فوجدت ياكوفي جثتي في الجبة إذ تشروها بالماشير ما تتحرك فماعت لها روحي قد دخلت فيها»

هذه التجربة الباطنية العرائية الفدة وهذه اللغة البديعة العجمة التي انسقت مع محتواه وتجوهرت في نصها خطها الشيخ محمد النور صيف الله قبل قرين كاملين من الرمان وصف بها تجربة الشيخ حسن ودحسوة ضمن مؤلفه الباذخ كتاب «الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان»

بعد فراقه من خلوته يرتدى الشيخ حسن ثيابه الحشنة المصنوعة من لحاء لعشر وثني أدمت إهابه وبركبه فيه أثرها من القروح حج الشيخ حسن إلى بيت الله لحرام ومساح في الأرض من الحجر إلى مصر والشام حوالي إثني عشر

وقد سنجهم بالبنادق.

هذا الكتاب رغم أن تأليفه تم قبل مائتي عام. وتناول أحداثاً تواترت عبر لروايات الشفهية وحدثت قبل كتابتها بعائتي عام أيضاً ورغم أنه اشتعل على كثير من المبالغات. إلا أنه يكشف عن معلومات ثرية ومهمة عن حياة السودانيين الدينية وعلمية والأدبية ولسياسية والاقتصادية ويقدم المؤثرات الحقيقية التي أسهمت في تكوين شخصية السودانية المعاصرة.

تعليبت انلهجة العلمية على المصححي في كتابته، إلا أنها لغة حية وعصية ومشحونة بالدلالات الموحية وعلى الرغم من إكتشاف بعض الوثائق والمؤلفات التي أرحت لعهد المروج. وهي الفترة التي تناولها الكتاب - فإن «الطبقات» على يحد الأسس المعرفية الحقيقية التي لا يستطيع الباحثون تجاوزها وكان أول من أرشد إلى قيمة كتاب «الطبقات» واهتمد عليه هو الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي، كاتب الشوبة، ومؤلف كتاب «تاريخ ممالك السودان» أو «مخطوطة كاتب لشوبة»، وقد حظي هذا المؤلف باهتمام عدد كبير من الباحثين والماشرين أمثال ماكمايكل، وهيلسون، وسليمان داوود مدين، وعلي عبد الرحمن الأمين وعبد لرير أمين عبد المجيد، ومكي شبيكة، وعبد المجيد عابدين، وهولت، وعلي محمد علي، ومحمد محبوب مالك، وحسن العاتق قريب الله

وتعكس مادة «الطبقات» أن مؤلفه ود صيف الله رغم ثقافته الواسعة لم يكن مؤرخاً بالمعنى الدقيق المعاصر، إلا أنه كان مرآة صادقة وسجلاً حافلاً لما حدث في عصره من أخبار وأحوال راوياً أميناً لكل ذلك وكان دفعه لتأليف هذا لكتاب دعوة من بعض زملائه طلبوا منه أن يؤرخ لمملك السودان وأن يذكر مناقب الأولياء والأعيان فأثر أن يقتدي بمن سبقه من المحدثين والعقهاء والمؤرخين ممن تناولوا هذا المجال وألغوا في التأريخ والمناقب أمثال عبد المعمر لياثوري، واليوطي، وابن حجر العسقلاني، والشيخ أحمد المقرئ. ولا

وفي مشهد آخر روى لفيقه عبدالصديق أيضاً يصف إحدى أماسي شهر رمضان في حاضرة الشيخ حسن ودحسونة وكأنه يصف إحدى بيالي ألف ليلة وليلة، قال إن مئة وعشرين حارية جثي يلبس أحر الشبان ويحملن أقذاح طعام كانت كل واحدة منهن تلبس سواراً من النحاس يحيط به سواران من الفضة، وكل حارية تتبعها أخرى صغيرة هي أدنىها قرطبان وترتدي ثوباً «دردبيسي» وتحمل صحناً، وكل حارية تمشي وراءها أخرى وهي معصمها سوار من الفضة وترتدي فردة مير وتحمل قرعة. وجلس هذا النجم الصغير من الفتيات أمامه وأخذ يوزع الطعام على أساس، فتبسط كل حارية تحمل بهاءاً وتقدمه للصيوف حتى فرع من الجميع بقيت حارية واحدة قامت بوضع قدح وصحن وقرعة أمام الراوي ودحسب. وبما كشفت أعينها وجدوا فيها ديكين وفرخي حمام وعصافير. وقال الشيخ حسن «إن بطوريا هذا المساء كله دجاج مربوط على الرعدة لمدة تسعين يوماً» وبما جرى ببطور لشيخ بمه رأى الناس طستاً ملأاً بماء (القرص) وطبقاً يحتوي على مطالة «حبيرة» مصبوعة في الرماد الساحب «المالة» ففص عنها الرماد وشرب ماء (القرص) وأخذ طرفاً من المطالة فته في (القرص) وأكله ثم تمصص وقام للصلاة

هذه الصورة الباردة ليست من نسج الخيال وإنما كانت جزءاً من الواقع الاجتماعي الذي عاشه السودانيون في حوالي القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. كان هؤلاء الشيوخ أعمدة الحياة الاجتماعية وأمرأها غير المتزوجين وكان بعضهم قد حارثوا وأسطحوا. كثيرون لم يقتسم ذلك الثراء وإنما كانوا واحداً بهوي إليها انصيوف والغرباء. كان الملوك يحسدوهم على تلك المكانة ولا يجرؤون على مسهم حتى لا يعطبو

وورد في سيرته تلك تصوير مدهش بموكب له توجه إلى سندر تبينة بدعوة من الملك بادي ولد رباط ليعالج أحماء بصرأ الذي أصيب بنوع من الشلل «ماسكاه

عراً لا عجباً» يحاطه نوع من التجنون، فتأهب للسفر يصحبه أناس كثيرون بعضهم مطالبين وأخرون مطلوبون للمعدالة. كان الموكب مهيباً حيث تصدّمت أمامه ثلاثة وأربعون من الحيل العتاق مطهّمة ومسرّجة بأفصل أنواع السمروح وليس على ظهورها فرسان وهو راكب حمله. ولما اقترب من سدّ رأه الملك نادي فقل إن هذا الفقيه أحد ملوكنا، ولما علم الشيخ حسن بذلك طلب أن يطلعوه بأن ملكه هذا عرّس عليه فلم يقبله. ولما أقبل على مريضه حرج الناس إلا أنه واخته اختبان في "القطيع"¹ فرأتا عجباً حيث قدم لشيخ بدبّعه ومن ثم شفاها وانفض وأخذه إلى أخيه الملك وطلب منه أن يجلس للناس ثلاثة أيام يقضي حوائجهم.. وقد فعل.

عاش الشيخ حسن ودحسونة حياة ثرية مليئة بفعل الخير وهداية الناس وحل مشاكلهم. ومن الطرائف التي أوردتها كاتب الطبقات أن خادمة اسمها مهبوبة أتت إليه بكتاب لها حتّى تجد الخطوة والقبول لدى الناس، فكتب لها في ورقة «حموزة مهبوبة». حمراء مقلوبة.. تلعب بها الهوبة في جرائر الهوبة فوجدت امرأة خطأ وقرأت ولما أخذتها للجلاد دفعه فصوله لقراءتها فسألها عن كاتبها فلما أبدته قال لها إن الشيخ قد أساء إليك. فقطع خطها

كان سبب وفاته أنه حاول أن يردي تمساحاً إحتحره في حفير ولكنه توحش وكثر صرره.. فوجه إليه بيران بدقيته فارتد إليه البارود فقتله عليه رحمة الله تعالى ولعل في ذلك أول إشارة لاستخدام الأسلحة النارية في السودان. لأنها حتّى القرن التاسع عشر كانت قليلة العدد في أيدي بعض الناس وحين قاوم السودانيون العزو التركي عام 1821 كان ذلك بالأسلحة البيضاء وبكمها ثم تلبث أن انتشرت في سموت الحكم لتركى. وقد ورد في نفس سيرة الشيخ حسن ودحسونة أنه إتخذ جنوداً من العلماء الأحباش يصحبونه كالميليشيات

1 سجون في السجون يضم بعضهما البعض وغيرها

الفارس الصوفي والشاعر الموسيقي

إسماعيل الدقلاشي

نصب الملك ساييمس ود دكين نفسه ناقداً أدبياً حين وُحِّه تهامه للشاعر الشيخ إسماعيل الدقلاشي بأنه لُحس في شعره، فعصب الشيخ ورد عليه بحدة «هل أحبك بدلت شيطانك الحالس فوق رأسك؟» وحننم الحوار بينهما إلى بدرحة التي قرّر الملك قتل الشاعر الصوفي وهنا إسرى له أهله ودووه ناصحين وصعوه من لتورط في سمك دمه خوفاً من أن يجلب إليهم الحرب فتراجع الملك ساييمس عن موقفه وشكاه إلى شيوخه المقية محمد ود منقولي فاعتذر عن تحدث إليه وقال «أنا ما بقدره حافط الكتاب وشايه شباب» والعزيز في هذه الحادثة الأدبية أن جميع أشكال الإبداع الفكري والثقافي في عصر الفرج كتبت باللغة الدارحة السودانية، فقد كتب الأداة لوحيدة للتعبير أي لم يكن هناك مجال لناقد يتحدث عن اللحن في اللغة

وقراءة لمادج القبيلة من أشعار لشيخ محمد ود هدي والمقية على الشامي والشيخ ود عبد الهادي والسيد ود دويب ومكي الدقلاشي نجسد شيوع أساليب التعبير في سودان ذلك لمرن الذي إعتد لهجته الخاصة حتى جاء بعهد التركي فوضع نهاية لهذا الوضع وهناك أمثال الشيخ فرح ود تكتوك أحد معاصري الدقلاشي وأشعره وحكمه، وحتى كتب الطبقات الذي وردت فيه سيرة لشيخ إسماعيل هد تمت صياغتها كلها في قالب العامة، ولأهم من ذلك كله كانت شجاعة الشاعر وجراسته في تحدي الملك.

ولد الشيخ إسماعيل في القرن السابع عشر في بلدة يجبي الواقعة بين الشقيق

شك أن المؤلف قد تأثر أيضاً بكتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني، فقد قال عن منهجه في الكتابة «وأردت أن أجمع هؤلاء الأعيان في معجم واحد وأذكر العلماء على حدة، وعلماء التوحيد على حدة، وقراء القرآن على حدة، والسجاء والشعراء على حدة، وأذكر الملوك والشيوخ المعتمدين بأمر الدين والأعيان المذكورين، أبيتهم بحروف الهجاء».

25 ديسمبر 2001م

من قريب وكانت تمحو حوله سافات طويلة صلبة كأنها رماح مائة . تطفو بالمسبح وتسبح فوق سطح الماء وتمتد على الشاطئ وكأنها حدود أشجار صحمة وأفراس البحر والجواميس تحتلط أحياناً بقطعان القر الوردية إلى المزارع ذلك إلى جانب الحيوانات المتوحشة الأخرى كالأسود والأفيال والدئاب والغزلان.. كانت الطبيعة بكرًا وسخية.

أقامت قبيلة الشلك على الشاطئ والبحر من منطقة الدويم وحتى أعالي النيل.. كانوا سادة المنطقة بلا مزارع معو قبائل العرب ولواذين من شمال السودان من الاقتراب من الماء إلا بحساب وظلوا كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأوا في التراجع وبقيت بعض بحيريات حتى العقود الأولى من القرن العشرين. وتبقى تفاصيل حادثة مقتل الشيخ إسماعيل جزءاً من أسرار التاريخ في ذلك الجزء من الوطن

يحتوي كتاب « طبقات ود صيف الله على كبر راجر بما كانت عليه الحياة السودانية طيلة عصر الفوج الذي امتد من أوائل القرن لسادس عشر وحتى القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أنه مكرس لرواية كرامات الأولياء ونصالحهم إلا أنه اشتمل على مادة خصبة عن أساليب الحكم وطرائق الحياة كما أنه يوضح حقائق جغرافية عن الأماكن والقرى في ذلك الزمان فضلاً عن النعمة التي كان يستحضرها الناس وقتذاك ومنها كثير من المعرفات والتراكيب التي اندثرت وما عادت قيد التداول والاهتمام.

وإستطيع أن أجزم بأن هذا الكتاب يمكن أن يكون رافداً أساسياً للكتاب والمندعين للإثراء وجدانهم والاعتراف من قصصه في أعمالهم الإبداعية وأرى أن الكتاب لروائي الطيب صالح الذي حقق صاعته على نحو مذهش استطاع

وعند العجم شمال غرب الدويم بالنيل الأبيض ويجي هذا جبل صغير ويعرف أيضاً بجبل الشيخ إسماعيل أبو رادعة وكان أبوه الشيخ مكّي الدقلاشي شيخاً من كبار الصوفية في ذلك العهد - ترجم به ود ضيف الله في الطبقات أيضاً وقد حرج في سياحة له ولم يعد .. كان يصحبه طفله الورد الذي تمّ العثور عليه وحده بعد حين .. أما إسماعيل فقد كان لا يزال في العهد .. وأمه هي خيرة السقريجاوية والتي كان قد بعث بها سلطان تغلي إلى الشيخ مكّي لتسحب له الأولاد المحصر الصالحين وتلك من سمات احتلاط أعراق الأمة السودانية ولما شبّ عن لظوق حفظ إسماعيل القرآن على الفقيه محمد ود موفلي خليفة واندء .. وتعلم لفقه والوحيد على الشيخ مختار بن حودة الله (مشارح الأحصري) وشرع في تدريس الرسالة والتوحيد والقرآن.

برز الشيخ إسماعيل في كتابة الشعر وألف قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ... كما ألف كتاباً في الطريقة وأدب الذكر. وبالإضافة إلى ذلك له أشعار في العزل الصريح تغزل في نهضة وهبة بلعة حسية مباشرة لا يقدم عليها إلا من له قدم راسخ في علم المباطر. وجاء في كتاب الطبقات أن روح هبة خاف عليها وتجنّرها بها إلى حبال تغلي. وقبحر مفردة مدثرة تعني أنه حرج ولم يعد ويرى ود ضيف الله أن لشيخ إسماعيل من إشارات ملامية وهي فرقة من الصوفية تحالف الشرع ظاهراً وتوحيها وهضمها للنفس. ولربما كان ذلك مثل ما فعل الشيخ محمد الهميم لدى تجاوز الأربع في الرواج الشرعي وجمع ما بين الأحتين. ورغم معارضة القاضي دشير نصر عني موقفه باعتباره مادوا له. ولا يحرج الأمر عن شطحات الصوفية في حالات جذبهم وحروجهم عن المألوف.

وتحس في أشعار الشيخ مكّي إحساساً عميقاً بالطبيعة والحياة .. فتجده يحب المطر ويتوق لهطوله المتواصل أصب مطر الصعيد يا ليتك عايداً، ويقول أصب مطر الصعيد وصباح المفرد. إهتم بتفريد الطيور وتعبيرات الطقس وهبوب

الرياح الباردة البعيدة من الجنوب. ذلك غير ما تعكس قصائده القبيلة أحوالاً مختلفة من الحياة الاجتماعية في ذلك العصر

إلا أنه يبقى أهم ما يميز به الشيخ إسماعيل هو قدرته الباهرة على العرف، حتى أطلق عليه لقب صاحب الربابة وهي الطمبور - وعلى لرغم من وصف «الطبقات» لقدراته هذه والذي لا يحلو من مبالغة إلا أننا لا نملك إلا أن نتوقف أمام ظاهرة موسيقية مذهلة «حيثما يعرف على الربابة تصدر نغمات يفتق منها المجنون وتدهل العقول وتطرب الحيوانات والجمادات وحتى أن الربابة «حيثما يصعبها تحت وهج الشمس تعرف على نغمات صوته دون أن يمسها» ونقل عن تلميذه العقبة أبو المور الرياشي أنه كان يهتم بالرقص حيثما تأتيه حادة الجذب الصوفي فيستدعي العرائس والعراسان ويعقد حلقة في فناء داره ويعرف تلك الألحان الشجية. كما أن فرسه «بست بكر» قد تعلمت ما يشبه لرقص فكان حين يشدها مرتجرا «بسة الحرب» «بست بكر المردا» سلطانية «مرصة» كانت تحرك جسمها وتجلس وتهص وتقر رأسها من رجليها الأماميتين.. وتدهش الحاضرين بذلك الحركات الإيقاعية. والواقع أن الشيخ إسماعيل كان يهتم أيضاً بمظهر السلطنة، فحوازيه يحيطون بموكبه يحملون القسي والسهام. تكاد لا ترى فرسه من كثرتهم يهللون بأغمار جميلة ويشير لموكب حماس الجميع بصحبه ويرددون التهليل.

ولما عاد من سفر في شجاعة لدى البلاط الملكي عبر ليل الأبيض في مشرع أليس - الكوة الحالية - وثب عليه جماعة من قبيلة الشملك وقتلوه وكان ثم يتجاوز الأربعين من عمره بكثير. وقد اكتفى ود ضيف الله بهذا انقار من النهاية المأساوية لهذه الشخصية الأسطورية والعامة بالمآثر الجليلة

والس الأبيض كان غير الس الذي نراه الآن كان حراً عريصاً يحص بالحرر وتحيط به أدهال كثيفة وأشجار عملاقة كان أمارونا أفريقيا تكاد لا ترى الماء إلا

أصوات

يُسمى أن يرهما ونصم المجموعة أطايب ما جادت به قرائح المدعين سودانيين مد لسطمة «ررقاء» وختى سوت شمابين من لقرن العشرين، كأنها بلغت من أواخر الربيع أو حريف كردها في ذلك الزمان السحي السعيد كأنك أرد عثمان أن يوقف نحن النوام على حقيقة قدرتنا لإبداعية كأمة حية تولد الحصار في مفاصلها وما اعتراها الآن سوى إقطاع مؤقت ووهي غير.. دهايه بعد حين.

كان عثمان يكتب محله هذه بخط يده وأحياناً بماكية الكتابة يتصل بالكتاب والمبدعين يدعوهم للكتابة ورسائل كل جديد أشاوه ويقت في التراث ويهتم بالوثائق وحين يعزم إصدار عدد بمناسبة عيد الاستقلال في الأول من يناير 1981 قال «ولحأت إلي لمطان والمصادر بدأت بحراي وهو كجرب الحوي يحتوي على بعض قصصات ومخطوطات مما حكمت على جمعه مد أن كنت يافعاً وما أهدك أفعول وإن بلغت من السبوة دون رشدها! وبدأت بمخطوطات شعر المرحوم يوسف مصطفى النسي.. وهي أشعاره المتأخرة ولني لم نشر في ديوان بعد، كان اسمه المطالب لفتي - أهدك - قد نحن على بصور منها. كان ذلك قبل أن يصبح الأح أحمد رئيسي لدي به إلتهم وقرر انصاع - فتأمل! ولا نحسن بشر بعضها صرباً من رشا! فشر لنتي تهرله القلوب وتطرب - وتم احتر شيئاً من شعره لسياسي اكتفيت بأنكم - أجمعين - بحفظون شيئاً من (هي الفؤاد نرعاها العاية).

وكان قد أهدني الصديق العمرابي مخطوطة أصلية لقصيدة لعمه المرحوم بهادي العمرابي بمدح مولانا السيد علي سمير عني، وقد كتبت في عام ميلادي (11) فاستهواني ذلك ولا أظن أنها نشرت قط - رأيت إثباتها لقيمتها التاريخية، ولتعبيرها عن وجدان الناس آنذاك»

ويواصل عثمان حديثه فيقول «ثم لحأت إلي الأدب (المعجب)!! ومتى يا ترى

أصوات

أن يسهل من معين تلك المساحات التي حفل بها الكتاب ويوظفها بشكل بارع في أعمانه وخاصة في «مريود» و«بسر ش». كما أن هناك عدداً من مدعينا تناولوا سيرة شخصيات وردت في الكتاب وأبدعوا خصوصاً ذات إعتبر وقد كتب لشاعر الرحل الدكتور محمد عبدالحفي شعراً جليلاً تناول فيه شخصية الشيع سماعين صاحب الربابة، وحاول أن يقارب بين تجربته وأسطورة أورفيوس ليونانية.

كان الكاتب الأرجنتيني بورخيس يتحدث دائماً عن كتاب «ألف ليلة وليلة» وتأثيره عليه في الرؤية الإبداعية وكتابة النص ويعلن دائماً أنه لا يستطيع أن يحصي أو يقدر عدد المرات التي قرأ فيها الكتاب فقد كان بالنسبة إليه كتاباً مفتوحاً يقرأه في كل حين، ثم لا يلبث أن يقرأه ويقرأه.

ومع اختلاف النوع والمقدّر والجس لأدبي لا يقل كتاب الصفات قيمة عن «ألف ليلة وليلة» للكتاب الراعبين في تطوير رؤاهم الإبداعية، وتطوّر سيرة الشيع سماعين صاحب الربابة الأكثر سطوعاً في هذا السفر الرائع.

سهرت معه تلك الليلة

عثمان حسن أحمد



هي تلك الليلة بلع بي اسهاده مبغاً ولجّ النوم هي العتاد فنحن معشر
المعاملين في مجال الصحافة يروق لنا السهر. فحين ينقضي دوامنا في أو بعد أو
قبل منتصف الليل بقليل يسايها إحساس السلميد الصغير في نهاية اليوم الدراسي
أو آخر الأسبوع. إحساس بالحرية لا مثيل له.. نحن وكأن يوم قد بدأ بنوه..
لنقرأ ما فاتنا في صحف اليوم ونتابع المواضيع السياسية وربما مقالات ثقافية أو
فكرية مما يكتبه أصدربنا المكتوبون بلغة لكتابة وهمومها.. فقد قيل إن الشاعر
والصحافي المصري المعروف كامل الشاوي كان قليلاً ما يرى الشمس.. يغفو
قبل شروقها بقليل ويخرج من مرله بعد الغروب. وحين تمادي الأرق تناوبت
مجموعة «أصواء» التي كان يصدرها عثمان حسن أحمد من واشنطن حين كان
يعمل مستشاراً ثقافياً لسفارة جمهورية السودان ظلت المجموعة تلازمي منذ
أن أهداني إياها صديق الطرفين الأستاذ محمد ميرعني بركة في عام 1984
معيها عزاء بلعس حين أتصعبها فأجد فيها إفتتاحيته المشرقة بلغة لحوجرة
المعبرة وكلماته المنتقاة البادحة. وكأني به يجاري عبد الحميد وابن العميد

وعندما كبر، وشيخاً عن الطوق صادقاً وأصبح سمق أعدد ساعات فراغها بصحبته هو وأساندة لما أجلاء آخرون

كان عثمان حسن أحمد مبتهجاً خلال ذلك المهر الوضيء في حرطوم تلك الأيام إستهوئي طريقته في الحديث عن «دراهمه» التي كان يودعها في شكل أسهم في تلك الشركة، كان يتقصى أرباحه . وظل يمارس حين علم أنني في زيارة لمحتوبتي التي وصفها بسليمة الأمر، متجاهلاً أنني احذر من نفس تلك الأرومة. ما كان يمهلني لكي اتحدث وأرد على دعائاته الساحرة. كان يتحدث ويتحدث ويشيع مریداً من لهجة ولحور

نشأ عثمان في حي أبوروف وبدأ تعليمه في حلوة الشيخ سليمان، ثم التحق بمدرسة أبوروف، الأولية بأم درمان الأهلية لوسطى مدرسة وادي سيدنا الثانوية التي فصل منها في عامه لدراسي الثالث لشاطه الشياشي، وجلس لامتحان الشهادة الثانوية من المدرسة الأهلية بأم درمان. التحق عثمان بالعمل في وزارة المعارف معلماً بالمدارس لوسطى فبدأ بمدرسة أبو عشرين ثم تم إختياره لتدريب في معهد تحت الرضا «كورس المستبين» بيل ابدلوما وهناك التقى بأستاذه الدكتور أحمد الطيب أحمد، الذي كان في ذروة عطائه التربوي والثقافي ومحاولاته ندوية لوضع اللبثات الأولى للمسرح وكان قد عاد من لندن بعد أن كان شهادة الدكتوراه في المسرح العربي وأحد يكتب في مختلف المعارف في الصحف السودانية ويترجم المسرحيات والأعمال الأدبية المهمة . فقدت أو صر صلة حميمة بين التلميذ وأستاذه، وفضل عثمان وفيماً لذكرى الدكتور أحمد الطيب، لا يفتأ يذكره ويكتب عنه عقب وفاته الفاجعة وإستطاع بعد جهود شاقة أن يجمع أعماله في «أصوات وحجارة» كما أسلف بقول، وبولاه لذهبت تلك الأعمال بدداً.

عندما تم إنشاء معهد المعلمين العالي بأم درمان لتخرج معلمين ومعلمات

يعلمون شعر الشعراء في أشرطة تباع كما تفعل لفريجة!! وكان أستاذي وشيخي الشاعر المرحوم محمد عبد القادر كرف قد تكرم عليّ بتسجيل شيء من شعره وهذا جزء من أفضاله الكثيرة عليّ فاحترت رائحته في رثاء السيد عبدالرحمن المهدي . ثم لجأت إلى شريط رائع يحتوي على مقامات المرحوم محمد حاج حسين وتلك تحف وروائع، ولكن أعياها يحتاج بحواش تشرح الأسماء والساسات والأحداث فاحترت طرفاً من مقامته (المعاش الإحتياري)، وكان بودي أن أشر طرفاً من مساحلات وفودة وود المادح . ترى هل يعرفها جيل البطولات هذا ١٩١ وتلك أروع المعارك الأدبية في تاريخ السودان المعاصر.. هما المرحوم محمود المكي وعبدالحليم علي طه . وكنا يتساحلان بالشعر القومي بحيد مرفودة بتعاطف مع (الأشقاء) والأستاذ عبدالحليم مع حرب الأمة. وكان بينهما ود يؤكد أن الحلاف لا يفسده . ولدي قدر ومير من قصائدهما . ولكنها تحتاج إلى جهد كبير لإعددها وحز في نفسي ألا أوفق في نشر بعض أعمال كثير من المبدعين شعراء وكتاب لسبب أو آخر أحسن المرحوم الشاعر شيبون - حجارة لشعب - كما أسماء صلاح أحمد إبراهيم.

حديثه هذا عن محاولاته لتحضير لعدد واحد خاص من مجلته «أصوات» وهكذا كان بعض في كل ما يحاول من عمل كجمع وثائق أو كتابة موضوع، أو كتاب مثله فعل حين جمع وحقق كتاب «أصوات وحاجر» الذي جمع فيه معظم أعمال أستاذه المرحوم لدكتور أحمد الطيب وسبح قصة طريقة من معاناته في سبيل جمع تلك المادة ولتقى أشخاصاً عريبي الأطوار ممن كانوا ذوي صلة بالذكور أحمد لطيب الذي كن كفاً بكل ما هو عريب واستثنائي . رسم لوحات ساخرة من تلك التجربة، ستكون موضوع حلقتنا الثانية من هذا المقال في الأسبوع المقبل حتى تسعد القراء وتعكس شيئاً من الروح المرحية والمكاهة التي تميز بها عثمان.

وقد اشتهر عن عثمان بشاره للكتب «الدراح منه والصادر والوثائق» التي طُرِ
يهدى دار الوثائق منها المجموعة تلو المجموعة من وثائق الحركة الوطنية وغيرها
التي كان يقب عليها ويرصدها ويعد إليها بعشق عارم بسوطى وثاريجته وقد كرمته
دار الوثائق انقومية مراراً وفاء لما قدمه إليها وترأس أيضاً لجنة الوثائق الأصلية
بتلك الدار

كان ذلك منسجماً مع شأنه في بيت يعصر بالكتب والمعارف والذي كان
جرءاً من الحركة الوطنية والفكرية التي انتصمت البلاد بعيد أحداث ثورة 1924.
فقد كان أبوه وعمه حسين الكندى في مقدمة المنقذين الذين أنشأوا جمعية
أنوروف الأدبية الفكرية المعروفة، والتي ساهمت في ونظيرتها جمعية الهاشميين
في تشكيل الوعي المعاصر.

كنت قد سمعت كثيراً عن عثمان وحمة ظله وحضوره المشرق من جمهرة
الأدباء والمثقفين إلا أنني التقيته مرة واحدة وكان عائداً من إنجلترا في عام
1983، وذلك في مكاتب شركة الصمغ العربي، حيث كانت تعمل روحي. وكُنْتُ
مخطوبين وقتئذ. كنت تلك الشركة في صفوان عرنا وعافيتها بفودها مديرها
الهامم الإداري الحادق والرجل المثقف عثمان محمد الحسن الذي حين
كان يطل بسعته الوفور وبشاشته الدائمة يشيع إحساساً بأن الوطن لا يزال في
خير. تعرف عني عثمان في لحظات فقد كان يجمع بيناً أصدقاءه مشتركين
أبرزهم الأستاذ محمد ميرعسي بركة الذي زامله في ثانوية وادي سيدنا والذي
تشرفت بالاعتماد على يديه بمدرسة كوستي الأميرية الوسطى - رعياً وسقياً
لأيامها الناصرات الذاهبات - يدرسنا لغة الإنجليزية، وكُنَّا جد مأخوذين بأسلوبه
المختلف ومزاجه الذي كان يبدو حاداً وادي يبعث فيها شعوراً بأنه كمن
ينفصل بالدروس عينا وذلك مع قدراته الوافحة التي لم تحطها عيوننا فكُنَّا
نحشاء ونحبه ونسج قصصاً طريفة حول أسلوب حياته لمترف وناقته المعرطة

أصوات

للمدرسة الثانوية إلتهق به عثمان وتخرج ليعمل معلماً للغة الإنجليزية. ومن ثمّ تمّ اختياره لبعثة دراسية في إنجلترا حصل فيها على درجة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية بجامعة ليدز برسالة عن أدب الروائي الأميركي آشلي وهي أواخر ستات السبعين تمّ اختياره ليعمل مبعثاً ثقافياً بسفارة السودان بالولايات المتحدة. ويرجع لعثمان لفضل في إنشاء جمعية الدراسات السودانية النشطة في أميرك. عاد عثمان إلى السودان في عام 1983 وانتدب سكرتيراً أكاديمياً في معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ونتهى انتدابه في عام 1987 وعاد إلى وزارة التربية والتعليم.

وفي أثناء عمله في الملحقة الثقافية بوشغن شر عثمان ببوغرافيتين الأولى نصمت لرسائل الجامعة التي كتبها سودانيون أو تلك التي بحثت مسائل تتعلق بالسودان في الجامعات الأمريكية، أما الأخرى فهي عن الأعلام الوثائقية والاثنوغرافية عن السودان ذلك بالإضافة إلى نشرته الثقافية «أصوات» التي صممت متحبات من الأدب والمعرفة السودانية انتقاء بذوقه الرفيع بعينه إطلاعاً لواسع العميق. كما صدر له كتاب عن الأستاذ إبراهيم أحمد، أحد أبرز المعلمين الذين درسو في كلية عردون ثمّ كلية الخرطوم الجامعية كما كان من أهم الشخصيات الوطنية التي ساهمت في تكوين مؤتمر التحرير لعام والدي ترأسته في عدد من الدورات وساهم عثمان بعدد من الترجمات في مختلف المواضيع وقد توفاه الله في عام 1988، وكان لا يزال في الثالثة والخمسين من عمره على حلقه النبل وشخصه الودود ووطنية المشبوبة وشمعه بالعلم والمعرفة وله الرحمة.

فصص ونوادر مع «أصوات وحاجر»

كان انراجل لأديب عثمان حسن أحمد يمرح بين الجد والهزل في كل ما يحاوون . تحركاته الديناميكية تدث كانت تتسم بالمكاهة والعبث ولكن إذا علمنا أن محاولاته لجمع أعمال ابن كنور أحمد الطيب وترتيبها وعادتها رادب على عشر سنوات نمتلكنا اعجاب من تلك المثابرة وذلك الإصرار وأخيراً نجح وصدر كتاب «أصوات وحاجر» الذي تتسم بالشراء والتشوع والمتعة الجزينة. والكتاب مقسم إلى عشر فصول تتناول الأدب والمسرح والمجتمع والتعليم وغير ذلك يروي عثمان أنه حين أرثاي جمع تلك الأعمال التي ضمها الكتاب اعترم لاتصال بكل من كان ذا صلة بالمرحوم حتى يتسنى له الحصول على أي أثر من آثاره ليتعرف على حياته وإنشائه فلقني من بعضهم عوباً عظيماً ومن آخرين صد وعروى وكان لبعض يراوغ ويماطل. والبعض الآخر يدلي بأحاديث طريفة وأخرى موعلة في العراة

وبقي واحد مرة في اسوق فاستوقفه يطلب ميعاداً لبقاء، إلا أنه انتهره قائلاً « انت مش جاد أبداً و بصرف عنه إني سببته عاصباً واعتبر له عثمان سخرأ بأنه لا بد أن يكون محققاً فاسيقاهه في الطرقات انعامه أمرتفصه للبقاء والكياسة

ثم رار صديقاً آخر وسأله عن إساح أحمد فقال له « إن أحمد لم يكتب كثيراً وحيماً فعل كتاب كتاباته محببة للامان ودور ما توقع الناس. ألا تذكر مقالاته في «لأيم» عن الحصار والكلام العارح». وذكر أيضاً أن أحمد كان كثير المشروعات يتحدث عنها ولا ينفذها وصرب مثلاً بموضوع الكتابة للأطفال

أَصْنَافُ

ثُمَّ قَالَ : « وَكَانَ مَرَّاجُهُ عَرَبِيًّا فَقَدْ كَانَ يَصَادِقُ الْعَامَّةَ ، وَأَذْكَرُ مَرَّةً أَنَّهُ صَادِقٌ وَاحِدًا أَظَنَّهُ أَسْطَى فِي الْمَنْطِقَةِ لَصَّاعِيَةٍ وَكَانَ أَحْمَدُ يَرُورُ هَذَا الرَّحْلَ وَيَأْنِي بِهِ أَحْيَانًا لِأَصْدِقَائِهِ ، وَكُلُّ مَا اسْتَهْوَاهُ فِي ذَلِكَ الرَّحْلِ هُوَ اسْتِعْمَالُهُ الْحَاصِيءَ لِلْعَةِ حَاجَةً عَرَبِيَّةً عَرَبِيَّةً ، وَقَالَ عَثْمَانُ إِنَّهُ تَذَكَّرَ ذَلِكَ الرَّحْلَ حِينَ لَمِيَ سِرَّ الْحَتَمِ الْحَلِيمَةِ لَدِي حَدِيثُهُ كَثِيرٌ عَنْ أَحْمَدَ الطَّيِّبِ وَرَوَى لَهُ بَدْرَةَ كَانَ يَصْحَكُ لَهَا أَحْمَدُ كَثِيرًا فَقَالَ « مِنْ عَادَةٍ بَعْضُ لِإِخْوَةِ الْحَوْبِيِّينَ أَنْ يَتَنَاولُوا الْجَعَةِ الْمُحَلِيَّةِ فِي أَيَّامِ لِعَطَلَاتٍ ثُمَّ يَتَوَجَّهُوا لِسَائِعِ الْأَخْلَافِ أَوْ « الضَّلَافِينَ » فَيَقُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ : « اللَّهُ أَدِيمِي بَوْتَ بِنَاعِ بَقْرَةٍ » وَالْبَوْتُ بِالْإِبْهَالِيِّ هُوَ بَوُّعٌ مِنَ الْأَحْدِيَّةِ ، وَظَلَّ أَحْمَدُ يَسْمَعِي لَصَّلَافِينَ بَوْتَ بِنَاعِ بَقْرَةٍ ، وَهَلْكَ سِرَّ الْحَتَمِ الْحَلِيمَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَادِثَةِ بَلَّ طَرِيقَةَ اسْتِعْمَالِ النَّاسِ لِلْعَةِ كَانَتْ مِنْ إِيْثْمَانَاتِ أَحْمَدَ وَمَصْدَرُ لُسْدَرِهِ وَصَحْحَكِهِ .. يَسْتَعْدِمُهَا أَحِبَّاءًا فِي كِتَابَاتِهِ .

وَالْتَقَى عَثْمَانُ بِالْمَرْحُومِ لِأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ عَمَرٍ فِي دَارِهِ الَّتِي يَصْنَعُهَا بِأَنْهَا كَانَتْ تَعِجُ بِالنَّاسِ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ وَدِينٍ .. وَكَانَتْ مُلْتَقًى لِأَهْلِ الشَّأْنِ طَلِيلَةً رُبْعَ قُرْبٍ مِنْ لُرْمَانٍ ، وَقَدْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ عَانِيَ مِنَ الْمَرَضِ طَوِيلًا وَوَحِيدٌ حَيْثُ انْقَضَ ذَلِكَ السَّامِرُ وَدَابَّ . فَحَدَّثَ عَثْمَانُ بِأَنْهُمَا كَانِ يَحْدِثَانِ فِي كِبَةِ وَاحِدَةٍ فِي حَصَّةٍ لِرِيَاصِيَّاتِ بِالْكَلْبِيَّةِ الْعَدِيمَةِ وَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْمَادَةُ تَرُوقُ بِهِمَا فَمَا أَنَّ يَبْدَأَ الْمُدْرَسُ بِكِتَابَةِ الْمَسَائِلِ الْعَوِيصَةِ عَلَى الْمَسُورَةِ حَتَّى يَحْرِحَ أَحْمَدُ دِيَوَانَ الْعَقْدِ لَدِي لَا يَفَارِقُهُ - وَيَتَرَاهَا عَلَى حِفْظِ قِصَائِدِهِ

أَمَّا الْأَسْتَاذُ بِشِيرُ مُحَمَّدٍ سَعِيدٍ فَقَدْ حَدَّثَ عَثْمَانُ بِقِصَّةٍ لَا تَخْلُو مِنْ طَرَاةٍ وَقَالَ « حِينَ كُنَّا فِي لِمْدَارِسِ الْعِلْيَا كُنْتُ أَسْتَنْقِلُ أَحَدَ زُمَلَاءِ وَأَحْمَدَ عَلَيْهِ وَأَتَنَاولُهُ بِالْقَدَحِ فَقَالَ لِي أَحْمَدُ مَرَّةً « مَا نَتَّ شَعْلَ بِالْكُ بِيهِ ؟ هَلَّا لَا رِي مَلَا حَ أُم رَقِيمَةٍ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ فَمَا نَتَّ بِيهِ ؟ »

أَمَّا أَطْرَفُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا - كَمَا ذَكَرَ عَثْمَانُ - فَهُوَ شَدِيدٌ قَلِيلٌ إِنَّهُ مِنْ تَلَامِيذِ أَحْمَدَ

الصعب الذين أحبهم، وكان هادئاً صامتاً لا يتحدث إلا قليلاً وفي صوت لا يكاد يسمع وكان وثيد انحصر بعيشه، يسكن في مكان بعيد ولكم أشقاء بملاحقته ومراوخته التي لا تنتهي وظله كان يصيق بيوم الجمعة فكلما لقيه سألته أن يلقاه بداره يوم الجمعة المقبل وعده بأشياء كثيرة من آثار المرحوم يحتفظ بها ولكنها تحتاج إلى بحث وتلقيب فحسب كأنها لسروء. وما أن يفرغ الباب إلا ويدب دبيب ثم يفتح الباب في بطاء وهدوء. ثم يسلم عليه سلاماً طويلاً كثيراً لا حرارة فيه ولا جمرة ولكنه فاتر يلمح عليه في الدخول ثم يصر على تناول العطور الذي يتأخر كثيراً. والرجل قليل الكلام، كثير السهو، برع في الترويع عن الموضوع الأساسي الذي من أجله أتى عثمان.. متمكن من خلق المعاذير التي يرويها في قصص محبوكة لا تمتك إلا أن تصديقها. يحكيها في تودة الشيوخ وصبرهم. وينقضي يوم الجمعة دون أن يقال منه إلا وعد صادقاً بإيفاء العهد في المرة التالية. فشرب مغالبه وأكل فطوره جمعات.. ومن ثم آدمى ريارته حتى رحل عن الدردون أن يحصل منه على شيء غير ورقة زعم أنها بحمد الفقيه إلا أن عثمان أعرب عن يقين أنها موروثة ولم يثبت أن رحل عن الدرد فجأة وانقطعت صلاته به

ومن تلاميذ الدكتور أحمد الصيب واحد أذكر احتماطه بأي أثر من أعماله، إلا أن عثمان فوحىء بأنه أعار مسرحيتين من ترجمة أحمد لهرث ثالث فأصمر حطة بعدها بعد أمبرها فلما أرمع صاحبها السمر في بعثة قصيرة إلى المحارح أحده عثمان إلى المطار بسيارته وودعه، ولما تأكد من معادته عاد إلى منزله وأبلغ زوجته أنه يبحث عن أوراق تحصيه فوجد أربع مسرحيات من ترجمة الدكتور في المدرج الأسفل من حرارته وأحدها وقصص منها وطره وأعاده وكان شيئاً لم يكن حيث إنه لم يمانحه في الأمر من بعد وعلق على ذلك بسخرية امريرة فكلانا سارق وإن تعددت الدواعي.

أصوات

ذكر عثمان أنه كتب لأكثر من مئتين شخصاً تكريم بالرد عليه أقل من ثلثهم بقليل وراسل مؤسستين بريطانيتين وكتب إلى أربعة من العريضة فردوا عليه أجمعين ولَمْ يَسْأَلْ أن يعلق ساخراً بقوله «والحمد لله الذي جمعنا من القوم المسلمين»

وبعد عثمان أطرافاً من الرسائل التي تلقاها فقد كتب الأستاذ عثمان سيمان - من تلاميذ ورملاء المرحوم - يقول: «وأذكر أنه كان يحاصر في يدي الكورسات محاضراته المشهورة عن (ماهو الشاعر؟) فقال أحد الحاضرين معقباً - لقد خانتك التعبير يا دكتور - فرد عليه في حياة وتواضع جم ألفت من البشر، فسيحان الذي رغب داوود الحكمة وفصل الخطاب»

أما السيد إبراهيم بمر - محافظ بيت السودان الأسبق - والذي عمل معلماً بينحت الرضا في وقت سابق فقد كتب يقول عن أحمد الطيب: «إن روح الدعابة والمرح كانت متمكنة منه، فمثلاً عندما أجارت الحكومة مشروع المعونة الأمريكية ووصل ذلك في بشرة رسمية علق عليها بقوله «لنلعلهم ولا تنهاج» وكتب الأستاذ جمال محمد أحمد يقول: «وأعجب ما يجيء في البيان وأنا أكتب لك عن أحمد، هو ماذا كان أحمد؟» كان في تقديري رسولا فائته الرسالة، ليشه كان يعرف العصب، أدل لبقى معاً، أرابت هذه لحظة التي هوتب عليها بعض الرسل فمن نفدس؟ حتى هذه كان خلواً منها».

واحد عثمان جانباً من رسالة كتبها لسيد أحمد محبوب عن عجز إنجليزية توصلت صحتها به، وجاء فيها «صديقة أخرى - صاحبة المنزل الذي عاش فيه أحمد، ذهبوا أول ليلة على ميعاد لرى لبحرة وكان مساءً كئيباً لأنه كان ممصراً وبارداً مما زاد من بشاعة هداما ومظهرها الخارجى، قابلتنا مقابلة باردة وعلى مصفى أعصت أحمد لبحرة، سكن معها وشأت بيسا جميعاً صداقة قوية ووجدت تشابهاً فكرياً بينها وبين أحمد م زاد الود قالت بي دات مرة، بعد شهر

من تلك المقابلة المأثرة «إذا سئمت هل لقيت المسيح؟ لأجبت بلايجاب أجل أنه يسكن معي في داري، ولن أغفر لمسي مطلقاً موقفي مساء لقيتكما إذ جئتما لمشاهدة «الحجرة»

ويسترسل عثمان في مقاله ويقول إن قصصه وبودره مع كتاب «أصوات وجواهر» استمرت في امر حل التالية من طبعة وبشر وعيرها ويؤكد أن أعمال أحمد الطيب لا تزال في أيدي الآخرين لم يتمكن من جمعها رغم المحاولات التي بذلها والمثيرة التي لم تعرف الكل. وقد حصل على بعض المسرحيات التي ترجمها كالعاصفة، وهاممت، ورومي وحوليت، والملك لير، ولأجراء الفكاهية من مسرحية هيري الرابع وزوجات وندسور المسرحيات - وكلها من أعمال شكسبير - ويحتفظ شخص بمسرحية بير باردشو، جان دارك، والعبث في العرب السنج - وقد اشترك مع جمال محمد أحمد في ترجمة هاتين المسرحيتين. وأشار عثمان إلى صديق يحتفظ بترجمة «عليل» التي اشترك في ترجمتها مع الدكتور عبد الله طيب وهناك محاضرات مهمة ألقاها في مناسبات متعددة لم يعثر على أثر لها كما لم يعثر على الكراسات الصغيرة و«البوت» التي كان يلخص فيها أحمد ترجماته ويكتب فيها خواطره وآراءه حيث تداولتها أيدي أصدقائه

ودعيت نفس عثمان خسرت على الصحف التي كان يكتب فيها أحمد وصمت بمانس بداعاته. حيث تعاني دار الوثائق من نقص كبير في محفوظاتها من الصحف السودانية وقد حاول عبثاً الحصول على صحيفة «الحادي» ومجلة «النور» التي كانت تصدرها وزارة المعارف وقتذاك، ذلك بالإضافة إلى مجلة «الصبيان» القديمة التي لم يعد مكتب النشر يحتفظ بكامل مجموعتها - حتى قبل الحريق الذي انتهم البقية من مجلداتها الحديثة - وتمدح عثمان للباحثين - لاحظ أن ذلك حدث في يناير 1983 - الدكتور حسن مصطفى حسن، الذي

أصوات

وصفه بصديق الصبيان وحامي حماها حيث ظلّ يسمي للحصول على مجموعة منها تحفظ للباحثين والأجيال القادمة وثّر عثمان لترجمة سلسلة كتاب الصحافي البريطاني أنتوني ديد «حيث صحت القدرة» والذي تناول فيه بالقدح والسحرية لأوصاع في السودان عشية إستقلال البلاد واحتفى مجدد نوفمبر 1954- الذي تضمن عدداً من تلك المقالات المترجمة- من دار الأيام منذ منتصف الستينات كما أنّ مجموعة دار الوثائق المركزية بالقصة، وطلّ عثمان بعد أن صدرت لمجموعة الأولى من أعمال الدكتور أحمد لطيب، يأمل في العثور على الأعمال المفقودة التي من تجد شخصاً مهماً مثله يستطيع أن يسمي للحصول عليها

مسرح البسطاء

الدكتور أحمد لصب



اعتادت امرأة ريفية عجوز على الحضور إلى مبني معهد التربية بمحط الرمح بهار كل خميس تصل من نافذة غرفة مكتب واسعة تسأل بعفوية الرسول يا عمي اللينة ما عندكم رؤية؟ يضم الرام . تفهيد مسرحية يتسم الشاب الثلاثيني الجالس مستغرقا في كتابة، يومن برأيه إيجابيا كان الدكتور أحمد لطيب قد عاد لتوه - في بداية الخمسينيات من إنجلترا حاملا درجة الدكتوراه في المسرح العربي كأول عمل أكاديمي من نوعه وتدرج من رئاسة شعبة اللغة العربية ليصبح نائب لعميد المعهد ثم عميداً له، وما كان أحمد سوى ذلك العتي مفصود لحديث، الذي شارك عبدالله الطيب في إرشاد قصيدته - ولي ترجمها أيضاً إلى الإنجليزية في تلك الليلة اللندنية الباردة - كما ورد في حديثا عن عبدالله الطيب - ولم كان عدد من اقراء الكرام قد أبدوا رغبة في معرفه تلك الشخصية لم نجد صاحب سوى الإدعان لتلك الرغبة

كان الدكتور أحمد الطيب أحب الناس إلى سكان منطقة الدويم وتم يكن أحد

يرتدب في أنه درة و rare المعارف و جواهرتها حيث تم يصح للمعهد هي خدمة و تدريب طلابه و حسب و إنما فتح أبوابه للبسطاء و كان سبيله إلى ذلك مسرح المعهد اندي صل بعض بالانحضور من الندويوم و القرى المجاورة رجلاً و ساء و أطفالاً مساء كل خميس - يريس عليهم سكون عظيم لدى تقديم أعماله لا بأمة ولا صوت

ترجم أحمد الطيب و سودن و أخرج عدداً من المسرحيات لشكسبير و شوسنج بلغة بسيطة سهلة مشتمة و بحوار قصير العبارة يميل إلى المكاهة حتى دورة المأساة ففي مسرحية يوليوس قيصر وهو في طريقه إلى مجلس الشيوخ قبيل اغتياله بقليل يلتفت إلى بعض العامة و يسأل أحدهم ما صاعثك؟ فيرد عليه معنياً

شدوله و ركب في بيرو أب لبده

و بالحكر قعد أدى الأهر جبهه

و بردد الآخرون:

أهي نيلة العذبل و الرهن

النيلة العذينة يا وداعة لله

و كان أحمد الصيب دائماً يدعو لمسرح لا يكلف مالاً، فالملايس تصمم من قماش لدمورية و الأحذية من الورق المقوي و الشخصيات ترتدي ملابس موحية، فديمونة هي «عطبل» ترتدي فستاناً مزرعياً و حذاء يكعب عالٍ و شعرها مستعاراً، و هارون لرشيد هي «لعباسة» يتميز عن غيره بعمامة صحفة و حرام عريض ملون كما أن المكياج بسيط للغاية يتكون من الصمغ و ألوان البودرة و ما ليسر لدى شعبه الصون.

كانت تحربة الدكتور أحمد الطيب هي و صبح أسس المسرح المدرسي جديدة بالاهتمام و قد شملت أجيالنا في مختلف المراحل التعليمية و ذلك على الرغم من أن جذور المسرح المدرسي في السودان تعود إلى أوائل القرن العشرين حين قدم تلاميذ مدرسة العطية الأولية في عام 1908 مسرحيتين «نكتوت» «والمرشد

المدرسي» أخرجهما مأمور المركز المصري وبعض المؤرخين يعودون بجذوره تلك إلى ستينات القرن التاسع عشر في مدرسة الحرطوم الابتدائية التي أنشأها المحديوي عباس

روى معاصرون للدكتور أحمد الطيب أنه كان يحتفظ بدفانر عدة بمناوين مختلفة باللغتين العربية والإنجليزية يدون فيها ملاحظات مستمرة عن مسرح شو وبرشت ويعقوب صوغ «أبو نصارة» وركي طليمات وجورج أبصر ولريحاني وصديق فريد.

بدأت حياة الدكتور أحمد لطيب بميلاده في قرية كدهاس عام 1917 وتلقى تعليمه الأولي والأوسط بمدينة بربر، ثم التحق بكلية عربون وعمل محاسباً بمصلحة الزراعة بسنوات، ثم عاد للالتحاق بقسم اللغة العربية بالمدرس العليا وتخرج فيها عام 1942 وحتم العمل بمعهد التربية ببخت الرضا ثم بعث إلى بجنتر، حيث قضى عاماً بمعهد التربية بجامعة لندن وبعد أعوام عاد ليعمل بجامعة بجنتر على درجة دكتوراه من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية.

رأه الناس في بخت الرضا رجلاً بسيطاً زهداً وسعيداً بثلاث البيئات الريفية التي كانت أقرب إلى مراجعته من الحرطوم حيث طموحات لأحرين - أيام السودنة - ومكابداتهم وكثير ما كانوا يشاهدونه يخلق للمحيا يتأبط كتفه متجهاً نحو دغيات الصلاب ليتناول معهم وجبة الإفطار. ولاريب في أنه أحلص لوطه فدرس في جميع المراحل بالمعهد وألف المصاحح وساهم في إعداد المعلمين ومثل السودان في شتى مجالات الفكر

كان يشر مقالاته في صحف «الرائد» و«الأيام» و«الحياة»، ومجلة «الصبيان» و«النور»، وتفرغ فترة للعمل بدرا الأيام وترجم كثيراً من المسرحيات والأعمال الأدبية أهمها «حيث صحك المدر» للكاتب الساحر أنثومي مان وصدر له كتاب

أصوات

«مختارات من الشعر لقصصي» ومن كتب الأضواء «مجازفات هرقل، وشمسون لجبار».

بدل تلميذه المرحوم الأستاذ عثمان حسن أحمد جهوداً جبارة لجمع أعماله لمبعثرة وأودعها كتاب «أصوات وحجر» ولا يرل لدي العديد من أصدقائه الكثير من إبداعه المنشور والمحفوظ.

وبعد خمس سنوات من رحيله استكتب عثمان حسن أحمد السيدة ريموند وهي مثقفة إنجليزية عملت بمدرسة البنات الثانوية بالسودان حيث التقى بالدكتور أحمد الطيب فوصفته بأنه كان عني الروح ثاقب الفكر جم الثقافة جريل لعطاء في محادثاته لشربة حتى ليبدو فقر الأحرى وإملاهم حين يتحدث، وأصافت بحماسة «يالها من ذاكرة تستحق كل ثناء فقد كان يقتطف في حديثه من شكسبير وشيلي ووايلد وبيرن وبيرنو أعظم شعرائنا وأدباءنا وكتاب المسرح. ولم يكن أحمد مطلعاً على الأدب العربي فحسب وإنما كان من الراسخين في معرفته، وقد كان أطول مناً بآغا في الدراما الفرنسية عني وجه الخصوص ولقد أرشدني إلى راسين وستند هول وإلى الفلاسفة المحدثين أمثال شو وبرستي ورسيل، وتحدثت السيدة ريموند على عيابه بقولها لقد ولد في وطنه قبل أواله بمئة عام والسودان بعيره فقر فقير ولا عراء له في فقدته».

عاش الدكتور أحمد الطيب تجربة مريرة من رواجه بفتاة إنجليزية أدافته ابويلات وتفتت في تعديبه فكتب وصفاً لم كان يلاقيه منها في مذكرات له، كانت أشبه بحين مورس في رواية موسم الهجرة إلى لشعاع بل هي هي حذوك المعل بالعمل والنسحة لأصلية «إلا أنه بعد مراقبها اقترن بسودانية نعم معها شيء من السعادة حتى وافاه الأجل عام 1962 وهو في الخامسة والأربعين من عمره محلقاً طلقين أحدهما صبي من نريطانية والأخرى ست من رواجه الثاني

صلاح بشري وكمال عبدالحليم



كمال عبدالحليم



صلاح بشري

حملت رياح أمشير ومهريها الفارس في في ذلك الصباح الكئيب من عام 1948 نبأ عاجلاً تسلل من لسجن إلى لجامعات والمعاهد والمصانع والبيوت دارت على مدينة القاهرة مات صلاح بشري الطالب السوداني في السجن صيحة التعذيب وقسوة الجلادين كان صلاح طالباً بكلية الطب في جامعة فؤاد حين إقتاده الموبس السياسي إلى الزنازين، ثم يكن قائداً سياسياً ولا رعباً طلابياً، لكنه كان واحداً من آلاف الطلاب الذين انحرطوا في لسان المشترك ضد الاستعمار وحلفائه المحليين أدى البرد والجوع وسوء المعاملة إلى إصابة صلاح بالسل الرئوي فصعوا عنه الدواء بينما كان يلفظ رثيه دماً سجيماً.

كانت لائحة السجن التي وضعها المستر لوكس، أول مدير للسجون المصرية تجمع السجن من تناول أي طعام خارج السجن حيث توفر له السلطات نصف رعب أسود مع قليل من الملح للإعصار ورعباً مع شيء من الفول أو العدس

أصوات

محلوطاً بالزمل للعداء ورعيماً مع سائل لا نون ولا طعم يسمونه «اليمك» للعشاء ويمسح سائل أي شيء يحتوي على السكر أو الحلوى وفي ظروف ثم فيها شيء من الانزعاج يروى أن سجعاً رأى سجعاً يتناول قطعة من «العجوة» فصاح بأعلى صوته «دي حريت» ثم سقط معشياً عليه ذلك هو السجى لذي رح فيه صلاح بشرى فأصيب بالداء القاتل ثم قصي

ردد الباعى بأهالة صلاح فخرجت تعذرة صحمة عاصية من الجامعة وانهم إليها عشرات الآلاف من العمال في ميدان التحرير قادمين من شبرا وحموان والوادي والعباسية، يهتفون ضد الاستعمار والسراي. ثم توخوها إلى ميدان «الأوبرا» حيث أقيمت الصلاة على عثمان الشهيد في مسجد الكحيا. كان لعصب قد استبد بالجماهير التي أحاطت بالعثمان تدد بالجريمة وتطالب بمحاكمة العونة ورجاء المباحث.

أعدت السلطات طائرة خاصة لنقل العثمان من القاهرة إلى عطبرة - حيث تعيش أسرة الشهيد- وابتدبت أحد باشوات القصر ليصاحبه إلى هناك ليؤدي واجب العزاء إلى أسرته وإلى الشعب السوداني بياة عن الملك إلا أن لجماهير المصرية المعاصرة والطلاب فرصوا سفر أحد قادة الطلاب ليكون لممثل شعبي بمصر في التشييع. أفندت الطائرة وهي لا تضم سوى بضعة أفراد ممثلين بعدد من الجهات ويرأس الوفد ديك الباشا برأسه الصخيم وطبعه لمتعالي كان يتحرك في تودة وصجر صامتاً فبصاً على سبيحاره يحرك رأسه يمينا ويساراً وكأنه على وشك الاحتراق ترمماً بتلك الرحلة التي فرصت عليه وبذلك لمجموعة البائسة المتواضعة من الناس التي لا ترقى لمستواه

ولم يمر وقت طويل حتى استدعى الباشا ديك الطالب وسأله عما إذا كان مجيداً للحظمة ولما بقى له قدرته على ذلك أمره باحصر ورقة وقلم وكتابة حصة لائقائها على جماهير عطبرة وتتلخص هي أن «العاروق أعز لله منك»، وحمى

عرشه، يعري شعبه في السودان في وفاة ابنه صلاح» هبعت الطائرة في مطار عطبرة وكانت الزهور وبطاقات التحيات واتحادات المدارس والجامعات لاتزال عالقة بالصندوق لحشبي الذي حمله أربعة من الرجال حين تجاوزهم الطالب المصري خارجاً من الطائرة ليحطب في الساس بانفعال وطلاقة ثم يردد «يسقط فاروق عدو الشعب» «يسقط فاروق قاتل صلاح»، عبدالهادي كلب الوادي وانزوي الباش كجرذ جرفته السيول.

كانت مدينة عطبرة قد خرجت عن بكرة أبيها لاستقبال الجثمان وتشييعه فرددت الهتافات التي بددت بالقتلة والاستعمار رغم إجراءات التحظر التي حاولت السلطات البريطانية فرضها وعاشت المدينة يوماً مشهوداً حفل بالتظاهرات والمواقف العاصية التي استمرها هول الجريمة.

حل كثير من الكتاب المصريين - خاصة انديين عاصروا تلك الفترة طلاباً - يكتبون عن تلك الذكريات التي مضى عليها أكثر من نصف قرن والتي اقترت برملائهم السودانيين وخاصة الدكتور رفعت سعيد - الكاتب والمؤرخ المعروف، والدكتور يوسف إدريس - الروائي لمبدع - إلا أن قصيدة الشاعر محمد كمال عبدالحليم تظل السمودج الأكثر سطوعاً في الوفاء والإحساس بجمعية عتيال صلاح بشري الذي كان لا يزال في ميعة الصبا. طلت هذه القصيدة لعقود من الزمن يرددنها الطلاب لسودانيون في أماسيهم معجبين، مستهدين صور البطولة من تلك المأساة التي هزت وجدان الشعب السوداني.

بين صخر وحديد وأعاصير وسل
وسندود وحمود قتلوا مناً بطس
حسبوه سيبسوم حينما يدنو المصير
وجدوا حراً يقاوم وهو في النزع الأخير

والشاعر المصري محمد كمال عبد الحليم - وهو قد تجاوز السبعين الآن - لا يران حياً بها مؤثراً بصمت ومجلاً بالأسى رعم جلجلة صوته المذوي في سنوات الأربعين من القرن الماضي - حيث كان مجرد الهمس جريئة ونعال المستعمر فوق عنق الأمة. عثرت على ديوانه قبل فترة فكت كأي قد وقعت على كثر ثمين فأصحيته كما طالعت، إرددت شغف ينلك التجربة الشعرية التي لم تعد باقدا يصعها هي ماهي جديدة بها من مكانه ولا يرال النقاد يتحاشونه كالبيت لمسكون وما أصدق الشاعر السوداني الراحل صلاح أحمد إبراهيم حين أشار إلى الفصيح لموضوع على اسمه كي تكتمل مؤامرة الصمت... لأن ذلك الشعر يضح كإنسان أمام صميته أمس واليوم وعداء.

كنت مأساة الشاعر محمد كمال عبد الحليم في أنه قرع الأجراس بعصف يفض المضحح واستعجل الفرغ بشعارات مذهبية أنس في يريفها الحلان. ولكن جده شعره وعنفوان صوته وإضافة العدة بريادة الشعر بحديث صنت بأمية متقدة لا ينكرها إلا مكابر ما كان كثير على كمال حليم أن يرى فيه النقاد العرب ما رآه العقل النقدي الأوروبي في الشاعر حررا بوند الذي ارتبط اسمه بمديح العشية ولا انشاعر سان جون بيرس الذي كان أحد أعمدة الحارحية الفرنسية أيام الاحتلال الناري وحكومة فيشي - إبان صفوان مقاومة باريس - ثم يجد نقدنا العرب في لموقف من هذين الشاعرين لمتهمين في وطنيتهم وروبتهم بلحق الصريح صريحا عذير في انصاف كمال حليم.

عالشاعران العربيان رغم مواقفهما التي اصطدمت بأدبي شعوبهما احتلا مكانا لائقا لقيمة الإبداع الذي قدماه - دع عثت غيرهما من عشرات المبدعين الذين انهاروا لنفس الفكر الذي ارتضاه شاعرنا الذي كان جراؤه انسيان والحرمان من أن يتخذ موقعه الطبيعي في ريادة الشعر العربي.

مارلت أذكر حديثا لشاعر الفينوري أدلى به لإحدى المجلات قبل سنوات

إحترق به جدار الصمت المصروب حول كمال ناصحاً النقاد بأن يعيدوا النظر في مسألة ريادة الشعر الحديث بصمة عامة وبرى ليستجل موقفاً عجز عن إتخاذة بقدة لشعر ويحرص ألسنة ائدين يراوحوون بين يسمي تارك الملائكة ويدر شاكر السياب وأحياناً لويس عوض وأعرب عن اعتقاده جارم بأن هناك مبالغة في هذا الإدعاء باعتباره أن عباءة شعر الحديث إنما سجت على منوال شارك في غزله أو سيجده ثلاثة شعراء - هم تارك الملائكة ويدر شاكر السياب وكمال حليم هارك والسياب أعصاب المحيط والمعزل، أما كمال فقد أعطي اللون والرائحة وأكد في حديثه الصاحب ذلك أن شعره هو الذي أعطى القصيدة العربية المعاصرة جوهرها الحقيقي.

كان كمال في عصره لصباحين ندر نفسه للشعر واستحوون سائراً بأقدام حافية فوق الأشواك والجمر فتعنى بالملح والمامل والحب المصادر بكلمات متوهجة لحصتها كاتبة مصرية ذات حضور بقوبها «حتى الهوى عبده لا يسلم من التوقد المشبوب». من القوة والحيوية. قد يرق معموده لكنه لا يتمرع ولا يتهاون، بل يقول في تطف القوة لادل الصصف غورة إطلاق إلتياح ولكنه عزيز

صدر ديوانه الوحيد «إصرار» الذي صودرت طبعته لأوسى ولثالثه من أصل طبعاته الأربع - للمرة الأولى عام 1951 ليحتوي أشعاره التي كتبها منذ عام 1943، لتري فيها «مجلة فصول» لصدرة في يناير 1951 رؤية تحصد معاني النقد الحديث حين أشارت إلى أن «الشاعر تمحير لغة ممعة في السبابة ثم يعهدا اشعر العربي من قبل حتى ليحاج القارىء أنها صادقة وصيغية صدق الأهة انصدارة من المنسوع وحديد على الشعر العربي ألا يقف اللفظ ستر يحجب المعنى وفي كتابه «شعراء العرب المعاصرون» الصادر عام 1958 لخص اشاعر الدكتور أحمد زكي أبوشادي شعر كمال حليم في كلمات جامعة حين قال «كسا بهنم بهد لشعر لا لمثاليته وحسب، بل لطافته لشعرية وروحه لتجديدية

أصوات

أصبحت فكلها تؤلف في نظري وحدة مية جميلة خلفة بالإعزاز»

أما الدكتور الطاهر أحمد مكي إكتفى بالقول «جاءت البداية بعد شهر من انتهاء الحرب، وبالتحديد في أول يناير من عام 1946، أبياتاً من الشعر يقرأها لمثقف عربي لأول مرة في محبة «أم درمان» التي كانت تصدر في القاهرة، ذات يوم حديد لم تعهد الأدب العربية من قبل وكانت لشباب مصري، طالب في كلية الحقوق بالقاهرة وقعها باسمه الأول وتوجه بها للإنسان في مصر وأعطاه عنوان «إصرار».

توفي الشاعر في وقت لاحق من كتابة هذا المقال عليه رحمة الله

31 يوليو 2001م

القدرات المتعددة وروح الإبداع

محمد أحمد محبوب



توجّه لمحبوب عندما كان طالباً بكلية عربون إلى مكتبة «سودان بوكشوب» ليشترى نسخة من كتاب «الشرق المعنطور» الذي ألفه الكاتب الإنجليزي المعروف ج. أسبندر بعد رحلة قام بها إلى تركيا ومصر وأهدى خلال عامي 1925 - 1926 وعندما وقف أمام البائع اليوناني ليسدّد ثمن الكتاب وهو يقلب في صفحاته دخل السير هارولد مكمايكل يسأل عن بعض لكتابات فاعتذر إليه البائع في أدب جم وأبلغه أن النسخة الأخيرة اشتراها الآن ذلك الشاب الواقع، فحدّثه بطريقة حار في تفسيرها وفنداك واستأذنه وأخذ يقلب في صفحات الكتاب ثم سأله بلهجة مكررة مستنكرة «هل تقرأ وتفهم مثل هذا الكتاب؟» فلم يجبه المحبوب، من أحد كتبه وحرج في صمته

كان المحبوب في عصر الإهاب لم يكن عامه العشرين بعد إلا أنه كان مولعاً بالقراءة ومشابعة ما يستجد من معارف ، وقد قرأ لكتاب وسره ما كتبه أسبندر فالرجل كان كاتب وشاعراً من تلك الجماعة التي أطلق عليها مجموعة كيمبريدج

تألفت في سنوات العشرين والثلاثين من القرن الماضي. وفي كتابه ذلك أصف
رعاة الشرق الذين بررو عهد دك مصطفى كمال أتاتورك وسعد رحلول والمهاتم
عندي، وأشر إلى الأدوار المهمة التي يصطعون بها في سبل نهضة بلادهم
وتطورها. أما مكمايكل الذي إستكثر الكتاب على المحجوب فقد كان أحد أهم
الإداريين الإيجليير لذين مروا على اسودان وكان كتيبا ومؤرخا ومدققا متميزا
بدكاء وقاد وقد ألف كتاب «السودان الإيجليري المصري» الذي إستعرض فيه
تاريخ لسودان منذ أقدم العصور وتعرض فيه لحاضر الحكم والوضع السياسي
وحتى مستقبل البلاد حاوان التكهن به.

ولد المحجوب بمدينة الدويم عام 1908 وتدرج في مر حل التعليم متفوقا حتى
تخرج في كلية هردون التذكيرية مهندسا في أوائل عام 1929. وجاء في تقرير تصميمه
ملعه في العمل أنه أكفأ وأقدر من أقرانه السودانيين الذين يسبقونه في الخدمة
بخمسة عشر عاما، وأن عقله يتميز بسرعة التفكير وقد أنجز بعض امشروعات
انهندسية خلال الفترة القصيرة التي قصاها في هذا المجال.

قرر المحجوب فجأة أن يغير مسار حياته بالتحاقه بمدرسة الحقوق في يناير 1936
ليتخرج وينظم في سلك القضاء في نوفمبر 1938 ومنذ بداياته تلك كان مكتب
الأمس العام يتابع نشاطه مع عبء من كانوا في عداد موظفي الدولة ويتابعون
دراساتهم في كلية الحقوق وقد لاحظ المكتب نموده في العمل على رؤسائه
وتردده على مكاتب «جريدة النيل» فاقترح إبعاده إلى الأقاليم بعد التخرج واتصح
من خلال تلك التقارير أن رؤسائه البريانيين رغم تقديرهم لكفاءته كان يصيقهم
ما يعتبرونه بعاليا وإحسانا بالتفوق والاعتداد وتصممت التعارير أيضا أنه شخص
تملكه روح التفوق وللمعرفة وأنه معروف بأنه كاتب سياسي يبشر بأفكار متقدمة.

في عام 1941، نُقل المحجوب إلى دائرة شدي القصائية التي كانت تشمل مدينة

عصبة وبرر نشاطه السياسي في هاتين المدينتين مدافعاً حيث ترأس مؤتمر الحريجين في شدي وفي عصبة بصرف إلى إنقاء المحاصرات وعقد المؤتمرات وحلقات النقاش وفي إحدى هذه المحاصرات طرح فكرة قيام اتحاد عام لعمال السودان ليصبح قوة مطلية واجتماعية تحدم مصالح العمال صدق المحجوب بلوطية وأخذ يتوق إلى المحامدة ليجد هامشاً من القدرة والحركة في مجالات العمل الوطني الذي بات من الواضح أنه سيكرس حياته من أجله.. وعدم تمكن من ذلك تولى سكرتارية اجهة الاستقلالية في عام 1947- وكانت مكونة من حزب الأمة وبعض المتعاطفين معه- وذلك دون أن يكون عضواً في الحزب. وقد شارك في وفود الاستقلاليين التي عادت أوروبا والولايات المتحدة كما شارك في الجمعية التشريعية وكان من أعضائها البارزين الذين اعتمد عليهم الإمام عبد الرحمن المهدي وفي الانتخابات الأولى - دوائر الحريجين - كان ترتيبه الثاني بعد مبارك رروق واختارته المعارضة الاستقلالية رعيماً لها في مجلس النواب حيث شارك رئيس الوزراء سماح الأدهري في رفع علم البلاد صبيحة يوم الاستقلال ولعله من الأشياء الطريفة والمثيرة لدهشة الكثيرين أن المحجوب أصم لحرب الأمة في ديسمبر 1956، وذكر أن صبيه الرئيسي في ذلك هو « أني كنت أميد بلجهة الاستقلالية وكان حرب الأمة آنذاك لوحيد الذي تنوفق سياسته مع قناعتي السياسية ». وشارك محجوب في حكومة عبد الله خليل الأولى في يوليو 1956 خلفاً لمصافه مبارك رروق وبعد انقلاب نوفمبر 1958 كان في مقدمة المعارضين الذين تم نفيهم إلى الجنوب إلا أنه بعد ثورة أكتوبر تولى الخارجية مجدداً ثم صار رئيساً للوزراء في يونيو 1965 بعد الانتخابات التي جرت في أبريل. وبعد انقسام حزب الأمة واتلاف جناح الصادق المهدي والحزب الاتحادي سقطت حكومته ليتولى الصادق الحكم، إلا أنه عاد إلى رئاسة الحكومة بعد سقوط هذا الائتلاف وقيام آخرين الحزب الاتحادي وجناح الإمام الهادي في مايو 1967

أصوات

وظل حتى وقوع انقلاب مايو في 25 مايو 1969

كان لمحجوب من أبرز رموز ذلك الجيل وكان موهوباً متعدد الميول دا شاطر دافق واعتداد بالنفس وكان يؤمن بدور الفكر والثقافة في بناء المجتمعات وقد ساهم في النشاط الأدبي، ناقداً وكاتباً وشاعراً وفي المجال النقابي قاصياً ومحامياً وفي السياسة زهيراً ووزيراً ورئيساً للوزراء.

وقد استمد تلك السمات من مثابته وإطلاعه الواسع ومكانته الاجتماعية لمرموقة والتراث العميق لأسرته. فهو من ناحية أمه، من الهاشميات الذين شاركوا في الحياة السياسية والاجتماعية خلال عهدي المهدي والحكم الثاني، وكان جده لأمه الأمير عبد الحليم مساعد من أبرز أمراء المهديّة، وقد صاحب الأمير أبو فرجه في ملاحقة حملة هكس- والأمير عبد الرحمن النجومي في الرحف نحو مصر حيث استشهد في توشكي. وكان المحجوب ممجّباً بتراث أجداده هؤلاء وكثيراً ما أورد أسماءهم في كتاباته كما كان لحاله السيد محمد عبد الحليم دور كبير في تربيته وتعليمه وتوجيهه للقراءة والإطلاع على عيون الأدب وأهمّيات الكتب.

تميّزت حياة المحجوب بعباءة فكري واسعة فقد كان ينشر مقالاته في مجلة «المهجة» السودانية لصاحبها عباس أبو الريش ومجلة «الفجر» التي أصدرها عرفات محمد عبد الله الذي كان يعاونه المحجوب وبعض أصدقائه في تحريرها، ثمّ وأصل إصدارها أحمد يوسف هاشم بعد وفاة عرفات. وصدرت للمحجوب أيضاً كتب «محو العدم» و«الحركة الفكرية في السودان» إلى أين تتجه؟ و«الحكومة المحلية في السودان» و«موت دنيا» الذي كتبه بالاشتراك مع اس حاليه ورفيق عمره الدكتور عبد الحليم محمد. كما صدر آخر كتاب له بعنوان «الديموقراطية في الميراث» الذي لمخص فيه تحريره اشياية وأودعه بعضاً من ذكرياته ذلك غير الدراسات والمحاضرات التي ساهم بها في إثراء الحركة الفكرية والثقافية

وكان المحجوب قد تصدى لتكوين جمعية القراءة بالهشامب والتي كان من بين أعضائها عبد الحليم محمد وعرفات محمد عبد الله وأحمد يوسف هاشم ويوسف مصطفى التي وعبد الله عشري الصديق وأخوه محمد وأمين بابكر والسيد العيل.

نظم المحجوب الشعر منذ مرة باكراً واستمر ينظمه حتى أيامه الأخيرة وقد صدر له ديوانه الأول «قصة قلب» في عام 1961 و «قلب وتجارب» عام 1964، و«الأندلس لمفقودة» وهو ديوان صغير تضمن قصيدة واحدة عام 1969، ثم الديوان الرابع والأخير «مسيحتي ودي» الذي صدر عن دار المعارف بمصر عام 1977

كان المحجوب معجباً بشعره مدلاً به وكان يسعده إشادة الآخرين به وإنشاده وهي خلال زيارة المستشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك لسودان في أواخر ستينات القرن الماضي أقدم له المحجوب مادية عشاء دعا لها عدداً من المثقفين والورراء وقد أشد لهم الأستاذ مكاي مصطفى بعضاً من أشعار المحجوب ومن بينها ذات الرداء بصوت أشجاء وأطربه فأخذ يستعيد حتى طلوع الفجر. وهي السنوات التي قصاها في لندن كان يلتقي بأصدقائه ومن بينهم الكاتب الروائي الطيب صالح وشاعر لسان التشكيلي عثمان وقبع الله اندي كان يستعيد المحجوب إنشاده بلشعر ويصحب منه دائماً ألا يشد شعر المسي قبل شعره حتى لا يفسده له ويحوله إلى كلام لا طعم له.

عاش المحجوب حياة عريضة وعية ومنشوعة وكان شخصية جذابة تستقطب إهتمام الناس في نطاقه المحلي وفي المحيطين العربي والأفريقي وكانت كثير من العواصم تحتفي بزيارته لها ويهرع إليه الأدباء والمثقفون يستمعون بما يشيعه حوله من روح إبداعية شاعرة وقدرة على التواصل للإنساني

«موت دنيا»..

جدلية الحب والمعرفة



د. عبد الحليم محمد

يقول أحدهما وأحده المحبوب - يقيماً هو - «رواية حسناء هي ريعان الشباب ممتلئة أبوة وحناناً، ساهمة اسطرات على وجهها سيماء حزن خفي حاولت كثير أن أدرك كنهه وبكبي ثم أستطع فك رموزه، وخصلات شعرها المرسل الطيفة يداعبها المسيم وهي تسوى دند لشعر مكانه بيد كنها العنة، وتتحدث الإنجليزية في صجمة حبيبة إلى السامع لا يسعه إلا أن يطلب منها المزيد تلك هي بائعة الكتب في ذلك الحانوت الصغير، تلاطف هذا وتعامل ذلك، وتطلع اسليم إلى رف قصي لتأتي بكتاب وضع هناك، وهي في صعودها وهبوطها تبدو كل محاسن جسمها صدر بارز، وحصر نحيل، وساق فاتن أمود، وعستان يساعد كل ذلك انجمال على الظهور، فلا هو بمحب لصوامر، ولا هو بمقل من قيمة المشارف، لا ولا هو بسائر الملاذ. تلك هي بائعة الكتب التي لغت أنظرها إلى المتجر وجعلتنا يرتاده ولا نمل إرتياده، وهي التي شأت بب وبها أول صداقة فكرية، قبل أن تألف صحبة المؤلفين والتحدث إلى الكتب

والاستماع إليها، ولحسنها هي فنون كل إجلال وتحليل مصت زهاء الخمسة عشر عاماً منذ أن بقيها أول مرة، ولكن ما نكد معها بعد ذلك إلا وذكر أنها الفاتنة المُنهممة، عبقرية الجمال التي تهدي الدس إلى شعاع العبقرية من أقدم الأحيال حتى يومنا هذا ولا يحو لصديقنا عشري - يعني عبدالله عشري - انصديق أو أحمه محمد - إلا أن بلغت نظري إليها كلما لقيتها في الطريق وأن يدكرني بأنها أستاذنا لأول، وهل نرعى نحن بغير أستاذيه الجمال»

لقد لقيتها في انعام لمعاصي ورائها سرب من لأطغال يتدرون بمسحة من ذلك الجمال والوداعة، وأهمهم لم تفقد شيئاً من رشاقته ولا فنتها، غير أن الأيام قد جعلت ذلك لوحة التطبيق ورسمت عليه مظهر من حكمة الرمن، وبدت شعيرات بيضاء هنا وهناك في شعرها الذي طالما سوته بيد المنة، إنها كتاب من اجمال العقري، والكتب الجميلة لا يدركها العناء، تبقى على الرمن تراث خالد، ونبراس بصيء الطريق للسايرين في مسالك الفكر»

هذا الشر الأبداعي الرهيع تصممه كتاب «موت ديباه» الذي ألفه محمد أحمد محبوب وابن حله الدكتور عبد الحليم محمد، كنا في ريق الصب عند داك هي سنوات الثلاثين من القرن امعاصي، أودعاه ذكريات عزيزة وطباعات عن حياتهما التي تراكمت مع تحولات عيفة في لسياسة هاشاها في كلية هردون - المرحلة الثانوية - في ستوت لعشرين، وما تلا ذلك من مسين كنا قد بهلا كثيراً من هيص الأدب عثرا على كرم من الكتب في دارهما بأم درهم وبأثرا بالمتاح لأدبي لعام اندي أحد يطبع حياة انعاممة بميسمه حين شأب جمعيات لقراءة واشتيف الداني وأحدث في الاردهار.

تعرفا على الأدب والفلسفات العربية وشعنا بالثقافات الإغريقية وملاهما سقراط بمثالية امكر ولإستعداد لموت في سبيل الإعتقاد وأعجبا بالوزير البريطاني دراثيلي الذي حمعه الإحساس بالاصطهاد ليصل إلى مكانة رابعة وإستطاع أن

يجسد تجاربه فيما كتبه من أدب رائع، كرواياته «هيمن جرائي» و «كسجري» و «سبل» و ثقلها في مختلف حقول المعرفة وبها من كل ما كان متاحاً لهم

كانت الصحافة المصرية تشكل راعداً أساسياً في شحذ الوعي لدى المتعلمين السودانيين، فكلموا بها أيها كلف، كما كان كُتّاب مصر وشعرها في تلك الفترة يمشون دروة الدوق الأدبي في الثقافة العربية مع حسين والعقاد والماري وعبد الرحمن شكرى، وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه المهدس وإذا تأملت ما اقتطفاه في صدر المقال تجد تأثير هؤلاء الكُتّاب والشعراء واضحاً على مستوى التراكيب والمعردات في ذلك النص. وتبدو حساسية المحجوب لشعرية بارزة بصورة عفوية حين يتحدث عن القائمة اليونانية «التي نسوي شعرها بيد العنزة» كما يتحدث عن «ساقها لأمدود» فيستدعي الشابي مثلما استدعى علي محمود طه، ولكنك لا تحس بأيّ عمل أو تكلم لم تكن الرواية العربية قد برزت بشكل سافر إلى الوجود مجرد محاولات حيية متعثرة ولكن المقال الأدبي وجس لكتابة المثيرة للإبداعية في المشاهدات والاطباعات كان يجد حماساً لدى القراء والمثقفين ويشير المحجوب نفسه لمؤلف المازني «إبراهيم الكاتب» الذي يتماهى مع النص الذي كتبه

كتب المحجوب عن صالون أدبي لسيدة من سوء ذلك الرمز - قطعاً ليست درغور، بعدها بسنوات - أطلق عليها أصدقائه اسم «مدم دي هاري». امرأة سودانية عادية صقلوا حسنها وشحذوا وعيها فبانت أدرى الناس بإدارة الحديث وكيفية تناول القصص مع المتابعة الدقيقة لأحبار الطبقة المثقفة التي تتمتع بصلات وثيقة مع كثير من وجوهها اللامعة. وصف المحجوب الصالون بأنه كان داراً أليفة حسنة النظام تنم عن ذوق وفن لم تكن للعبث والسمجون وإنما هو صالون بكل ما تعني الكلمة يدور الحديث فيه عن الأدب والفن والسياسة وتشد فيه الأشعار

شعب الكائن بالموسيقى وعرفا نهوض و كانا يرتادان الأماكن التي يجمع

السحر والفتون فقد كان للأجانب عالمهم في مدينة الخرطوم . كانت لهم وحدهم دون أهلها من السودانيين إلا أنهما لا يلتصقان أن يعود باحثين عن الموسيقى في بلادهما فيستعذبان العيثارة وما تثيره فيهما من أشجان ومسرات

كنا عن امرأة السودانية التي جسد بمودحها العريد في تلك السيدة التي كانت تعمل إناء من الثريد والتطاهرات العاشدة ترحم شوارع العاصمة فقدم طعامها للجوعى في ذات يوم مكهر، ويتحدثان عن أخرى ويقولان «حبت عن أن تسمى» ويبدو أنها روعة لرقيم عرفات محمد عبد الله، فيستطردان في الحديث فخرقت انحدادث بيها وبين بعلا وهو أبل الرجال وأثبتهم على مصص انجهد، فاحتملت كل ذلك في صبر وثبات، حانية على طعلتها الحبيبتين، تربيهما وتعلمهما وتعرض فيهما أبل المصعد والمعائد، وهما هي تقص عليهما قصة أبيهما، وكيف حرح من الحمى وتعرض للمصعب والتشريد أوبة، ونعم بالحياة والصح أخرى، وتعلم عنهما حرمانهما نحو الأبوة ورعايتها، وهي في كل ذلك تتألم صابرة وترتقب عودة الرائد.. وهما وقد عاد إلى الحمى . وهما هو ذا يقود القافلة ويحس العداء وهما نحن مصوي تحت لوائه، ويسعد بالعمل معه ومشاركته التفكير في شؤون البلاد، وإذا بتلك المرأة السيلة تحدثنا حديث ذلك العم، وموقعها من ذلك الرجل المنتعج الأوداح، الذي سم يبق مكاناً في الدر إلا نشه، وسم يبق إلا أخدرها يريد أن يصل إليه، وهما أعطته الدرس الأول والصعمة القوية فحرح من لدار مطاطين لرأس وفي عيبه دمة تفرق، هذا هو عرفات بعينه فقد كان أباهم الروحي وتلك هي زوجته التي لقت أحد صباط المباحث ذلك الدرس. «وقد أعمل الكاتب عمداً أن يورد الأسماء مما أفقد لهم البعد التاريخي الذي كان يمكن أن يكشف بكثير» ولواضح أنه أراد أن يكون نصاً أدبياً بحث شأن الرواية رغم واقعية الأحداث كما أن الكاتبين لم يحددا الحدود الفاصلة بين كتابتهما إلا ما يستطيع الفارئ أن يستشعره من

طبيعة الحدث والأسلوب متقارب بدرجة الشطابق، حتى تعين أن الصياغة
 لهائية إغرد بها أحدهما دون الآخر وأغلب الاحتمالات أن يكون هو
 لمحبوب. رغم المقدرات التي تميز بها دكتور حلهم فقد كان أديبا مطبوعا
 قبل أن يهجر ذلك معجول ويتجه للإهتمام بالرياضة التي أبدع فيها بمضي بك
 لكتاب صعودا وهبوطا ويتناول صورا شتى ومتنوعة عن الحياة السودانية خلال
 لنصف الأول من القرن العشرين طلاب الكلية وما كابوه إثر ثورة 1924 ثم
 لإصرار لشهر الذي سجل أول انتصار لهم وتراجع للإدارة البريطانية..
 لجمعيات الأدبية وهي تشق طريقها. نادي الخريجين واحتفالات المتعلمين
 بالمسابقات المختلفة. سادج من الحكم البريطانيين وسلوكهم تجاه الآخرين
 ولعل أحرف ما جاء في الكتاب وصف البعض منهم الذين كانوا يتصرفون كأنهم
 آلهة اليونان في جبل الأولمب فروى بريطاني لا ينتمي لرجال اسلك السياسي
 يسحر منهم قصة من إمبراطور الرومان قال فيها «أقام الإمبراطور حفنة من
 حملاته الدمية التي لدور رضى الحرب فيها بين الأسود الكسرة والمسيحيين
 لأولل. وقد تجتمع حوله رجال الدولة وأعيان البلاد، وحيء برجل من أولئك
 لمسيحيين المعديين وأطلق الأسد عليه، ولكنه تمتع ببعض كلمات ترفق
 لأسد حائر لا يحرك يدا، وعصب الإمبراطور لذلك وأشار إلى أحد وريثه أن
 يتحرى عن السبب، فذهب الورير واستفسر وعلم أن الرجل قال للأسد: «أنا أحد
 رجال اسلك السياسي في حكومة السودان» ولهذا صمد الأسد عنه ونساءل
 لإمبراطور دهش عن اسر! فقبل به إن الأسد لا يفرس إلا الأدميين فقال أليس
 رجال اسلك السياسي في حكومة السودان أدميين؟ فقبل له «عفوك يا مولاي
 بهم أنصاف آلهة» كانت لهذه الدعاية أثرها في أوساط السودانيين حيث
 تصمت كثيرا من السحرية والشماعة على تعالي الإنجليز وحسبهم بالتفوق
 سرعان ما تباه السادة الإنجليز إلى ما يدور في أوساط المتعلمين السودانيين

من ضيق ونسرم بأسلوب معاملتهم فإنحدوا سياسة جديدة بالدعوة إلى حفلات الشاي في الدور الخاصة وهي سراي الحاكم العام التي قرّر السير ستيوارت سايمر فتح ميادينها لأبناء الشعب مرة كل أسبوع لترفه عنهم وكان يدعو متعلمين وغيرهم إلى تلك الحفلات . حسبوه ربما برعب في الحديث عن قصايا البلاد وهمومها وبقشعهم . إلا أن للكلام كان يحصر في أنواع الزهور التي تزين ميادين السراي وأنواع الطيور لوافدة من بلاد بعيدة والأخرى المستوطنة وأحياناً هن صيد السمك .

صدر هذا الكتاب لأول مرة في أغسطس عام 1946، ثم صدرت طبعة ثانية خاصة في عام 1986 بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل الأستاذ محمد أحمد محبوب .

26 نوفمبر 2002

غمامة تحب عمامه

في ذلك الصباح البعيد أصبحت لأفاق بألوان أرجوانية يجعلها سواد . اعتلت
كوكب هي السديم . احتججت وديان وتقضت قسماً سهول وتبست لحاء
لأشجار ونصوحت أوراقها . حنت الموق وعاص الحليب في أحلافها وألفت
أسراب لعراشات بنفسها على بيرون الرعدة وأمسكت الطيور بيوصها كأنها
بانتظار لرول مدمر وتراكضت بقاتق تدفع برقابها أمامها مدعورة . عوت دثاب
وأحفلت وعول . أرزمت طبول وتحاوت أصداؤها، فطائر الثم هوى من هليانه
صريعاً على العلوات . تمدد الشاعر ميتاً تحيط به هالة من انبيل ورقاء ببصاء
تثلاً . قصي شهيد مابقبته وروحه اشعافه . كان ذلك في أوائل العقد الثاني
من القرن العشرين بمدينة الأبيض . . إنتقل السبا الحزين من دحل إلى سهل ومن
سهل إلى دحل حتى ارتقى على بحر النيل مرعداً وانداح على صفحته الصقيلة
ثقبلاً كالرقيق فاحتضت الأسماك وتمش السبا في شوارع أم درمان فسيطر عليها
سأم كثيف .

كان لديوان الملكي عاصماً بالوررء والقضة والأعيان وكبار لصيوف في العاشر
حاضرة د رفور والسلطان اشباب عني دينار بن ركربا يحلمس على سرير الحلث
يحده الجلال بعينه لواسعتين المستديرتين تحدقان إلى الأمام نحو ذلك
لرجل الوصرء الجالس في ثبات ويقظة تسمان عن علو الهمة، والكل عارق في
لصمت، إلا أنهم كانوا يدركون أن الأمر لم يكن يتعلق بمحاكمة أو صدور قرار
قامس يقدر ما هو عتاب يوجهه السلطان إلى صديقه الشاعر التاجر حامد ود محمد

الذي يعيش مدينة العاشر مرتين في العام فيسطره السلطان على ما هو آخر من
انجم ويفسح له مجالاً في مجلسه ويسمع بحبور إلى معامراته وأشعره وأحدر
«دار صباح» ولا يتركه يعادر المجلس إلا وهو محتل بكر ما هو عال ونعير
إعتدل السلطان في جسته تتابعه انعيون بحاشية ولشعفة والتفت إلى حامد
الشاعر معفاً «أما سمعت يا حامد من قبل أن هدايا الملوك لا ترد ولا تهدى
ولا يباع. وأن قد اصطعبت دون سائر التجار القادمين من «دار صباح» صعباً
وبديها. وبقد كانت قصيدت الأحيرة في مدحنا ذرة ريت نرجح ملوك الغور لدا
اقتضت أريحيتنا مكافأتك من جدارك في قول لشعر ومعرفة مكابة السلاطين
فلم أهديت كل ما صحتك إياه وعدت لا ترعى للملوك حرمة». ثم يرد السلطان
إلا أن يتحدث باقتضاب متحرراً لأن يستمع إلى رد صديقه. هب الشاعر واقفاً
بقومه لسمهري العرع يرد على السلطان خلافاً لتقاليد البلاط التي تقتضي أن
يكون صاحب المرء جاث على ركبته. ثم يكن لحديث شر ويص شعر تأتي عمو
الحاطر ببداية وحكام وتناثرت أبيات القصيد المصحمة تعدد مآثر السلطان
وترسل لا اعتدار برسالة بتهذيب وترفع تؤكد عليه لطبع وسجاء ليد ابدي لا
نقيده أعراف ولا تقاليد.

كانت عصبية السلطان مصرية لا تعرف ان تراجع ولا تقبل الاعتذار حيث رأى
في موقف الشاعر بتوريعة كل هداياه على فقره مدينة العاشر إهانة لا تنيق
بالمملوك فأصدر أوامره الصارمة بمنع الشاعر التاجر من عبور دارفور مرة أخرى
أدعس الشاعر، لحلم أطرافه وغادر القصر ومن ثم المدينة التي طل يتحاشى
المروور بها خلال رحلاته المنتظمة بين الأبيض ومناطق وداي وأفريقيا الوسطى
وبدي عودته من رحلاته المصعدة إلى مدينة الأبيض التي كانت ترتدي له
أعلى حبلها وحليها تموج بالطرب الحمي وتعدو أيامها أعياداً. وكانت داره واسعة
تحيط بها أشجار لدوم والنديب وسلا من الجرار المصحمة ملأى بانماء

أصوات

لفراح لعصائب الطير والسابلة . ولأبواب مفتوحة في آناء الليل وأطراف النهار
تمصر بالأصباغ ودوي الحاجات وجماعات الواعين و لموائد مبسطة ودماء
لدبائح لا تحف . وعندما يرخي اللبس سدوله يخرج متمكراً يعيش منازل الفقراء
مع لا يستطيعون العودة إليه . فيطرق الأبواب يورع الأموال صرّة قصره على
لأرامل والأيتام والمرضى حتى لا يتبقى في يده شيء حالة أقرب إلى الأساطير
ولكنها حقيقة.

أصبحت دارفور سلطنة مستقلة عندما جثم الاحتلال البريطاني، لأن ريفه ظل
يتحلب وهو يترب السوانح للوثوب عليها. كان المبعث الإنجليزي لمدينة
لهود في منطقة كردفان المجاورة يقضي على كرميه الساعات الطوال يتسقط
أبناء دارفور ليذهب التقارير الواحد تلو الآخر إلى حكومته بالخرطوم، يمهّد
لسبل لعروة مرتقبة. في تلك السنوات المليئة بالهوجس والإحتمالات. كان
حامد يروح ويحيى بفدائه التجارية الصغيرة يشق بفلوات. يحدر إلى واد
ويرتفع إلى تل ويمر بالهود في كل الأحوال.. كان تحار المدينة ووجعها
يتفقونه بالبشر والترحاب. معنطين يتناسون علي استصافته. وكان المبعث
لإدري الإنجليزي يتحرق لرؤياه عله يقتصر شيء من الشاعر الحضيف ولكنه
لا يلبث أن يرتد حائياً. فالشاعر عندما يتردد اسم السلطان علي ديتار يتهلل
وجهه ويمتدحه شعراً وشرأ حتى عندما عاد معصوباً عليه ومطروداً من القصر
لملكي.

ما كانت محادثات الإدارة البريطانية لتفعل عن مثل حامد يحوب لبلاد شرقاً
وهرباً كمن يعزل لتسيح جديد وفجر مختلف فرصته عيوبها طمته يرود دارفور
بالسلاح يحيى به من وداي وأفريقيا الوسطى تلك المستعمرات الفرنسية
ولكنها ما كانت لتستطيع أن تثبت ذلك فتحرشت بقاوة له وصادرت كميات من
لتنغ وسن العيل كما صادرت مبرلاً له بأم درمان.

انحدر الشاعر من أسلاف تجددت عروقهم في أقصى شمال السودان
 وجمعهم المؤرخون لعرب برمأة الحديق، لحدقهم في الرماية كانت بآلهم لا
 تطيش، م تصيب إلا حدقت لعيون فعندما حاربهم المسلمون بعد فتح مصر
 أصابوا آلهم في صحن معركة واحدة مائه وخمسين عباً فقاؤها فاستحقوا عن
 جدرة وصف برمأة الحديق، فأعجبت المؤرخين بآلتهم ومضاء عريبتهم قال
 أحد هؤلاء المؤرخين وأمنه البلاذري «إن يكآبتهم بشديدة وسلبهم لقييل» كان
 كيدهم أبعد من ذلك في التاريخ، فقد فقاؤ عيون جنود اميرس حينما حاولوا غزو
 السودان بقيادة أرويديت- نائب الإمبراطور دارا- في نهاية القرن السادس قبل
 الميلاد- خارج بلدة سوان المصرية الحالية- ما طاشت سهامهم كانت
 الأحاديق بعيتها فهرموهم وردوهم على أعقابهم فيما روى المؤرخ لحمصي
 اليوناني الكنعاني الأصل هيلودور هؤلاء «رمأة الحديق» قبلوا الإسلام بالموادعة
 والمالمة وكف المسلمون عن قتالهم بعد أن كتبوا الموائيق والعهود وبكسهم
 ما لبثوا أن أقبلوا على الإسلام. وباتوا بعد ذلك من جنوده الميامين.. أشرعوا
 رأيتهم وتدفعوا في أحشاء السودان يعلمون الدين ويتعنون الرزق ويحتلطنون
 بالأهلين وعندما اندلعت الثورة المهدية في أخريات القرن التاسع عشر كانوا
 ضمن حداتها ووقود نارها انتصروا لها وانتصرت بهم وألقوا بالغرة خارج الوطن
 وأقاموا دولتهم الوطنية وعاصمتها أم درمان أقامت عائدة حامد بالعاصمة الجديدة
 في حي الشيخ محمد صالح ود أرو وهو حال الشاعر. كان مقيم بالأبيض
 وانتقل إلى أم درمان شأنه شأن الكثير من العائلات التي رحلت مع الإمام
 المهدي وأقامت في المدينة الجديدة. أغلب الظن أن الشاعر كان لمارل طري
 العود في مبة الصبا عندما تفجرت الثورة لمهدية فلم يشارك فيها بهيب وإن
 كان قد تنسم عيرها الفواح

ورث حامد كن شجاعة أبائه هؤلاء، سجاياهم، سلهم وكرمهم الجموم، واجه

أصوات

الساع في لأحام وإنشئ يطارد الأشد ، من قطاع انطرق هاربين أمامه وخشي
لأن لا يجد مما ثرثاراً في عرب السود ن حيث لمطولات مكان إلا ويتحدث عن
حامد أظمت فئائل كثيرة اسمه على أسائها يتمون أن يتجسد في واحد منهم
يوماً ما رعم مرور عشرات السنين على وفاته هذا انقلب الصحري لم يتحمل
أن يرد طالب حاجة قصده من بعيد فتوقف عن التحقق أي حين أدرك حامد
أنه لا يستطيع أن يعي بعرض صيفه ويمسحه ما يتمبه - بصيق ذات اليد - أسسم
روح كم طائر التم لذي يموت حالما يسقط في فحاح لصياد فاكتملت
لأسطورة.

5 ديسمبر 2000م

قديسة سودانية عاشت في إيطاليا

جوريفينا بخينة



جوريفينا بخينة

يتميز الدكتور منصور خالد دون معظم أقرانه من السياسيين السودانيين بعمق الرؤية وفحامة الأسلوب فيأسر قارئه سواء أن اتفقوا معه أم اختلفوا. ومنذ حوار مع الصفاة، ظل يرفي بكتائاته معترفاً من معين الأدب العربي القديم وتاريخ الثقافة الإسلامية والإنسانية ومركزاً على تاريخ السودان، يتوغل في طلب المعارف ويعرض ويأتي بجديد كلما كتب وهي يوليوا العاصمي حين شارك بكلمة أنقأها باللغة الإنجليزية في افتتاح مؤتمر الذي عقد في مركز جامعة كيمبريدج بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيل الرعيم السياسي والأديب الشاعر محمد أحمد محجوب تناول انصاف الخلافية التي لا تزال تشغل السودانيين وفي مقدمتها مسألة الهوية وفي معرض حديثه عن الحصريتين السوية والمسيحية أشار لتجربة أسطورية لامرأة سودانية من درهور حاملة الذكر تدعى جوريفينا بخينة عاشت كرقيق في أواخر القرن التاسع عشر وحين بها إلى الحرطوم بعد أن

قصص

تعرضت معذابات مريرة على أيدي العباسيين وكان خلاصها على يد القنصل
الإيطالي انعام في زمن الدولة التركية السابقة، الذي أخذها معه إلى إيطاليا
حيث عُمدت وأدخلت الدين المسيحي وسميت جوريجينا إلا أنها أصرت على
لاحتفاظ باسم بحينة. انضمت بحينة إلى «أخوات كابوسيان»، وأصبحت معروفة
بالأخت السوداء.

وخلال الحرب العالمية الثانية قامت بأعمال إنسانية أثارت الإعجاب حين
سرت بحماية سكان بلدة سنو خلال عمليات القصف، وبعد خمسين عاماً على
وفاتها وفي عام 1992 طوبتها الكنيسة. وفي أكتوبر من لعام الماضي سماها البابا
فديسة لشهم إلى قائمة قليلة العدد من القديسين السود. وقال الدكتور منصور
خالد أن الكاثوليك لسود في كل أنحاء العالم «يتجهوا بهذه المناسبة - إلا في
لسودان حيث تجاهل لإعلام الحكومي البأ».

بدأ النشاط التبشيري للكاثوليك خلال سنوات الأربعين من القرن التاسع
عشر، بعد عقدين من الحكم التركي، وتولى على الخرطوم منذ عام 1843
مبعولون كاثوليك من النمساويين والإيطاليين والألمان البافاريين، وبدأت تلك
البعثة إقامة مبى لها عام 1850 في الخرطوم، ومن ثم توسع نشاطها فأقامت
محطتين بمنطقة ابارية في بحر الجبل وفي بقعة ما بين شامبي وبور، ولكنهما
«علقتا بعد حين، وعندما عادت البعثة في عام 1872 إلى الخرطوم برئاسة الأب
كمبوبي افتتحت ثلاث محطات في بربر والأبيض والدلح بجبال النوبة. فتك
داء الملاريا بسبعة عشر من أفراد البعثة فأحلت محطة بربر، ثم انسحبت نهائياً
إلى القاهرة في ديسمبر 1883 بعد هزيمة حملة الجنرال هكس في براري كردون
كان افتتاح القنصلية النمساوية في الخرطوم يرتبط بأهداف البعثة لكاثوليكية
وكان أول نائب لقنصلها هو الدكتور ربر الذي وصل إلى الخرطوم في مارس

1851 وعرف بصلاته الواسعة مع الكثير من مشايخ العرب بمنطقة الخرطوم أما هانرل الذي شغل المنصب في عام 1853 وجاء لتدريس في مدرسة البعثة الكاثوليكية فقد امتدت إقامته حتى سقوط مدينة الخرطوم في يناير 1885 وقد ترك أبحاثاً قيمة في الجغرافيا والأنثروبولوجي بشرتها المحلات العلمية في النمسا وألمانيا. وكان رجلاً إحصائياً يستضيف السائحين والمكتشفين في منزله، كما يتحدث العربية ولغة البارية

ركزت البعثة الكاثوليكية على التعليم، وكانت ترمي بذلك إلى تنصير الأطفال الأرقاء فأنشأت مدرسة صحتهم مع بعض لأطفال البيض والموالدين، إلا أنها لم تستمر طويلاً فأقامت مدرسة أخرى في عام 1850 لتدريس القراءة والكتابة والحساب و الموسيقى والأشغال اليدوية واللغات العربية والفرنسية والإيطالية وبعد أعوام قليلة شهدت المدرسة تقدماً وازدهاراً فأصبحت مواد جديدة لمقررات الدراسة كالتربية البدنية والعمون الجميلة ولعماء كما ألحق بها قسم تجاري في عام 1859. والتحق خريجوها بالمصالح الحكومية وقد اهتمت المدرسة بالتعليم المهني فاستحدثت أقساماً للتجارة والحياكة ولحدادة وصناعة الأحذية بشرف عليها خبراء إيطاليون.

وكان المهندس سبادا يدرس علم الميكانيكا للتلاميذ الذين يطهرون كماء ومهارة. وكان هؤلاء التلاميذ يعملون في الترسانة بعد إكمال الدراسة وهي السنوات اللاحقة توسعت المدرسة في قبول التلاميذ، ذكوراً وإناثاً، حتى بلغ العدد في عام 1878 ثلاثمائة ولد ومائتي بنت

تعاثت البعثة الكاثوليكية مع الموقف العالمي المتدي بإبطال تجارة الرقيق واستخدمته لتحقيق أهدافها في تنصير الأهالي، فتوسعت هي شراً لرفيق وتربيته تربية دينة للإستعانة به في التبشير بمناطقهم. كما شجعت الرقيق على

أصوات

لهرب وأنشأت من أجل ذلك ملجأ لدر الإرسالية لإستقبال المهريين ويرغم لكونت الإيطالي لويجي ساري اندي رار الحرطوم قبل الثورة لمهدية أنهم سيجو في تحويل الرأي العام بالسودان ضد تجارة الرقيق

ومما لا ريب فيه أن البعثة الكاثوليكية دأبت على تصوير المسلمين وقد تم لعثور على فتية وميتات من تلاميذها تحتلظ أسموهم الإسلامية بالمسيحية، وسبغت مثال وصح بذلك، كما كانت هناك فتاة سودانية تدعى كاترين زيب أحول استعانت بها البعثة في معرفة لسان الديك، ويبدو من اسمها أنها كانت مسلمة وتصلرت.

وقد برر من تلاميذ البعثة القس الديسكاوي دانيال سرور الذي ألف أكثر من عشرين كتاباً عن عادات قبيلة الديكا لم يبق منها سوى كتاب واحد موجود لأن بمكتبة المحفوظات بمجمع أبيه فيرونا. ذلك إلى جانب التقارير والمراسلات والمذكرات التي أعدها أفراد البعثة والتي ترحرر بها مكتبات جميعات البحوث لدينية في إيطاليا وخاصة في ذلك المجمع وقد قام الأب الياس توفولو لدي تولي التدريس في كلية كمبوني بالحرطوم مراجعة تلك الوثائق وودعها في محفوظ بعنوان الأعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الاحساس لبشرية التي قام بها مراسلو الإرسالية الكاثوليكية الأفريقية الوسطى (1846 - 1898). وتوضح أهمية هذا المخطوط فيما تضمنه من الكشوف الجغرافية التي قام بها أفراد البعثة الكاثوليكية والتي لم تتعرض لها كثير من كتب لرحالة التي تدوت هذا المجال. وكان قد فقد الكثير من التقارير المهمة التي كتبها أفراد لبعثة من بينها تقرير كتبه أحد الأباء في عام 1848 عن جزيرة صبار

السودان عرف المسيحية قبل كل مكان، وكان أول سوداني يعتنقها هو وزير خزانة لكنداكة، ملكة مروي، حوالي عام 35م أي بعد عامين من وفاة السيد

المسيح وقد وردت قصته في سمر لوقا، وهي قصة شائعة أوردناها عدة مرات فيما كتبنا حول هذا السياق، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن السودان شهد انتشار للمسيحية قبل أن يحدث ذلك رسمياً في المناطق الأخرى، وقد تم العثور على وثائق تثبت أن ذلك يعود إلى حوالي عام 450 م وهي أوائل سنوات السبعين من القرن لمعاصي تم اكتشاف لوحة حجرية هي البركن أقامها رجل يدعى يواس وروجهت البصابت تذكراً لابنتهما يوسيس المتوفاة، ويعود تاريخها إلى ما بين 300 و500 م ولواضح أن يواس والبصابت اسمان مسيحيان من أصل عبري، أما الصورة الرسمية التي وصلت بها المسيحية إلى السودان، والتي ترددها كتب التاريخ، فهي مبادرة ملوك القسطنطينية بارسال وفود التبشير.

وإدخول المسيحية في السودان وتحدثت في مملكتي «مقرة وعلوة ولكن لا ير ل العموص بلف الملابس التي أدت إلى روالها، إلا من بعض الإشارات العابرة من الرحالة الذين زاروا السودان في أيام اصمحللها التدريجي حتى احتفالها في ابفترة ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر

فقد كتب القس لبرتغالي «غاريز الذي زار إثيوبيا عام 1250 م أنه عندما كان في بلدة عدار وصل بعض الفساوسة والرهبان من السودان يربعون في تعلم مبدئ لدين لمسيحي، وقالو إنهم كانوا يثلقون كل شيء من القسطنطينية ولكن بسبب الحروب وموت جميع رجال الدين انهارت المسيحية في السودان

وقال «غاريز إن يوحنا الطرابلسي الذي كان يصحبه وسبق أن عبر منطقة بلاد النوبة شاهد أكثر من مئة وخمسين كنيسة معظمها مبنية داخل القصور وجدرانها مردانة بصورة السيدة العذراء والحواريين، وتلك الشهادة أثبتتها الآثار التي تم اكتشافها في النوبة أخيراً.

ومن عجب أن أحد القسيسين في مصر كتب في عام 1742 أن بعض البربرة

لقاديس من جزيرة تنفاسي، الواقعة تجاه دنقلا العجور التمسوه وطلبوا منه أن يعطيهم بعض الصليان لحماية أطفالهم ومن المستبعد أن تكون المسيحية قد استمرت بعد سقوط دنقلا العجور في حوالي 1326. الراجح أن هؤلاء الناس كانوا يتحدون من الصليان ثمائم حسب معتقد نهم لتي سبقت للإسلام ولا بد من التأكيد من أن المسيحية قد زابت من الوجود في السودان ككنيسة منتظمة في أوائل القرن السادس عشر حين انتصر الحلف الذي قاده عمارة دنقس وعبدالله جماع على التوبة المسيحيين وسقطت مملكة سوبا في عام 1504م وعندما مرَّ الرحالة اليهودي داود روبين عام 1526 على سوبا وجدها حراباً إلا أنه رأى بعض سكانها يعيشون بين الأنفاس. واستمر اسم العاصمة المسيحية في بعض القرى الواقعة في منطقة الروصيرص كما أن هناك سوبا أخرى قرب «أبوجمائي» حيث يسكن بعض الهنج الذين انحدر أحداهم من المدينة القديمة، وحفظوا باسمها وقيل إن بعضهم لا يزال يردد عند القسم «أحلف بسوبا دار انجد ولحبوبة البطمح الحجر ويعطس لكر كموبة»

الفتى الذي فقدناه في ناشفيل

ريبنو باولينو ديق

«سأت هناك في رحاب النور صديقنا
بنى من الجنوب اسم ميمور
قراء في الصباح كقبة الصباح
يدخل البجة في الأرواح والسرور
مؤثلو لأب في البسامة كأنها سرب من الإفر
انطلقت مرفقاً على صخرة من الجور»

الشاعر صلاح أحمد إبراهيم

تجمع عدد غير قليل من اللاجئين السودانيين في شقة السيدة فكتوريا في
مجمع سكني بمدينة ناشفيل في ولاية نيسي. إقترشوا لأحفدة والبطاطين
وأسدوا ظهورهم إلى الجدران كانوا حرمي صامتين تلهم الكآبة والإحساس
المزير بالعربة . وذلك خلال مشاركتهم لتلك العائلة لتعبئة أحرارها في وفاة
الفتى ريبنو باولينو ديق الذي لقي مصرعه على يد مهاجر لاتسي يدعى راؤول
كوباليس سيدنيا. طعمه بسكيه حتى الموت لم يكن ديق قد تجاوز التاسعة
عشر . إلا أنه كان شهيداً كرباً د. مروة وبحدة وصحاء. تحدث عنه أصدقاءه
المهاجرون السودانيون لوكالات لأماء. قلوا إنه كان أحياناً ووقف إلى جانب
وقدم إليهم الطعام والكساء، واحرطوا في بكاء مريم حل ديق باشفيل قبل عام
وبصف عدم بصحة عمته وعميه وجدته. جاءوا من القاهرة حيث تركوا والدي

دينق هالك وأمامو هي شقة تتكون من غرفتين هي دث مجمع انكي لدي صمهم مع مهاجرين لانييين يعتمد اللاحثون السودايون على مساعدت لأهل ولأصدقاء والنقص الآخر يعتمد على المؤسسات الخيرية كان دينق يحلم بالحصول على مسحة جامعية يوفرها له فريق كرة السلة الذي سيضم إليه وقد إسحق بالفعل بمدرسة هيلسبورو العلي لتصوير لغته الإنجليزية ولكنه سرعان ما هجر الدراسة حين عثر على وصيفة ثابتة بدوام كامل بأحد محلات انتحارية لكبيرة. كان عمله في مرآب السيارات حيث يقوم بتعليم حركتها وتوفها مؤقت فيه إلى حين فراغ المتسوقين في لمحرب. كان قد شرب العراك بينه وبين غوراليس على مترين من لأرض في حين ترك حلفه مليوناً من الأميال المربعة هي مساحة بلاده التي صان بها وبحروبها مستجدة لم يكن يصدق أنه قد يجا بجلده من جحيم المحرب في جنوب وعتقد أنه حل بربوع ملؤها الأمن والطمانية والعيش الهني في بلاد « لعم سام »

وفي فبراير الماضي كانت قد وقعت حادثة راح صاحبها فتى آخر هو جيمس مشار جيو لدي سافته الحية إلى ولاية أريزونا في إطار برنامج لإعادة توطين آلاف الأفعال والمهاجرين السودانيين اليتامي ممن فقدوا أسرهم في دومة لحرب الدعية حافلتان تصادمتا في عرص الطريق فهوت إحداهما على حيو نواقب على بعد بضعة أمتار بانتظار وسائل النقل انعم ليعود إلى شفته بعد عناء يوم حافل عقب نهاية الدوم. كان محملاً بالمواد الغذائية والأطعمة التي يجلبها لرملائه. قبل وقوع المأساة كان قائداً لمجموعته ومستودعاً لأسرها واحتياجاتها وما تحصل عليه من أموال قبلية كان ينمي روح التصميم والمصوبات العالية وعقب وفاته العاجلة جلسوا حيارى باتسين بسألون عن سبب عدم اعتقال سائق مباشرة لإبرال العقوبة به وعن عدم السماح لأصدقائه بمرافقة حثماه إلى مستشفى في سيرة الإسعاف، وعن عدم دفن حثماه مباشرة بعد الوفاة وقد

أدرك مدير لجنة لإنقاذ الدولية في هوبيكس روس دون ماركوس أسباب حيرتهم وتساءلوا عنهم وأرجعها إلى أسبابها الثقافية حيث أنهم يعيشون في واقع معبر بقوانينه وأنماط سلوكه

في عام 1841 كتب المفكر المصلح والشاعر الأمريكي إيمرسون يقول «نم يكن لطريقة الإصلاح يوماً في تاريخ العالم ما لها في وقتنا الحاضر من مجاز فإن كافة المصلحين السابقين كانوا يوفرون بعض النظم والمؤسسات الكنسية أو الدولة أو التاريخ أو التراث بيد أن هذه جميعاً وكافة الأمور الأخرى المسيحية ونقوانين التجارة والمدارس والمرعة والمعمل - تسمع الآن صغير لصور «تغير أبعث» ولنهرع إلى الحساب - وما من مملكة أو مدينة أو شريع أو شريعة أو دعوة أو رجل أو امرأة إلا تهدده الروح الجديدة» كان ذلك الرمز الذي تحدث فيه إيمرسون من تدمير لا حدود له وأمل لا نهاية له بدأ توحته أيضاً بهذه الدعوة لمواظبه «هنا أن بعيد النظر في كل شيئ اجتماعية. انولاية والمدارس ولدين والروح والتجارة والعلم وأن ستكشف أصول طبيعتها الخاصة».

كان ذلك زمن تحديات كبرى و جهت المجتمع الأمريكي الذي كان يعتمد في حانة التكوين والخصائص العنصرية فهذه المصلحون رجالاً ونساء بتشكيل المجتمع المدني الذي بسع الجميع ويحد من صراوة لعلاء والمستشدين وانصرفوا بشاط عارم وعاطفة صادقة حارة عرطيرها في التاريخ وعكفوا على إزالة العقبات. وتجه إيمرسون وأصرابه إلى تحييص الكنيسة من التعصب والطقوس يحدوا بها إلى المبادئ الأخلاقية العظيمة الكامنة في قلوب البشر وعمدوا على محو الأمية وحل مشكلة تعليم لبسات وتجهوا إلى الطبقة الفقيرة الرابحة تحب برأسمالية الرراعية والصناعية نيزعة وكانت امرأة مسحوقة مستصعفة فتكاتف عدد من المصلحين مع ساء جسور ت وأطلقوا حملة من أجل حقوق النساء في المحاكم وفي السياسة وفي الأعمال والمدارس وقادت

دوروثيا ديكس حملة من أجل المصالحين بالجنوب وأنشأ غيرها معهد ميركتر
بمبليان وأقام توماس جالوديت مدرسة للصم وصور شارلر لوريج برس مأساة
لأطفال المشردين في شوارع المدن الكبرى

إفتتح هؤلاء المصلحون بأن للإنسان قيمة لا حدود بها وعمدوا على تجسيده
ويلات الحرب وبادى أحدهم بأنه « من حرب مشرقة، وما من سلام غير
مشرقة» انتصرت هذه المبادئ وحلقت مجتمعاً متماسكاً رغم تهديد أعرافه
وتقدمت هذه الأمة حتى بلغت عهدة الأمم وسكنها ما رأت تعاني من
لشبهات انتي لا تفعد بها كثيراً حيث ما رت كثير من المصطفدين بلودون بها
دارين من حميم بلدانهم. إن هذه التجربة في حريق تقدم الإنسانية بحرية
بالإهتمام وهذا المجتمع المدني لا يفتأ يتماست رغم صراوة السلطة وتعمل
برسمية الشرسة على مسيرة الحياة وأقدار الناس.

نحن في السودان نحتج لمثل هؤلاء المصلحين.. لرجل يؤرقهم انظلم
وتهرهم صور إهدار الإنسانية فلا محيد عن توقف هذه الحرب.. فمح لا يريد أن
يقتل بعضا لبعض نحن نريد للسلام ويد كان هناك أمراء بالحرب أي كان
جانبهم تدعمهم شهوات انتسلط وتركبهم لزعات القتل والتدمير وقهر الآخرين
غيرهم أيدىهم من مستقبل هذا الشعب الضيق المسالم الذي تم ثيق له
بحرب سوى سحق و لدمار وليهض الجميع من أجل قهر الحرب ووأد العنف
وتصمت المدفع وتعد الطيور وتفرغ لعلول وترف ربات السلام ويفرح
لجميع ولتعد السيدة فكتوريا - عمة المعدور رينفو باوليو ديق - من معاه في
دشميل إلى قرينتي في الجنوب.

7 أغسطس 2001م

مدرسة رميك..

حين جارف إلى لماضي والسلام



الطفل جابريل

اعتدنا أما وجابريل على تسميتهما الأستاذ والمهندس لأن الأول حصل على شهادة الدكتوراة من مصر والآخر لأنه أشرف على إعادة إعمار عدد من المباني ثم برهنا بعدة أيام وكان ذلك أمر غير عادي فلقد كنا مشاهدين بانتظام حول مباني المدرسة حيث كانا طالبيين قبل سنوات عديدة. ومنذ عودتهما إلى رميك ظلا دائما بهوفان حول لفصول الحادية، يناقشان الكيفية التي تمكنهما من إعادتها إلى أحواضها السابقة ولما كنا «ا» وجابريل نتمنى أن يكون طالبيين في هذه المدرسة فقد كانت تسعدنا الأوقات التي تجمعنا بهما، وقد كانا لا ينحلان برواية القصص المتعلقة بلماضي المدرسة وكيفية سير الأمور في أيامها الحوالي، لذا فقد أزعجنا غيابهما غير العادي. كان الأستاذ والمهندس عجورين فقد مضى حوالي نصف القرن منذ أن كانا طالبيين في هذه المدرسة استند بي القلق ودهست بي انظوب إلى أن أحدهما أو كليهما سقط طريق المراش بسبب لمرض واوغدت في العن إلى

درجة، انطلق على حائهما ولما مصت لأنام تعاضم الاعتقاد سحتمال وفائهما
وكثيراً من لأحيان كنت أجد نفسي مستلقياً وسط الحشائش في عابة أشجار التيث
تصايغي حرارة الجو فأمرح بعيد بحياي حتى أسي وجودي بهذه الحالة، وكثيراً
ما كنت أستهيد إحدِيث الأستاذ وانمهندس.

كان الأستاذ يقول «بشكل عام فالنساء إصعب من لرجل، فإذا قتل طفل أمام
امرأة فإنها بلاشك تنعجر بالبكاء، ولكن الرجل لا يفعل، ويصف لمهندس ليوم
لدي عاد فيه إلى مدرسة رمبيك، لثانوية بعد أن استعاد الجيش الشعبي لمدينة من
لقوات الحكومية، كان المكان الأول الذي رزقه هو صلي نوجهت إليه مباشرة
وعندما وقفت أمامه انجرت بكاء.

ولما استعدت أحاديثهما ثلث أحسست وكأنهما يحددان لي الكيفية التي ينبغي
أن اتصرف بموجبها عند سماع نعيهما، كنت أحس بالحن الذي قد يغضي إلى
لبكاء ولكني كنت التماسك وكان ذلك أمراً معقولاً حيث إن عمري الآن يتراوح
بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة والتوقع أن أنصرف كرجل أكثر مما فعل كامرأة
أو طفل.

قبل سنوات عديدة قرّر بريطانيون أن الجنوب السوداني يحتاج إلى مدرسة ثانوية
إلى جانب المدارس الابتدائية التي كان غرضها الأساسي التهيئة الديرية، ولما
طرح النقاش لتحديد موقع المدرسة على مديري مديريات لإقليم اقترح مدير
لاستوائية، رمبيك لإعتبارات عملية من بينها أن موقع المدينة مناسب وبسهل
لوصول إليه كما أنها تستوعب إمداد المدرسة باحتياجاتها الغذائية كما أوضح أيضاً
نوعه الهدوء العريد الذي تنعم به المدينة الأمر الذي سيكون مثباً تنقي الدراسة
وهكذا تم إختيار رمبيك وتقرر إقامة مدرسة في أحد أطرافها قريباً من الطريق
الرئيسي في نهاية الشارع الذي تحفه أشجار المانجو، وهي عبارة عن ثلث المباني
لتي تتبين هلوا واحفاص وفي هذا المكان في رأس شارع أشجار المانجو رأيت

المهندس يقف هناك بعد عيابه الذي استغرق عدة أيام، كانت المسافة بعيدة لأبيه بوصوح وبكني ثم أحضرت هبته الحيلة، كان يقف ورأسه يرتفع قليلاً ليتأمل الكتابة البهية في أعلى المدخل الرئيسي للمدرسة. كنت معتاداً على رؤيته على هذه الحالة وفي داخل المدرسة يقضي المهندس وقته يتمدد المباني، وفي بعض الأحيان كان يحاول تقدير الأضرار التي لحقت بها ليرى ما إذا كان هناك أمل في صيانتها ولكنه في معظم الأحيان كان يتذكر تلك المباني في ماضيها الزاهر حين كان طالباً، وعندما تأكدت من وجوده تبدد مخاوفه وسعدت بوجوده حياً ومن ثم توجهت إليه على الفور. وعندما حطوت قليلاً نحوه عاين لمكان سالكا طريقاً قصيراً إلى الماء لأمامي ثم انصرفت إلى اليمين ليحتفي حول أحد الأركان، ثم أشأ أن أناديه تهدياً ومراعاة لفارق السن يساً ولكني أسرعته المحض وعندما وصلت إلى الماء رأيت المصبة التي كان يقف خلفها باطر للمدرسة خلال الاجتماع الأسبوعي الذي يضم جميع الطلاب والمعلمين في الهواء الطلق كما رأيت عربة عسكرية من باقات الجود مفرعة الإطارات مفتوحة الأبواب. ولكني لم أقف على شيء آخر للمهندس ويبدو أنني لم أسرع بصورة كافية فقد احتفي في أحد المباني العديدة أو لحداحل التي تمكن من تجاور الماء كما لم أستطع أن أثير الطريق الذي سلكه

مدرسة رمبيك واسعة وصحيحة وليس فيها ماء واحد بل عدة أفنية تحيط بالفصول والد حليات التي كانت في يوم من الأيام تسع ألف طالب وتمتد المباني لتشمل مزارل المدرسين والموظفين والعمال والماهر وماتيه، دبت بالإضافة إلى المرافق الأخرى كالمطابخ وقاعات الطعام والحمامات وبيوت الأدب وبعدها تمتد ميادين النشاط الرياضي بمختلف أنواعه، وكانت هناك كيبستان إحداهما كاثوليكية والأخرى بروتستانتية ولما كانت هناك عدة اتجاهات استطيع أن أسلكها إلا أنني احتررت التوجه إلى الأمام مباشرة وكنت أنتقل من حبل إلى مكان مكشوف حتى نرى لي مسجد كان قد شيده الشماليون بالطوب الأحمر وقف الأستاذ على بعد

عبدالله الطيب - أقال الله عشرته - في رثائه

عبدالرحيم بقده هوأسفأ أحبا المعارف والرأي الذي حصفا

الدودي الدقيق لحسن ذا البصر اللماح والمثل العليا بها اتصفا

أما يوسف مصطفى التي فمارلت قصيدته «في انموذ ترعاه العناية» تبدد
القلق السياسي وتشيع الاطمئنان كلما ألفت بالبلاد جائحة من الجوائح ثم كان
هناك عبدالله عبد الرحمن نقد الله القيادي المبدع وشاعر التحرير لذي حمل
سجايأ أمته ومواقبها في الشجاعة والبذل وإياه نصيم، وعبدالله حليس بعسكري
المثقف والإنسان العامر بالبحير والمودة - ثم يتمكن معاصروه من رؤية قدراته
الإنسانية حجبتها عنهم المكيدات السياسية. وهناك أيضا أمين التوم الذي
صبر سهماً وافرأ في الاستقامة وحسن الخلق.

غير هؤلاء كثير - إذا أردنا حصرهم - عمروا المحافل بالمعرفة ولأدب وبيل
الأحلاق منجدين من الهوى متعفين عن لغاعات الدنيا ما اغتموا - حين
تسموا المناصب - ولا مكوا أبناءهم من بهت ثروت البلاد ولا حكموهم في
رقب الناس قضاوا واحداً نلو الآخر - دوما صوصاء - وتركوا حسن الأحدوة
لأن أبناءهم وأحفادهم متفرقون في شتات الأرض يتمتعون بالرزق الحلال وهم
مؤهلاتهم العالية

مكتبة مصطفى سعيد التي ورد وصفها في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»
ما هي إلا مكتبة القابوسي الصليح محمد صالح الشنقيطي التي أهديت إلى
جامعة الخرطوم روى كاتب الرواية أنه رأى ذات يوم حلال رهارة لمزل
الشنقيطي بأم درمان عقل صورتها كما هي في عمله لروئي، تنوع وعسى في
المعارف ومحطوطات نادرة قل أن تجدها في مكتبات لأفرد خالها بعض النقاد
العرب أنها تعبر عن ثقافة الكاتب وثراء المعرفة التي عترف من معينها

أصوات

أمتار منه اعترتني لدهشة لمرأه مثلم حدث حين رأيت المهندس يقف تحت مدخل المدرسة وكان إلى جانبه جابريل الذي أميره بقميصه الـ «تي شيرت» الذي يرتديه ويتدلى في جسمه الصنيل حتى يعطي مرواله القصير

كأن لا يتبادل الـ الحديث، فالأستاذ ينظر إلى مكان حديق المسجد، أما جابريل فقد كان يواجهني ولما كان المهندس قد صاع مني أردت أن أركض نحو الأسناد حتى لا يختمني من ناصري هو الآخر، ولكنني ترددت بعد منتصف المسافة كانت هناك بئر مفتوحة ذات فوهة واسعة تتلج سيارة، وعميقة إلى الدرجة التي يمكن أن تعيها إلى لأبد لده تعاديت الركض في تلك المصقة الخطرة، فإذا سقطت من يكون بوسع أحد بغادي وفي خلال المعارك التي جرت في المدينة تلوث عدد من الأبار بالبحث التي ألقيت فيها بدء بدلاً من ركض لوحات لجابريل وحسنت أنه إذا لوح بي أيضاً فإن الأستاذ سينتقم ناحيتي ويراني، وربما يكون سعيد برؤيتي كما أكون أنا أيضاً فحسرت لي فكرة أنه ربما يكون من وجهة نظر الأستاذ أنا هو المفقود خلال الأيام الماضية، ولكن جابريل لم يلوح لي، ليس ذلك فقط، ولكن بعد لحظة تلويحي تحرك الأستاذ مثلم فعل المهندس وبعد ثوان قليلة كان قد اختفى خلف المسجد وتوارى عن الأنظار.

هبرت الماء حتى اقتربت من جابريل حيث استطع أن أكلمه دون أن أرفع صوتي، فسألته عن سبب إحجامه عن الرد علي بالتلويح.. ولكنه أحاب بكلمات غامضة ثم أردف قائلاً: إذا كنت تريد لمهندس فقد سمعته الآن يتوجه نحو قاعات لطعام!

تحرك سوياً حيث لم يكن لدى جابريل خيار أفضل من السير معي. لم أكن أتوقع أن أجد المهندس في قاعة لطعام، وكما أسلفت القول إن أهم الأساسي للمهندس هو صيانة المباني ولكن قاعات الطعام كانت تحت لها هو أكثر من ذلك. فقد كانت بلا سقف وجدرانها مدمرة تماماً وحتى إذا كان الحبيب قد استبد

بالمهندس فلم يكن المكان مناسباً لاحتراق اندكريات أما الأرضيات فقد إستخدمها الأطفال مكاناً لقضاء الحاجة . فلا يستطيع المرء أن يتحرك دون أن يظن أن الأرض متلصقاً بحرقه كما كانت رائحة المكان لا تحتمل وعندما وصلنا إلى قاعة الطعام كانت حالية، وكان كل من يستطيع المرء رؤيته هي رسومات بالفحم لأشخاص يتبادلون انصربات بالكاراتية رسمها جنود تمكنهم اليأس والصبر

هل أنت متأكد أنك رأيت انمهندس يسلك هذا الطريق؟ سألت جابريل هز رأسه ولم يجب لأنه كان يعطي ألفه وعنه يساعدنا تفادياً لتلك الرائحة. فأعدت السؤال صجراً فأنت لست متأكداً أنك قد رأيته؟، فأجاب رأيت شخصاً وكسي لست متأكد ما إذا كان هو المهندس، ربما يكون شخصاً آخر»

حدثت إلى جابريل بعدة، ولكن في اللحظة التي أكد فيها أنه لم ير المهندس رأيت الأستاذ للوهلة الأولى بدا شكله من خلال نافذة قاعة الطعام. وعندما حاولت أن أقتفي أثره لم أخطر عليه، كما أن الفناء كان حالياً وللمحظة كنت فيها مصعباً بحية الأمل رأيت ظلاً يتسلل داخل إحدى الدخليات كان المدخل يؤدي إلى عرفة تمثل جدرانها بالثقوب التي أحدثتها آلاف الطلقات، كما كانت أعلة الرصاص تتناثر على الأرض.

خرجنا من العرفة وتحركنا قليلاً وبدأ يتأبى ماحس بأن من شاهدته كان شبحي العجوزين إلا أنني رأيتهم فجأة مرة أخرى بقعان سوي ويتحدثان حينذاك لم أتمالك نفسي فركضت نحوهم، حاولت أن ألتصق بهما، يشدني شوق عارم إلا أنهما كنا مهملين في الحديث، ولكن كان يكفيني من السعادة أنهما لا يزالان على قيد الحياة كان حديثهم يحصر في عبة التيك وكيفية إعادتها إلى وضعها الأول حين كنت ملاذاً مفضلاً للطلاب أيام زمان يهرعون إليها للمذاكرة بتمياؤب ظلال أشجارها الوارفة. أما الآن فالألغام الأرضية نانت عائقاً وصحابة من الناس ير يدون يوماً بعد يوم. وأخيراً إفرقا، المهندس إلى منزله ليساؤب شيئاً من طعام

قصص

والأستاذ جلس على كرسيه مولياً وجهه صوب المدرسة يرافف مهابها في مكنون وصمت.

شريت صحيفة «الديلي تلجراف» هذه القصة في الأسبوع الماضي بعوان «مدرسة رمبيك الثانوية» كتبها أحد الصحافيين يدعى أليكس جارلاند. كان هو ومجموعة من زملائه قد راوا جنوب السودان في أوائل هذا العام تلبية بدعوة يبدو أن لصحيفة تلقنتها من الحركة الشعبية بتقريب عنى الدمار الذي لحقته الحرب لأهلية بتلك المنطقة. لم يشعر هذا الكاتب البريطاني قصته بكثير من الدلالات لسياسية أو الانحياز إلى جانب إتحد فيها منحنى إسباب وذروة المصموم تكمن في بشاعة الحرب وما تصنعه بالإنسان، ربما ومكاناً كما تكمن في الحنين إلى الماضي والأشياء التي ترتبط بالطفولة والصب. لا ريب أن هذه القصة ليست من سجع خيال كاتبها بل هي واقع رآه وعاشه خلال تلك الزيارة ومدرسة رمبيك احتلت جانباً عريضاً في وجدان خريجيه من إخوان الجنوبيين مثلما فعلت وادي سيدنا وحتوب وخورطقت، وغيرها من المدارس لعريقة التي تألفت في ذلك الزمن السعيد، هي نفوس خريجيه من الشماليين

الصحافيون البريطانيون لديهم صحبوا أليكس جارلاند كتبوا قصصاً ومقالات ثم جمعها لأن كما ذكرت «الديلي تلجراف» وصدرت في كتاب سيمود ربيع إلى أعمال الإغاثة في جنوب السودان.

13 نوفمبر 2001

موت خلم



جراهام توماس ولريسته الزماني

جراهام توماس رجل بريطاني شامت ظروفه أن تفوده يوماً إلى السودان كان
داك في أواخر أربعينات القرن العشرين والبلاد في أقصى درجات مزاحها
الثوري تنهياً لمخاص عظيم بعد أن تراكت تجاربها وصلالاتها وبانت قات
قوسين من نهر وشيك ويدو أن السيد جراهام كان قد بُعث مستشاراً للتعليم
محرم أمتعته ودلف إلى القاهرة ومن ثم إلى الخرطوم فأنهر بتلك العاصمة
العربية - الإفريقية ما دار بخلده أنه سيرى مدينة بمثل تلك الأبهة داخل القارة
بعد عاصمة المعر . مدينة جميلة نظيفة ومنظمة تتمتع بجميع الخدمات الضرورية
وأكثر أدهشه معدن أهلها، وخاصة تلك الطبقة الوسطى - وصمها بالمحملية
معجبا - والتي كانت مهمكة في تشكيل مجتمعتها المدني ثم يجد صعوبة في
الولوج إلى مؤسسات ذلك المجتمع والاتصال بالقائمين عليه من شخصيات
اجتماعية وسياسية وثقافية - إلا أن ارتباطه الوثيق كان بالإمام عبدالرحمن

المهدي الذي كان قد بلغ دروة تألقه وعطائه العبدانق. أحد يتردد على مجلسه العامر الذي صمّم الصعرة من كبار المتعلمين والمثقفين

كان الإمام عبد الرحمن مد يد يفاعته ونوعاً بالعلم والعلماء متصلاً ببقية الكرام ممن عاصروا الدولة المهدية وعملوا في دواوينها كالشيخ الخطيب أحمد هاشم معني السودان وشقيقه أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء والشيخ محمد عمر الب «الكبير» العالم الشاعر والشيخ مدثر الحجر لقيه الثيت والعالم الحجّة والشيخ بابكر بدري رائد التعليم المذ واشيخ محمد البدوي

وقد صمّم مجلسه علماء وأدباء وشعراء وبناة ومدو ليعملوا بالسودان من مصر والشام وفلسطين والعرق من نواحي الفكر والأدب كالإمام المراغي والشيخ ماضي أبو العرائم والأستاذ مؤاد الخطيب والشيخ عبدالرؤوف عبدالسلام والسيد نسيم قلندس وغيرهم.

وحين تمخرجت الأجيال الحديثة في كلية غردون التذكارية وحدث متسعاً وترحيباً من واستقبلاً لتلك المحاليس كان يتوسم فيهم حيراً ويرى مستقبل الأمة رهس تطوّرهم فرعى النادي الذي أسأوه عام 1918 والذي قدّر له أن يلعب دوراً محورياً في الحياة الإقتصادية والثقافية والسياسية

برز في صفوف الحركة الاستقلالية التي رعاها لإمام عبدالرحمن مصر عربي من مثقفي الأمة وقادتها السياسيين ما زالت أنفاسهم تعطر واقعنا الجديد محمد أحمد محبوب تعددت مواهبه وقدراته فكان مهندساً وقانونياً وكاتباً وشاعراً ورائدٌ دبلوماسي ورتيب للحكومة، وعبدالرحمن علي طه الأديب والتربوي والوزير الذي لا تزال آثار صحته الإبداعية في مجال التعليم ماثلة في التكوين الوجداني لأبناء شعبه جيلاً بعد جيل وبطيرة المدرس اللامع والصحابي المجدد عبدالرحيم الأمين الذي يكفي ما قاله عنه صديقه الدكتور لشاعر

حجراته المروّدة بالحمامات العصرية ووجدت في السيد الهادي شخصية ساحرة مولعاً بالاستشهاد بشكسبير. ووصفته بأنه كان أتيقاً بحليابه و عمامته وشديد الترحيب بصيوفه وتناول معهم وجبة الإفطار التي كانت محبة حسنة الإعداد لولا أن أفسد رونقها إنتشار الدباب بصورة مرعجة أم وجبة العشاء فقد رأت أنها لم تُقدّم بشكل حصري لأن أطاق البورسين الفرنسي لصحر لا يتناسب وجودها مع الحل المعبأ في الرجاح كما شككت من حرارة الجو وعدم تشميل المولد الكهربائي إلا في المساء كما تصابقت من وجود نوع ضخم من الجراد وصفته وكأنه قادم من «خيال والت ديري» ولا بد أنه جراد «أم جركرم» المعروف بحجمه الكبير إلا أنها في صباح اليوم التالي نعمت هي وجراهم برحلة إلى حدائق طيبة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي للجزيرة حيث تناولوا وجبة المطور تحت ظلال الأشجار الوردة بثمررة وعرائش العشب التي سارو تحتها مسافات طويلة. وكان السيد الهادي في كل مكان يحظى بتحيات السكان في محبة واحترام. وعندما طافا بجوارب القصر أعجبهما متحف مدحوق به شاهد فيه آثاراً من المهدية مثل جيب بعض الأمراء وحراوب وسيوف وسروح جمال وجرار ماء ووحدة تسجيل من نوع «أديسون بل» في حالة جيدة - لم تنس أن تعلق على ما اعتبرته مفارقة. وعندما ررا مدرسة البنات فوجئت برمائي بوجود إحدى تلميذاتها من بين أفراد مجموعة المعلمات. كانت قد بدأت حياتها العملية للنو، سرها ذلك كما أعجبها وجود أشغال الإبرة والتطير في أحسن مستوياتها في إطار المقرّر المدرسي بشكل عام أعجبتها الحرية رغم ما وصفته بسرعة لتظهر والأرثوذكسية، حيث لا يوجد أثر للسجائر والكحول. وقد أكّدت لها السيد الهادي أنه لم يحدث أن شوهد أحد المواطنين يتعاطى التبغ لا في الشوارع ولا في الأسواق

مد وصوبهما إلى الخرطوم للعمل في حكومة السودان في مجال التعليم

أصوات

جراهم توماس تصل هؤلاء ويعبرهم فامتدت تلك العلاقات حميس عاماً
ما توقفت ثم عاد إلى الخرطوم عدة مرات رائراً ويات وشيخ لصله تصورات
سياسة السودانية حتى عهد جعفر الميري وجهود المصالحة لوطنية

أما قريبته السيدة أزماني فقد احتضنت بعلاقات ود عميقة مع سيدات بيت
مهدي حيث عملت ناطرة لمدرسة أم درمان الثانوية للبنات وتخرجت على
يديها فتيات ناهضت لعب أدواراً مقدرة في الحياة الاجتماعية والسياسية في
ليبلاذ وكان من يسهر أوائل من التحق بكلية الخرطوم لجامعة جيباً إلى
جيب مع وصفائهن الشبان كدكتورة محالدة زاهر السادات وجامعة طالب
وحاجة كاشف وغيرهن

«موت حلم» هو عنوان الكتاب لدي أودعه ذكرياته عن السودان وعبر فيه عن
لوعته وحرنه بضباع الصورة التي كان يتماها لمستقبل البلاد. ثم أتمكن من
قراءته إلا أنني تصفحته قبل سنوات على محل وما زالت بعض سطوره مطبوعة
في الذاكرة.

قبل أسابيع رحل في صمت وكان السيد الصادق المهدي في زيارة لأبوظبي
فسارع بالتوجه إلى لندن للمشاركة في تشييع جنازة الرحل لدي ظل صديقاً
وفياً لجدته ولأسرته ولشعب السودان.

وما كان وحده جراهم الذي ربط وجدته بالسودان بعد نهاية خدمته. فمعظم
البريطانيين الذي عملوا فيه - إن لم يكونوا جميعهم - ظل عشقهم له متقد وثابروا
على صلات متنوعة مع أهله ما كان أبلغ صلاح أحمد إبراهيم حين وصف
شعبه كالبشري يقوده الصغير بالمعروف إما احتاح دق العنقا

هؤلاء لهم ما استطاعوا إحتلال السودان إلا بعد أن مشوا فوق أجساد عشرة
آلاف شهيد في معركة وحدة وواجهوا مريداً من المقاومة طوال عهدهم إلا

أنهم تصرفوا على نحو معايير عندما علموا أن هؤلاء الرجال هي تاريخهم كانوا يتقاتلون بهاراً ويتهاذون لقرى بيلاً فاختاروا لإدارة السودان أفضل لمعاصر وأكثرها كفاءة ورودوها بالدراسات اللازمة ولصائح لضرورة للتعامل مع هذا الشعب على نحو خاص لذا نجد أسلافاً من السطء كثيراً ما كانوا يرددون في الأيام انقائمة الصعبة «يا خليل الإبحلير»

20 يوليو 2000

يوميات إرمي توماس في السودان



إزمي توماس

فوحين لروجران ليريطانيان جراهام وإزمي توماس وهما جالسان في شرفة قصر
 لسيد عبد الرحمن المهدي بالجزيرة أبا بأصده لألعاب موسيقية مأثورة مديهما
 تندهي من بعيد فلم يصدقا أديهما فأحد يشرئبان بعقبهما يستطلعان جدية
 الأمر وقد عقدت لدهشة لسانيهما حتى اقتربت فرقة مكونة من ستة من الغيتار
 يعرفون موسيقى القرب الاسكوتلندية كأفضل ما يكون، وكاذ لا يصدقان
 عيوبهما أمام ذلك المشهد الفريد في ذلك العمق الأفريقي كانا قد حدا من
 جولة معتمة شهدا خلالها إسطلالات الحيل يصبحهما سيد الهادي المهدي
 لدي إستصافهما في قصر ولده ومن ثم فادهما إلى سرله المحقق بالقصر
 حيث إستقبتهما زوجته الشابة السيدة رقية عبد الله العاصل التي وصفتهما إرمي
 بأنها كانت امرأة ذكية في الثالثة والعشرين تتحدث الإنجليزية بطلاقة وقد رارت
 بجلترا قبل سنوات أعجبت السيدة إرمي بهذوء قرية الجزيرة أبا وم يبدو
 عليها من مظاهر الدعة كما فوحئت بفحامة القصر وحديقته الواسعة وتسع

شارك بالكتابة في الدوريات وقدمت أحاديث في لإداعة والتلفزيون عن
 لسماء في السودان ومصر وأفريقيا وقد توفيت في عام 1995 ذكر روحها جراحهم
 لدي حرر اليوميات بأنها حين عادت إلى السودان بعد عطلتها حدث إرماني
 بوحيدهما رصوا اندي ولد في 25 مارس 1954 وفي أغسطس انتقلا إلى
 بيروت أما جراحهم لدي أصدر كتاباً بعنوان «موت حلم» قبل سنوات وأسهب
 في الحديث عن تجربته في السودان بمحنة واحتفاء فقد توفي في العام الماضي
 وكنت قد كتبت مقالة عنه في ذلك الحين أما يوميات روجته إرماني فقد
 صدرت في سبيكس لا أدري قبل أو بعد رحيله بقليل ولم أسمع عنها حتى
 عثرت عليها في الشهر الماضي في مكتبة لحاصة بصديق لشاعر رشيد سيد
 أحمد في مدن، وهي جديرة بالقراءة حيث تعكس جانباً من واقعنا الاجتماعي
 والسياسي يعيشون أحسية وذلك خلال السنوات القليلة التي سبقت إعلان
 لإستقلال أنسى أن تتم ترجمة هذا الكتاب وتوزيعه بصورة تجعله متاحاً للقارئ
 سوداني.

18 سبتمبر 2002

أصوات

أدى جراهام توماس وفريسته إرمي اهتماماً بالحياة السياسية وعقد صلات وثيقة مع عدد كبير من السياسيين والمثقفين وخاصة في أوساط حزب الأمة والتقت بالبدع لرحمن المهدي الذي وصفت ريدته وما صاحبها بالأبهة والافتخار التي يثير بها الملوك وقالت إنه كان رجلاً أرستقراطياً يمتلك عدداً من القصور الواسعة ويبلغ دخله السنوي مليوناً من الجنيهات كما التقت بأبيه الصديق عندما توجهت إليه هي وروحها لتهنئته بعيد الفصح حيث كان يستقبل رواره في قصر والده بالخرطوم في حجرة واسعة وصفتها بقاعة السلاء والدوقات الإنجليزية «إلا أنه رغم السجاد الفاخر المفروشي كانت تغتر للإصابات الضرورية كالتحف والدقة في تنظيم الأثاث» ولم تتحل إرمي عن سحربتها التي تصب أحياناً لدرجة الوقاحة - حيث أشارت إلى أن هؤلاء القوم كانوا قد طاروا على حياة بسيطة وهم يأحدوا بأسباب الحضرة الغربية إلا مؤخراً وكثيراً ما تدمر إرمي في يومياتها الماصي الثوري لهذه العائلة وتعاون من طرف خفي أن تقارن ما آل إليه الحال بعد خمسين عاماً من الزمان

وتحدثت عن محمد أحمد محبوب - الذي تم يكن قد انضم لحزب الأمة بعد - ووصفته بالاشتركي الذي يصح لإنشاء «حزب العمال السوداني»

وهي إحدى الأمسيات تمكنت إرمي وروحها جراهام من زيارة السيد علي الميرسي - الذي تردد كثيراً قبل السماح لهما بزيارته - في منزله بالخرطوم بحري بصحبتهما ميرسي حمزة ووصفت إرمي لسيد علي بأنه كان رجلاً قصير القامة يعيل جسمه إلى الإمتلاء، إلا أنه شديد الحيوية سريع لحركات وكان يسعل بعصبية بسبب ما يعانيه من الربو.

وقد تحدث إليهما في كثير من المواضيع الدينية والتعليمية. و ستمتعا بتناول مشروب الليمونادة والقهوة. وبعد فترة لسي السيدان محمد عثمان وأحمد الميرسي دعوة موجهة من الروحانيين البريطانيين لشؤون الشاي بصحبتهما ميرسي

حمرة وأحد حلفاء الحتمية وكان اجو حاراً والصياد يرتدان جاكيتين طويلين من الصوف رفصا حلقهما رعم إلحاح مصيفيهما.

وصفت إرمي السيد محمد عثمان الذي كان في السابعة عشرة من عمره، بأنه كان حازماً يتميز بوجه نحيف ويرتدي نظارات طبية ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويهوى التصوير أما السيد أحمد الذي كان في الثالثة عشرة من عمره فكان شخصاً لطيفاً مبتسماً بوجهه المستدير، ويبدو حجولاً لا يشارك في الحديث. وأشارت إرمي إلى أنهما كانا يتعلمان على أيدي معلمين خاصين ويحظر عليهما الإحتلاط بأتريابهما من الغتيان الأمر الذي اعتبرته خطأ فادحاً

تحدثت إرمي عن ريارات كثيرة لعدد من بيوت السود بين وحصرت حملات للرفاه تفاوتت في مستوياتها الاجتماعية وكانت تستند كل المظاهر التي لا تروق لها

جاء هذان الزوجان البريطانيان للسودان في عام 1950 وباشرت إرمي التعليم في كلية المعلمات بأم درمان ثم أصبحت صابطاً لتعليم البنات والنساء في منطقة الخرطوم. وأحببت اللغة العربية وتعلمتها بسرعة قياسية واستطاعت كثنائية امرأة بريطانية أن تجتاز امتحانها العالي وإلى جانب وظيفتها الرسمية شاركت إرمي في النشاط العام حيث سعت لإشياء أول باد للنساء السودانيات كما حاولت مساعدة الغتيات المعاقات ودعمت مشاريع لصالح الصم والبكم وفي عام 1954 انتقلا إلى كينيا حيث أمضيا خمس سنوات وبعد عودتهما النهائية إلى المملكة المتحدة عملت إرمي في عدد من مواقع التعليم حيث انضمت إلى كلية سلاو للتعليم (الآن جامعة تيمس هالي) وفي عام 1961 شغلت منصب محاضر أول في تدريب المعلمين وطلت فيه حتى تقاعدت وبعد ذلك بدأت في تقديم محاضرات عامة وعملت مستشارة لمجلة عربية تصدر في لندن كما

إصوات

إجلىرية. على الرغم من أنها أبدت تعاطفها مع انقضية المصرية

لَمْ تصمد الديمقراطية كثيراً أمام الطموح غير المشروع للعسكريين فأطاح
عبود بالحكم المدني وعبر وجه الحياة السياسية ودخل السودان في ليل طويل
ابتعد عبد الفتاح المصري عن السياسة وأثر التعاقد في مررعة أخرى اشتراها في
بري استمرت الأحوال السياسية في التدهور وبلغت ذروة انهيارها في السنوات
الأخيرة لدكتاتورية نظام بحري فقرّر الروحان المصري مغادرة السودان نهائياً في
عام 1984 م إلى إنجلترا وأقاما في بيوتن أبوت. وفي عام 1985 م انتقل السيد
عبد الفتاح المصري إلى رحمة مولا.

24 أكتوبر 2000م

فيليبيا. ممرضة بريطانية

روحة لأول رئيس سوداني

في أغسطس الماضي نعت صحيفة «الديلي تلجراف» وفاة السيدة فيليبيا
المعربية عن عمر بلغ السادسة والتسعين أعتت خمسين عاماً منها في السودان
بعد أن تزوجت من أول رئيس لمجلس «سيادة بعد الإستقلال» كنت هذه
السيدة قد هاجرت إلى السودان في عام 1933 بعد عام واحد من إكمالها دراسة
التحريض وكان الدافع لإختيارها بهذا البلد هي القصص الشيقة والمثيرة التي
كان يرويها حالها الميجور مايكل بيتر الذي عمل في الجيش الإنجليزي وشارك
في حملة إحتلال السودان عام 1898م. وبعد وصولها إلى الخرطوم بأربعة أعوام
تزوجت فيليبيا من عبد الصالح المعربي أستاذ مادة الرياضيات الذي كان قد التحرق
في جامعة بيروت الأمريكية ضمن أول بعثة حكومية إلى لبنان في سنوات
العشرين من القرن الماضي.

يبدو أن صحيفة «الديلي تلجراف» كانت قد التفت بفيليبيا قبل وقت وجيز من
وفاتها وأجرت معها مقابلة نصمت ذكرياتها في السودان فتحدثت عن زوجها
وتحاربها وطرقت للأمور بحزن أروسة يبدو أنها لم تتأثر كثير بالواقع السوداني
وأغلب الظن أنها كانت بعيدة عنه روحياً. إلا أنها لم تنفد أي مظهر من مظاهر
الحياة بدا سلباً أمام ناظرينا

ولدت فيليبيا لاجستاف كاستل في 25 فبراير 1904م وكانت الابنة الصغرى

أصوات

للتطبيب لممارس في منطقة ماسجم لفحم بدارعيد في وست ريدج بيوركشير قبل بمدرسة سيد للعلوم برئاسة بروفيسور هري تومكر - إلا أنها لم تواصل لدراسة وأثرت الابتعاد لتخفف الصعوط العالية نتي كانت تسوء بها عائلتها وأنفقت عامين في التدريس ومن ثمّ التحقت بمستشفى سانت توماس في عام 1928م وبعد أن تمّ تأهيلها بمعهد نيتنجيل للتعرض أكملت دورة في القبالة بأديرة.

لَمْ يمض وقت طويل بعد وصولها إلى العاصمة السودانية حتّى انتقلت بالأستاذ عبد الفتاح المغربي الذي كان يعمل مدرّساً في كلية حقوق التدكّاية وذلك عندما توجّهت إليه تطلّب المساعدة في تلقي دروس في اللغة العربية وأصبحت هذه العلاقة إلى الزواج في عام 1937م.

كُنّا كثيراً ما نسمع ما يردده قدامى الخريجين بأن «مغربي كان ضمن أول بعثة حكومية إلى الخارج واقتنى أول سيارة خاصة، كما كان أول من افتتح بامرأة أوربية».

تحدثت فيليبيا لصحيفة البريطانية وقالت إن محمد مصطفى المغربي - والد عبد الفتاح - إحتاره الإمام المهدي ليكون رئيساً لكتبة عمالة دنقلا. إلا أن لحيفة عبد الله أمر بسجنه في أعقاب جريمة توشكي في عام 1889م ولم يستطع استعادة حريته إلا بعد أن مدح الحليفة بأربعين بيتاً من الشعر.

في الفترة ما بين 1937 و 1948م إنحد عبد الفتاح لمغربي و زوجته فيليبيا منطقة لجريف سكناً لهما حيث أفلحوا في إنشاء مررعة عامرة بأشجار انفاكهة والحصروات وكانت فيليبيا تستمتع بقيادة السيارة انمحملة بحطب البرسيم متجهة إلى سوو الخرطوم تحت حررة شمسها اللاهبة. وعندما تبلغ الحرارة قصى درجاتها خلال أشهر الصيف كانت فيليبيا تستجير بمياه النيل فتسبح في

مسطقة رعمت أنها كانت تأوي سنة من النعامسح.. لذا كان لزاماً عليها أن تتوحى الحذر الشديد. وفي تلك المثرة قالت فيليباً إنها كانت تعمل متطوعة في الثمريين بالقرى المجاورة للمحيطوم.

وأثناء الحرب العالمية الثانية أبدت فيليباً استعداداً كاملاً للدفاع عن أم درمان من أي غارت حوية إيطالية محتملة كما انتحقت كمبرصة متطوعة في عدد من المستشفيات. ومنذ سموات الحمسين البكرة اعتاد الروجون على قضاء عطلتها السوية في بريطانيا. وفي معظم الأحيان كانا يستمتعان بقيادة سيارتهما يتجولان من مسطرة إلى أخرى.

وفي عام 1952 م عادا بالسيارة من إسجنتر عبر شمال أفريقيا من وادي في ديمون حتى الشلال في صعيد مصر بامان داخل السيارة ويصيحان طعاهما في موقد «بريموس» صغير.

وفي موقع معركة العلمين تذكر فيليباً كيف تقاسم طعاهما مع كلية صغيرة أودعت جراهما داخل دبابه محترقة وعند الشاطئ المقفور بعياء العيصان قرب مدينة أسيوط اعترضتهما عصابة لصوص إلا أن المغربي تخلص منهم بعد أن هددهم بأن السرقة من هذه السيدة البيضاء لن تمر بسلام.

ومن خلال نشاط زوجها وعائلته أصبحت فيليباً وثيقة الصلة بالحركة الوطنية واستعدت بشكل جيد لتصبح زوجة لرئيس مجلس البادة الذي شغل المنصب لمدة ثلاث سنوات بعد إستقلال السودان وحدث فيليباً نفسها سيدة أولى في القصر الجمهوري الذي تدفق نحوه سفراء عشرات الدول لتقديم أوراق اعتمادهم لرئيس الدولة الوليدة وفي أثناء حرب السويس في نوفمبر 1956م انتهت المشاعر العربية وارتفعت الأصوات مددة بالعدوان لبريطاني - الفرنسي على مصر - كان موقف المغربي لا يحلو من حرج حيث كان متروحاً من سيدة

إليها من وقت لآخر حيث إكترى داراً في حي المربع كانت مهوى لطلاب الحاجات وللمساكين والباحثين عن تحديد ذواتهم بالدين والفكر ولا يزال كثير من أهل المدينة يرددون قصصاً أعربت من الحيال عن كرمه وإفائه وإثاره، الأمر الذي كان يعبر عن دحيلة تحررت من لدائي وسمت عن لعاعات الدنيا وزخرفها

عاش الرجل عقوداً من الزمن مسجماً مع دأبه متوحداً.. بعد أن كدح في سبيل ذلك كدحاً يقعد عنه الرجال حتى إستضعف أن يقهر النفس ويصدق إلى حقيقة الأشياء.. كان لا يفتأ يرتقي ويدعو الناس إلى لباب الدين وافتقاء أثر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

بدأ حياته رعيماً سياسياً ثورياً مد مستصف سوات الأربعين كانت الحركة الوطنية في طفولتها.. يعورها الفكر وتقصصه سبل الرشاد.. بدأت بالكيد ولتأبذ وفجر كثيرون في ممارستهم السياسية في محاولات دلائتصر لدواتهم. فأبهر محمود بقدّم نمودجه ويدعو للجمهورية إلتف حوله عدد من المثقفين. كثير منهم أدباء وشعراء. أحبطتهم أساليب لأحرب وصغارها. بذكر منهم محمد المهدي المجدوب، ومنير صالح عبدالقادر، وأمين صديق. كان يملأهم الحماس فيوزعون المنشورات السياسية ويخطبون في الأندية والمجتمعات. وما لبث الحال أن أدرك الأستاذ محمود أهمية التربية لتقديم المودح للأساس من خلال فهم متقدم للدين وممارسة تسييحها أخلاق السيرة بالإقتداء بها.

صرح الأستاذ محمود محمد طه فكر حديداً ما أحوح البشرية إليه لأن هي ليلها انداجي هد. في الأيام التي سقط فيها مشروع الإرهاب والمرايدات السياسية باسم الدين.

قبل حوالي أسبوعين تابعت برنامج «مواجهة» الذي يقدمه تلفزيون أبوظبي

واقفاً تحت حبل المشقة.

وف رال يحد جهم بنظرته فيرتعدون



الشهيد محمود

«لا حصر أئمن من الرعدة في التأمل لبرية

لا سماء أسطع من صباح يستطفيه العودنة

لا سلام على الأرض إذا اغترفا بالحلائس»

«بون إيلوار»

حين جنيء به يحيط به حراسه يرسف في قيوده معمض العيين يسعى إلى
المشقة بخطوات ثابت وقامة منتصبه كان هناك حصة من قضاة تكرات وقفوا لتوهم
ليشهدوا تنقيد حكم الإعدام فيه اعتلى المنصة. هدرت الجموع تعالى
الهدير صيحت من الحجن، من حناجر السجناء والمعتقلين السياسيين، كأنما
كان يصدر من جهات الأرض الأربع.. «لن ترتاح يا سجاج»، كشعوا العطاء عن

قصص

وجهه فصر إلى الجماهير المحتشدة منذ لصباح لساكر دت انيمين ودات اليسار وابتنسم ومن ثم ألقى بصره على القصاة الرقيقين في صف إلى جانب لمشقة فطاطأوا رؤوسهم ونكسوها ما احتعلو بطرته تلك وهو راحل عن عالمهم الغني إلى رحاب الحلود طاطأوا رؤوسهم ورنجفوا وما رفعوها حتى لأن ولا يعلم إلا الله ما كان يدور بأحلامهم في تلك البرهة السادة في تريح لسودان

بعد خروجه من المعتقل مباشرة في 19 ديسمبر 1984- أي قبل شهر من إعدامه- أعلن الأستاذ محمود محمد طه موقفه بقوله نحن أخرجنا من لمعتقلات لمؤامرة نحن أخرجنا في وقت يتعرض فيه الشعب للإدلال والجوع بصورة محرمة ونحن عبر تاريخنا عرفنا بأننا لا نصمت عن قول الحق وكل ما يحتاج أن يقال إليه في نفسه قلباء. وفيما هو تعرف هذا الأمر... ولذا أخرجنا من المعتقلات، لتسولنا مرة أخرى، ليس لمعتقلات أمن الدولة، وإنما لمحاكم ناس المكاشفي، ولكن نحن لن نصمت».

في ذلك الصبح الرمادي الشتائي لأحر القادم من ظلمات القرون الوسطى أقيمت مشقة خصيصاً في قلب العاصمة الخرطوم ليتيم تنعيد حكم الإهدم في واحد من أشرف وأعظم المفكرين الإسلاميين المعاصرين. راحل ما عرف منذ عصارة الصبا إلا بالخلق الكريم والذكر الحسن يذكره أصرابه طلاب كية عردون القديمة في الثلاثيات ويقولون إن سبيحه كان مختلفاً وسلوكه كان نموذجاً للآخرين ما عهدوا فيه برفاً ولا بتواء. وحيماً تخرج وعمل مهندساً في مختلف أنحاء الوطن كان قدوة ومهماً وقائداً وصديقاً للفقراء والمساكين وأبناء لبيد والدرأوش العابرين.

كنا نسمع عنه وبراء في طفولتنا بمدينة كوستي كان يتردد عليها حيث عمل لفترة من الزمن يحفظ مشاريع القصر لواقعة حبوب المدينة التي صار يختلف

انصوات

بہدہ الذکری، لا ہی لحرطوم حیث حالت المسطات دون ذلك . لأنه لا یرال
یحد جہم بنظرته فیرتعدون

لہس لمدینہ ما تقدمہ سوی أن شد مع صلاح أحمد إبراهيم

ما افعت قاماتنا من حمل أقتال الرزایا

فلما فی حنك الاھوال مسری وطرق

فاذا جاء الردی کثر وجہا مكنہا

عامرضاً مینا بسيف دعوی ودمرق

ومعبراً ید قعصمنا

لرید السموت امرقناداً أو فری

نزیو الدب وھی ذاکرة مدی لما ذکری وذکری

من صال وخلق

ون ابرت من الحکمة والعلم وحب الیک دحیر

وولا، حیما یکذب أهلہ الامین

ودنا فی خلعة الشعب عرق.

92 یمایر 2002 م.

أصوات

للدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور سيد القمني كان صيفي الحلقة منيت
بسمي بسحظات من امتعة المكزية ولكن امالي خابت فقد كانت المواحهة
شبه بحوار لطرشان القضية كيرة والإثنان بحثلان التيارات المتخاصمين
لأن. وعبدالصبور شاهين موقعه معروفة.. خاصة فيما يتعلق بقضية الدكتور نصر
حامد أبوريه وما تمحص عن ذلك بموقف أقرب إلى تكفير الرجل والحكم
بالتفريق بينه وبين زوجته حتى اضطر إلى الهروب من مصر و لانتحاء إلى أوروبا.

وسيد القمني يكتب الآن عن الإسلام في إطار ما يعرف بالتيار العلماني..
تميت بو كان لديه علم بفكر الأستاذ محمود محمد طه أو لو قرأ الرسالة الثانية
ولخص حجته بالدعوة للإسلام الذي يتسق مع حاجة وتطورات البشرية
وفكرها. وليس ما كان مطروحاً للمخرجين من الجاهلية هي أول اقتران الهجري
تلك لدعوة انتي بد، إستطاع المسلمون فهمها وطرحها لهرعت إليها المحصرة
لغربية - التي تردري لمسلمين في هذه الأيام- وما أرادوا بعدها بدلاً

ما كنت بعيداً عن الجمهوريين، في أيام تألق الفكرة وعنفوانها وحتى الآن
فقد كان فيهم أصدقائي الحلفاء وجزء عريض من عائلتنا أبناء عم أثيرون ندي
كنت احتلف معهم وأجد في الحوار معهم سعادة ما عليها مزيد وكُنّا تبدل
كثيراً من الاحترام والمودة والمشاعر الطيبة . تأسرتي أرواحهم الجياشة وقنوبهم
لعامرة وسلوكهم الحميم إزاء الآخرين.. مروءتهم وجدتهم وأثر القوى البادية
على سيماهم. وقد حاول نفر منهم أن التحق بالركب وألا يعوتني ذلك العرس
لجنيل كانوا يتحركون كالحل النبري يقدمون الشهد . شهد لمعارف يطوفون
لمدن والقرى والبادي يحملون لكثنيات لتي تتضمن فكرهم ويحوصون مع
لناس مساجلات تثرى الحياة وتعمر الوجدان.

وقب الفكر الجمهوري تزيافاً يدحر فكر المتأسلمين.. وأقام لمسار والأركان
وأرسي تقاليد الحوار الديمقراطي في أوساط الجامعات والأماكن العامة.. وعدم

متحدثين محاورين بارعين أتلعوا أعصاب ماوئيهم بالحجة تلو الحجة فكانوا
ينجأون إلى العنف حين يحسرون النقاش أمام لحاصرين الساحرين ويكشعون
جاهلين بقضايا الفكر والدين

وفي بدايات تشكُّر وعيب وإهتمام بقضايا وطننا كُنَّا نعشى السواك
والمحاضرات يستهويها اسقاش بحمل راد لقليل من الفكر، وكُنَّا به حد
مرهوبين بتردُّد على بدوات الجمهوريين وأحياناً بدخل في حوار مع الأستاذ
محمود محمد طه نجد فيه روحاً متسامحة وصدر متسعاً وكثيراً ما كان يردُّد
قوله نحن متفقون! مهما شجر لحلاف واستمر فقد كان فكره العميق ونظرته
اشماعة لمحيطته يجاوران ما هو ثانوي فيرى ما لا يرى حيث توحيد الرؤى في
اتجاه خير الإنسانية. مرَّة كُنَّا حصور بدوة به بعدينة كوستي واحتشد بمهرجون
المسقيهور المتصمون يعارضون كان من بينهم أحد المدرسين قبل أن حائل
اماحستير في اللغة العربية وكان ذا صلف وعجب بالنفس كبير وقف
يتحدث لا بأسلوب الفصلاء والعلماء وإنما بأسلوب لبث عن نصر رخيصة
أمام مؤيديه محاول أن يقدح في عدم الأستاذ محمود بالقرآن الكريم وأراد أن
يصحح ما عليه فكره لقاصر خطأ وعندما توقف عن حديثه الصاحب ذلك بهن
الأستاذ محمود بهدوئه المتسامي بعد آراءه حتى تناوب بدعاء ته شأن اللغة
وتبحر في القول ، ما أرد بدلت أن يفحمة ولكن علمه برفق ما فاته معرفته في
مجال تخصصه فانعم الحضور وصنعوا طويلاً وطأطأ الأدعياء رؤوسهم حجلاً

قبل أيام مرَّت لذكرى السابعة عشرة لاعتقال الأستاذ محمود سواب
ليست بالقليلة ولكنها نَمَّ منح أثر المصدمة بي أصوات المثقفين بصفة حاضرة
وعامة الناس في السودان الذين عرفو قدر تلك الشخصية التي ستبقى حادثة
إلى جانب شهداء الإنسانية الذين سعو نحو تشكيل عالم أكثر وعياً وعدلاً
واهتماماً بمصير الإنسان وحتن كثير من المهتمين في كثير من مدن عالم

في الثقافة السودانية

الفتى صميم المدينة

يونس الدسوقي¹



قعية لأصدقائي أبطال الملحمة
ليونس الدسوقي - الفتى صميم المدينة -
يزأركم في مساء
كالأسد العيس بالقاهرة
ولأحمد إبراهيم الذي - فتد ساقه في الصحرة
ما زال من أبطال بناس المعلومين
محرر العاصمات أمام الحكمة
نحيد عامس وهو بحث ذكر يات
بفرقة أمرهاني
يحمل بإتجاه حقيقي للمراسين
وصوتك جديلة في سبيل الكادحين.

من قصيدته (وهاريد الغصن) لكتاب هذه السطور بمناسبة تذكري الخمسين
لاتفاضة جودة فبراير 2006م

لوفي بضمير في بعد أن جاء من القاهرة في عام 2006

هؤلاء الرجال الثلاثة لذين وردت أسماؤهم في هذا المقطع من القصيدة هم أصدقاءني حقاً وليس مجرداً كما يتبادر إلى الدهن لثم يصمي معهم تنظيم سياسي واحد ولم تتوحد حول قضايا فكرية معينة إلا أنني سمعت بقربهم وبحودتهم وصدقهم وعظمتهم الإنسانية وحررت معادهم في أسل المواقف وأشرفها شاركوا ثلاثتهم بشكل أو بآخر مع من شاركوا في أحداث انتفاضة حودة. لا يتحدثون عن أنفسهم بما فعلوا ولكن يتحدثون عن تصحيات الآخرين ويطولونهم عيب الموت يوس الدسوقي في نوفمبر الماضي فكان وقع ذلك علينا كسقوط جبال شكيباخ على الصدور. كما عبر الشاعر المصري كرموحو عن صديق له عظيم حرمه الردي غاب يوس فاطوت صفحة مشرفة وعامرة بالمآثر الحيلة. وحياته بعده قفر بياب ولا عراء له في فقهه

قال إنه يتمنى أن يرانا قبل الرحيل أحس بأن أيامه أحده في الروا. أبلغ يس أشرف مأمون بذلك فنقل إليها الرسالة قرنا من مورنا زيارته وشددن إليه الرجل أسامة أبو فرجة من الخرطوم وأنا من أبوظبي كان ذلك في صيف عام 2004م أحبرناه بميعاد وصولنا إلى القاهرة فرتب شئون إقامتنا بنفس الفندق الذي كان يقيم فيه. كانت قد مضت حوالي عشرين عاماً منذ افتراقنا في منتصف الثمانينات توجهت أنا للعمل بمنطقة الخليج ثم لم يلبث هو أن حنار القاهرة منفي به في أوائل التسعينيات حين حلت القاهرة وتبدد شمل الجميع.

بعد ساعتين من وصولنا دق جرس العرفة، فاجأنا شيخ قد كف بصره وهذه المرص، يعتمد على عصا ويسعى بخطوات بطيئة عاجزة. ليس ذلك الرجل الذي عهدناه في عنوان كهولته قويا متمسك اليد. إلا أنه ظل رابط العاش، مشعل الفكر، منقذ المؤاد، قاضياً على أزمة الأمور، مناعاً لم تفارقه روحه الوثابة ولا قدرته التي لا تجارى في صناعة الكلام وربط معاصله بالحكمة ومأثور الحديث والشعر والمعنى الحضيف قصياً أيما لا تنسى في صيافته أشرف

على كل ما يتعلق بشؤوننا في المندق رغم أحواله الصحية غير المستقرة. يدعو أصدقاءه المثقفين لزيارته ويعمروا بكرمه الفيض محمود صالح جاء من أصيلة حيث حضر مع الطبيب صاحب المهرجان الثقافي السنوي، حيدر إبراهيم علي عاد من باريس مصطفى عبادي من أثينا بعد نهاية دورة الأولمبياد ثم الدكتور فاروق محمد إبراهيم من الخرطوم، والدكتور أسامة عبد الرحمن الور من ليبيا التقينا بالمرحوم مبارك محجوب لقمان الذي دعانا لمأدبة عشاء سحية في داره بحدائق الدقة حضرها لعيف من المثقفين في مقدمتهم المرحوم علي التوم ورحمة الله عبد الله وصالح أحمد محمد صالح ومحمود صالح عثمان صالح ومصطفى عبادي والسر وعمر أحمد قدور. كان يونس واسعة العقد رغم ضعف النظر والوهن الذي إعتراه وقد دارت بين الحاضرين أحاديث عذاب لا يرب صداها بتجاوب في النفس.

أقام يونس في فندق هيلتون حوالي خمسة عشر عاماً راده القراءة والتأمل حتى كف بصره وامتنع عنه الكتاب الذي ظل رفيق حياته لراخرة الثروة. إلا من مر كريم من الأصدقاء يقرأون عليه من وقت لآخر ما يراه مهماً غير أنه لم ينتقد في أي لحظة من اللحظات لياقته الفكرية وقدرته على المتابعة. كان أصحاب المندق من الأقباط. تقاموا بوجوه وأحاطوا بكثير من الرعاية والإهتمام. لم يشتمهم أن لاحظوا أهمية الرور الدين كانوا يترددون عليه. يفتحون العاملين يعطيهم الجريدة يعدون من مناطق لحديج في عائلاتهم الصيفية وفي مقدمتهم الفنان الصليح محجوب إبراهيم. ومن السودان وعلى رأسهم الصديق شامي المحامي. يقل الغنى الجمهوريون من الولايات المتحدة وكندا وأوروبا والخرطوم. يروون القاهرة ويتعمدون أحوال يونس فقد كان صديقاً حميماً للأستاذ محمود محمد طه (وكل صميم لصميم بديل) كما عبرود الرصي

كان راحة يستجير بها المثقفون عند احتدام الهاجرة وتهاجم العصف والاستعداد

أصوات

يتحدث إليهم بصوته الصاوي العميق يشبه أحاديثه الشجية فيحفف كثيراً من
علواء الحزن والمكابدة

صل الكاتب الروائي الطيب صالح منذ سنوات يزور القاهرة من عام لآخر في
عطلة لشتوية إلا أنه بعد وصول يونس إليها بات يزورها سنوياً بصورة منتظمة
يلقاه. وقد صرح بذلك معتبراً تلك الصحبة الفكرية التي لا يحد الرمان بمثلها
كثيراً. كان العاملون والعاملات بصدق هابتون يسعدون برؤية الطيب صالح
ويشعرون بكثير من المحر ولا عتار لرياربه. أما هو فقد كان يعمر المكان بتعريفاته
لذكاة وأوصافه الساخرة يرحبها همتاً ليونس الذي كان مولعاً بكل ما هو
طريف.

عاش يونس تجربة الحركة الوطنية في يابها منذ منتصف أربعينيات لقرون
الصاضي انعمل بها وانعمل في خصمها وذلك بعد أن أهد نفسه بالقراءة
الصادفة العميقة المستمرة فقد كان عصامياً ثم يس من التعليم النظامي إلا
مراحله الأولى وبكاه عدا موسوعياً جتم المعارف كانت تشده الثقافة لربعة
والأدب العظيم وبحتهم بالتاريخ يوطمه هي تطورات انحاصر

انتمى بيسار وعمل في أوساطه منذ بواكير الخمسينيات وحتى السبعينات في
أم درمان وكوستي إلا أن طبعه لمتعمد وبغوره من الانصباح الحربي جعله يباي
بوعاً ما عن التنظيم، وإن لم يفارق الجماعة. شغل منصب السكرتير بلجنة
البعادية للاستعمار في مدينة كوستي وقال مؤرخو تلك لفترة إنه على لرعم
من صغر حجم الحرب الشيوعي إلا أنه عدا ضخماً مهيباً لارتباطه بيونس كان
يصيق درعاً ويتبرم ببعض قيادات حربه من القاعدين ومحدودي الذكاء
والمعتقرين لسعة الحيل فيصرف بما يمليه عليه ذكاؤه وعطفته اللامحة

عاش يونس حياة لم تنح له فرصة للإطلاق العسكري والسياسي التي تناسب

قدراته وعلى الرغم من أنه تفتح في زمن التحولات في الحياة السياسية والاجتماعية إلا أن تعليمه المحدود وقف أمام طموحاته في الرعاية ورعيته في العطاء تروح مبكراً وعمل مع والده في التجارة التي لم تتوسع فتحد من شهوته بثورة والإصلاح فكر في الهجرة إلى السعودية في عام 1955 وتعاقب مع إحدى الشركات الحجرية وكتب رسالة لوالده في هذا الشأن إلا أن تلك الرعية لم تتحقق لأمر لم يدركه ولم يتحدث لنا عنه حتى وبصورة عارضة ولكنه توجه إلى مصر وأقام فيها مدة من الزمن وربما كان ذلك في بدايات الصف الأول من القرن العشرين. كان أحياناً يتعرض لتلك التجربة ولقاءاته مع المثقفين اليساريين المصريين كما يبدو أنه قد قرأ كثيراً هناك وعاد ممثلاً بالثقافة والفكر وقد وصفه لي أحد أصدقائه الذي إلتقيت به في تبادلي بأنه عاد شخصاً آخر في ما يتعلق بالتوجهات الفكرية والسياسية

قبل أن يفتح وعيها في مدينة كوستي رأيت زعيماً حماهيراً قائداً يتقدم المظاهرات ويخطب بطلاقة ما عهدناها في غيره ممن كانوا يعدون حصصهم ويقرأون على الناس ما يكتبون كان بحرارة صدقه وجراته وسمته المهيب يحرك المشاعر فتركس حلف موكبه وهو يستعمل سيارة جيب ممسكاً بمكبر للصوت، لم يكن يعيها ما يقول كنا نرى أدمياً بطلاً صارم القسما يتطير شعر رأسه بعن الريح مما يضي عليه مصهراً أعاداً كأحد أبطال الأساطير الإغريقية، كما رسمهم هوميروس كان خطيباً مفوهاً مقطع القرين حين يخطب يستدعي جبالث مارس نوثر أو ميرابو أو تروتسكي. أدياً متمكناً من القول، مؤثراً، صاحب قصيدة كوية ولا ريب، أركانها الحق والعدل والحرية وكرامة الإنسان كان رجلاً قوي الشكيمة، صعب المراس، سمحاً، كريماً، مثلاً لا يحسب للأيام حساباً ولا يدحر مالا لعهده يتعامل مع الحياة اليومية وكأنه مسافر أبدي لم يكن يأبه كثيراً للحدث النظري والصوص كان يطرح طرحه الخاص، ثقافة مهصومة بعيد

إنتاجها بأسلوبه الساحر لفريد إستخدمت إحدى الشركات للرعاية تلاميذ المدرسة الصناعية الوسطى بكوستي - بتوجيهات من السلطة الحاكمة - لحمل الطفل في أحد مشاريعها الزراعية في العطلة الصيفية لأحد أعوام الستين وقد وقع حادث مؤسف لإحدى العربات التي كانت تقلهم مما أسفر عن مصرع تلميذين صغيرين وإصابة آخرين بجراح كُتبا صبية صغاراً بالمدرسة الوسطى ولكن شاركنا في تشييع الجنامين حيث خرجت المدينة بأسرها فقد مرها الحادث وأدمى قلبها فالتلاميذ كانوا عرباء عن المدينة يقيمون في السكن الداحلي. لحاكم العسكري بجبروته وما يحيط به من مظاهر لقوة كان في مقدمة الجميع، ونظام عبود في أسوأ مراحل تسلطه واستبداده وبعد أن فرغ الناس من دفن جثمان الصغيرين برر يوس من بين المشيعين عاصياً محمراً امينين، ممسكاً بمكر للصوت إعلنى سيارة واقفة وبدأ يحط في الناس ويدد بنظام الحكم جهرة غير حيات ولا وجل. خاف كثير من المشيعين من هول الموقف. استنفوا سواراتهم وتسللوا عائدين قبل أن يشهدوا عملية الإعتقال في نفس اللحظات، الأمر ندي كان يتوقعه يوس بطبيعة الحال ذلك مشهد واحد من سلسلة مشاهد وقع عليها في حياة يوس في تلك المدينة التي بات صميراً بها كان حبيراً عارفاً بأقدار الرجال تهره سيرهم وتشجيه وكان يكن عجاباً خاصاً للإمام محمد أحمد المهدي. أذكر مرة كُتبا تحدث عنه وأشرت في سياق الكلام إلى أن المهدي رجل وهو في الثانية والأربعين من عمره فانتقص وتعب وجهه وانتعت إلى محتجاً وكأني قد رنكبت خطأ يد كيف يستطيع شاب في مثل هذا العمر أن يقدم شعباً كشعب لسودان ويقوده في أكثر المعصمات حكمة في تاريخه فيوحد البلاد ويقوم دولتها الوطنية. وحسب راجعته واقنع رفر رفرة عميقة وانتصب قائماً وعادر مجلس عاب عاباً وعاد بحبرني بأنه لم يسم ليلتها. كان حينذاك يقترب من الستين ما فاته ذلك إلا أنما راعه حملاً هو مصي

العمر قبل أن يحرز نصراً رغم الآمال التي كانت تطوي عليه نفسه لمتعة روح الزعامة

تمتد علاقاتي إلى زمن بعيد كنت أراه في مأتم والدي - عليه رحمة الله - وأنا حدث يافع يحصر يوماً ويضيئ ساعات جالس بين المعربين كنت أعجب لذلك الرعيم اليساري بربه لأفريقي ويتوسط شيوخ الأنصار رل العجب حين كبرت وعرفت منه الصداقة التي جمعت بين ودينا منذ بواكير لثلاثينيات. وكثير ما كان يروي قصة الصداقة التي أهداها ودي لوالده ويردد - حتى آخر أيام حياته - أنه سيعيدها إليّ بعد خمسة وسبعين عاماً - تحفة تربية تزين صالون منزلي. وبذلك الصداقة قصة حذيرة بأن تروى في يوم من الأيام.

في صغولتي كنت «المكتبة الوطنية» لصاحبها مصطفى صالح هي الوحيدة في مدينة كوستي. تنقلت في اسواق من مكان إلى آخر حتى استقرت قرب مكتب ابيريد ثانياً على انترود عليها لافتة محلات «الصبيان» و«السيدات» ثم «سمير» والقصص التي كان يصدرها «مكتب البشر» وتلك المجموعات التي كانت تعد من مصر ثم ثم يلبث الحال أن إفتتح بورس «مكتبة الفكر لحدث» - لا أدري في أي عام حدث ذلك وجدنا فيها صالطنا من الأدب الإنساني فقد تجاوزنا مرحلة الطفولة في أول مدارج المرحلة الثانوية وتوسعت اهتمامات بالقراءة وبنت أكثر عمقاً وتنوعاً في ذلك الوقت توطدت علاقتنا به نحن مجموعة من طلاب الثانوية الباحثين عن المعرفة والحقيقة، فوجدنا فيه أباً براً وأخاً كريماً وصديقاً مخلصاً عاملنا كأنداد به وسمعنا بالإحتلاف معه بكل سماحة وأريحية رغم طبعه الحاد في مواجهة السدح والمتطعنين. وصلت كلما تقدمت السنون ترداد علاقات توهجا وبريقاً يربتها حصوره المشبوب وتدعقه الفكري اندي لا يغيب

قبل سنوات ونحن بدولة لإمارات أهدى إليّ صديق لطرفين الأستاذ مأمون

أصوات

محمد عيسى المحامي نسخة من رواية لعبد الرحيم منيف بعنوان «عروة الرمان
بهاقي» تدول فيها سيرة صديق له من المصاعليين الموريتانيين، ينقل ما بين
باريس وبيروت مدافعاً عن قصايا المغرب الكبير وخاصة الجزائر رأى فيه مأمون
صورة من يوسس لجرأته في إقحامه للمخاض وشجاعته ومروءته وتعامده المختلف
مع الناس والحياة ما أحوجنا الآن للكتب عن هذا الفتى صمير المدينة الذي
كان يحتل لكون في حناياه ويمشي في شوارعها

أمبراطورية رابع فضل الله

مارالت كتابات الأوروبيين تصفح بالمرارة حين يتحدثون عنه . خاطهم أن يعف قائد أمريقي حجر عشرة أمام محاولات توسعهم الممخوم في أفريقيا . وكاد أن يفسد عليهم ما قرروه في مؤتمر برلين لعام 1885 بشأن تقسيم القارة التي حسبوها حلاء فموجثوا بوجود جيش عظيم وشجاعة لا تأبه بتعوق الأسلحة الحديثة . وعلمنا احلمب المعارك واشتد أوارها انحجب الرصاصيون والألمان أنخلوا الساحة لمعوات الفرنسية تقاض رابع فصل الله .. عكر مراحهم وأباد فيانقهم ومشى على جثث جنودهم حتى الرمي الأخير من حياته . وفي معركة لأحيرة لم يشأ أن يموت وحده فقتل الجبرال لامي قائد القوات الفرنسية الذي فاصت روحه بعد ساعات قلائل من موت رابع على صغاف بحيرة تشاد في الثاني والعشرين من أبريل 1900 . ثم يستطع الفرنسيون هريجة رابع إلا بشراء مروة سلاطين باقيرمي ووداي (تشاد) السابقين .. وبعد مصرعه لم يدوقو طعماً للراحة أقدمهم إبنه فصل الله الذي قاد حرب عصابات لمدة عامين حتى لمى مصرعه

في كتاباتهم وصفه المؤرخون الأوروبيون هيايليون الأسود وهابليون الصحراء . عثبروه عارياً أجنبياً جاء من سودان النيل إلى تلك البقاع التي أطلق عليها لحفريون أمريقي شمال خط الاستواء . فثروا عليه بطولاته سموها معارب عسكرية امتدت من النيل حتى حوصي بحيرة تشاد . انطلقوا من عاطفة غربية هوجاء ما هي إلا امتداد لرؤية الاستشراق . إلا أن مؤرخين أفارقة محدثين يحاولون جادين أن يردو للقومية الأفريقية إعتبارها . فحالة رابع نموذج ساطع لما يعنون

أصوات

بحسب في السودان مارلما نجهل الكثير عن رابع لاندكركه إلا حينما نتحدث عن الربير في الوقت الذي لا تزال آثاره ومدرسه قائمة في دكوه عاصمة امراطوريته بصحمة التي شملت بلاد برو والباقيرمي وجرءاً من تشاد دكوة هذه تقع حوبي بحيرة تشاد والناس في تلك المناطق لا يزالون يتحدثون عن شجاعته لأصورية وعدله وصرته

ارتبط اسم رابع بالربير باش . فقد كن واحداً من قادته العسكريين .. بل كان أبرهم وأكثرهم مصدا وعزيمة صحبه إلى بحر نهران بعد نجارت عسكرية سابقة وفيه كان جدياً في الجيش المصري بالسودان وعمل هو بفرقة بحرية بمصر ليعود إلى السودان ويعمل أيضاً بالجيش وتردد بعض الروايات مشاركته في الانتفاضة العسكرية التي قادها الجود السودانيون في حامية كسلا في عام 1865 بسبب الظلم وتأخير المرتبات .. وشهد إعدام عدد من رفاقه في سلاح وسجن الكثيرين بعد حباط لانتفاضة وبات أحد الناحيس القلائل من بلد النجربة

وبد ربح في عام 1840 وأغلب الظن أن يكون ذلك قد حدث في حكمة بملوك حيث كان والده يعمل في صناعة لطوب بعد تركه الخدمة العسكرية. ويسر أن عائلته انحدرت من سلالات الفووح أو الهمج الناطقين بمسقة جال . دريس الواقعة في جنوب القصبي لمسقة الجزيرة. أدخل ربح الخلوة فحفظ شيئاً من القرآن وبنا قدرأ يسير من التعليم.

في لتاريخ السياسي للأمة السودانية لعبت الشاعر ب وانساء دوراً لم يجد حظ في البحث و لتوثيق الحاجة بت ميمس نظمت قصائد عالية تحريضية ترحر بصور هي عاية لبرعة والإبداع في أيام الحكم لتركبي وإبان الثورة بمهدية إلا أن ثلاث من أبيات الشعر حاصيت بها الربير باش في معظم

تاريخي مهم نالت أشه بالمانعستو السياسي حُشدت وعياً غاب حتى عن الربير نفسه الذي لَمْ يدفع بالأمور إلى درجة قطع ثمار إنتصاراته وإعلان مناطق بحر العرال ودارفور دولة وطنية - بعيداً عن سلطة الأتراك - قُدِّمها للحدوي في طبق من ذهب في حالة من العملة السياسية دفع ثمنها غالباً باحتجاره في القاهرة لأكثر من ربع قرن.

قالت بت ميسم:

جيك ثلاث ورفقات جيب مردهم

صفور الجو حلتس قور غدهم

يا متيج الكاشفات لي حدهم

كان النفوذ التركي لَمْ يبلغ بحر العرال بعد وكانت الشركات التجارية الأجنبية ترتفع بلا رقيب وتعمل في تجارة لرفيق وسن الفين وريش انعدام وكان الربير جزءاً من هذا الواقع إلا أنه إستطاع أن يتجاوزه ليخلق قوة عسكرية تعدت سلطة الخرطوم حينما هزم قوات انبلالي وفرسان الرريفات وأحير أسقط أقدم مملكة في المنطقة وهي مملكة الفور ووقف حالاً أمام تلك التطورات فقرر الذهاب إلى القاهرة.

بات الربير مسلماً في مصر، وترك وراءه سليمان به الذي كان في الحادية والعشرين . عراً قليل التجربة وإن كان إلى جانبه قادة عسكريون ذوو تجربة وقدرة وفي مقدمتهم رابع فصل الله

كان عدد الصامعين في إرث الربير كبيراً فأوعروا صدر غردون على سليمان ليعمل على إصعافه وتقسيم جيشه وعين إدريس أبتير مديراً على بحر العرال . علم يحد سليمان مناصب من قتاله، وهكذا إبرلق في سلسلة من الاشتباكات قادت إلى

أصوات

بستسلامه الأمر الذي رفضه رابع وباشده مشادة عاطفية حارة للعدوان عن موقفه
لدي أسفر عن مصيره وتشتيت جيشه.

توخى رابع حيوياً عبر دارفور يقود ألغام من المسلحين الأشداء إلى بلاد البرنو
فتحها وأسس إمبراطورية واسعة شملت بلاد البايرمي وحزام من تشاد ولما
ندبت الثورة المهدية في السودان في عام 1881 كتب إليه الإمام المهدي
يدعوه للعودة إلى بلاده إلا أنه تردد كثير.. وكذلك فعل الحليفة عبدالله لكنه لم
يستجب، ورغم ذلك رفع رايات المهدية في جميع معاركه واعتبر المهدي إماماً
ومرجعية لنشأته.. وذكرت المصادر الأوروبية أنه كان يتبادل بعض الرسائل مع
البربر باشا في منفه بالقاهرة.

وبعد هزائم مريرة تجرعتها القوات الفرنسية جرد الكونت لامي حملة عسكرية
صد قوات ربح مرودة بالأسلحة الثقيلة والمدافع وحاصرها معها معركة عسيرة كانت
لأخيرة- أبلت خلالها ربح وقواته بلاء عظيماً إلا أن قواته انهزمت وتبدد شملها
بعد مقتلته وبقي ابنه فصل الله يقاتل الفرنسيين حتى قُتل أيضاً.

لا أحد يعرف شيئاً عن مصير من تبقى من قوات ربح من السودانيين الذين
خرجوا معه.. فقد صحبه عدد من أبناء المحليين والتعاشية والهابية الذين
رفضوا الهزيمة وخرجوا من البلاد وقد رصد المؤرخون الفرنسيون عدداً من
هؤلاء لقادة لذين حكموا تلك الأقاليم الأفريقية وطوتهم غياهب النسيان

أدهشتني كثيراً الصور المتوعدة التي تصحبها كتاب لمؤرخ فرنسي يدعى
(هلم) ذهب إلى ذكوة- عاصمة ربح- ووجد قصره الذي لا يرون شخصاً كان
لم يحن من أهله كما عثر على موقع المعارك الحربية وبعضاً من آثارها التي تشير
أشجار المهمين بتاريخ السودان وعظمة أبطاله

17 أكتوبر 2000م

من العفاض الى براغ

إبراهيم ركريا، رعيماً لعمل العالم



كنت جالساً في صالة المسافرين العابرين بمطار إسطنبول يسيطر عليّ سأم
كثيف فهذا الانتظار سيدوم خمس ساعات جعلت أكتب كتاباً بين يدي «كيف
صنعنا القرن العشرين» لزوجيه جبرودي - مترجماً إلى العربية - كنت في حالة لا
أهيق فيها القراءة ولا أحتمل دويها. والأرائث ليست بوثيرة، تؤلمك صلابتها أس
اتكأت عليها أقبل رجل وروجته عجوز تجاوزا السبعين وربما إقتربا من
الثمانين إلا أنهم كانا متعاسكين جلسا غير بعيد مني تبادل النظرات التي
تحوت إلى ابتسامات وإيماءات بالتحية. ثم لم يلبث الرجل أن تناول الكتاب
الذي وضعته حانياً وسألني بأي لغة يكون ولما أحبته شععت الحديث بيني وأدرك
من أي بلد أنا فبعثني بالسؤال، «هل تعرف إبراهيم ركريا، لم ألتق بسوداني إلا
وسألته عنه» وأحد يتحدث عن الرجل الذي ظل شاحصاً في دكرته لأكثر من
أربعين عاماً قال إنه لم يلتق في حياته بكثير من الرجال في هيئته المتواضعة
وبساطته وعلمه بغير حوادثه للحديث وقدرته المتعددة كان الرجل دبلوماسياً
شاملاً بورادة خارجية بلاده حين زارها إبراهيم ركريا في أوائل سنوات الستين من

أصوات

القرن الماضي فتم تكليمه مرافقته لمدة سبعة أيام بمسح خلالها من السجيا
والمصافات ما أدهشه فطلت ذكره حية متقدمة لم تمحها السور كان إبراهيم ركريا
عهد ذلك شاباً أبص يعمل في سكرتارية إتحاد العمال العالمي

كان الرجل سعيداً حين ودعي هو و زوجته ليلحقا بطائرتهما فيتحقق حلم حيدتهما
بريرة بعض مناطق الشرق الأقصى أما أنا فعدت ولم يفارقي صدي حديث
الرجل إبراهيم ركريا سمعت عنه الكثير كأحد أبرز الشخصيات السودانية التي
عملت في المنظمات الدولية ووقفت في محافلها يحم الوفاق والرأي السديد كما
إنني تقيت بعدد من أقاربه أهالي قرية العاص وبمعهم أصدقائي في مقدمتهم ابن
أخيه النقيب الجسور الصادق ركريا من وإحيا أن يكسب عن إبراهيم ركريا وأضرابه
من لذين رفعوا هامة الوطن وقدموا نموذجاً رائعاً للشخصية السودانية . مهما حسنا
أو ائقنا مع ما رأى أو اعتقد

عدت أبحث عن كتيب أصدره إتحاد النقابات العالمي في الذكرى الثالثة لرحيل
إبراهيم ركريا . جدهنا مديحه من الخارج ليس هنا ومن حق الأجيال الجديدة أن
تعرف شيئاً عن عظماء بغبيهم الجهن السائد الآن حيث يمشو لإدعاء وانتطع
وانتسلط وتجر العظمة الإنسانية وتترافع .

كتب الكسندر جاريكوف السكرتير العام لإتحاد النقابات العالمي يقول إن
إطباغاته عن إبراهيم ركريا ليست مستمدة من لقاءات أو اجتماعات عرسية قصيرة،
ولكنها مستمدة من علاقات تطورت بشت حلال فترة طويلة حافلة بالأحداث .
ووصفها بأنها أقرب إلى اللقطات لسينمائية في الأفلام التاريخية التي تغص
بالذكريات . تبدو فيها أشكاً معينة بعيدة في لأفق كالصور انطية التي تقترب
تدريجياً حتى يتبين المرء قسماها . بطل اشكر مائلاً هيبة قل أن يحرف بعيداً
فيحتفي مخلفاً وراءه اطباء قويا ثابتاً في الدهر يدفع لمرء لأن يتذكره مراراً حتى
يستبين التفاصيل التي تصح في النهاية جزء من الإنسان نفسه

قال جاريكوف إن إبراهيم زكريا كان يسحر كل من يقترب منه بشخصه البسيط في مظهره وطرته وسلوكه بقطرته الحالية من العمل والتكيف تلك لبساطة كانت رجل أدرك لقيم الحقيقية للحياة فعاش وفق ذلك. رجل استطاع إستيعاب التجربة التاريخية للبشر فأحد يدرك نوعي عميق أفرح وأترع الواقع. واسترسل جاريكوف في حديثه الذي لا يمل عن عظمة ذلك الرجل. فقال: «لَمْ تكن هناك حاجة بالاستمرار عن الوحدة الثقافية والتعليمية مثل هذا الشخص واسع المعرفة. لقد كان يشعر بالراحة والصنائية سواء كان في رفقة العمال العاديين أو في رفقة رؤساء الدول. وكان قادراً على المعالجة العميقة لأي مشكلة يمكن تصورها. بدءاً بالعقبات الصغيرة وإنتهاء بالتطورات الدولية الأكثر تعقيداً. لقد كانت أبعاد ذهنه واسعة بدون حدود سواء اتفقت معه أم لم تتفق. أحبته أم كرهته إن كل من التقى به لا يمكن أن ينساه شخصيته لرفعة مهية ومحبة» ظل جاريكوف يتحدث بحرارة وصدق يصف جوانب العظمة في ذلك الأفريقي المهيّب القادم من قرية نائية بالسودان إلا أنه يعود فيقول إن حديثه ليس من باب الإدارة والمعالجة فقد كان زكريا يتعامل مع الناس بروح متساوية فلا بأسره ذور المصائب ولا يستأثرون بهتماماته أكثر من البسطاء فقد كان يجذب دائماً للمحتاجين للمساعدة والذين أصربهم واقع الحياة المرير وصعبه أيضاً فقال إنه كان رجل مبادئ وقاعات، كان العمل معه سهلاً حيث لم يكن يلقي بالاً أو يشغل بأي نوع من العناورات أو التآمر. يستطيع العره أن يعتمد عليه في كل الظروف فقد كان ينأى بنفسه عن الخيانة والحق والرياء وكنين بمكينين وحتم حديثه بقوله «وهي الواقع ليس مقتنع بأن شخصية وطهرة إبراهيم زكريا الذي يصفه ليس أعظم البشر ستظلان بيسا إلى الأبد»

كان إبراهيم زكريا أحد قادة نقابيين شباب تخرجوا في مدرسة جييت لصناعية وعملوا فنيين وعملاً مهرة في ورش مصنعة لسكة الحديد السودانية بعطيرة وقد أظهروا ميلاً نصالياً إبان عصراوات الحركة الوطنية في أواسط سنوات الأربعين ولم

أصوات

يلتزم هؤلاء الشباب أن التفر بصلات قدميين من مصر وموظفين صغار ومشقيين
فشكّلوا تنظيمًا يساريًا عُرف في البداية باسم الحركة السودانية للتحرر الوطني وفي
أوقات لاحقة أصبح الحزب الشيوعي السوداني كان من بين هؤلاء النشطاء
الشباب إلى جانب إبراهيم زكريا، لشعيع أحمد الشيخ وقاسم أمين وأجروا
سعيد وآخرون أصبحوا وهم في باكورة شبانهم قادة أساسيين في الحركة النقابية
السودانية ولعبوا دورًا مهمًا في تنظيم الحركة العمالية وانتصروا بتظاهراتهم وإصرارهم
عن العمل على الإدارة الاستعمارية وترفعوا بغيرها بحقوقهم في التنظيم، كما
انزعجوا قنوب العمل الذي صدر في عام 1948 تم فصل إبراهيم زكريا من مصنعة
السكة الحديد بسبب نشاطه السياسي والنقابي وعمل لفترة قصيرة في مصنع
أسمت عطبرة الذي فصل منه أيضًا لأسباب، فتمنع بالعمل الحربي سكرتيرًا
تنظيميًا للحركة السودانية للتحرر الوطني. كان ذلك في عام 1950 ولم يكن قد
تجاوز الحادية والعشرين من عمره. وفي نهاية عام 1956 تم إختياره ممثلًا للحركة
النقابية السودانية في اتحاد النقابات العالمي حيث بات منظمًا دوليًا، ولم يلبث أن
أصبح أحد سكرتيري الاتحاد وفي عام 1978 تم انتخابه سكرتيرًا عامًا مساعدًا في
المؤتمر التاسع في براغ وبعد عامين أصبح السكرتير العام بالإبابة وبعد عامين
آخرين انتخب سكرتيرًا عامًا في المؤتمر العاشر الذي انعقد في هافانا وفي عام
1990 انتخب إبراهيم زكريا رئيسًا لاتحاد النقابات العالمي ليصبح أول نقابي عربي -
أفريقي يتقلد هذا المنصب الرفيع المستوى

، استطاع إبراهيم زكريا خلاله عمه النقابي على مستوى العالم لأكثر من ثلاثة
عقود أن يحقق نجاحات واسعة لهذا التنظيم الدولي المرموق الذي يضم أكثر من
ثلاثمائة مليون عام في مختلف بقاع الأرض، وذلك بتركيزه ومثابرته في اختيار
أفضل السبل لتوحيد المنظمات النقابية بسيادة لنهضة والتعاون والحيولة دون
وقوعها في فخاخ لحرب الباردة فقد جاء في كلمة له حول الحقوق النقابية

ومكافحة البطالة «عندما تُصبح انقباض بدلاً من فرص العمل، وعندما تُمنح الأولوية لمجموعات الصناعة الحربية دون تعدية ملايين الأطفال الجوعى في لعابهم، يمكنك أن تتصور ما هو نوع المستقبل الذي يقدمه لنا رأس المال الكبير والشركات المتعددة الجنسيات»

هذه الكلمات تكتسب اليوم مريداً من البوهج بعد أن انكشفت حقيقة الجشع الكامن في سلوك الدول الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات، وبعد أن بات واضحاً بدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والصحية في جميع دول العالم الثالث واتسعت الهوة بصورة لا تسمح بمجرد الأمن

كان إبراهيم زكريا مشغولاً على الدوم بقضايا العمال في دول العالم الثالث، وبصمته عربياً وأفريقياً عمل على تطوير العلاقات الأخوية بين إتحاد نقابات العمال العرب ومنظمة الوحدة الإفريقية، واهتمت المنظمات الثلاث في تحرير انتصاض العالمي دعماً لحقوق الشعب الفلسطيني واستحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة والنضال من أجل التحرر الوطني في ليبيا وأنجولا وموريتانيا وبلدان أفريقية أخرى ودعماً للنضال ضد لعنصرية وحكم الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا وكان إبراهيم زكريا يبدي اهتماماً كبيراً بالقضية الفلسطينية ويقدم المساعدات للعمال الفلسطينيين ويحيطهم بروح التضامن كما أتاح لهم مسيراً دوماً مناسباً لدعم ومساندة قصصهم المعاناة وبالطبع لم يسس وطه دعم سين عربيه الطويلة فقد كان حاضراً دائماً في فكره ووجدانه كان يوظف كل مقدراته لتوقوف إلى جانبه حين يدلهم ليه ويحذق به الحظر بتولي العسكر بالسيطة ومصادرة الديمقراطية وكبت الحريات، وطالما تصدى إبراهيم زكريا للديكتاتوريات وفصح طبيعتها، فقد هاصر التجارب الثلاث

وكسب لدكتور خالد المبارك عن إبراهيم زكريا يقول إن الكثيرين لا يعرفونه فقد عاصر السودان وعمل لعشرات السنين في الإتحاد العالمي لنقابات العمال برئاسة

أصوات

في براغ درس في مدرسة الصنائع الشهيرة في حيث لكَ أوريا هجرت طاقات ذكائه الرقاد فالتحق بمختلف الدراسات التي لا تُستلزم نعرًا وصار عندما التقته بطفًا بالألمانية والنشيط، والمرسية والإنجليزية وذلك بالإضافة إلى أنه بات حبيرًا في الشئون العمالية العالمية والأجور وقوانينها بمستوى رفيع ومن الممارقات أن رئاسته الحربية العظمية كانت داخل سودان، لكنه كان في مواقف كثيرة أقرب إلى النفايين الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز الليبراليين لدرجة أنه لم يُؤيد اعرو السوفيتي لبراغ عام 1968.¹

ولد إبراهيم زكريا في قرية المعاصر بشمال السودان في 17 مارس 1929، وكان والده يعمل باخر محطة في مصلحة السكة الحديد السودانية وحل رملاؤه في المدرسة اوسطى ببورتسودان ينوّهون بدكته وجهته وبروره في انشراط المدرسي بمختلف صرّوه وكان شقيقًا لثلاث بنات وثلاثة أولاد يتفلقون مع والدهم من محطة لأخرى، إلا أنه حين اشتد عوده أخذ يعود لقريته في شمال يساعد عائلته الكبيرة في أعمال الزراعة إلى أن تخرّج من انقسم الثانوي بالمدرسة الصناعية وبعد أن تخرّج وبدأ العمل كوّن جمعية لأبناء المعاصر، يجمعون التبرعات بانتظام لصاحب قريتهم

وفي عام 1964 تزوج إبراهيم من السيدة فاطمة لعيم التي عرفت كفائدة طلابية في جامعة الخرطوم وعصوة بشطة في الإتحاد السّالي فأجبا حليل - الذي توفي صابة قبل عامين أو ثلاثة - ولميس التي أطل أنها لاتزال تقسم مع والدتها في براغ. وقد توفي - عليه رحمة الله - عام 1993.

22 أكتوبر 2002م

مدرساً بجامعة الخرطوم

إحسان عباس



كانت محض صدفة تلك التي أتاحت للماقد العربي المعروف إحسان عباس أن يعمل مدرساً للغة العربية بكلية غردون ابتدائية - فقد قدم له صديقه محمود العول طلباً للعمل لتلك الكلية التي لم تبرح أن عدت جامعة الخرطوم خلال سنوات قلانل من إقامته. ونم يكن يعلم أن الأستاذ أحمد أمين مساعد الأمين العام للجامعة العربية لشؤون الثقافة والذي أحقق في تعيينه بالجامعة قد رشحه لتلك الوظيفة من خلال تلميذه الدكتور محمد التويهي، الذي كان يشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية بكلية غردون في الخرطوم تسلم الأستاذ إحسان برفقة من المستر بن وكييل حكومة السودان بمصر يستفسره عن قبول العرض بالعمل في الخرطوم موافق واتفق معه على موعد السفر إلى العاصمة السودانية. تعامل إحسان حيناً عندما قبلت السلطات السودانية جوار سفره الصادر من حكومة عموم فلسطين بالقاهرة - ذلك الجوار الذي كان مرفوضاً لدى الدول العربية الأخرى.

وصل إحسان إلى محطة السكة الحديد بالخرطوم بعد رحلة استغرقت بهارين وثلثين تصحبه زوجته وحفلة في 18 سابر 1951 وكان في طريقه إلى الخرطوم بحري حيث سكنه الذي استأجرته له الكلية في سيارة للأجرة حيث برز له ثلاثة من زملائه الأساتذة بقسم اللغة العربية هم محمد النويهي وعبدالمجيد عابدين ومحمد عبدالعزیز إسحاق بسيرتهم لثلاث. قصص إحسان بقية العام الدراسي حتى مارس حيث قام بتدريس التاريخ للإسلامي وهي العام الدراسي الجديد إنتقل إلى منزل بحي المطار وصفه بأنه كان دارة جميلة حوبها حديقة تصمم أشجار المور والبباي والليمون والليم وغيرها

سجل الأستاذ إحسان إطباعاته وذكرياته عن الفترة التي قضاها في السودان في كتاب له صدر عام ١٩٩٦ بعنوان «عربة ايراعي» وهي لا تخلو من طرفة خاصة وقد كتبها بعد خمسين عاماً من تلك التجربة. قال إن الدكتور النويهي كان خريج مدرسة اندراسات الأفريقية ولشرفية بلدت وقد نال منها شهادة الدكتوراه في موضوع «الحيوان في الشعر الجاهلي» ولذلك كان محاضراً في تدريس قصائد مختارة من الشعر الجاهلي. وقد نشر فيما بعد حصيلة دروسه في هذا الموضوع في جرائد. وكان قد تزوج من امرأة أجنبية واكتسب اندقة في المواعيد والمناسبات في المبالغة في القول وكان خارج لعمل انجاسمي مهتماً بإلقاء محاضرات أكثرها عن المرأة وحقوقها وعبر إحسان عما كان يعتريه من دهشة لإختياره هذا الموضوع لأنه يعلم تمام العلم أن أمام المرأة السودانية - التي كانت لاتزال تحصى للحقاص الفرعوني - مراحل كثيرة لا بد لها أن تقصها. وأن الرجل السوداني كان يديه وقنطاريك من المشكلات ما يستعد جهده كله ليال حقوق الإنسان في مجتمعه وكان إحسان يلاحظ أن بالخرطوم مجموعة من المثقفين العميقي انشغافه ادين يعرفون شؤون بلادهم أكثر من النويهي يتحدثون عن موضوعات تهم مستقبل بلدهم ولا يتعزضون لما يحدث عنه النويهي ويتحدده مجالاً لنشاطه الفكري. لاحظ إحسان أن كلية عربون كانت

تشبه الكلية العربية بالقدس إلى حد ما حيث يتم اختيار طلابها من اسحة في المدرس السودانية، ولذلك كانت مهمة المدرس أكثر صعوبة وأكثر مسؤولية وأكثر إمتاعاً. ولكن الفرق الأساسي بين الكليتين هو انتماء الطلاب السودانيين في العمل السياسي وتعد طلاب كلية القدس عن الانتماء السياسي، ووه إلى أن الحرب الشيوعي في السودان كان قويا وحسن التنظيم وأن العمال فئة يحسب حسابها. بينما استطاع تنظيم الإخوان المسلمين أن يستقطب عدداً غير قليل من لطلاب وأشار إلى حادثة - ثم سمع عنها من قبل - وهي أن الأستاذ محمد عبدالعزيم إسحاق نورط في حديث اعتبره الطلاب ماساً بالعقيدة فتأروا وحركو الشارع السوداني في يوم الجمعة التالي بعد انصلاة حيث تظاهر الناس وطالبو برأس «الأستاذ الربديق»، وحضمت إدارة الكلية بهذه الثورة وأبلغت الأستاذ بعدم تجديد عقده في العام المقبل.

لم يمس الأستاذ إحسان ساعات الدوام التي كانت تبدأ في الساعة السابعة صباحاً حتى التاسعة حيث تناول الإفطار حتى العاشرة، ولم يمس طبق العون الذي كان يتقاسمه مع جمال محمد أحمد وسعد الدين فوزي ووصف الأول بأنه كان من أكبر أدباء السودان والثاني في طليعة المفكرين السودانيين درس في جامعة لندن الاقتصاد وتمكن من التحصيل العلمي وأعجبه قاعة المثقف السوداني الذي لا يترفع متعالياً عن واقع الناس البسطاء.

قال الأستاذ إحسان إنه وجد إنتاجاً أدبياً عربياً في السودان وخاصة الشعر إلا أن الدراسات حوله كانت شحيحة للغاية فأخذ يكتب لبعض العجلات لتعريف بالأدب السوداني ولم يكن يعلم بأن بالأستاذ عبدالحميد حبيدين كان يعد كتابه «الثقافة العربية في السودان» لدي لم يلبث أن صدر للناس. وروى إحسان أنه أخذ يشجع نشر الشعر السوداني والنصبة القصيرة في بيروت، وكان من ثمرة هذه الجهود ظهور ديوان «عانه الأوس» لصالح أحمد إبراهيم ومجموعة «البرجوارية الصغيرة»

أصوات

انفصالية لصالح وصديقه علي المثلث، ثم «عصبة الهادي» لصالح - كتب ذلك رغم أن ديوان «عصبة الهادي» صدر عام 1965 بعد معادته إحسان بالحرطوم، لأنَّه ربما اطلع عليه من خلال صحلاته بالشاعر انني استمرت لوقت طويل، وديون «لصمت والرماد» لكجراي وعندما أصبح محمد إبراهيم أبو سليم أحد طلابه مسؤولاً عن المحفوظات والوثائق السودانية تمكن إحسان من خلاله من الإطلاع على كثير من الوثائق الخاصة بتاريخ المهديه وسبح كثير منها لدراسة أسباب لكتابة في ذلك العهد

كان إحسان يشارك في النشاط الثقافي لذي انتظم العاصمة ويرتاد معظم لأندية في الخرطوم وأم درمان وخرطوم بحري يقدم لمحاضرات إلا محاضرة واحدة كان مُقررًا إقامتها في يوم انقلاب 7، نوفمبر 1958 حانت لشرطة بيته وبين الوصول إلى مكانه

صطفى إحسان أربعة عشر طالب كان يلتقي بهم في دره أو في دار، تعداد الطلاب يتحدثوا في شتي الموضوعات على ابرعم من تنماء تهم المختلفة، بعضهم من ايساريين وأحرون من الإخوان المسلمين وكان الحور يستخدم بينهم وترفع درجته إلا أنهم يعودون إلى صفاتهم أحياء، ولاحظ إحسان أن هذه الظاهرة شملت نسبسيين في البرلمان الذين كان يشتد أوار معاركهم خلال الجلسة وبعدها يخرجون سويا كأصدقاء، ولقد أعجب هذا لسلوك الحصري إحسان وكان يردد «حقاً إن الديمقراطية تليق بهم»

في خلال اسسوت العشر التي قصاها إحسان بالخرطوم حدثت تطورات مهمة في لمؤسسة الجامعية حيث تغير اسمها إلى كلية الخرطوم الجامعية عام 1954 ثم أصبحت جامعة الخرطوم عام 956، ورافق تلك التطورات سودنة المناصب لإدارة بالجامعة حيث استقال السويهي وحققه الدكتور عبد الله نصيب وأصبح نصر الحاج

علي مديراً للجامعة كما انضم إلى قسم اللغة العربية مصطفى عوض الكريم ومحمد المجذوب نصبح جمال محمد أحمد وسعد الدين فوري صديقهما إحسان بالحصول على الجنسية السودانية إلا أنه اعتذر ولم يرد أن يأمس أهل بلاده ماضيهم.

وصف إحسان الحياة في الخرطوم خلال تلك السنوات بأنها كانت مريحة وتتميز بالنظام في جميع الشؤون والمجالات ويتوفر بوفرة كل ما يحتاج إليه من لباس وطعام ودواء فإذ جمعت إلى ذلك لطف شعب السودان ودماثة الخلق لدى أبنائه وصدق العلاقات بين الناس كنت تصف جواً مثالياً للعيش. هذا الجو الاجتماعي المثالي وتلك العلاقات الودودة دفعت الأستاذ إحسان لأن يعطي خبر معادته النهائية للخرطوم بعد أن رفض تجديد عقد العمل مع الجامعة بشروط، ولم يرد أن يشير بسمره جواً عاطفياً لم يبريراً له.

بدأ الدكتور إحسان عباس نشاطه الأدبي مبكراً فكانت الشعر، إلا أنه عُرف بكتباته النقدية وخاصة تناوله للشعر العربي الحديث حيث كان يركز على تجربة الشعر العراقي الحديث وقال إنه تسلم ديوان «أباريق مهشمة» لعبد الوهاب البياتي في عام 1954 في الخرطوم وأهد محاضرة حوله حشدها بكل مكائباته المعرفية والثقافية في ذلك الوقت ولا يزال بعد خمسين عاماً من تلك البدايات يساهم الدكتور إحسان بكتباته النقدية العميقة والثرية وهم بلوغة شعائين فقد أصدر خلال السنوات الثلاث الماضية ثمانية مؤلفات هي تاريخ نقد الأدبي عند العرب، اتجاهات الشعر العربي المعاصر وعبد حميد بن يحيى الكاتب والوزير المعربي أبو انقاسم الحسين بن علي وتاريخ الأدب الأندلسي في (جزئين) وعن الشعر وعن السيرة.

وهي في وقت لاحق من كتابة هذا المقال عليه رحمة الله.

17 ابريل 2001م

ابن عمر النوسي.. وتاريخ دارفور

في مشهد أقرب إلى مشاهد قصص ألف ليلة وليلة وقف فتى نوسي في حوالي الرابعة عشرة من عمره حزيناً يائساً أمام رجال قافلة من الحجاج السودانيين أدوا العريضة وأخذوا ينتهبون للعودة إلى بلادهم فأحسروا البصائع وأعدو الركائب. فسألهم عن والده الذي انقطعت أخباره في السودان منذ سنوات. كان ذلك في نهار يوم في أوائل القرن التاسع عشر. ولما أفصح عن اسمه فاجأه صاحب القافلة لتاجر السوداني الشيخ أحمد البدوي بمعرفته لوالده وما بينهما من صداقة وتعهد بأصحبه إلى دارفور حيث يقيم والده. كان ذلك لوالده قد جاء إلى السودان أيضاً بحثاً عن والده الذي وعد إلى مملكة سار وطالب له المقام بعد أن تزوج من أهل البلاد وأنجب عدداً من الأبناء.

أقام الفتى محمد بن عمر لنوسي منذ عام 1803 في إقطاعية بوالده في قرية «بو الجدول» بدارفور حوالي سبع سنوات كأول رحالة عربي وتيح له الإلمام بأحوال السلطة الاجتماعية والاقتصادية وبظمها السياسية والإدريّة والحريّة وعلاقاتها بجيرانها. وبت مؤلفه «شعيد الأدهان بسيرة بلاد العرب والسودان» أهم مصدر للتعريف بأحوال ذلك الإقليم، الذي يعتبر حلقة في سلسلة الممالك الإسلامية السودانية التي امتدت من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وشملت ممالك سار وكردفان ودارفور ووداي (تشاد الحالية)، وباجرمه، وبرو (الكاس)، وممالك الهوسا، ثم مالي.

كانت المعلومات عن تاريخ دارفور قليلة وعتمدت أساساً على الروايات لشماهيّة لشي أحد يشاركها الناس قصصاً جيلًا بعد جيل كدأب الافارقة شعب

معروفهم أهل البلاد الأصليون ويكون لمنطقة الجبلية وخاصة جبل مرة وقد وفدت عليهم هجرات القبائل العربية الرئيسية من مصر وشمال أفريقيا عبر السهوب والبراري الواقعة بين لوبة وإقليم تشاد. ورغم هذه الهجرات يشقها الثقافي لم يصبح الإسلام لدين الرسمي للسلطة إلا حين تولى سليمان صوبون عرش دارفور في عام 1640. وذبت بعد أن تسلس الدم العربي للبيوتات الحاكمة

لم تشهد دارفور رحالة أحناب كثيرين كما حدث لمناطق السودان السيلية وكان أول من درجها الرحالة الإنجليزي براون (ديليوجي براون) وذلك في عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد وقد سلك براون في رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسبوط إلى العاشر. وأقام في دارفور ما بين 1793 و1796، إلا أن السلطان ارتاب في نواياه كأوروبي مسيحي ولم يسمع له بالتجول وجمع معلومات.. كما أنه لم يشر على تاريخ مدون له. جاءت معلوماته سطحية ومضطربة وفي الفترة ما بين 1819 - 1855 قام الرحالة المعروف هنري بارت برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد ورناد خلال هذه الفترة المنطقة بين نمبكتو وباحرمة. إلا أنه لم يرق بزيارة دارفور أو ودّي. ولكنه استطاع أثناء إقامته في بونو أن يجمع نتفاً قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم معتمداً على بعض الروايات الشفهية وكتابات بعض المؤلفين العرب القدامى.

وفي عام 1874 رار الرحالة الألماني جوستاف باجيتجان دارفور عن طريق بحيرة تشاد وبجرمه ووداي وجمع معلومات عن المنطقة بمساعدة السطان إبراهيم محمد حسين (إبراهيم قرص) الذي كانت دوتته هي أيامها الأخيرة حيث سقطت في يد المير رحمة في العام التالي ودخلت دارفور في عهد الأراك حتى إصلاح الثورة المهدية.

كان محمد بن عمر توسي لأب مصري الأم أهدته عروته هي كتاب ثقة واحترام للناس في دارفور يقابلها العربية وثقافتها الإسلامية فاحتضنته وهأت له مكانة مرموقة واستطاع بقدرته الفذة ودقة ملاحظته وبعماسه التام في الحياة الاجتماعية أن يقدم صورة متكاملة لما رآه وقدر له أن يصف معظم مناطق الأقليم وخاصة حين مرة فكتب عن جغرافية المنطقة بتفاصيل مذهلة، وسبل كسب العيش فيها وعددت ساس وأحلاقيهم وثقافتهم بمختلف طبقاتهم الاجتماعية ووصف مجالس السلطان ورثه وعادته ونفايد حكمه، وقوة شوكة وسلطانه المطلق.. «فهو لأول والأخير لا يسأل عن قرار يحذه ولا يراجع إلا من قبل الشعاة. ويحد من السطيم والإحلال ما لم يحدد به الملوك الآخرون. عبطاته تحيط به ترافق في حشوع جميع تحركاته وتبدي الاستعداد التام لإظهار كل مظهر التكريم ولتوفير وحيسا يكون في مجلسه يهرون مراوح ريش النعام فوق رأسه واد، حرج للصيد بطلونه بشخصية وأربع مراوح كبيرة من الريش مبعدة بالجوح الأحمر وتشر أمامه سجادة يتبدلها العلماء. ومن مظهر تكريمه أنه إذا جمع جواده وألقى به أرضا يفتي الجميع بأنفسهم من على ظهور حيادهم على الأرض. وإذا جلس في ديوانه للحكم لا يكلم الناس مباشرة، إلا من خلال سبعة من الترأجمة - يسموهم حشم الكلام - يصطفون من بين يدي السطان حتى يصل آحرهم لدى أصحاب الدواوى ولعساكر حوله والناس جانبون على ركبهم واضعين أيديهم على التراب يترقب الناس يوم جلوس سلطان في الديوان في نفاشر حيث يأتي النكماكلة (المستشارون) والعقدة (ولاة الأقاليم) والأمراء بمختلف طبقاتهم والقصة وأشرف الناس والعلماء والتجار يجلسون تحت ظلال أشجار السيال الوريقة. ويحرج «حشم الكلام» من خلال سلم من دحل الميت ليجلس على مسبة أعدت له حصيصاً ومن ثم يفتح المحبس قائلاً: «السطان يسلم عليكم يا أهل النفاشر، السلطان يسلم عليك يا قصي، السلطان يسلم عليكم يا علماء»، وهكذا يمضي في حديثه

ووصف التوسي عادة السلطان حين يخرج مرة في كل عام سدر الدور في ممرعته الخاصة وتخرج في معيته الجوّاري احسان تريمهن الحلى ويحملن الأواني المملّأ بأنواع الطعام المالح وممشي حلقه جوفة موسيقية والجوّاري يعين بأصواتهن العدة ومن أطرف بطانة السلطان التي وصفها التوسي جماعة من المهرجين يطلق عليهم اسم الموحّيه يلبسون لباساً خاصاً أقرب لري المهرج التقليدي ويعتَمرون عصابة تحدث ريباً موسيقياً وهم لا يتخرجون من الحديث أمام السلطان. ويتحدثون ما شاء لهم أحاديث موحية تلفت نظر السلطان لما يسعى أن يعرفه عن حاصته وكبار المسؤولين في دولته وما يجري فيها.. وأحياناً يتولون قبل من يرعب السلطان في إعدامه. يمشون ويرقصون ويقلدون سباح الكلاب وأحياناً مواء لقطط وحين يركب السلطان في حالة لسر أو الصيد يكمون عن انشاء ولكن يصدرون صبيحة عظيمة في وقت واحد بقولهم «يا» وهكذا يفعلون ما دام السلطان راكباً.

وكتب ابنونسي عن امرأة في دارفور ومكانها وسطوتها ومشاركها للرجل في العمل والحياة الاجتماعية والبحريات التي تتمتع بها وأشار إلى مجموعة من النساء المسبات يكون طائفة عظيمة لهن رئيسة تسمى «ملكة الحبوب» يشاركن بطفوس معينة في تهييب السلطان

وكان من أعرب الظواهر التي تعرّض لها التوسي في مؤلفه معرفة بعض الناس بالسحر واستخدامهم لدجى وروى تعارب داية في غايه العراة وقد قرأت قبل سنوات كيف أن هذه الظواهر التي أوردتها التوسي في مؤلفه الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية منذ منتصف القرن السابع عشر أثارت اهتماماً بالعالما لدى الأوساط العلمية في باريس.. الأمر الذي دفع بمجموعة من الطلاب الجامعيين وبعض أساتذتهم لزيارة تلك المنطقة لتقصي تلك الظواهر بعد أكثر من مائة عام من صدور الكتاب

حين أقام محمد بن عمر النوسي في دارفور كان يتولى العرش السلطان محمد الفصل الذي حلف أباه لسلطان عبدالرحمن الرشيد وكان لا يزال حدثاً صغير السن فاستأذنه النوسي للسفر إلى توس وسافر عن طريق ودي التي إصطر للإقامة فيها حوالي ثمانية عشر شهراً ولما وصل إلى توس في عام 1813 لم يقم طويلاً وتوجه إلى القاهرة حيث التحق بخدمة الجيش المصري في وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التي شاركت في حرب المورة في عام 1827 ولما عاد منها اشتغل النوسي بمرجمة الترجمة العربية بكتب الطب التي كانت تدرس في كلية البيطرة بأبوزعبل وهناك التقى بالدكتور بيرون الفرنسي الذي أخذ يتلقى عنه دروساً في اللغة العربية، ولما علم الدكتور بيرون برحلته إلى بلاد السودان شجعه على كتابة مذكراته، وقد كان ولما تم تعيين بيرون مديراً بمدرسة الطب بالقصر العيني عام 1839 أوصى بتعيين لنوسي كبيراً للمراجعين فيها فأتاحت له هذه الوظيفة فرصة الإسهام في خدمة اللغة العربية في عصر الترجمة بمصر في منتصف القرن التاسع عشر، فإنه فضلاً عما قام به من تصحيح الكتب المترجمة إلى العربية، أو الموصوغة في العلوم الحديثة ساعد على استخدام كثير من المصطلحات العلمية المتعلقة بعلوم الطب والبيات والحيوان

ومن مؤلفاته في هذا الشأن «اشدور الذهبية في المصطلحات الطبية»، وقام بمراجعة وتحرير «الدر اللامع في البيات وما فيه من الخواص والمنافع» و«كنوز الصحة وبواقيت الصحة» و«مروسة السجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى»، و«الدرر العوالي في معالجة أمراض الأطفال»

وللنوسي فصل في مراجعة بعض المؤلفات العربية القديمة التي صنعت في مصر على عهد منها «مقامات الحريري» و«المستطرف» للأشبيهي، ثم أنه أشرف على طبع «القاموس المحيط» لميرور أنادي ودأب في أحرف أيامه على إلقاء دروس في الحديث بمسجد السيدة رباب في يوم الجمعة من كل أسبوع

حتى توفيه الله في القاهرة عام 1857 وهو في السبعين

وكان الأصل المعتمد لكتابة «تشديد لأدهان بسيرة بلاد العرب والسودان» هو السبعة المصنوعة بالحجر التي كتبها لمستشرق بيرون بحظ يده وشرها في باريس عام 1850 ولليونسي كتب آخر حول رحلته إلى ودّاي قام بيرون أيضاً بترجمته إلى العربية وشره في عام 1851، إلا أن النص العربي ظل مفقوداً حتى الآن ولا يعرف أحد منه شيئاً.



محكمة السلطان تحت ظلال الأشجار

نعوم شقير.. كما رآه أبو سليم



د. أبو سليم

هل كتاب «تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته» لمؤلفه ليسانس نعوم شقير رغم مرور الزمن وتقديراته والمعتبرات التي حُرِّت على أساليب البحث وتقدم الدراسات السودانية، مرجعاً راسحاً ومهماً تتداوله أيدي الباحثين والمهتمين . وذلك بمرارة معلوماته وشموليته وتناوله لتاريخ السودان منذ أقدم العصور حتى نهاية القرن التاسع عشر . كان للمصدفة دورها في توجُّه ذلك الرجل لكتابة التاريخ حيث توفرت لديه معلومات سياسية واقتصادية وجغرافية تمَّ جمعها كتقرير لخدمة المخابرات في سعيها للتصهيد لغزو اندونة المهدية التي انتصرت على اقوى الأجبية وأقامت كيانها الوطني . كان ذلك الأمر متراباً مع صدور عدد من الكتب التي جرى تأليفها على عجل من أجل لدعاية وتبرير العرو . كتبها رجاء مونتورون تملكتهن مشاعر الحقد ولصعوبة متجاوزا الموضوعية في جميع الذي تناولوه . أمثال سلاطين المساوي وأهروفلدر الألماني وريجانا ونجت البريطاني وكان نعوم أحد موظفي المحابر ت لم يكن مؤرخاً إلا أن وفرة

المعلومات دفعته لأن يكون كذلك. وما أنه شرع في لكتانة عقب سقوط أم درمان وروال العدو بانت كتاباته أقل مرارة واستفاد من كل ما تم جمعه من مادة عن تاريخ السودان قديمه وحديثه واستعان بإهدات من ألحع الشخصيات السودانية والمصرية التي كان لها دور مباشر في الأحداث أمثال الرئيس رحمة باشا، ولأمير عثمان دقة، وعبد القادر حلمي باشا أحد أهم العسكريين المصريين والذي عمل حكامه، للسودان بيان الدلائل اثورة المهدية

ولد نعيم شقير بالشويعات في لبنان عام 1864 وتخرج في الكلية الإنجليزية السورية عام 1883 والتي خربت فيما بعد بالجامعة الأمريكية ببيروت. وقد تخرج فيها للمصادفة في أوقات لاحقة المخرج السوداني اللامع مكّي شيبكة والرئيس إسماعيل الأدهري وغيرهم من شخصيات سودانية كان لها دور بارز في الحياة السودانية في القرن العشرين هاجر نعيم بعد تخرجه إلى مصر شأن جماعات أخرى من لشوام عارضوا الحكم العثماني فوجدوا مستقراً في أرض السكنة

وبعد وصوله إلى مصر بقليل التحق نعيم بخدمة الجيش الإنجليزي في 20 سبتمبر 1884، في الوقت الذي كانت تنهياً فيه الحملة البريطانية لإنقاذ كردون بالتحرك نحو الخرطوم التي حاصرها ثوار المهدية. أحفقت الحملة في مساعيها حيث وصلت بعد أيام ثلاثة من سقوط المدينة هددت أوضاعها حيث تمت نصفيها ليحل مكانها جيش لحدود الذي إتخذ من أسوان مقراً لقيادته وقد أسست قيادة هذا الجيش لجنرال جرانتفيل وكانت مهمته حماية حدود مصر الجنوبية. ريثما تكتمل الأسباب للوفوف على السودان

بدأ نجم نعيم في الصعود منذ التحاقه بمحاربات الجيش بقيادة «ويجت» وبات يصاحب السردار جرانتفيل في معظم رحلاته التعبدية لمناطق الحدود وللمدينة سوكن ولما تولى ويجت قيادة الحملة على طوكر في فبراير 1891 رافقه نعيم

أصوات

وشاكره الإهتمام بالوثائق التي تَمَّ العثور عليها في معسكر الأنصار في عفايت بعد الواقعة كما اشترك بعوم في الإبعاد لهروب سلاطين من أم درمان الأمر لدي شكك بانتصار بدهراً لإدارة للمخابرات فأنعم عليه برتبة المكوبة التي لا يحصل عليها موظف إلا بإجاز كبير

وحصر بعوم سلسلة المعارك التي حاصها جيش الاحتلال منذ تحركه في عام 1896 نحو أم درمان حتى معركة كرري التي وقعت في الثاني من سبتمبر عام 1898 ولني يورد بعض مشاهداته الخاصة منها وأحد يتردد على السودان في عدد من السرات حيث أصبح رئيساً لقسم التاريخ بإدارة للمخابرات التي بقيت رأسنها في القاهرة.

وبعد سقوط أم درمان شرع ونجت بعوم في جمع وثائق المهدي، مثلما فعلا خلال المعارك التي سبقت ذلك وقد تزايد إهتمام ونجت بعد أن بلغه اهتمام حاتم الإمام المهدي من محفوظاته فخرج يرافقه بعوم لوضع الوثائق تحت لحراسة بعد جمعها من منازل مدثر إبراهيم الحجار، وأبو القاسم هاشم، والأمير يعقوب - شقيق الخليفة - وبيت الأمانة. وتم حمله بمسرل الأمير يعقوب لدي تحول إلى قوسدانبة، حيث عشت في ركائب ووصعت داخل أحراج الصنع ومن ثم نقلت إلى إدارة الحربية بالقاهرة.

اعتمد بعوم في مؤلفه عن تاريخ السودان على مرجع قديمة عربية وأجنبية كالموسوعة البريطانية والتوراة ونواريح هيرودوتس وديودور الصقلي واسترabo ويوسيفوس والمسيحي و ابن الأثير وابن خلدون وابن اياس والمقريبي وأبو لعداء وغيرهم كما اعتمد على مصادر سودانية كمخطوطي إبراهيم عبدالدافع، والبربر ود صوه، وفر مؤسسي إسماعيل عبدالقادر الكردفاني «سعادة المستهدي بسيرة الإمام لمهدي» و«الفرار المتقوس بشرى قتل يوحنا ملك الحبش»،

واطلع على دفتر وفائع عثمان دقة إلا أن لبروفيسور محمد إبراهيم سليم يرى أن معرفته بمطبوعات المهديه كانت ضعيفة، كما أنه لم يشأ أن يستفيد كثيراً من الوثائق التي أتاحت له، حيث إن تركيزه كان على الرواة ففي تناوله لسلطنة دارفور اعتمد على رحلة انتوسي في نصها العرسي وعنى كتاب «السيف والدار» في السودان» لمولفه سلاطين وأحد من رواة آخرين منهم على رد «الخبر» ومحمد الطيب التبيكتي الملاوي وفي كتابته عن تاريخ المهديه اعتمد على ثلاثة أنواع من المصادر والمرجع فنقد توغرت له مؤلفات تكلمت عن المهديه مثل كتاب «مهدية والسودان المصري» بريجمالد وبحث، و«عشر سنوات في الأسر» لأهروغلدر، و«السيف والدار» و«تاريخ الحملة السيلية» للكونولوبس كولفل، و«تاريخ الحملة السودانية» لجبرائيل حداد، و«تاريخ عصر الحديث» لجورجي ريدان

ويذكر عموم بعضاً من الرواة الذين أخذ منهم من أمراء المهديه وأعيان السودان والصلباط والعساكر والأعيان مصريين الذين كانوا بالسودان وهم: عبدالقادر حلمي باشا، ومحمد نصحي باشا، وحشم الموس باشا، ومحمد بك السيد الشايقي، وعثمان بك لطيف، واليكباشي أحمد أهدي الملاوي، ولأستاذ محمد شريف نور الدائم، والمضوي عبدالرحمن، ومحمد حداد (شيخ قبيلة «الحمر»)، وإسماعيل الأرهري (القاضي وجل السيد أحمد الأرهري)، ولاحظ أبو سليم أن جميع هؤلاء الرواة كانوا من المعارضين للمهدية، الأمر الذي ضعف صوت المهديه عند عموم، وذلك رغم الأهمية القصوى لرواية الأشخاص ذوي الشأن والارتباط المباشر بالأحداث.

وقد أشار أبو سليم في مقالته لواردة في مؤلفه «أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان» إلى أخطاء فادحة وقع فيها عموم فيما يتعلق بتاريخ السودان وحدد تلك الأخطاء التي أوردتها بالتفصيل وقام بتصويبها ورأي أن عموماً لم يكن مؤرخاً

لَمْ تَلْبَثْ لِأَحْدَاثٍ أَنْ تَلَاَحَقَتْ فِي تِلْكَ اْمَعْتَرَةِ نَفْسَهَا حَيْثُ أَعْلَى اْمَهْدِي ثَوْرَتَهُ فِي اَلْجَزِيرَةِ أَبَّ وَهَرَمَ أَوَّلَ حِمَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ لِحُكُومَةِ وَعِدَاةٍ اِنْتَصَرَهُ عِبْرَ اْمِهْرِ مَتَوَجَّهًا غَرْبَ يَصْحَبُهُ بَصْعَ عَشْرَاتٍ مِّنَ اْلنَّاسِ وَفِي حِلَالِ عَامَيْنِ وَعَقِبَ اِنْتَصَارَتِ اَسْطُورِيَّةٌ عَلَى قُرَاطِ اَلْحُكُومَةِ اِشَى بِجَيْشٍ لِحَبِّ بَحْوِ اَلْحَرْطُومِ بِحَتْلَفِ اَلْمُؤَرَّحُونَ حَوْلَ عَدِيدِهِ . لَا أَنْ يَوْسُفَ مِيحَائِيلَ اِسْتِطَاعَ أَنْ يَجْسُدَ صَوْرَةَ حَيَّةٍ يَصْخَاةٌ دَلَّتِ اَلْجَيْشَ بِسِرِّهِ اَلشَّيْخَ بِاَلْأَحْدَاثِ اَلْيَوْمِيَّةِ لِنَحْرِكِهِ فَاسْرَابَ اَلغُرْلَانِ وَالدَّحَاجِ اَلْبَرِّيِّ لَا يَجِدُ سَبِيلًا لِلْفِرَارِ فَأَيُّمَا تَنَجَّهَ تَسْقُطُ تَحْتَ اَلْأَعْدَامِ فَتَحْطَفُهَا اَلْأَيْدِي وَتَسَارِعُ إِلَى دَبْحِهَا وَاَلْأَسْوَاقُ تَقْدِمُ كَلِمًا أَوْقَفَ اَلْجَيْشَ تَقْدُمُهُ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِّنَ الصُّورِ اَلتَّعْصِيْمِيَّةِ اَلنَّادِرَةِ .

تَعُولُ يَوْسُفَ مِيحَائِيلَ مِّنَ مَسِيحِي قِبْطِي إِلَى اَنْصَارِي مَشْخَمَسٍ وَأَيْدَى رُوحًا رَعَامِيَّةً أَهْلَتَهُ لِأَنْ يَالَ رِصَا اَلْحَلِيمَةِ وَيَصْبِحَ مَقْدَمًا عَلَى أَمْرِهِ اَلْأَقْبَاطِ وَمَسْؤُولًا فِي دِيَوَانِ اَلْأَمِيرِ بِمَقْرُوبٍ . هَذَا اَلْمَوْقِعُ أَتَّاحَ لَهُ فُرْصَةُ اَلتَّعَرُّفِ عَلَى اَلْأَحْدَاثِ وَمَحَرِّبَاتِهَا فَكَتَبَ عَلَيْهَا كَمَا رَأَاهَا وَفَهَّمَهَا مَوْلَاهُ مَا كَانَ يَتَسَمَّى بِأَنْ نَعْرِفَ اَلشَّيْءَ اَلكَثِيرَ عَنِ اَلْوَعْدِ اَلْأَثْيُوبِيِّ اَلْأَوَّلِ لَدِي زَارَ اُمَّ دَرْمَانَ لِلْإِعْرَابِ عَنِ اَلصَّدَاقَةِ وَصَوْنَ حَقُوقِ اَلْجَوَارِ فَاهْتَمَّ اَلْحَلِيمَةُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِاِسْتِقْبَالِهِمْ وَمُرَافَقَتِهِمْ فِي اَلطَّرِيقِ حَتَّى وَصَوْهُمْ إِلَى أُمِّ دَرْمَانَ حَيْثُ أُنْزِلُوهُمْ فِي دَارٍ لِلصَّيَافَةِ وَبَنَتْ أُمِّ بَيْتِ اَلْمَالِ اِبْرَاهِيمَ رِمَاصًا مَسْؤُولًا عَنِ اِكْرَامِهِمْ وَتَوْعِيرِ أَسْبَابِ اَلرَّاحَةِ لَهُمْ وَكَانَ اَلْوَصْفُ قَدْ اِشْتَمَلَ حَتَّى عَلَى أَنْوَاعِ اَلطَّعَامِ وَاَلشَّرَابِ وَاَلسَّلُوكِ اَلَّذِي أَبْذَوْهُ أَمَامَ اَلْحَلِيمَةِ

لَا تَحْلُو كِتَابَةُ يَوْسُفَ مِيحَائِيلَ مِّنَ سَحَرِيَّةٍ وَخَاصَّةً عِنْدَمَا بَدَأَتْ قُرَاطُ اَلْإِحْتِلَالِ فِي اَلدَّحْوَى إِلَى اَلْبِلَادِ وَحِطِّ اَلسَّكَةِ اَلْحَدِيدِ بِتَقْدُمِهَا . وَلَكِنَّ اَلْمُتَبَرِّعَ لِنَدَاهُشَةِ أَنَّهُ بَعْدَ نِهَازَةِ اَلدَّوْلَةِ اَلْمَهْدِيَّةِ تَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ وَقَبِلَ كِبَارَ أَصَافِقَةِ اَلْكَنِيسَةِ اَلْقِبْطِيَّةِ وَمَسْؤُولِيْنَ مِصْرِيِّينَ وَدَايَعَ حِينَ اِنْتَهَى اَلْحَالُ عَنِ اَلْحَلِيمَةِ عِبْدَ اَللَّهِ وَلَمْ يَقْبَلْ نِيَّ اِنْتِقَادَاتِ وَجْهَتِ إِلَيْهِ . وَمِنْ ثَمَّ عَادَ إِلَى اَلسُّودَانِ .

متخصصاً بحكم التأهيل الدراسي وإنما إنتاجه لكثافة التاريخ بالهواية واعراء لمعلومات التي بوقرت لديه وقد فهم التاريخ في إطاره العام من حيث تسجيل لشباط البشري واعصره قارئاً جيداً يحسن عرض ما تتوفر لديه من معلومات ومتمرساً في الكتابة يورد ما يصل إليه من معلومات بأمانة ودقة ولا يحكر لأي منصب أن يحفظه حقه في الجدارة ولا أن يتجاوز مساهماته في كتابة التاريخ ولاحظ أنه يميل إلى التاريخ السياسي العام ولا يحمل بالشاهد لاقتصادي والرواعي والعكري والعمراني، ولا يمر حلال ذلك إلا عابراً وفي إطار التاريخ لعام. ومن بين ملاحظات أبوسليم أن عموماً لا يكاد يدرك المصنوع الإسلامي في قيام سلطسي الفوج والهور ولا تأثير العرب بدعتهم ونفوذهم الاجتماعي ولا يدرك أثر التجارة على السلطتين وعلاقاتهما الاجتماعية وكان كل ما يعنيه فيما يكتب هو وصف الحوادث في حدود ما وقف عليه في سياق سردي دون لبحث عن الأبعاد الاجتماعية والسياسية التي تقف وراء الحوادث

وفيما يتعلق بتاريخ نهديه لم يستطع نعوم السفاد إلى حوهر حقيقتها بل اعتبرها - بكل بساطة - خروجاً عن الطريق القويم وأن يحتاجها ما كان ليتحقق لولا لإحقاق في إتخاذ الإجراءات السليمة ونظر إلى الأمور نظرة في عدية السطحية فم يسترع إتباهه إحراط مثات الآلاف في الدعوة ويستعد دهم الحرابي للتصحية والإستشهاد. ولم يفهم نعوم النعمق الديني للثورة ولا الأبعاد السياسية والاجتماعية للأحداث وربما يكون لإعتقاده الديني بإعتباره مسيحياً دور في صباية الرؤية لديه ذلك بالإضافة إلى أنه عمل مع لأوساط لبريطانية العاجرة بحكم موقعها السياسي والديني عن الرؤية الموضوعية بصبغة الثورة

كتب نعوم عدة مؤلفات تناولت موضوعات محلقة كالتاريخ والجغرافيا بمعنيهما لطبيعي ولبشري الشامل واللغات واللهجات والأمثال والعادات والحرفات والاعتقادات والصناعات والحرف. وهو يتجه في كل ذلك إلى

التعريف الشامس متتبعا كل التفاصيل المتاحة له مع توحى الموضوعية والإبتعاد عن التأثير العاطفي أو الإلتجاء الحاصل في جغرافية السودان وهو جزء من مؤلفه الشامل- تناول نعوم حدود السودان السياسية والمعالم الجغرافية والطبيعية كاليل وروافده، والأراضي، والمعادن، والطقس، وحالاته، والأمراض، والنباتات، والحيوانات وتناول سكان السودان أصولهم ومواطنهم ثم مديرياته ومحافظته واللغات ولأديان والمعارف والحرف وفي حديثه عن الإسلام قدم بيانات طيبة عنه وعن قواعده وأركانه ومداهبه وطوائفه ونظمه السياسية

ويقول نعوم إنه فرع من تأليف هذا الكتاب في يوم 27 أكتوبر عام 1903 «بعد إحتبار نحو عشرين سنة في السودان وأهله وقصاء جل ساعات المراح الثمينة خلال سبع سنوات متتالية في جمع مواد وتمحيص حقائقه وسنة ونصف السنة في تبييضه وطبعه».

ومن مؤلفاته المهمة والمعروفة كتابه «أمثال العوام في مصر والسودان ولشام»، الذي أشار فيه إلى أنه بصدد طبع كتاب بعنوان «مرآة الأيام في مصر والسودان وإنشام» ويبدو أنه لم يوفق في طبعه، ولديه أيضاً «في تاريخ سياء وجغرافيتها» الذي طبع مرة واحدة عام 1916، وتوحد من كتاب الأمثال نسخة واحدة بمكتبة «متحasi الماسحي بجامعة الخرطوم. أما كتابه عن تاريخ السودان- وهو أشهر مؤلفاته وأكثرها أهمية- فقد طبع مرة واحدة أثناء حياته، ثم أصدرت «دار الثقافة» البيرونية طبعة ثانية في عام 1967، ثم طبعة مصورة في عام 1973، وأصدرت «دار الجيل» البيرونية طبعة محققة في عام 1981

مؤرخاً بمحض الصدفة

يوسف ميخائيل

كانت تلك مساحة مدرة الحدوث . أتاحت لنا فرصة لوقوف على معلومات تاريخية واجتماعية مهمة . ولولاها لذهبت أدراج الرياح يوسف ميخائيل المصطي السوداني الذي ولد وحاش بمدينة الأبيض قسراً له أن يشهد فترة عاصفة من التاريخ السوداني امتدت من أحريات العهد التركي لتشمل انثورة المهدي وبهايتها بسقوط دولتها وعلى الرغم من أنه كان شاهداً ومشاركاً في أحداث تلك الفترة إلا أنه لم يشكر قط في أن يؤرخ لها . وفي أحريات حياته أدار هو وأخوه إسحاق مطبعة للحبوب بالأبيض . ودأب إدري بريصاني شاب على زيارتهم في المطبعة يلتقي يوسف الذي وصفه بأنه كان نحيلاً واهن البدن وأبيض الشعر . ليحدثه عن تاريخ المدينة قبيل الاحتلال البريطاني

وفي ذات مساء من حريف عام 1924 كان المستر أقليس نائب معتش المركز عائداً من مهمة حارح المدينة لدلف إلى مكتب لبلاغات وحراسات الشرطة ليعاجبا بوجود صديقه يوسف ميخائيل وروجه فيكتوريا معتقدين في الحراسة بتهمة صاعة «العرقى» . حيث كانت القوانين مشددة فيما يتعلق بالمحمور البلدية . يعي أنهما كانا صحتين لعمدية «كشنة» حسب التعبير المتداول في أيامنا هذه . كان دفاع السيدة فيكتوريا واهياً حيث رجعت أن «العرقى» دواء نافع للأرمة (الربو) الذي يعاني منها زوجها . بدا كانت تصفه ورعاً وساعة الجدية انضوية والشوم المسيحيين الموجودين بالمدينة إلا أن لحكم قد صدر بإدانتهم . هي بالسجن مع وقف التنفيذ، وهو بقضاء شهر كامل في لحبس أشفق المستر أقليس على صديقه يوسف ميخائيل وحشي على صحته الواهية من أعباء السجن فقرّر استبد لها بقم رصاص

وعدد من الدفاتر يحكي قصة حياته الغنية بالأحداث وقد فعل . ليصبح مؤرخاً لمدة ثلاثين يوماً وليقدم أفضل خدمة لبلاده.

كان يوسف ميخائيل ملماً بالقراءة والكتابة على حد معقول ويبدو أيضاً أنه كان قد تفرغ على قراءة الكتب المتاحة لأمثاله في ذلك الوقت كـ «ألف ليلة وليلة» و«أبورهد الهلالي» و«الأميرة ذات الهمّة». يتضح ذلك من أسلوبه والعبارة التي كان يقحمها أثناء عملية السرد وجمعت لعتة بين الفصحى وعامية أهل كردفان بجملاتها وشفافيتها وقصر عباراتها ومخارج ألفاظها العذبة (أشد ما أحشاه أدبارها بدداً).

وكأي كاتب محترف ربط يوسف ميخائيل بين الأحداث اليومية وتفاصيل حياته وحياة أسرته والأحداث الكبرى أو التحولات التي شكلت مستقبل السودان السياسي في أوقات لاحقة وتذكرني أوراق يوسف ميخائيل هذه برواية صدرت أخيراً للكاتب الإسباني أنطونيو غالا دالمحفوظ لقرمري، التي تناولت فترة انهيار وسقوط خريطة مع التحفظ على الأسس القومية لأوجه المفارقة

كانت مدينة الأبيض قد إستوت بحدراً هامراً واسع الأطراف لما نبأه من مكانة تجارية وإنسانية. وكانت مصدراً أساسياً بعمليات تصدير المحاصيل من حبوب وصمغ ورش نعم حتى مدحج محبوبها من العربان القاطنين من حولها بقومهم «الأبيض أب قبة فعل اليوم». كان ذلك حين تمتع وعي يوسف ميخائيل فني على أبواب التحرخ من كتاب الأقباط بالمدينة وأحد في التدريب على الأعمال الكتابية ليحتل وظيفة في ديوان المديرية وياتتبعه حين رار الجنرال تشدري جوردون المدينة في إطار مهمته الأولى (1877 - 1879)، فوصفها في مخطوطه وصفاً بديعاً في إطار رؤيته الخاصة المحتملة عما جاء في كتابات المؤرخين. ووصف ترح المدينة لإستقبال المسؤول البريطاني وتمردهم على عريف الكتاب المصري لدى حاول معهم من الخروج لمشاهدة لإحتفال فأمسكوا به وأوسعوه حلقة ساحة، وتعرض

أصوات

الكاتب إلى ما رافق الزيارة من مظاهر ذات مدلول عميق حين وصف تدافع العربات
الرازحين تحت مير الظلم وفداحة الصراخ لكتابة العرائض وشيوخهم الذين أقاموا
الاحتجاج في فناء المديرية لمقابلة المسؤول الرائر

وتناوبه لبعض الأمور التي تبدو هامشية أتاح لها فرصة التعرف على بعض منابر
الحياة الاجتماعية، فأحوه جورجيس الموظف الحكومي المرموق بع هجياً جميلاً
للسلطات لإرساله إلى عردون الذي عاد إلى لحرطوم وكان الهجين بمثابة السيرة
في ذلك الزمن، فتعت به فتبات المدينة انمرحات

كبير جورجيس أبو عردة

محملي الصراف شرفه

خمين مرثال دهره في المظلوم

هذا الهجين إستخدامه عردون في رحلاته بجوب لبلاد طولاً وعرضاً وفي نهاية
الأمر تم تحت التمثال المعروف للرجل راكباً فوق ذات الهجين كما أكد يوسف
مبحائيل لم بعض بضعة أشهر على ذلك حتى رار الشيخ محمد أحمد والإمام
المهدي الأبيص وأقام لفترة في إصدار اتصالاته بواسطة برصاء الفضائل والمشايخ
ورجال الطرق الصوفية وممارسة نشاطه التصوي الذي كان له أبلغ تأثير في تحرير
الدعوة وترسيخ دعائمها تمهيداً لإعلان الثورة

استمع يوسف مبحائيل كعتي حرير لم يشتد عوده إلى ما تنقله الألسن عن
درويش شاب بهي الطلعة وسيم المحيا وعدب الحديث وصل إلى المدينة يصحبه
عدد من تلاميذه يقيمون الليل بالأدكار ويطوفون أحياناً يرددون قولهم «الدايم هو
الدايم الله». ثم يعودون إلى حيث يقيمون في دار السيد الحكي أو لدى آل سوار
الذهب

أصوات

أمهاتنا اللاتي نقلنه عن مصادره الحقيقية جداتنا شهود العيان ومارلت أذكر أن المؤلم من تلك الأحداث كان يملؤنا رعباً وأسى في تلك الأماسي البعيدة. ومما يدفعني لأن أكتب لأن عن تلك لحكاية هو إحساس عميق بالتقصير هل يلازمني فترة طويلة من الزمن . ذلك أن مثل ذلك الحدث كان سيعيب عن ذاكرة التاريخ إلى الأبد إن لم يكن هذا التناول ألم يقل المؤرخ الدكتور محمد سعيد القدال، «إن تاريخ السودان لا يزال في صدور الرجال»

قرأت ما كتبه شيخ المؤرخين الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم حين تناول سيرة الكردفاني وتحدث عن نهيته في كلمات قليلة جاءت بهذه الصورة «ويقال إن مرفعيناً اختطفوه وهو ملقى على عنقريه لا يستطيع حراكاً من الجوع وبكن أقرباه يعمون هد الوجه من نهيته»!! وبني لأعجب لنفى عائلته لتلك الحادثة لأن أمير أبو فرجة الذي تلقته العناية الأنهية وخرج من هذا المنفى بعد سقوط لدولة المهديّة كان أمامه طريقان للعودة إلى أم درمان، إما طريق ساحل شرق أفريقيا حتى السويس أو اتوجه غرباً من خلال أوعدا وكونغو وأفريقيا الوسطى ووداي «تشاد» ومن ثمّ الولوج إلى دارفور فالتوجه إلى أم درمان، فاختار الطريق الثاني إلا أن السلطان علي دينار احتجبه حتى عام 1907. وعندما انطلقت قافلته لصغيرة في ذلك الحين شرقاً دلف إلى الأبيض حاضرة كردفان - قبل أن يواصل رحلته - وحلّ ضيفاً على السيد المكي الشيخ إسماعيل الولي.. وهو خاب إسماعيل الكردفاني ولا بد أن يكون قد روي له النهاية المأساة لابن أخته.

تلقى إسماعيل الكردفاني - المولود بالأبيض عام 1844 - المراحل الأولى من تعليمه في حلوة جده الشيخ إسماعيل الولي ثمّ اصطحبه حاله أحمد الأهرري إلى مصر حيث مكث هناك سنوات بلع خلالها شأن ربيعاً في السجاية والدكاه وبرع في الأدب العربي ونظم الشعر وحظي بمقام رفيع إلى جانب علماء الأهرر وبعد أن أكمل دراسته عاد إلى بلاده في صحة قافلة تجارية ولقي ترحيباً في



شردون علی ظہر سجدین جورجیوس (التمثال)

مأساة مؤرخ.. اقترسته الذئاب

إسماعيل الكردفاني

تقع تلت الجريرة محاذية لجبل الرجاف لبركاني في المسافة لاستوائية بحبوب السودان. فكانت كأنما أبقاها الزمن مودجاً للحليقة الأولى تمنح بحياة أسبورية وكائنات وسائط عريضة وأدعال يتمدر احتراقها هائلت ماسيح ترحم شطآنها لا تترك موضعاً يقدم. تهاجم كل من يقترب منها وتسعى أحياناً لعرائسها من الشر في مراقدهم.. ودنابها تعوي في رالعة النهار وأعراس الشهر توتع بلا توجس أو وجل تتفاهر صعدرها من حولها. وجموع الحبل تشكل سحببات داكسة لا تلبث أن تتبدد لتتجمع من جديد. ولبعوض يمزج ليلاً ونهاراً بشرداء الملاريا القاتل وانهيات تطلق صيحها من بين أعصان الأشجار والمهود تتربص للإفصاح بين حين وآخر. والسلاحف لعملاقة تتراكم في تكسل في الأجسام والمطر يسهم بلا انقطاع ليرعد المستنقعات بعريد من المياه والرطوبة تتمدد وتحلل المعظم فتريد من أوجاعها والظلمة تدف لمكان الحرافي التكوين

في هذه البقعة التي تصاعف الرعب فيها لهزات الأرضية بفعل لبركان في جبل الرجاف إختار الحليقة عبد الله انصلي الذي أودع فيه عدداً كبيراً من معارضيه السياسيين ضد انعجار الخلاف بينه وبين لأشراف، ذلك عبر التصفيات الدموية التي راح صحتها عدد كبير منهم.

هذا ما تواتر عن روايات سماعية جسدت صورة الجريرة في أحرقيات الفرد التاسع عشر، إلا أن المؤرخ محمد عبد الرحيم الذي عمل موطعاً في مناطق

أشخاص

لجسوت في سواك الثلاثين رأى الحرية من بعد توصفها في محطوطاته بعبارة مقتضية قال فيها نبدو كحديقة ملتفة الأشجار

لثم يكن يحضر مال المؤرخ إسماعيل عبدالقادر الكردفاني أن تكون أيامه الأخيرة وبهيمته الأساسية في تلك الجزيرة النائية العارفة في رعب الطبيعة لبكر وهو لشاعر والكاتب الذي أنفق زهرة شبابه في تحصيل العلم بفاهرة ليمر- أيام عراها ونوحها في عهد النعديوي إسماعيل- فشهدت أمجاده العلمية ونهوقه في لدراسة. كان إسماعيل ضحية للمكيد والدساتين التي جعلت بها الأيام نني بطش فيها الحليفة بالأشراف فتم اغتياله معاً إلى لجسوت ومعه عدد من الأسرى في مقدمتهم الأمير محمد خالد رقل تحت حراسة قوة بقيادة الأمير عربي دفع الله. الذي وضعه المؤرخون بالشراسة والوحشية. وكانت المهمة الأساسية لعربي هي اعتقال الأمير محمد عثمان أبوقرجة الذي كان يمارس مهامه عاملاً للمهدية في المناطق الاستوائية، مد استدراجه بها بتعيينه في مارس 1893.

في أواخر عام 1893 أقيمت أكواخ صغيرة على جبل من أخضاد الأشجار والحشائش في طرف الجزيرة وأدخل فيها الأسرى مكبلين بالقيود، كان أبرزهم لأميران أبوقرجة ورقل والشيمعان إسماعيل شجر البحيري وإسماعيل عبدالقادر الكردفاني

وفي مساء يوم حزين - بعد ثلاث سنوات من انبوهل- رحف الأسرى كمعادنهم نحو كوخ الأمير أبوقرجة- حيث كانوا قد فقدوا القدرة على المشي لنقل القيود- وتحلقوا حوله بعد أن أوعدوا بأراً لطرد الباموس وطلب للدهاء كان أبوقرجة يحفف عنهم ويبت الأمل في نفوسهم التي أمصها العداء وأرهقها المنفى والعربة لموحشة والإحساس بالظلم المادح

تناول الأسرى ما تيسر لهم من طعام وقفلوا عائدين رجلاً إلى أكواحهم قبل أن تحول دونها قصعان الذئاب، إلا أن الكردوسي الذي حلّ متجسّداً لأحزان كثير المحبين إلى أهله تأخر قليلاً يتجادب الحديث مع الأمير أبو فرجة ويبثه شوقه لعائلكه معرباً عن يأس مطلق وإحساس مرير بحياة لأمل أحد أبو فرجة يواسيه ويدعوه للتمسك بالصبر والاعتماد على الله وحده ولكن لأسير التعيس كان متهيئاً ذلك المساء مستسلماً ليأس بعالم الدموع والعبيرات رحف نحو كوحه ببطء يلتفت بين الحين والآخر يترود بأصداء الكلمات المشجعة أحنماً تعود يا إسماعيل إلى بلدك وأولادك بعد هذه لحالة، إلا أن القدر كان يحببه به مصيراً آخر حيث ترى به ذليان غير بعيدين عن كوحه فأسرع راحقاً إلا أنها تكاثرت وأحاطت به وأحد يتناول ما يصادفه في الأرض من أعصاب جافة يحاول رده حتى بلغ كوحه بعد مشقة فافتحمت عليه وأشبست أطرافها في جسده لسحب مواجه الموقف بشجاعة ولبات، وأخذ يردد الشهادتين بأعلى صوته ويلعن جلاديه متوعداً بهم بيوم الحساب. تنبه رفاقه في الأسر لمحنه ممد أن بدأت اندثاب في مساوئته وسط الأكواح وجميعهم مكبون بأصداد يهزون تحت ثقلها فأحد بعصم يشيح بالبكاء تعرقاً لبعده وأحزون يصيحون لذي مروءة ولكن لا صرخة والحراس جميعهم كانوا يقصون الليل بخارج جزيرة المضي شق الأمر على الأمير أبو فرجة وهو طريق «عقريه» مفيداً يسبح من «المككي» فحاول ليهو عن رغم ذلك، وهو اندي ثم يقف على قدميه منذ يوم إعتقاله فانكسرت قوائمه لسرير وعاص في كومة من الحبال والحرق ببالية.

وبما أيقن الجميع أن رفيقهم في الأسريات في بطون الذئاب أخذوا في الكبير والنهليل بأصوات واهنة ورموا أكواحهم ثلاثة أيام ما التفوا حلالها.. حدث ذلك في أوائل عام 1897.

كان ذلك جزءاً من التاريخ الذي تم يجد من يكتبه حتى الآن وهو ما روته ما

والثقافي ومختلفة في أساليب الحياة.

وروى يوسف بدري أن الحياة في الكلية كانت تبدأ بجرس الصباح للهوض والتوجه إلى الحمامات والتمام للتأكد من أن الجميع عسوا أجسادهم بالمياه المذفحة من الدش وحدث خلاف ما تعودوه في مساقفهم الربعية، ثم يتوجهون إلى غرفة الطعام (السفرة) لتناول الشاي ثم أداء الجمار فالحصتين الأولى والثانية وبعدها تناول الفطور واستكمال الحصص الست وفي الصفحة الثانية تورع على كن طالب أربع تمرات وهم وقوف في طيور

أنحفا يوسف بدري بإنهباغاته عن الإصرار الشهير الذي نفذه طلاب الكلية عام 1931 احتجاجاً على قرار الحكومة لقاضي بتحصيص مرتبات الحريجين من ثمانية جنيهات إلى خمسة جنيهات ونصف الجنيه، وكان ذلك بسبب الأزمة الاقتصادية وما رافقها من سياسات نقشفية ارتأتها الحكومة إلا أنه من لواصح أن الأمر كان يطوي على أمر سياسي وأسلوب للتعبير عن إمكانية التمرد على السلطة بعد أن ران على لبلاد من سكون وعيط مكبوت نتيجة القمع والإرهاب، كانت القضية وطنية بلا ريب. «نورد كاتبت بالحديث عن بعض التفاصيل لذلك الحدث المادر، فوصف اجتماع السيد عبدالرحمن المهدي بالطلاب في محاولة لإثباتهم عن الاستمرار في الإصرار حتى لا يجد الإنجليز فيه ذريعة لإغلاق الكلية وحرمان الطلاب من التعليم في هذه المؤسسة احتشد الطلاب البالغ عددهم خمسمائة وخمسين في غرفة الطعام، حيث لم يكن هناك مكان آخر يسعهم ودخل السيد عبدالرحمن مفرداً وجلس على كرسي وضع فوق إحدى المصاعد وأحد يتحدث عن التعليم وضرورته ومحاولة فصله عن الوظيفة. ولم أحس أن الطلاب مصرون على موقفهم أدعى لب تأوه بروح ديمقراطية وأبوية كانت محل تقدير الجميع.

لم يكن عربياً أن يرد اسم السيد عيد الرحمن المهدي في عدد من صفحات

سلطنة دارفور وعلم عدداً من لطلاب، ثم واصل رحلة العودة إلى كردفان حيث أصبح المعتمد بثلث الديار وأقام حلقة تدريس وعقد ندوة الثورة المهدية أثر لإنضمام إليها حيث كان حاله السيد لمكي من أبرز معاصريها ومن ثم إتحدت حياته مسارات أخرى قرب الحليفة عبدالله إليه وأسد إليه وظائف قضائية مهمة، إلا أن المهمة الكبرى التي أوكلت إليه كانت كتابة تاريخ المهدية فأجزها بصورة لا تزال تدهش المؤرخين المعاصرين بدقتها ولغتها العميقة لباحثة، ولا يزال كتابه مساعداً المستهدي بسيرة الإمام المهدي، والطرار المسقوش بشري مفيد يوحى بمدك العيوش، مصدرين أساسيين للباحثين في تاريخ المهدية

ثم بعد وقت طويل عني إنجاز هذا العمل الذي قال رصدا الحليفة حتى سعى الواشون إليه بما أسحطه على الكردفاني فأمر بتمهيد إلى الرحاب واحراق كتبه، وقد بقيت نسخة وحيدة من كتاب السيرة تمكن عموم شقير من شرائها في مصر عام 1895- كم روي، إلا أن ذلك يبدو في إطار نشاط المخابرات البريطانية حيث حصل عليها ريجالد ونجت بعد ذلك ومن ثم وجدت طريقها إلى مكتب الدراسات لشرقية بجامعة درم ولا تزال هناك، وهي التي تم الاعتماد عليها في إصدار الكتاب.

كتب كثيرون عن إسماعيل الكردفاني وعن نشاطه الفكري والأدبي ووجدوا تقديرًا عظيمًا لديهم حتى أن بعضهم وضعه في مصاف مؤرخين كبار الأنبياء وأبي العدا وابن خلدون والمقريزي.

2 أكتوبر 2000م



الأمير أبو قرجة

من البداوة إلى مظاهر المدنية

مذكرات يوسف بدري



تُوجَّع اعتمد يوسف بابكر بدري حياته الحافلة بأفصل ما يمكن أن يقدمه أصرا به من عطاء مذكرته كان لا بدَّ له أن يفعل ذلك فقد كان والده رائداً في هذا المجال حين كتب سيرة حياته عند تجربته في الرصاعة حتَّى أباهم الأخيرة. فأصبح «تاريخ حياتي» أحد أبرز المؤلفات حول الحياة الاجتماعية في السودان. كان الرجل شخصية ديناميكية فاعلة.. جريئاً متعلّماً بما حوله كما كان صريحاً في الحديث عن تجاربه وتجارب الآخرين صراحة ما تعودها السودانيون. وقيل إن مذكراته هذه أزعجت الكثيرين رغم تعرضها للحذف في مواضع كثيرة. بابكر بدري وُلد في العهد التركي وحين اندلعت الثورة المهدية كان شاباً في العشرين. رأى الإمام المهدي قبل الدعوة في ردة، الأمر الذي ترك انطباعاً عميقاً في نفسه شارك في حصار الخرطوم وما تلا ذلك من أحداث حتَّى تمَّ أسره في حملة ود الجومي بمصر كتب عن كل ذلك وأطبب في الوصف وقدم عملاً مذهشاً جديراً بالثناء كما كتب عن تجربته الفريدة في التعقيم والتي

بدأت منذ السنوات الأولى للقرن العشرين حتى بعد منتصفه بقليل وبات ذلك السعر مرجعاً لكل المهتمين بالشؤون الاجتماعية والثقافية السودانية

أما ابنه العميد يوسف بدري الذي رحل قبل سنوات قليلة فقد كان إهتماماً للحياة والده حلقه في نشاطه التعليمي وحافظ على تراثه. وقد عاصر أحد أهم مهمة حيث ولد بعيد الاحتلال ابريطسي للسودان بأربعة عشر عاماً شهد التحولات التي مرت على البلاد في تلك الفترة وكتب أيضاً وفقاً لرؤيته الخاصة. وقد استأثرت تجربته في تطوير المؤسسات التعليمية التي تركها والده بمعظم المذكرات. إلا أنما نجد في ثابا ما كتب صوراً جديدة بالتأمل عن الحياة في السودان خلال العقود الأولى للقرن العشرين.

قدم يوسف بدري من رعاية بصحية والده إلى أهدمان التي لم تكن قد خلعت عنها رداءها المريحي.. كان ذلك في عام 1920 ولا يزال اليمانية المواقدون يحملون قرب الماء على ظهورهم يورعونها على المزار كما كان المكارية يتولون نقل الناس بحميرهم وقد اتخذوا رهاً موحداً حسب ما أرادت سلطات لمدينة لتنظيم عملهم. ولاحظ أن بعض المصاهر لحصارية التي تعبرتها بها أم درمان كانت تغتفر إليهم بدة رعاية وتم يمرر من طويل حتى تمت إقامة كوبري اسيل الأبيض الذي ربط بين أم درمان والمحطوم وأصبح الترام كهربائياً بعد أن تحلى عن البحار. كما تم توصيل المياه بالمواشير إلى المزار.

التحق يوسف بدري بالمدرسة الأولية - أو كتاب الطين - التي كانت مشيدة بالأجر واتخذت موقعها غرب المدرسة الأميرية الحالية بعابقيها منذ ذلك الحين وكان جلوس التلاميذ لا يزال على البروش في تلك الفترة وقعت أحداث ثورة 1924 وشارك فيها التلاميذ بهتفون كما يفعل الكبار فتحيا مصر ويحيا سعداء وكانت الشرطة بكتفي بهتفهم يرشهم بالمياه من حراطيم كانت

تجرها عربات الحيل. وعندما انتقل إلى المدرسة الوسطى وجد باظرها معلماً مصرياً يدعى مصطفى السيد يرتدي السدلة والطربوش وكان يظهر في المناسبات كما وجد معظم المدرسين مصريين والعلّة من السوديين الذين كانوا يرتدون سجة والقفطان رغم تعرجهم في كلية عردون - المدرسة النظامية الحديثة - وكان من بينهم إسماعيل الأهرري - الذي كان يدرس الحساب - كان ذلك قبل ابتعانه إلى بيروت ليدرس في الجامعة الأمريكية ويعود مدرساً بالكلية. كما كان هناك عوض ساتي ومحمد أحمد مختار اللذان كانا يدرسان الجغرافيا واللغة العربية إثر أحداث ثورة 1924 ثم نقل المدرسة الوسطى - التي كانت ضمن مباني كلية عردون إلى ردة فهاد يوسف بدري إلى مراتع طعولته الأولى وقضى أوقافاً ممتعة وذكر بالحير عدد من المعلمين السودنيين السابقين والحجّادين ونوه بعلمهم الغرير وحنقهم القويّم أمثال علي حسي، وريّ العابدين الطيب، ويعقوب أبوريّد، والشاعر عبداللّه البنا.

كان التعلّم إلى كلية عردون محطّ أمل السابقين من تلاميذ المدرسة الوسطى الثماني الموزعة في مختلف أنحاء السودان - باستثناء الجنوب في ذلك الوقت - وهي مدارس أم درمان وخرطوم وعطبرة وحلما والأبيض ومدي وبورتسودان ورفاعة وكانت الكلية هي المرحلة الثانوية والأخيرة في السلم لتعليمي وكانت تسمى بالتجهيري - أي التي تقوم بإعداد الموظفين الذين نحتاج إليهم مؤسسات الدولة

وكان يتم توزيع الطلاب في أول السنة الثانية إلى لأقسام المختلفة، وكان قسم المعلمين من نصيب يوسف بدري كانت الوظيفة أملاً وحلماً بالوضع المادي المريح والاجتماعي المرموق. وكان العامة يطلقون عليهم «الكليات» في مهابة واحلال. كما كانت الكلية نفسها انتقلاً لمستوى أرفع من التعليم حيث الأساتذة الإجليل والشوام والاندماح في مؤسسة رفيعة المستوى الاجتماعي

أصوات

فيما بينهم وبشركون في تأديب الصغار ورعايتهم ويدعون حياة جديدة شكلت جمع وجدان لأمة لسودية الحديثة وبانت نموذجاً يحتذى في جميع أقاليمها.

نظر العبد إبراهيم مصلحي - المولود في العباسية عام 1930- بعينين تشكيليتين وبحس على أديم أم درمان رمان ووصف وسطها في حور مع مجلة كتابات سودية- انطلاقاً من العبطية (مركز الشرطة) حيث كان يقع تمثال سلاطين باشا والمدفون، وقال إن الشوارع وليبوت كانت في عاية النظافة والأناقة والمطاعم مثل المطاعم الأوروبية ولم يسس مطعم لأعارب الذي كان - جرسوناته- من الهوبيين يرتدون بدلاً سوداء وأحذية نصف ربط بنفس اللون

ووصف المقاهي بأنها كانت مثل مقاهي باريس تبرز منها الفويعرافات الكبيرة (أبوسماعة) وأصحاب المقاهي جناسين مثل معلمين في المقاهي لمصرية. وتذكر المحطة الوسطى بحكبيها واستراحاتها المرودة بمقاعد مطية باللون الأخضر وتحدث عن ناس والأماكن بمواطف سحرية وقال: «إن كل ذلك ضاع لما رأه من تبدل في الأحوال قبل سنوات قليلة عندما رار أم درمان»

بعد مرور عقدين من احتلال البلاد وسنوات عجاف ران عليها صمت كثيف افتتح نادي الحريجين في عام 1918 ودبت فيه حركة أدبية وألحقت به مكتبة عامرة . وكان للشعر دور واضح في تعبئة بؤ كبير الوعي الوطني . وبرر في النادي شعراء أمثال عبدالرحمن شوقي وأحمد محمد صالح وعلي نور وعبدالله محمد عمر الساء. وتبع ذلك حركة نقدية كان في مقدمتها الأمير علي مدني الذي أثار معارك أدبية حادة تضمنها كتابه «أعراس ومآتم» لم تلت أن بررت مدارس فكرية احتضنتها أحياء أم درمان فاهتمت جماعة الأبرعيين بمطبوعات (نادي الكتاب اليساري) ومشورات الجمعية الغابية والأدب الإنجليزي وقرأوا برناد شو وناقشوا

الكتاب فقد كان المؤلف، كما كان والده وأسرتهم من العائلات الأنصارية العريقة التي ابحرلت في الجهاد بصدق وإيمان، وقد رحلت العائلة بكاملها في حملة الأمير عبد الرحمن النجومي المتجهة إلى مصر ومرت بنجارب قاسية ومريرة وقتل عدد من أفرادها في مشاهد مأساوية، وطل الشيخ بابكر بدري وثيق الصلة بالسيد عبدالرحمن وأحد لأعضاء الأساسيين في مجلسه، وقد وصف يوسف بدري ذلك المجلس بأنه كان يجمع بين الجهد والإحساس بالمسؤولية وبين الظرف والذكاء. وكان من أبرز لطرفاء الذين يصحهم المجلس الأستاذ عبدالله بشير سادة والشاعر المشيد حامد العربي، والسيد أحمد حميدة المعروف بالرحيم.

روى يوسف بدري تجربة سفره إلى بيروت لدراسة في الجامعة الأمريكية بصحبة إبراهيم قاسم محير، وأحمد المرصى حمارة، وعبدالحليم علي طه بالإضافة إلى مكي شبيكة، وبصر الحاج علي، اللذين كانا قد سبقاهم في الدراسة بلبان. وكان الأربعة الآخرين مبعوثين من مصلحة المعارف لإعدادهم كمعلمين يحلون مكان المعلمين المصريين الذين كانوا يعملون في كلية عردون بعد إجلائهم في عام 1924 وكانت الدفعتان الأولتان تصمان عبيد عبدالور، وعبدالفتاح المغربي، ومحجوب الصوي، ثم إسماعيل الأهرى، ومحمد عثمان ميرغني شكك، والبصري حمرة. وأشار إلى أن واسطة العقد لهذه المجموعة من الطلاب كان عبدالحليم علي طه لما يرويه من قصص طريفة عن الريف والبادية وما يشده لهم من الذوبيت.

عاد يوسف بدري صيدلياً من بيروت في يونيو عام 1937 يشده حين صام لبلاده بعد أن أدر ظهره للعاصمة اللبنانية التي استمتع فيها بكثير من مظاهر النهو إلى جانب انتحصيل العلمي الذي أهله لبل شهادته الجامعية عمل في مستشفى ود مدني براتب قدره إثنا عشر جنيهاً في الشهر، وسكن في منزل

أصوات

حكومي هو وموظف آخر كان لكن واحد منهما حادده الحاص بالإضافة إلى لطاح لمشارك وكانا يستطيعان في كل أسبوع شراء سلات من الفاكهة المستوردة كالبرتقال والتفاح والكمثرى، ويستمتعان بسهرة مساء كل خميس راخرة بكل مالد وطاب.

وصف يوسف بدري عربة المتعمم السوداني، وتأثره بالفكر الأوروبي واللغة الإنجليزية وتحدث عن لانقلاب الذي حدث لحياتهم وكيف أصبحوا بعد لتخرج في كلية عربون يتناولون طعامهم على الطاولة ويسكنون في الغرف المبلطة ويسهرون تحت ضوء الكهرباء ويعتسلون بالماء المنشق من الحائط ودلت بعد أن كانوا يلتمسون الضوء من فانوس «جار والماء من الآبار العميقة ووصف تبدل ثيابهم حيث لبسوا «الثورت» والعبدة في الشوارع الرياضية، ولبسوا أزياء أخرى للدرس وليلوم، وذلك بعد أن كانوا يرتدون حتى وقت قريب لعراقي والسروال، وذكر كيف أن أنواع اللعب تغيرت أيضاً بعد «ثليل»، و«حرب»، و«الميتوية»، أخذوا يلعبون كرة القدم والتنس والبولو مع الممتشين والمديرين وغيرهم من زملائهم البريطانيين

وهكذا بات الأمدي مرتبطاً بالإنجليزي صباحاً في المكتب وبعد الظهر في لملاعب يتبادلان الحديث باللغة الإنجليزية «عزى مأمور المركز وإبانشكاث والطبيب ورئيس الحسابات «مكربين» يسعد لقاصي الشرعي وباطر المدرسة براهما محتشمين أو مكربين، ويجتمع لكن في المساء بدار ناديههم وتبدأ قصص لتندر وعبارات السحرية التي تصل إلى حد التراسق وفي الصباح يرونها زميلهم الإنجليزي، كأنه قد رأى وقد سمع أم أن للحيطان أداناً؟

أم درمان، صبيه بين المدائن



لا يأتي الحديث عن المدن حتى يلوح قول أبي يزيد البسطامي حين مثل
عن أي المدن تلك التي أحب فلم يرد قوله عن «تلك التي فيها من احتلف
قديماً»، وهذا حديث عرفاني تتحمل به عند الحديث عن مدينة أم درمان التي
تكشف في كل يوم عن جمال حيء حوال قرن من الزمان ويريد تردهي
بتاريخها المثير وترهو تلك الليالي المجللة بالفخار والمربرة بالمجد الأثين
خطت أساسها أسنة الرماح وأطلت بيومها السيوف الرائعة عداة انتصارات
أدهشت كل العالم.. وما فتئت عاصمة الشعب وملهته التي احتضنت جميعاته
السياسية المعرية ورعت بداياته الفكرية والثقافية وبلورت رؤاه المعية وصقلت
ملكاته أسائه الشعراء والعرفاء والعلماء والرعاة السياسيين.

أصوات

عندما شددت العنة الشاعر حليس فرح وأحسّ بقرب نهايته طلب من أصدقائه أن يطلوه به مدبه أم درمان ففعلوا - بجولوا في أحيائها وأسواقها وامتلأت عباء بمرايحها للمرأة لأحيرة قبل أن يعود إلى مستشفى بالحرمطوم ويلفظ أنفاسه بعد أيام قليلة. تلك القدلة التي تمسها - وهو بالقاهرة - حافٍ مُحلفاً شعر رأسه - من فتوح للحوار للمعاني حتى علايل أبوروف للمراسي بالصريق الشافية الترم

عندما برل فيها إسماعيل باشا بن محمد علي راحماً نحو سبار كانت أم درمان قرية صغيرة لبعض الصيادين.. وبما أسس الأتراك عاصمتهم في الحرمطوم طُلت أرضاً حلاء لا تؤمها سوى القوافل التجارية القادمة من الغرب ريشما تعبر إلى الحرمطوم. وفي أثناء انحصار شيد فيها غردوب طيبة طُلت تقاوم قوات لأعصار حتى ركزوا عليها بهجوم مستندمت قبيل سقوط العاصمة، وغداة انتصار الثورة يتخذها لإمام المهدي عاصمة وبانت الحرمطوم مدينة مهجورة

أم درمان اسمها قديم ورد في وثائق «مسكة الفوج» وورد ذكرها أيضاً في «طقات ود ضيف الله» لدى الحديث عن الشيخ حمد ود أم مريوم. وبعض الروايات تذهب بها إلى زمان «المنع» وتقول إن امرأة من سلالة ملوكهم سكنت فيها مع ولد بها يدعى درمان، أقامت مراً من الحجر محاطاً بسور من قبل أن أثره كان لا تزال شاحصة في حي «بيت المال» إلى وقت قريب. ولا يزال كثير من الناس يذكرون التنقيبات الأثرية في «حور أبو عمة» حيث كان يتم العثور على قووس وسهام ومعدات حجرية تعود بالتأكيد إلى العصر الحجري أطلق عليها المهدي اسم البقعة وعرفت باسم دار انهجرة وهو الاسم الذي نقش على العملة التي ضربت أثناء حياته.

بعد فتح الحرمطوم بأيام قليلة ينتقل الإمام المهدي إلى أم درمان وأرعى رس بافت حتى مركت في الموضع الذي عليه لقة الآن مقام يته وشيد خلماؤه وأصحابه الكبار منارلهم حوله وأقام الأهليون منازلهم بالنقش والحد ولشكاب

حتى تحول المكان إلى معسكر كبير وفي عهد الخليفة إسماعيل توسع المدينة وأخذت المنازل انصبية بالعبي والطوب الأحمر والاحمر تحول مكان المنازل القديمة اهتم الخليفة بالمعمار و شأ مؤسسة سماها «مصلحة العمدة» أشرف عليها مهندسون محترفون ذكر المؤرخون منهم إسماعيل حسن ومحمد حمد حسن وحامد السور وبترو نفذوا مبانيها مثل بيت المال، وبيت الأمانة «محارم الأسلحة»، وسجن السايير ومنزل الخليفة نفسه بطابقه وسور المدينة وقبة لإمام المهدي ومنزل الحلفاء والحرس ولمصالح العامة كما تم إنشاء المدرسة الوحيدة فوق مستوى الحلاوي، وكان يدرس فيها بحساب إلى جانب العلوم الدينية وكان مشرفا عليها عثمان فريد - جد آل فريد الموحودين حالياً بأمر درمان- استخدم الخليفة شبكة التعريف للاتصال من منزله بمختلف لمصالح كالتربية وكرة لجهادية وبيت لمدن العمومي كما شيد مصعاً للمصابون وأحر للبارود بالحلمية وكان هناك معبر كبير لبارود في جزيرة نولي

وعندما رر مراسل صحيفة «التيمر» أم درمان في عام 1901 انتقد سلوك كتشتر لهمجي عندما حطم القبة وحول المسجد إلى ملعب رياضي واتهمه بمحاولة القضاء على ملامح القومية السودانية

في مذكرات له وصف القس الإيطالي روزنيولي - اندي كن أسيراً- سكان أم درمان في أول شأنها بأنهم كانوا من مختلف الماصر والقبائل التي يعرفها السودان بالإضافة إلى المصريين والهمود والعرب الحمازيين والشوام ولاهريق والإيطاليين والترك والإثيوبيين وقال إن ألوان البشر كانت تتدرج من لسواد الشديد حتى الأبيض وهناك السمودح السامي بالأف لمذهب واللحية الكثيفة إلى جوار الرجعي الوسيم بجسمه القوي وأفع الأقطس وشفاهه العليظة كل هذه العناصر مصت إلى سبيها في الانصهار على مر السنين واندمجت في عائلة كبيرة واحدة في سلوك اجتماعي فريد يعتمد الحياة الجماعية.. يهدون الطعام

شديد محترقاً سكة العرصة حتى يبلغ موضعها وهو راكب على هجيب ويمر أمامه الأنصار عاندين في اتجاه المدينة في مقدمتهم الراية الرقراء بطولها المحمولة على الجمال وهي تدق بعنف شديد تليها الراية الحصراء للمحيضة عني ودخلو ثم الراية الصغراء للحليفة محمد شريف حامد

وكان من المواقب المهمة ذلك الذي يقدم عند خروج جيش كبير إلى أحد الأقاليم حيث تورع الرماح والسلاح من بيت الأمانة، ويقوم كاتب الأمير بصرف أدوات الكتابة بينما يقوم وكيل الجيش بإعداد دواب النقل والمؤن. وعند استكمال الاستعدادات يتحرك الجيش إلى الجهة المقصودة، فإذا كانت شرقاً عسكرت القوات قرب قبة الشيخ حوخلي وإذا كانت شمالاً عسكرت في النجدة في الطرف الشمالي. وإذا كانت جنوباً تجمعت قرب شجرة المهدية، ثم يخرج الحليفة في مركب مهيب تحيط به مظاهر السلطة ومعه قائد الجيش حتى انمسك هودج القوات وبارك مسامحاً. وفي حالة حضور جيش كبير أو أمير مهم كان الحليفة يستقبله بعرض كبير خارج المدينة ثم يعود معه.

اختتمت المعنونات والمغنيات الذين عمروا الحياة الاجتماعية في الخرطوم في العهد التركي قدلم بت سيمان وشريعة بت بلال لم يعد أحد يسمع عهما لم تعد مكاناً في العهد الجديد. فالحماسة الدبية والرهف والتعهر تسود المدينة.

وبدا الناس وخاصة الأعيان يحيون لياليهم وأفراحهم بالمديح النبوي هالشيخ أحمد أبو شريعة وإبراهيم كراع لعامة وعلي طلبه وغيرهم من المادحين كانت تتلقاهم الدور حمية مريحة في تلك الأيام إلا أن المدينة لم تحل من العاشين الساهرين يحتلون حلقات خاصة في منازلهم بعيداً عن الرقاء يحتسون فيها ما تيسر لهم من مشروبات.. وقد كانت تحربة يوسف ميحائيل والأمير نور عفرة طريقة معتمة يسهران في العشيات يدعين ثرائين معارضين لنظام الحليفة

المثل العليا والأخلاق. وكان من أبرزهم حسين أحمد عثمان «الكبد» وشقيقه حسن وإبراهيم يوسف سديمان وخضر حمد وغيرهم. أما مجموعة الهشامات فقد صممت محمد أحمد محبوب وعبدالحليم محمد وعرفات محمد عبدالله ويوسف مصطفى الشبي ومحمد عشري لصديق وعبدالله عشري بصديق وغيرهم كما كان كبار طلاب المعهد العلمي يعقدون ندوة أدبية في منزل الشيخ إبراهيم أبو النور بحي «السوق الكبير». وكان لشعراء أبناء المعهد العلمي يتخذون من دار خلوة الكتباني مسراً لهم وهم النجاشي يوسف بشير ومحمد عبدالوهاب القصبي ومحمد عبدالقادر كرف، قبل أن يتقلوا إلى الأندية.

أعلن سلاطين عندما دخل مع الجيش العربي وأصبح مفتشاً عاماً بسودان أنه سيملك مدينة أم درمان بالعناصر السبئية قبلها.. يوي أن عدم الانتماء القبلي بصرفها عن الفصائل الوطنية. ولكن بحلول عام 1921 بدأت لحركة السياسية بأم درمان تتلمس خطاها سرّاً فشأت (جمعية الاتحاد السوداني) ثم اللواء الأبيض التي قادت نضالاً عريضاً ضد قوات الاحتلال حتى بلغ درجة الصدام المسلح وخاب ظن سلاطين فقد كان معظم هؤلاء الرعماء من ظن أنهم لن يشاركوا في القضية الوطنية وحلت هذه الوفقة الهائلة جزءاً حريزاً من تاريخ الوطن وإلهاماً عظيماً لوقعاتها اللاحقة.

يستق مؤتمر الحريجين كحقيقة كبرى في فبراير 1938 ليتوح كل هذه الجهود ويصبح المسير الوحيد المعبر عن الأماني الوطنية واستقلته لبلاد بحماوة بالعة لحصنها علي نور شاعر المؤتمر بقوله

كُنّا نسميه سرّاً في جوارحنا حتى استحال إلى الإجهار والعلن

أم درمان.. صبية بين لمدائن - ٢

لَمْ تَجِد الحياة الاجتماعية بأم درمان أيام المهدي عبد المورحين كبير اهتمام بتوثيقها. والأحداث السياسية المعاصرة وامتلاحة طيلة فترة الثلاثة عشر عام التي تربع فيها الخليفة عبدالله على دست الحكم لَمْ تترك مجالاً للالتفات للتحديات الأخرى كما كان لأسلوب الحياة الذي رسمته انشغاله الدينية والعلو وانتظاف أثره في تحويل لمدينة إلى ما هو أشبه بالشبكة العسكرية. إلا أن السبغ الاجتماعي الجديد الذي صبغته المجموعات الأثنية كان قد بدأ في التشكل وبروز القسمات. ففي فترة وحيرة أحدث المدينة تبرر عمرها وبشأ مركز السلطة في وسطها.. تحول قبة الإمام المهدي بنى لخليفة منزله وشيدت بصانته من الأمراء والقادة من ذوي قرابته مدرلهم.. وفي الجانب الشمالي قامت منزل الخليفين علي ود حلو ومحمد شريف حامد وعدد آخر من الأمراء وعلية القوم. إتحدت المجموعات العرقية أحياء خاصة بها وبشأت المصالح الحكومية حول منطقة السلطة وأهمها بيت المال الذي كان بمثابة وزارة المالية ومخازن الدولة كان موضعه قرب النهر ليسهل نقل البضائع الواردة بالسفن والسراكت وكان أهم ما في بيت المال مصنع سك العملة ويقع جنوب بيت المال لعمومي سوق الرقيق المشيد بالصوب الأحمر ومن الضروري أن نعرف أن لخليفة كان قد حظر بيع الذكور من الرقيق إلا للدولة بينما حظر قنصه بشكل بات ومنع تصديره للخارج كما كان هناك بيت مال خاص بالملازمين وشيدت منازل خاصة بكتبته قريبا من المكان.. ومن المصالح المهمة بيت الأمانة لحفظ الأسلحة والذخيرة.

(دار الرياضة المحلية) وبالقرب منه مبنى دائري صغير تحفظ فيه رايات الجيش وطبوله، وإلى جانبه مصنع الدخيرة والأسلحة الخفيفة وكانت لمدينة أم درمان محكمة خاصة هي محكمة السوق التي تخصصت في نزع البيع والشراء وقضايا الأسواق وكل ما هو واقع تحت سلطات ما يعرف بالمحتسب في النظم الإسلامية - أما غير ذلك من القضايا فكانت تُنظر في محكمة المسجد. وكان الأمير محمد حسين وهبي مكثفاً بأمر لمدينة ويتركز نشاطه في السوق والأماكن العامة بقوة يبلغ عددها 25 جهدياً وإلى جانبهم مجموعة عرفت بالمبشرين مهمتهم شبيهة بما تقوم به قوات النظام انعدام التي إبتدعتها سلطة «الإنفاذ» المحلية - فكانوا يلاحقون المشتبه بهم سياسياً ومتعاطي الخمر والتبكي أما الأمن في الأحياء السكنية فكان يقع على عاتق أهل الحي الذي يتولون الحراسة ليلاً كان تجار السوق يعلقون محالهم عند العروب فيغدو سكامهجور إلا من الجهادية الذين كانوا يتولون حرسه. وكان محظوراً على الناس أن يوقدوا النار أو يحملوا المشاعل فيه.

كان الإمام المهدي قد أتم بعض المؤسسات الإنتاجية والتجارية - التي تعلقت بمصالح الناس كمصبرات الربوت والوكالات والعبات وحدائق الميري وأحيان الأجانب والمشاريع العامة «المراهي» النهرية كما احتكرت الدولة صناعة الصابون والأسلحة وسك العملة والصناعات الخفيفة المتصلة بالمجهود الحربي كالسيوف والحراب والصناعات الجندية كسروج الدواب وأغمد السيوف.

توَعّت أشكاف لمعمار بالمدينة وكان الحوش هو السمة المشتركة في منازل الأهالي والمصالح العامة. فتجد الكرنك «المسي على شكل طهر الثور» واندانة وهي الحجرة المشيدة بالجائوس والمنظية والراكوبة وكانت دور الأغنياء وعلية لقوم محاطة بأسوار من الطين والأحري أحيطت بررايب من لأعصاب الشوكية.

برر الحليفة عبدالله كرجل دولة لا يمكن التقليل من شأنه محكوماً بطروقه التاريخية وإمكانياته الشخصية ومعاراته ودرجة الوعي التي توفرت له إستطاع أن يؤسس دولة مركزية مرهوبة الجانب حلت القوات البريطانية تترىص بها عند الحدود الشمالية ثلاثة عشر عاماً قبل أن تتمكن من الانقصاص عليها رصدت محارباتها كنُ نامة وصوت صدرت من أم درمان حتى عدا رصيدها من المعلومات التي ستقتها مؤلفات ومراجع للتاريخ مثل جغرافية وتاريخ السودان لعموم شفير . تجربة جديدة بالاهتمام رغم ما أحاط بها من سلبيات أهلها ضرورة الظروف في معظم الأحوال . فالحليفة قد أقام دولة لا يستطيع أحد أن ينكرها إذا نحي اسماء المواطنين جانباً وأحهد نفسه شيئاً ما لقراءة ذلك التاريخ .

حدثني مرة شيخ المؤرخين البرزيسور محمد إبراهيم أبو سليم أن صلته بالمهدية كانت واهية جداً.. حيث أنها لم تبسج مواطنهم الحدودية في أقصى الشمال في كل الأحياء ولم يتأثروا بها إلا أن عمده في دار الوثائق أتاح له فرصة القرب منها والعرف عليها . وأكد أنه في كل يوم جديد يرداد إعجاباً بتلك التجربة التي نجح رعاؤها في توثيق أحداثها بشكل مادي انحدوث

كانت مدينة أم درمان تترىس وترهل في أبهى حللها في أعينها اندسية وترفع الربات ونحرح قوات الجيش للاستعراض وتندق الطبول ويحرح الحليفة في موكب عظيم . وكان في أول عهده يستعدهم إحدى مركبات الحكمادارية التي آلت إلى لدولة الوطنية بعد سقوط الخرطوم . ولكنه لم يلبث أن يستبدل ذلك بركوب الجمل أو الحصان وبدي حروجه في موكبه الرسمي كان يحيط به كبار رجال الدولة من الحنفاء والأمراء والقضاة والقواد، ويسير خلفه حرسه الخاص (الملازمون) في أعداد كبيرة . ويمشي أمامه محمد بشير كزار لعادي قائد هجانة البريد ممسك بحربة كبيرة في يمينه يمسك بيسره سيقاً كبيراً يتدنى من جانبه بالشمال ويبدأ الموكب مسيرته من بيت الحليفة ويمشي ببطء

سبوعهم وسكاكيتهم الطويلة ولما سطوا عليهم تحطموهم كالطير وصف المراقبون فتكهم بهم بأنهم كانوا كمن يمرضون في الحلبه حتى أفنوا حارباً كبيراً منهم أعادوا تجارب معاركهم معهم في شرق السودان حين كسروا لأول مرة في التبريح مربع الفرسا وحير دحل المرأة أم درمان لم تستسلمهم بالحصوع والاستسلام بل واجهت لفلة القليلة الباقية العدو ببسالة وأقدم ، لا أن يبراه أسكتت تلك الانتفاضة ليائسة. ولما استبيحت المدينة وقف الرجال أمام بيوتهم يدودون عن أعراضهم وممتلكاتهم وقتل منهم الكثير ولم تصع قيادة العدو وقتاً جمعت من تبقى من الأمر والقادة وقصت بإعدامهم فاقيدوا غرب المدينة - موقع ميدان الربيع الحالي - وتم التمهيد.

حين عاد لشاعر لمادح أحمد أبو شريعة من ميدان القتال توخه إلى بيت الحليفة وهناك علم بحروجه من أم درمان فأحد يشد الشعر والدموع تنهمر من عيني «السادة الحيرة قانوني. وعلومي في حيرة» كلمات عبرت عن حالة الصراع التي اكتسفت البلاد والمجهول الذي بات يتهددها وصف المؤرخون الحليفة في تلك اللحظات بأنه كان ذببت الجنان لم يهتز لما حاق به من كوارث إلا عندما بلغه بأ مقتل أخيه يعقوب وكان مشرفاً على سير المعركة ومجريات الأمور لصيقاً بتفاصيلها لم يهرب ليجو بنفسه كما عبرت جوري المدينة في أعانهم الشامتة لما قلنا الحليفة يمر أوقف الحدود يا سعادة نور» و«الليلة هدي قلوبها تركية ود تورشيس شرد رقدوا الملامية» وإنما كان خروجه خيراً وقرراً إتحد في اللحظة الأخيرة بعد أن كان لاتجاه اسائد هو البقاء دحل أم درمان للدفع عنها. وفي وقته الأخيرة بأم ديكرات وموته الرابع لم يملك عبوه اللدود ريجالد ويجب إلا أن يقول «مهم كانت نظرتنا بحليفة فأنا لاملت إلا أن يمحى بميته الشجاعة»

تدافع الناس للمخرج من المدينة لحظة دخول الجيش وما بعد ذلك بساعات

يتحدثان في السياسة ويشتمان لسلطة.

من لمؤكد أن دوة الحليفة تدخلت في حياة الناس الاجتماعية وألغت كثيراً من العادات التي رثأت أنها تجاهي المدين ومن بينها أنها حذت المهر للكر والثيب بإسماعيل عبدالععين كان يردد في أحياء الزجرية «المهدي جاء من دنقلا قال الفتة بعد ريل والعرباء بالعاتمة» وفي مذكراته «تاريخ حياتي» يروي الشيخ بابكر بدري تجربة روجه من السيدة نفيسة «أم أحمد» وكيف تصرف كأنصاري منترم واصف نفسه بالحقلي المتطرف محاول أن يسكت مغية عمياء ورفض حضور حفلة الرقص التي أقامتها النساء وحدهن دون حضور أي رجل آخر إلا أنه أصدق العروس أربعين ريالاً قوشلب وقدم جهازاً من الملابس ناعية والمطور.. كان ذلك خلال السنوات الأخيرة بعد المهدي.

14 نوفمبر 2000م



بوابة عبدالقيوم

أم درمان.. مأساة الفتح



طُبت ساء أم درمان لسبع نبال متتابعة يتسلسل متلفعات بانصمت والعلام
ناكلات بانبت مثقلات بالعجائع.. والمدينة بلفها الردي ورائحة الدماء وبارود .
وأحدية العراة الشقية المحمة لا تزل شاخصة في أرقه لمدينة وشوارعها بعد أن
أسنبتحت ثلاثة أيام بلياليها وتعرّضت بالقصف بحوالي ثلاثمائة دنة من عيار
خمسين رطلاً - وهي مكتظة بالمديين حالية من الجنود - خلال يومي الخميس
والجمعة الأول والثاني من سبتمبر 1898م. وكانت النساء يحمين الراد والحاء
ينخرجن في جماعات صغيرة يقصدن ساحة المعركة في كرري يتفقدن الجرحى
بواسنهم ويصمدن جراحيهم وينسفن شعاهم بعطرات من لحاء. كانوا لا يرالون
أحياء يتمددون بين آلاف البجث المكذسة لمعركة برصاص «دم دم» المحرم

أصوات

استخدامه دولياً كان الجنرال الفاتح عاضاً من سلوك الحرحى حيث كان الواحد منهم في أعقاب المعركة يهب من رقدته وهو في الرمي الأخير يسدد طعنة أو يصبو طلقة إلى صدر جندي العدو لموت بعدها راضياً بـ أمر الجنرال بتصفيتهم لا يغلقهم للعلاج - كما تقتضي العهود والمواثيق - كما أمر بتصفية الأسرى أيضاً ذلك الأمر الذي أثار ثائرة الصحف الأوروبية رأيت فيه وحشية وبربرية لا تناسب إستهلالات القرن العشرين. كانت مساء أم درمان أيضاً يحاول التعرف على الجثث لندفنها فقد كان الرجال أرواجهم وأبداً هم والمرحيات تردد صدى نشيجهم المكبوم في ليالٍ مفعمة بالأسى والقنوط وتقلم الإحساس بتفاهة الحياة.

عندما حسم معركته مستخدماً أحدث منتجات مصانع بريطانيا من الأسلحة . تلك التي استخدمت لأول مرة في كرري على أساس التجربة ومن ثم ماتت الأسلحة الرئيسية التي تموقت في الحربين الأولى والثانية - توجه الجنرال العاري جنوباً - تحيط به كل مظاهر العطرسة والعرور - عبر شارع أم درمان الرئيسي (شارع الهجرة) - وطوال خط سيره كان المشهد وحداً لا يتغير الجثث والأشلاء ونأت الحرحى ورائحة الموت فالحبوانات من كل الأنواع والبشر من كل الأعمار كانوا مستلقين في شمس الظهيرة اللاهبة وهم في السرع الأخير. كان كتشسر قد حلف وراءه في ميدان القنات عشرة آلاف شهيد وصف حالهم المراسل الحربي لشاب وستون نشرش بقوله «وحيث سقط العدو وتم تكن هناك مراسم الدهن والموسيقى ولا الإحتفالات التي تصعد عطمة الرجولة الصامدة ولكنهم كانوا أشجع من مشى على وجه الأرض، ذمروا ولم يقهروا بقوة الآلة» ثم تكن معركة أم درمان بالنسبة لبقائد مجرد برهة فقد رأى هو والعراستون والمراقبون العسكريون رجالاً يدفعون بحوهم للاستحمام وأيديهم خالية من السلاح

كثيرون طلبوا أن الدفاع عن أم درمان كان يدفعاً أحرق نحو جيش العدو سعاري انتقدوا لهجوم ليهدي رأوه مجافياً للحضة العسكرية في مثل تلك المعارك . إلا أن الواقع الذي محصه اسطلون العسكريون من وطنيين وأحباب يدحض ذلك الرعم . محطة الدفاع عن أم درمان كانت دقيقة ومحكمة وتشكلت من مرحلتين إلا أن تعيدها تعثر في الواقع كما أن لأسلحة الحديثة الجارة - والتي إستحدثت لأول مرة في تلك الحرب ما احتلت حيزاً مناسباً في تقديراتهم ورغم ذلك أبلت قوات الدفاع السودانية بلاءاً ظل حديث الصحف العالمية لفترة من الزمن وبات جزءاً مهماً في التاريخ لمعكري جسد جارة الرجال واسترحاصهم للموت في سبيل الوطن . كتب ستيفسون يقول «والعدو» لقد حار هو شرف اليوم .. وصل رجالنا درجة الكمال إلا أن السودانيين عاقوا حد الكمال لقد كان ذلك أعظم وأشجع جيش خاض حرباً عسكراً وأبدي وقتل جنوده بشجاعة جديرة بالإمبراطورية الهائلة التي أقاموها وحافظوا عليها طويلاً أحاط الموت بحملة بنادقهم من كل جانب وهم يجاهدون حيث للإطلاق دحيرتهم القديمة والرديئة عديمة الأثر في وجه أقوى وأحدث أسلحة التدمير . مرّت لحظات في جانب من المعركة كان هناك ثلاثة رجال يحملون الراية الزرقاء ويتقدمون بثبات نحو تسعة آلاف جندي مدججين بأحدث الأسلحة . كان المدافعون يتساقطون حول الراية التي أصبحت هدفاً واضحاً ليران العراة ومن ثم مصيدة للموت وهي تعرف عاليا حتى سقط آخر من كان يحملها بعد أن غرسها على الأرض كانت ساحة المعركة واسعة مثالية ليران العدو المتقدمة ومدافعه بعيدة المدى والمقاتلون السودانيون يحاولون جاهدتين الوصول إلى صفوفه للالتحام بها لتحقيق عدالة الرجال ولكن كان ذلك بعيداً واليران تحصدتهم حصداً وتريحهم بالمشات من على وجه الأرض حتى بلغ عدد انقلبي عشرة آلاف قتيل عثمان دفنة وحده الذي شفى عليه باستدراج قوة من فرسان الجيش البريطاني إلى خور شعبات حيث كان يقبع رجال الهددوة الأشداء

بتجاربها الثرية، وقدمتهم عصيرة إلى العالم فربنوا محافلهم، إبراهيم ركريب - الفتى المقدم من قرية العصاص - أصبح رئيساً لاتحاد ثقافات العالم. كل العالم واشميع يحتل منصب نائب الرئيس وقدّمت غيرهم من شارك في إثراء التجربة في بلاده وعلى مستوى العالم.

عصيرة الآن لا تستحدي أحداً أن يرد إليها بهاءه وتاريخها ولكنها تدرك أهمية السكة الحديد كمؤسسة قومية ذات ضرورة قصوى للمقل في بلد شاسع مترامي الأطراف قدره أن يتخذ برامج مكثفة للتنمية لسهولة من كونه ومارالت السكة الحديد راهد حيويّاً لاقتصاديات الدول التي تعمل جاهدة لتحديث انقذارات وتطوير أدائها بعيداً عن هوى لموس والمطلقات الذاتية، فأساطيل لمقل التي يمتلكها المحاسب - يحتكرون بها الحركة أو يحاولون - لا تستطيع أن تموص لفقد نشاط السكة الحديد وقدرتها العالية

12 سبتمبر 2000



أول الطرة متجهة نحو السواحل إلى الفتح

واتجهوا جنوباً وأُعلب الظن أن هؤلاء كانوا من المنضيين بالسلطة والدين تحوفوا من إلتحاق الجيش اعازي كدست أبرر المجموعات مجموعة الحيفة شريف- الذي ساهم في المعركة وقبادة الجيش رغم معارضة السياسية، ومعه أبناء المهدي ومعظم الأشراف الذين توجهوا إلى أم عيم ثم العشائرية التي عبروا منها إلى الحرية أب تلتها مجموعة كبيرة من العور والريقت في طريقهم إلى دارفور ليحققوا بعني دينار كما حارحت مجموعات أخرى وأغلبهم من أبناء العرب ليدق بالحليفة أو العودة إلى أوطانهم سيصل هذا اليوم محموراً في ذكره مدينة أم درمان.. فقد كان مليئاً بأحداث لا تتكرر كثيراً في تاريخ الشعوب.

12 نوفمبر 2000م

عظيمة مدينة الحديد والبار

«بإعطية... هل تهسي مثل أمس من جديد»

من قصيدة لصالح أحمد إبراهيم

جلس الملازم البريطاني جروارد في حبيته بوادي حلفا ذات يوم من عام 1897 بعد قائمة شاملة بالاحتياجات اللازمة لإقامة خط الصحراء الحديدي سقل لبحود ومدافع المكسيم إلى أم درمان كان الهدف قهر قوات الخليفة عبدالله وإزالة دولته الوطنية التي شكلت تمودجا متمردا يعرقل حركة التوسع الاستعماري في القارة كانت القالمة طويلة والمشروع مشكوك في جدواه. قدّر البحراء أنه قد يعود إلى كرثة إلا أن الجنرال كتنسر قائد قوات الفتح أصرّ على تنفيذه في عداد وبعث جروارد إلى إنجلترا لشراء بومر من القاطرات والعربات وقطع الحبار وما يتعلق بإنشاء الورش الجديدة وهكذا بدأ العمل في المشروع الذي ظلّ مؤجلاً منذ عهد الحكم التركي السابق. كانت بداية العمل متعثرة بلا شت.. موظفون يتم تدريبهم تحت ظلال النخيل، وعمال غير مهرة من مختلف الحسنيات يهملونهم في صناعة الآلة التي حملت الموت وانتسلط. فقط كانت لحرب حرب نقل في المقام الأول وقد هُرم الخليفة على السكة الحديد كما عبّر وستون تشرشل في كتابه «حرب المهرة».

بعد إستقلال السودان ظلّ الإداريون البريطانيون الذين حكموه يتعاجرون بثلاث مؤسسات أقاموها، مشروع الجزيرة، والخدمة المدنية، والسكة الحديد، وقد حقّ لهم ذلك فتلث المشروعات التي لم يكن لها مثيل في أفريقيا حاق بها

الدمار نتيجة لما فعل السمهاء من أعمالها فيها فزوسهم بعد أن عبهم الهوى
السياسي وأعمى بصائرهم وحتى الآن ما اعتدروا بشعهم عما اقترفوا ولا
أحسنوا جرماً وكان لدكتاتورية مايو بصيها فيما حدث من دمار وخاصة في
السكة الحديد التي أصبحت ورشها وقاطراتها وعرباتها جائمة دون حراك يعلوها
صدأ كثيف كأنما هي كانت حرافية باقية وأجهر لباقون على ما تبقى منها
وظلوا ساديين في عبهم يتمنون حصصتها لتعود ملكاً خالصاً لدوانهم العامية
ما راهاوا في ذلك مصالح الوطن.

ما تشرفت بريادة مدينة عطبرة من قبل إلا عبوراً بمحطتها نحو مصر في زيارات
خلال سنوات لدراسة، ولكن حين رأيتها في أغسطس الماضي أحسست كأنني
أقيمت فيها لألف عام.

كان الطريق إليها من الخرطوم أسفلتها حديثاً ممهداً وصحياً لا يقترب من بحر
النيل ولا يتعد، ولكن حصرة لصفة اليمى كانت تتراءى يانة عميقة ومحصلة
وكما أوعلنا في الشمال نتابعت صور الماضي البعيد بعهوده المختلفة فهل يا
ترى مرٌ غيرنا -الإمبراطور الأنثوي- من هنا بطارد حول النوبة الحمر. كما
سجل في لوحة انتصاراته؟ وهل هذه لحمرة الداكة بني تلون الحصص صحور
بركسية تفتت أم بقايا قطع الحديد التي حلفها حصارة مروي القديمة في أيامها
الراهرة؟ ومن أين توجه الملك نمر بعد قتله إسماعيل، وأي طريق سلك
تساؤلات تترى وما من مجيب.

بعد الفتح امتدت حصود السكة الحديد شرقاً وجنوباً حتى أواسط انقظر ثم
بعد ذلك إتجهت غرباً وأصبحت مدينة عطبرة واسطة العقد تماس كرو البريضية
صمت رئاسة المصنعة وورش الصيانة لصنعة وتكاثرت أعداد لعمال
والموظمين من مختلف الأسماء وشأ مجتمع جديد أقرب إلى الحديثة من
التجمعات الحضرية الأخرى ذات الطابع الريفي لعبت لسكة الحديد دورها

لجديد في نقل المنتجات السودانية وخاصة الفصص لمصانع لاكثر وسوق عالمية وشملت التجاره وترعم وعي حديد بالواقع عدته أحداث القرن العشرين بصيفة وامتلاحة، وبرر دور العمال يطالبون بتحسين صروفهم المعيشية وبإنشاء تنظيمات خاصة بهم، وشاركوا في كثير من الأحداث التي أعقبت الحرب الأولى وخاصة خلال ثورة 1924 وما رافقها من تطاهرات بمحتف بمدن

كان لمدرسة لصايح دور بارز في مجتمع مدينة عطبرة فاثرت مساهمات الإحتلال بقها إلى حيث لتكون بعيداً عن تطورات الأحداث إلا أن حريجيها بدين عادوا يعملون في مرافق لمصلحة المحلفة ما لبثوا أن انضموا إلى تنظيمات الأولية لمؤتمر الحريجين في أوائل سنوات الأربعين وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية وما رفق ذلك من هبوب الرياح العاتية للحرية التي أصبحت مطلباً حيويًا لجميع المستعمرات أصبحت لحركة انقادية واشتد ساعدها وحذت تجاهر بمطالبها السياسية والاقتصادية وشكلت دراعاً قويا للحركة الوطنية.

حين جلست ألقى العراء في ودة صهري بإحدى لرواي بحي الحصية في عطبرة كان المجلس عامراً بغص بأهل لمدينة عمالاً وموظفين جاءوا من كل حدب وصوب يحمنون رادهم على دراحتهم الهوائية تبدو عليهم السراحة والتصميم وروح التضامن، التي ظلت تقليداً مجيداً يرين مدينتهم ما لمسب فيهم صعباً ولا يستسلاماً رغم قسوة الظروف وشصف العيش تحسبهم أغنياء يتسربلون بالمعاف ولاياء.

كان من بينهم نفايون قدامى بتوسطهم شقيق المقيد وهو القائد النقابي لمحصرم قاح السر حسن آدم يحتشدون بالتحارب والذكريات، يتحدثون عن قاسم أمين، والشعيع أحمد لشيج، وبرهيم زكريا، وغيرهم يمثلهم الصحر والاعتزاز، يودون ألا ينقطع الحديث عن هؤلاء الذين تخرجوا من مدرسة عطبرة

«كفاح جيل»

أحمد حير المحامي



في كتابه الذي احتل موقعا متميزا في أدبيات ترويح السود، لحدث «كفاح جيل» أقدم أحمد حير صورة قلمية نادرة ووصفا أدبيا مؤثرا لشأة مؤتمر الحريجين فقال: «جاء المؤتمر كالطفل المدبل في أسرة عريقة الحب موفورة النسب محرومة من الدرية والولد فأولاء جميع الحريجين عطفهم وحنوهم وحماسهم ومن فرط الحب والحنان إختلموا في فجر حياته حننا كبيرا على أمثل الطرق لتشيئته وتهذيبه وتدريبه حتى يتم إعداد واستعداده للقيام بمراسمته الحظيرة على حير الوجوه وأتمها ومن فرط حبهم للوليد ورغبتهم الصادقة في عمل كل ما يحقق مصلحته ثم يتعد اختلافهم طور تبادل لرأي والافئاع فقد رعب فريق أن يهيج على ستر المؤتمر الهندي، فبدرج الوليد السوداني في أسلوب نقابة للموظفين، تعمي بمصالحهم وشؤونهم ومن ثم يدلف بعد أن يشتد ساعده ويقوي رده، إلى ميدان النضال الوطني. وأمل فريق آخر أن يقفر قورا إلى مكانة لولد المصري في أوليات أيامه ويكون مؤتمر السودان وتهيج فريق ثالث موقفا

منهج الطغاة اللئيم

في تدمير تربية والتعليم

جسدت الحرب الأمريكية ضد العراق دروة التراجيديا العربية، وعدت الأحداث تأتي في كل يوم بجديد يكشف عن أزمة الأنظمة الإستبدادية والظلم الفادح الذي تدفعه الشعوب ولا شك أن الدهشة قد إعترت الدين شاهدوا لاعتات المتظاهرين العراقيين بعد الحرب مرفوعة فوق رؤوس رعمائهم باللعتين العربية والإنجليزية تعص عباراتها بالأخطاء التي يجب ألا تجور حتى على الصبية لأحداث مستوى يتم عن خذل جسيم وما آلت إليه أحول التعليم في بلاد أبي عمرو الحاحط ومهد دار الحكمة. فقد إرندت إلى الأمية أحوال من العراقيين خلال الأربعين عاماً العجفاء. وكان ذلك غير ما يريد الطاغية ويستغيه دأمة التي يعيب وعيها الجهل تكون أسس قيده من تلك التي يسيجها الوعي والمستوى التعليمي والثقافي المتقدم. وكان هدف الطاغية من البداية أن يصيب العرق في كبده بيد شمل عذمانه ومثغيه بالقتل والتدمير والفهر والشريد. قبل أربعة عشر قرناً طلت بغداد لمئات السنين عاصمة الثقافة في العالم والمحاصرة لسياسية والاجتماعية الأولى بلا مزارع مبرعت في كل صروب الإبداع، وجاءت بكل من مستطرف وفريد كان يرفده تاريخها القديم الذي حصل بعصارات الإنسانية الأولى من فنون العمارة التي تجلت في حدائق بابل المعلقة، وفي القوانين التي تحفظ حقوق الإنسان تمثلت في تشريعات حمورابي، وفي لكتابة المسمارية التي قد تكون سابقة للهيروغليفية.

ها هم سادة الدنيا قديماً يعودون ليحطوا رعمائهم السياسيون اليوم في هجاء

المعقدة، وفي اختيار العبارة المحكمة الصحيحة التي تشف عن مواقفهم وذلك بعد أن نفذ صدام حسين برنامجه في اجتثاث المعرفة التي كانت تزرع مصججه وما كان قادة البحث بمن فيهم صدام نفسه أكثر عدماً واقتداراً حين دهمتهم المفارقة فامكشرو كمجموعة من الجبهة المستبدين

وبحق في السودان لما من ذلك نصيب وافر وتمر على نفس الطريق منذ أن شمر نظام مايو عن أظلاله واقتحم مستودع الحرف كان نظام التعليم في عهده وثورته التي تفجرت في بخت الرصاص أحدثت توتّي أكليها وما كان يتعين علينا سوى أن نراجع وشري لروم نتجوهد. أقول ذلك بعد أن تلقيت رسالة ملتاعة من قارئ سوداني كانت كل كلمة فيها تصر عن عمق المأساة وهول العاجلة اعتدر فيها كاتبها الذي أكمل دراسته الثانوية -وقد بلغ الآن ثاشثة والثلاثين- عن أحواله المحوية والإملائية وعن ضعف قدرته على التعبير عن رأيه تلك المرحلة الثانوية التي طلت عندما ممثلة في كلية عربود حتى سنوات الأربعين مصنفاً يتحرج فيه أفذاذ الرجال كانت رسالة لعدري عاصبة عاتية عليّ لأسى كنت عن الإنجليزى برامبل الذي كان مفتشاً لمركز أم درمان -طن- وبها للثناء- أسى أكتب عن الإنجليز معجباً وأتجاهل الثقافة الوطنية. حتى القدرة على تنمية عند القراءة افتقدها فمن لا يحسن القراءة لا يحسن الكتابة.

وأخذ يكيل لسباب لجيل الإنجليز لذي حسبي منه، وبدد بما وصفه بالحسين إلى الماضي، والخرطوم في أيامها الراهرة، إلا أنه لم يستطع أن يوضح ما يريد. وقد كان شجاعاً ومذركاً بصورة سببية لما هو فيه ولأرمة حيله -أولئك الذين ولدوا منذ مطالع سنوات السبعين. أرضعتهم مايو من غنائتها وتنطعها وريف شعاراتها وأحبرت عليهم «الإبادة» بتكريس القضيعة بينهم وبين المعرفة بصورة منهجية وسافرة أصرمت النار في عشرات الآلاف من الكتب - ليس مجازاً وإنما حقيقة يعمرها كل الناس وأعصفت البلد في وجه الكتب ومعت

دحولها وصاشرت ما كانت تجده في حقائب المسافرين. وثبت عيوبها في الجامعات والمعاهد تشد كل ما تراه يعبر عن بؤس وعي واستنارة حسبه لا يسجم مع «مشروع الحضاري» والمدارس نفسها حلت من المعدين الأكفاء ومن الساهج المجودة والمجربة التي كانت تعقد حولها ورش التربويين الشقات.

جرع القارئ في رسالته من الديمقراطية القادمة وكأنها حطر داهم وتوجس منها، وبحث تعبير «الاستبداد الديمقراطي».. -يا لها من جسارة- وما أدرك أن السبب في كل ما حاق به وبجيله هو عياب الديمقراطية الراشدة المستنيرة والسماح الحر للمعاني وسيادة الرأي أبو حد الإقصائي الذي يوردي كل المعاني والقيم التي ركنتها البشرية خلال مسيرتها الدامية الطويلة.

ما دفعني للإعتقاد بأن كاتب الرسالة من جماعة «الإبقاد» -رغم فيه اثبات لذلك لانتماء- حراته في الباطل والانتهاكات الممعددة والجاهرة دون سد من معرفة، ومحاولات ليس والاتفاص مما يعتقد الأخر بعلامات الاستفهام والفوسيس والتضييع حول كلمات معينة. يفعل ذلك ويعتذر عن ما يسميه بتخطي حدود اللياقة والأدب يقول ما يريد ويدرك عدم موضوعيته فيعود ويطلب المعرفة يندفع ويتراجع هذا السلوك لا يحصى على أحد هذا سلوك جماعة الإبقاد. تشوهات أصابت عقول ووجدان كثير من أبناء تلك الأجيال صاعوا وسط الهرمقات والسفاسات والوعود الرائعة.. والأمال الكاذبة. وها هو المعبد ينهار على رؤوس الجميع

ومن المؤكد أن هناك استثناءات باردة من هؤلاء الشباب -وبكثرتها قليلة- إلتقيت بمدح منها فعمرتنا بالدهشة والإعجاب شباب صهرتهم تجارب القهر والعت ووجع الحياة ونصوب يابيحها فتجاوزوا محتهم وطوروا دواتهم ونهقوا في كثير من المجالات، لم ينتظروا حتى تأتيهم رُحاء، أبحروا في مختلف الانتهاكات وأحرروا كثيراً من السجاسات

رددت على صاحبني لقارئ رسالته بصورة حاسمة وحازمة ومترفة فتشقت منه أخرى اعتذر فيها وأكد عدم صدقه بالإنقيديين وأعرب عن حب عميق لديه لوطنه وطالب بمساعدة ذلك الجيل الذي أصابعته الأهواء السياسية إن حارتنا لا تعرض في تلك الأحوال التي جارت عليها سلطات الاستبداد وأحلت بظلمها لتعليمية وحرمتها من الحرية والديمقراطية



مدرسة سنار الأولية في عام 1908

أبله البسمة كالقرد الصعيق

في منتصف سنوات السبعين وبغال المطام المايوي على حيين الشعب اندفع
 حدود محمورون من حامية ربك القريبة من مدينة كوستي يطلقون النار على
 الناس.. فأصابوا بعضهم وربما قتلوا واحداً أو اثنين هازعت السلطة لقصائية
 هي كوستي صباط حامية ربك تريد إعتقال الجندة لتحقيق والمحاكمة
 والصباط يصرون على الاحتياط بهم في حرساتهم. بدأت أزمة وصلت أياها
 إلى الخرطوم وسمع الأستاذ أحمد خير وكان شيفاً قد تجاوز السبعين ولكنه
 نجشتم مشقة السفر إلى كوستي للوقوف على جدية الأمر وللدفاع عن حق
 أصحابها ولما دخل مكتب القاضي، عبد محمود حاج صالح، وخذ المحامين
 والصباط جالسين يبحثون كهيئة الخروح من الأزمة، فسلم على المحامين
 وتجاهل العسكريين وامتنع عن مصافحتهم ولما حاول القاضي أن يسبه بـ «طلع
 بوجود الصباط اعتذر بقوة» «يا سي لقد كثرت وكل بعري ويت لا أرى
 الكاكي»!!

28 مايو 2002

وسطاً ورأى أن يستثير بالمرجع ويهتدي بالنسوانيق دون أن يقيدها، والعبارة بقيام هيئة تصمم لحريجين أما المستقبل فهو من شأن الأحيال اللاحقة»

كان أحمد خير هو صاحب الدعوة لتأسيس مؤتمر الحريجين في السودان، ولم يعتبر دعوته هذه ناتجة عن فكرة عبقرية أو إلهام. وإنما هي محصلة طيبة لما تراكم من نشاط وتجارب أسهم فيها المعكرون والكتاب والشعراء، كما لم يتجاهل التأثيرات الإقليمية كالحركة الشعبية في مصر والشرق العربي وحركة التحرر العالمية وفي مقدمتها المؤتمر الهندي. كانت دعوته بهذه المؤسسة التي لعبت دوراً حطيراً وحاسماً في تشكيل مستقبل البلاد قد ظهرت لأول مرة في يونيو 1935، على صفحات جريدة «السودان» في خطاب مفتوح إلى «طوبجي» - حصر حمد - من أحمد خير لكنها لم تثر اهتماماً في أوساط المهتمين وقادة الرأي. ولكنه عاد وطرحها مرة أخرى على صفحات مجلة «الفجر» في مايو 1937 في محاضرة قدمها في نادي ود مدني عن «واجب سياسي بعد المعاهدة» يعني بها معاهدة 1936 وهي هذه المرة لقيت استجابة واستعداداً من جانب أعضاء المدارس الفكرية التي كانت تقود الرأي العام في مدن العاصمة فعقدوا اجتماعات وبحثوا المشروع حتى برزت الفكرة إلى الوجود.

استرعى انتباهي قول أحمد خير «إن الوطنية و الأدب متلازمان» وهو قول دقيق من الناحية التجريدية عميق من الناحية الموضوعية حيث طبت الشفافة والمعرفة - والأدب جزء من ذلك - عنصرين أساسيين لتطوير الوعي بالذات والإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن والإنسان، وقد تميز عادة الأمم والشعوب عبر التاريخ بالإسهام العميق بالثقافة والفكر وحركة التاريخ

كان أحمد خير أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية ود مدني الأدبية التي نشأت في صيف عام 1936 بعد أن نقل تجربة مدرسة أبوروف الفكرية عدد من أفرادها

لموظفين الدين نقلوا إلى تلك المدينة شأت في قلة محدودة كأنها مجموعة من الماسوية كما وصفها أحمد خير وكان هدفها الأساسي هو التثقيف الذاتي وتصوير ملكات الكتابة والخطبة والحديث ولم يلبث لحال أن زدهرت وترددت أصدااء نشاطها في الصحف والأندية الأخرى وباتت محط أنظار وموضع الإعجاب من جانب المشتغلين بالأدب والقصة العامة.. كما أصبحت مصدر عرار ومحرر بمدينة لا يعفل عن ريارتها كبار المسؤولين والروار إلا أن السلطات البريطانية رأت فيها خطراً فعمدت إلى احتراقها لتلمس الاتجاهات العامة وفيض درجة الوعي فكتمت صباط التعليم بمراقبتها فكان يصيق درعاً بمناقشة الشؤون المحلية والظواهر السياسية كالشيوعية والعاشية والديمقراطية ومن أهم إنجازاتها التي باتت جزءاً من التاريخ الفكري والثقافي في القرن العشرين أنها أقامت مهرجاناً أدبياً كان بمثابة العيد القومي للبلاد فاردحت مدينة ود مدني بوفود الأدباء المشاركين والأعيان لرائزين من الشيوخ والشباب وانتهالت برقيات التهاني بالتمثات من بيها برقيات من السادة رعماء الطوائف الدينية. واندفعت سلطات المدينة مهروية حتى لا يفوتها شرف المشاركة في ذلك للمهرجان وطلب مدير المديرية أن يلقى خطاباً خلال حفل الافتتاح ووصف أحمد خير ذلك المهرجان بأنه أصبح عيداً وطنياً وصارت شعلته مثل شعلة الأولمب عند قدماء اليونان تنقل من مدينة لأخرى ومن ود مدني إلى أم درمان ثم الخرطوم فالأبيض وعطيرة من هذا المناخ الفكري العام وأنواع المتعاطف بقيمة الثقافة أطلقت الدعوة لقيام مؤتمر لخريجين

صدر كتاب «كناف جيل» في عام 1948 بعد أن حاصر أحمد خير تجربة مؤتمر الخريجين كاملة حتى قيام لأحزاب سياسية ولقي الكتاب رواجاً واستقبالاً حاراً فلغته كانت منتهية وعبارته مصادمة لا تسام وقد شئ فيه هجومياً عاصفاً على الطائفية وعلى رعيهيا . وعلى شيوخ الأندية الذين شكوا التيار المعتدل

ولم تصدر للكتاب طعة أخرى إلا في عام 1970، إلا أنه ظل بغية الباحثين والدارسين المتخصصين وحديث الناس في المجالس وإن كان معظمهم لم يحصل عليه لندرة نسخه وصعوبة التوصل إليها

يعتبر أحمد خير أحد أعلام الحركة الفكرية والوطنية في السودان كان ذكياً فصلاً ذا عقيدة مفدة وعاطفة حارة وحماسة صادقة دفعه لأن يدحس السحر مراراً أثناء فترة الاحتلال البريطاني. وقد ولد بمدينة ود مدني في نحو عام 1909 وتخرج في كلية عربون مترجماً في عام 1925 ولما افتتحت مدرسة الحقوق التحق بها بعد أن تقدم به العمر قليلاً وتخرج فيها عام 1944 واشتغل بالمحاماة وكان أحمد خير من الرؤد الأوائل بين الاتحاديين الذين إتحدوا ابتعاوب مع مصر وسيلة لتحقيق الإستقلال وظلوا يباوتون الإستقلاليين الذين كانوا يتشككون في نوايا السياسيين المصريين وشعار وحدة وادي النيل تحت الناح المصري. ولما كان أحمد خير مردي لمرعة متمير الشخصية حاد الطبع لم يستمر ملتزم بالعمل في صفوف المجموعات الاتحادية فصار إتحادياً مستقلاً يحاصم المعسكرين مستخدم قدراته الفكرية والسياسية، وقد صدرت له سلسلة مقالات شهيرة انتقد فيها الإدارة لبريطانية ثم جمعها فيما بعد في كتاب سماه «مأسي الإبحار في السودان» بقيت ممدى في الأوساط لوطنية إلا أنها كانت تنمي عليه مظاهر العردية وحدة لمراح. وقد حال ذلك لاطباع دون مشاركته في الحكومات التي أعقبت الإستقلال والتي استوزر منها من هم أقل منه قدره وتصحية وإسهام في الحركة الوطنية.

وعند وقوع انقلاب نوفمبر تم إختياره وزيراً لخارجية النظام الجديد الذي بات صديقه محمد أحمد أبوربات رئيس القضاء عرايه ومهندس القانوني رأى الوطنيون في شعله لهذا المنصب حائمة محرقة لناربحه ووضعته في سجله الوطني، خاصة بعد معادرة الحربات وملاحقة الوطنيين وتكميم الأفواه واتجاه

جميع القوى السياسية لمعارضة نظام عبود

وبعد وقوع مأساة الكونغو واعتقال لوممبا وفتتاح موقف حكومة عبود المحري وجد الأستاذ أحمد خير نفسه في موقف لا يحدد عليه، كأحد دعاة الحرية والمناضحين عنها وقد لخص الشاعر صلاح أحمد إبراهيم عصبية الشعب السوداني على هذا الموقف في مقدمة ديوانه «عصبية الهبائي» بقوله «أما من قضية هزت إسيانية أفريقيا وسانها، وأقلقت ضمير الحرية ووجد بها مثل مقتل لوممبا وامتحن الكونغو وبحس في السودان عرف كجوع بطوننا، انحية اسافرة التي رثيتها باسم حكومة التأمير العسكري من حدلان للوممبا باسم الأمم المتحدة ومحاصرة لأطوين جيوجا باسم الحيداد . يا لنا قسما من العار . ومسؤولينا في كل شفاء مر به الكونغو وكل شفاء جديد، في كل دم يسمع وكل خيانة تطعم، لقد أحرأ قضية الحرية في الكونغو، أحرأها أعوان وأعوانا بما فعل عبود وأحمد خير وحسن بشير وبقية البده والاكشارية بيدق الأمريكان سيدكر سا التاريخ بالحري والسنة منع جنودا لرئيس وراء بلاداء لشرعي من مخاطبة شعبه بأمر همرشولد وسيدكر سا بتاريخ صيدا للوممب عن المصار ومعاذته باسم الأمم المتحدة وسيدكر سا التاريخ إستسلاما الحفير الجبان لموبونو في متادي وسيدكر سا التاريخ حبس ائدرب وقطعت حط الشمال - حط الإمداد الوحيد حتى ماتت حكومة ستانليفيل صبرا» وفي إحدى لوممباته يقول

النعام الدبلوماسي الأنيق

يدفن الهامة في كوم من اللفظ رضيع

راحفاً عن قولة الحق التي تنقل شعبا

في نيويورك ضمير «العالم الحر» الدس

في نيويورك التي ردت لوممبا

وجمت - فيم حمت من قبل - دنبا

ومما لا شك فيه أن مصر ظلت مهداً للحضارة طيلة عشرة آلاف سنة يسما كان بقية العالم يوزح في خدمات الوحشية والحياة البدائية. ورغم ما تعرضت له من عمليات احتلال منالية إلا أنها ظلت لأمد طويل بلق شعوب المتوسط من أعريق ورومان مبادئ التنوير الحضاري

ودكر فيحالك شامبوليون - أبو علم الحضريات - أن القائل الأولى اني استقرت في مصر بين شلال أسوان والبحر- جاءت من الحبشة أو سار وكان قدماء المصريين ينتمون إلى جنس بشري مشابه تماماً لذلك الجنس الذي يعيش حالياً في النوبة. وتشير الكتابات التاريخية إلى أن النوبيين هم أسلاف معظم سكان القارة الأفريقية»

وحاء في تاريخ ديودور الصقلي أن السودانيين يقولون إن الآلهة كفأتهم على لقواهم بامتيارات عظيمة وجبينتهم السقوط في أيدي العراة الأجانب، صاعقوا على حريتهم بفصل الوحدة العظيمة التي سادت بينهم دائماً وقد فشل قمير المدرسي في غزو السودان وهناك جيشه بالكامل - فيما هو أشبه بالأسطورة- وبعدها هو من الموت بأعجوبة والملكة سمير أميس المشهورة بذكائها ومضاء عريمتها توجست شرا حين وطأت أرض كوش وأحسنت أنها لن تال مبتعدا فعاد أدراجها وربما كان إمتناع الأجانب عن غزو النوبة ناتجاً عن بحوف من قوتهم - فهم رماة الحديق - أو تقديراً لثقافتهم.. عند جاء في اليادة هوميروس أن «جوبيتر اليوم وبرفقة كل الآلهة يتقبل القرابين من الكوشيين فوحاء فيها أيضاً وبالأمس ومن أجل زيارة كوش المقدسة إنتقل جوبيتر إلى شواطئ المحيط» ومن مرط إعجاب الأقدمين بهم إعتقد ديودور الصقلي أنهم سم يأتوا من أي جهة أخرى وإنما يعرف من الأرض قبل بقية البشر لموقعهم المباشر تحت مسطر الشمس.

ويعتقد المؤرخون أن كوش كانت مصدر لرحال يتفوقون على بقية الجنس البشري بارتفاع قانتهم وجمال تقاطيعهم وإمتداد أعمارهم، وقال المؤرخ الصقلي «لا يوجد

البارية ورثة لحصارة اسودانية اقدمية

«وبالأمس... ومن أجل زيارة كوش
المقدسة، انتقل حويش إلى شواطئ المحيط»
"إليدة هوميروس"

وصف الرحالة الألماني الجسبة فريدريش فيرنر أفراد قبيلة بارية في جنوب
اسودان - حين زار مملكتهم في 20 سبتمبر 1840 مرافقاً للكاشي المصري سليم
فودان في حملة لاستكشاف منابع النيل - وقال «إن ملامح هؤلاء البارية كانت
لطيفة بصورة ممتدة للطر وأبهم طوال لقائمة أقوياء البية، أبهم عريضة بعض اشياء
ولكنها ليست مغلطحة، بل على العكس من ذلك مربعة قليلاً، كما هو ملاحظ في
ألف رمسيس الثاني، وأبهم كبير ممتلئ يماثل أفهم قدماء المصريين كما يبدو في
نماثيلهم، وأنجبهة عريضة ومقوسة، وأبهم بنية معبرة». وكشف فيرنر عن تواجد
الحياة التي كان يحياها هؤلاء البارية وأوجه النشاط الاقتصادي التي كانوا يمارسونها،
وأشار إلى حسن استغلالهم لموارد بلادهم الطبيعية المعدنية والسمائية والحيوانية
وقال إنهم كانوا يستخرجون الحديد لحام من المرتفعات وبصهرويه ثم يستخدمونه في
كثبان متوسطة الحجم على شكل كرات - كما كان يفعل أهالي كردفان في غرب
اسودان - ومن هذه الكتب كانوا يصنعون الآلات لقاطعة والمعدات التي يحتاجون
إليها في كدحهم اليومي وقال فيرنر إن هؤلاء البارية كانت لديهم علاقات تجارية
واسعة النطاق مع القبائل والشعوب المجاورة ولا حظ أن الدين والمعتقدات الدينية

لا تشغل حيز من تفكيرهم، إلا أن علاقاتهم ومعاملاتهم تقوم على أسس متينة من المحبة والإحاء والتعاون والسيوك الراقى وراهم يقبلون بعضهم بعض في مختلف الظروف والمسابات، وتجدر الوحد منهم يأخذ بيد الآخر عند صعوده انقارب أو عند نزوله منه، ووصف الرحالة الألماني لقاءه مع سبصال البارية بقوله « وقد حصر السلطان لأكوبو لمقابلة سليم على شهر اسعية تصحبه زوجته السلطانة أشوك وبعض أفراد حاشيته، وفرقة من الموسيقى ضلت تعرف حتى وصول موكبه إلى شاطئ. وعند وصوله أضقت سفر الحملة مدافعها تحية للصيف الكبير وكان السلطان يرتدي قميصاً طويلاً واسعاً من القطن أرق اللون وبه أكمام واسعة طويلة، وفي وسطه حرم من انقماش الأبيض والأرق وحوون رقبته عقود من البحر الزجاجي وأطواق من الأسلاك الحديدية الرفيعة ويضع في قدميه صندلاً من الجلد السميك أحمر اللون، وفي أصابعه خواتم من الحديد اللامع»

لَمْ تفرق مظاهر العر والسكان و لأبهة الحقيقية عاهل البدية لحطة، فقد جلس إلى مائدة البكباشي سليم قبودان يؤاكلة متحدثاً أرقى أنواع السلوك الملوكي والترفع متمسكاً بأداب المائدة ومتعاملاً مع حاشيته أثناء ذلك برع من الاحترام والمصطف والتقدير.

هد جره من كل هؤلاء ثم يكونوا جريه مسعرة بحصارتها وإنما يجسدون حالة تاريخية تجاهلها الأوروبيون حين غرروا القاره رعموا أنهم وجدوا شعوباً بدائية رعم ملاحظتهم بقيا حصرة زائلة تبدت في السلوك الإبداعي الراقى ونظم الحكم المتقدمة التفو بملوك رعاة وليسوا طعاة - أنكروا ذلك كله ورعموا بوسائل الدعية المحلفة أن أفريقي بحاجة إلى مدينتهم المحروسة بالحديد والبار. وسعوا لنشويه شخصية الأفريقي المعوية واستعداداته الفكرية لتبرير عدوانهم عليه

للاقت بلانتاه - مما تقدم من حديث - وصف فيرن هؤلاء البارية وتشسبه إياهم بالمراغة، وليس هذا بعرب عني كبيت المؤرخين الأقدمين، فقد ذكر المؤرخ

اليوناني ديودور الصقلي «أن السودانيين يقولون إن المصريين من بين جالياتهم التي أقامها أوريريس في مصر، بل أنهم يرعمون أن مصر لم تكن في بداية التاريخ سوى بحر عميق على إثيوبيا ندي جرفه النيل وحولها إلى جزء من القارة»

ويقول ديودور الصقلي «إن السودانيين يرعمون أن أبناءهم المصريين نقلوا عنهم جانباً كبيراً من قوامهم ونهم تعلموا منهم نجيل الملوك كآلهة ودفن موتاهم في إحتفالات مهية ون المحت والكتابة بشأناً لديهم». ويقول الكاتب السعالي شيخ أنا ديوب في كتابه اسنير للجدل «الأصول المرجحة لبحصارة المصرية»، إن المصريين والسودانيين إن لم يكونوا من نفس الجنس الأسود لموه المؤرخ القديم ديودور باستحاله إعتبار المصريين من جالياتهم- أي سودانيين إستقروا في مصر فكانوا أسلاف للمصريين»، وكشاهد عيان أفادنا أبو اساريح هيرودوت أن المصريين كانوا أفارقة سمر الألوان ثم ألت بعد ذلك بمرحلة مادية (وهو الإغريقي) أن اليونان أحدثت من مصر كل عناصر حصارنها بما في ذلك عبادات الآلهة وإن مصر هي التي كانت مهد الحصارنة

إن تاريخ مصر بأسره يدل على أن اختلاط السكان الأصليين مع عناصر بدوية بيضاء من لمرارة وتجار كان يتر بد أكثر فأكثر كلما أقتربنا من نهاية التاريخ القديم وجاء في كتاب «أبحاث فلسفية حول المصريين والعيسيين بفلم م. دي باو أن مصر كانت مكتظة في العصر المتأخر بجاليات أجنبية من الأجاس البيضاء، فالعرب كانوا في فقط واللبيون في موقع لإسكندرية وإيهود على مقربة من مدينة هر كليس والبابليون في منطقة المحاجر الكبرى الواقعة شرقي النيل ولكاريون والأيوبيون عند فرع دلت النيل الشرقي، كما كان هناك الطرو ديون الهاريون وقال دي باور إن هذا العرو السلمي بلغ أقصى مداه حين عهد الفرعون بسامتيث إلى فرق أحسية ومرترقة يونانيين مهمة الدفاع عن مصر» وبعد فتح لأسكندر لمصر اتسع مدى انصهار اليونانيين البيض مع المصريين السمر لينخذ شكل سياسة إستيعاب في عهد البطالسة

الموظفين السودانيين بعد مفتش المركز البريطاني

ومن الطرائف التي أوردتها أسيد عبد الرحمن عبد الله في كتابه ديث التحديث المشاعب للسيد محمد محمود الشايقي وكيل وزارة الداخلية في عام 1954 للدعوة الجديدة من بواب المأمير - وكان من بينهم كاتباً اس القاضي الشرعي - فقد حذرهم مدعياً بضرورة اتحاد الحبيطة والحدر عبد التعامل مع القاضي الشرعي الذي وصفه بأنه كفاء وقوي الملاحظة، ولكنه دائماً ما يكون كثير المطالب فيما يتعلق بصيانة المنزل أو رعاية حديقته أو تسهيل مأمورياته وكانت المصلحة باحتصار أن يمدوا له يد العون وأن يحذرو في الوقت نفسه من مواجهة مشاكل إجتماعية!

لا شك أن كاتب قد نعم في طفولته بحياة سعيدة متنوعة كابن أحد كبار الموظفين فقد ركب القطار - الذي أحبه - في زمن مبكر في الدرجتين العاهرتين « الأولى » و« اسوم » واستمتع بتلك الخدمات التي كانت تقدم في قطار ديك الرمن الاستثنائي وأدحت له ظروف النقل أن يرى مدناً كثيرة وصف القطار وصف محب كانت الدهشة تملأ أقطار نفسه العصف. وحق له أن يفعل ذلك فقد كان القطار بشكل عالمياً مختلفاً في ذلك الوقت.

وما رلت أذكر القطار وهو يمر أمام داره بمدينة كوستي حين تهدأ سرعته شيئاً فشيئاً معجبي الركاب ملوحين بأذرعا المعينة وبركص حفاة مسافات تعول ونقص في موازنه حتى يذل ميا الشعب لقد ملأ عالمنا في الطفولة وكان يستحود على جزء من حياتنا اليومية رائعا وعادياً رأينا من خلاله وحوها وسحبات رجلاً وساء وأطفالاً أعرسا ودعوا ورعاهد ووفيات وساء ثاكلات. وطلاباً يهتفون متظاهرين قادمين في إصرابات من خورحلت أو الفاشر، أو عائدين في الإجازات في جمعيات مسرحية وموسيقية أو فرق رياضية رأينا جنوداً عاندين من عطشهم ومساجين يتم بحويدهم إلى سجون أخرى كان يسعدنا حين يحمل إليهم أحياناً بعضاً من أفراد أسرنا وأهنا ندين يعملون في مناطق العرب. وما رلنا يعيش في ذكرى أسر ديك

أصوات

موقع آخر في العالم غير كوش صادق به حصاره بدت لاسيرتها مؤكدة ومحاطه بمعالم الأسقية التي لا نراع فيها، لان معاصريها أهدوا حتى محاولاتها الأولى وتطوورها وتصوجها

فالملوك لم يردوا معتصبي عرش مصر الليبيين في عهد الأسرة الخامسة والعشرين في حوالي عام 750 قبل الميلاد كانوا بالفعل ملوكا سودانيين فقد إعتلى شاباكي عرش مصر بعد أن طرد بوحوريس العاصب، وقد استقبله الشعب المصري بحماسة باعتباره منهم وباعثا للتقاليد المشتركة في إعمار تلك القرى التي تجمع بين الشعبين، ونقل هيرودوت عن الكهنة لمصريين قولهم إن من بين أفراده الثلاثمائة منذ عهد نعرمر (مينا موحد الفطرس) حتى لأسرة الثامنة والعشرين كان ثمانية عشر فرعيا من أصل سوداني، وقد اعتبر لمصريون دائما بلاد النوبة وأعواري أفريقيا أرضا مقدسة جاء منها الأسلاف - وذكر ديودور الصقلي أنهم كانوا يخرجون كل عام تمثال آمون ملك طيبة بانجده النوبة (أي السودا) بصيغة أيام ثم يعيدونه بعد ذلك للتدليل على أنه عاد من النوبة



إثنان من زعماء انبارية في عذقلا عام 1926

الشفافية وأنفاس الحكمة

عبد الرحمن عبد الله



كتب كثير من القيادات السودانية الذين تنوؤوا مواقع في العمل العام عن سيرهم الذاتية وعبروا عن رؤاهم وقرأنا جل ما كتبوا لمعرفة حصائص تجربة بلادنا وأسباب الإخفاقات التي لا نسي تعاصر حاضرها ونهدد مستقبلها إلا أنني ما قرأت تجربة إنسجت بالشفافية ووصوح الرؤية مثلما لاقيت في مؤلف السيد عبد الرحمن عبد الله « السودان الوحدة أم التفرق » والرجل عالم إداري مدبر وخبير دولي مرموق المكانة تسم عدة مناصب في بلاده وعلى الصعيد الإقليمي والدولي وقدم نموذجاً متماسكاً لقدرات المثقف السوداني في المناورة والكبح المعرفي. بدأ مؤلفه بموجز عن جغرافية وتاريخ السودان بصورة مكثفة مكسرة شكلت حلقة متسقة مع السياق الأنبي والواضح أن الرجل قرأ كثيراً جداً قراءة عميقة صبورة متأنية شملت صروباً شتى من المعارف قبل أن يمسك بالعلم لم تكن قراءه ليلة وضحاها ولا «علوقاً للشدة» وإنما إستيعاب مهصوم لقارئ كادح لا يصن بنفسه على السهر الطويل. ذلك

بالإضافة إلى تجربته الغنية المتنوعة في العمل الإداري في الدحل والمخارج
إستشهد بمن كتب عن السودان وأورد مواجر جامعة تشم عن حسن إختيار وتبصر

قال في شفاعية نادرة - حلت منها كتب لأخرين - في حديثه عن الديمقراطية :
وفي أي محاولة لمنح انديمقراطية فرصة حقيقية فإن المهم أساساً هو إدراك أنه لا
يمكن أن يكون هناك مجتمع ديمقراطي من غير ديمقراطيين فإن ذلك السر ولا
استثني كاتب هذه السطور - الذين قدموا يد المساعدة لتحرير أو إستمرار حكومات
غير ديمقراطية مهما كانت أهدافها وانجارتها ينبغي أن يتحملوا المسؤولية التاريخية
أمام ما لاقى وبلاقي شعبيهم من قهر ولحل يكتب ذلك بالشفافية، والتي هي لفظ
محفف إنتدعه جورباتشوف بديلاً لتعبير أليسيبي السطيمي «صارم» لقد واستفد
اند تي.، يشير إلى تجربته دون ريب . فقد كان أحد المسؤولين الكبار الذين تقدموا
مناصب ورارية مهمة في نظام مبيري. جاءوا به من موقع الإداري انعادي وموظف
الخدمة المدنية الكفاء . طاهر اليد وبنسان، ليسهم في صنع سودان جديد . أعمال
فعلت بها إمكانيات الرحيم المتواضعة وأهل الباطل الذين احتووه جاءت مقدّمة
الكتاب لطيفة وحداثة زنتها عدوية الحكيم ورمائه لدعه فتحدث عن صفوته ومرايع
صبه بشوق وتحال، فقد كانت ثرية متنوعة هي كيف والده العالم الإسلامي
والقاضي الشرعي مولانا عبد الله أحمد يوسف الرباطاني الذي قرأت عنه في مؤلف
اندكور محمد إبراهيم أبوسليم «أدباء وعلماء ومؤرخون في تاريخ السودان» ما كنت
أعلم أنه والد السيد عبد الرحمن عبد الله وقد كان الرجل أديباً فديراً نهماً وممد
بفاعته اشتهر بين أترابه في اندراسه به «المحتصر» . ربما كانوا يعنون «محتصر حليس» .
وقد ألف كتاباً موسوعياً عن «سجين» أشد إليه أبوسليم أيضاً وأسهب في وصفه . وقد
تخرج في كلية عردون التذكارية من قسم الشريعة في عام 1913، حين كان حريجو
دلت انعم يُعصون على أقرانهم في الأقسام الأخرى ويرمقهم المجتمع السوداني
بظرة عيبها كثير من انتقير والإعجاب وكان انقاضي الشرعي واسامور من أبور

لسودان حروب لموارد واهوية



د. محمد سليمان

«الحرب القائمة ليست بالحرب الأولى
فقد سبقها في التاريخ حروب وحروب
انتهت الحرب السابقة.. بمنصرين ومهزومين
عند المهزومين جاع عوام الناس
وجاعوا أيضاً عند المنصرين»
يرثى برشت

ترجمة الدكتور محمد سليمان

القطار، لهادر الوفور وصافرة التي تنعو عند المسحى متجها نحو المحطة

حين بات على أبواب التخرج في مطلع الخمسينات كان يدعّب السيد عبد الرحمن عبد الله حلم العمل في لإدارة اميدانية الذي كان حلم طفولته نسبة لما كنت أشاهده من مميزات يتمتع بها الإداريون وأما رفيق والذي، موصف الخدمة لمدينة الذي عمل في عدد من المواقع المختلفة وكان هناك مرل لأمور الواسع لأرجاء بأشجاره الوارفة ونخدم يحوبون أنجاءه ولمساجين يعتنون بحد ثقه ورجال الشرطة وموظفون آخرون بملابسهم الرسمية بهرون وراه في كل مكان، أما لمفتش الإنجليزي فهو دنيا كانت قائمة بداتها، يعيش في عزلته المختارة في مرر مسيح في طرف المدينة وكأنه إقطاعي كبير،

وقد رصد في حديثه عن تاريخ الإدارة في فترة الحكم الثاني تجربة المفتش الإنجليزي بني لا يفتأ كثير من اسودانيين يدكرونها كلما التفتو ورأو جيشا جرارا من الإداريين ليوم يتراحمون في لحصول على الاميزات والسيارات والترقيات يجمعون كثيرا ولا صحننا يرى ولا عبار دقيق يدكرون المفتش ذلك الشاب الإنجليزي الصارم النظرات الذي له في كل مشهد حضور وفي كل موقف رأي قاطع بوجهه المخاطر ويعقد المحاكمات ويفض الحصومات بحوب البوادي ويتفقد الأسواق عبر آبه لما يلاقي من متاعب وما يفشاء من رفق .. وكأنه بطل الغرب الأمريكي الذي لا يقهر ولا يموت

الثقى الإداري الشاب بعدد كبير من نظرائه الإداريين الذين سبقوه في الميدان وتركوا لديه بطباع عميقة لا تزل وقد استأثر حسن دفع الله وداؤود عبد اللطيف بكثير من إهتمامه وقد وصف داؤود بحدة الذكاء وسعه الإطلاع وروح المرح والدعابة ولحكمة في العمل وعدم الالتفات لأساليب البيروقراطية وقال إنه أضلعه مرة على خطاب سري تلقاه من زميل له رفيع المستوى في الرئاسة يأمره فيه بتهجئة عصية بعدم مراسلة وكيل وزارة أخرى مباشرة. وكان رد داؤود الساحر أنه روى به

كيف كان ذلك الرميل لا يستطيع إلا الإمساك بالسديفة رأساً على عقب خلال المدرجات التي سبقت تتحافه بالعمل لإدري وقال إن داؤود كان يصف حاكم المدينة لعسكري المعين أنه «أنا» والعسكري الحاكم «ساحراً ومجرماً» كما علق على شكوى من موظف صغير عبد مساعد له لا يحبه أحد بقوله ببهجة السودانية الفريدة «إنه مرؤوس جيد ولكنه رئيس ردي».

كانت تجربة عبد الرحمن الأوسى بعد تخرجه في جامعة عام 1954 في مركزي الرنك ومكالك بمدينة أعاني السيل ثم في فنجاك وسط قبيلة السوير التي أحبها وظل وفي لعدد من أفرادها حتى بعد أن عاد إلى مناطق أخرى ولم يكن بعيداً عن مشكله جنوب السودان وظل لصيقاً ومتابعاً لتطوراتها، كما ظل يؤمن إيماناً عميقاً بوحدة بلاده وإمكانية حل النزاع إذا تم احترام حقوق الإنسان الأساسية من خلال المدرسة الديمقراطية الصحيحة وقنسم لسلطة ويرى أن العوامل الرئيسية التي تبدو شاحصة للعيان وتعرقل الوفاق هي بالضرورة عوامل عدم انشقة والجهل وضعف الإرادة لسياسية محل الخلافات ويذكر أن موضوع حق تقرير المصير الذي بات مركز اهتمام متزايد لا يمكن تناوله باستحقاق أو تميد من خلال إتفاقية حرية أو حلول قصيرة الأمد قد تشق صفوف السودانيين ويؤكد أن حق تقرير المصير قضية بالغة الأهمية، ليس من حق أحد سوى الشعب السوداني بأجمعه، أن يقرها أو لا يقرها، بصرف النظر عما يصمره العيب وبقدم رأيه للنزاع الذي يعصف ببلاده ومقدراته بعمق وحكمة وبساطة حالية من لتفقر ولتطير لأجوف ويرى في الدماء التي سالت ولقرص لتي هامت أساساً بوحدة مختملة، فهجرة الحويبين بواحدة نحو الشمال وانتشار السعديم قد يحفف من انغلاء ويدفع نحو لوحدة والاستجمام ويرى ضرورة أن يهتم اسودانيون بجوانب استوحد وليس الانقسام وأن تتركز لجهود الفكرية على تشجيع التفاعل الإيجابي وديناميكيته من أجل صير الأمة.

كتب السيد عبد الرحمن عبد الله مؤلفه باللغة الإنجليزية فحاجاً نصاً متماسكاً

أصوات

مشهد العري محدّد لكتابات ولأهداف مما انعكس إيجاباً على الترجمة التي
اصطلح مهمتها أستاذ المقنن المانع التجاني فأحسن الأداء

25 يونيو 2002

الكتاب الذي صدر أخيراً بعنوان «السودان - حرب الموارد والهوية» لمؤلفه المفكر والمثقف الموسوعي السوداني الدكتور محمد سليمان يصح جميع السودانيين أمام مسؤوليتهم التاريخية في هذا المصطف لحادو الخطر. إنه صبيحة من أجل وقف الحرب وتحقيق السلام. يسر سلام التسويات المؤقتة والترصيات الفردية. يسر اسلام انقائم على العدل وتوزيع الثروة واستعانة. وهو يحاول تقديم رؤية تحليلية جديدة غير من ألما من الأفكار السائدة التي تتناول طبيعة امراعات المسلحة والحروب الأهلية التي استشرت في بواحي السودان.. كما أنه اتسم بالفعل التوثيقي ليتجاوز النقص الذي صاحب المراجع التي تصلنا بالمحنة التي تهدد كيان السودان ووحدته. كما يعتبر لأول من بوعه في مجال علم «الايكولوجيا السياسية»

تدول المفكر محمد سليمان قضيا انصراف في السودان في بساعة ويسر وأعادته إلى أسبابه لحقيقة وطالب أبناء شعبه بالتأمل فيها للخروج من دو لمر الموت التي لا تسي تداح وتسمع شتلع حيرة الشباب وتكرس مريدا من المحن والصعائ وتزعزع الأمن القومي وتمرق لتسيج الاجتماعي، وركز المؤلف جل اهتمامه على الإنسان السوداني وأبرز مصالحه الأساسية وحقوقه المشروعة. كما طالب مثقف وطه أن يصنع عى عواتهم واجب إزالة علامات شعبهم وللمساهمة العملية في الخروج من دائرة الحرب والتخلف دون الإيفاس في التصورات الأكاديمية المجردة أو لاكتفاء على الذات في الأبراج العاجية

قدم المؤلف صورة يائسة وواقعا مضطربا وفجائع مائنة وأخطار اقتصادية واجتماعية وثقافية ويثنية بانته نمرر نتائجها السلبية المدمرة، في كل مصنف وتتحلي في كل مظهر من مظاهر الحياة اليومية.

وقف الدكتور محمد سليمان في عدد من المسابر الأكاديمية ذات الاختصاص في العواصم والمدن الأوروبية خلال السنوات العاصبة - وهو انحر في شؤون الايكولوجيا السياسية ومدير مركز لجديل الأفريقي في لندن منذ عام 1990 -

يتحدث عن محنة بلاده ويساهم بعكسه في كيفية الحروب من هذه الأمة ويدعو للتفكير في إمكانية إعادة ترتيب أجنحة الحرب والسلام في السودان عبر قراءة جديدة لبواعثها وتجلياتها في ضوء معايير تختلف عما هو متداول

تناول الكتاب بشكل عام العوامل السياسية والاقتصادية لمعطيات النزاعات والصراعات الأفريقية والمفاهيم السائدة لتفسير بواعثها وربط ذلك بأبعاد الواقع السوداني- كما أبرز آليات الصراع الاجتماعي الناشئة عن تلك التغيرات، وتحدث أيضاً عن مبررات الواقع السوداني واندفاعاته على الأصعدة الإيكولوجية والبيئية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية- كما ألقى الضوء على القوى الاجتماعية المستفيدة من تأجيج نار الحرب الأهلية.

واشتمل الكتاب على الملامح الرئيسية لمسارح عمليات الحروب والصراعات المسلحة في الجنوب وحبائل السوية والأنفوسا وشرق السودان ودارفور وأثر تلك الحروب والحروب العنصرية وما نتج عن ذلك من قتلا وروح مجموعات سكانية كبيرة متباينة في خصائصها الثقافية والاجتماعية لذلك يعتبر هذا الكتاب محاولة لفهم الصراعات الدموية بين الجماعات بشكل عام بتجلياتها الأفريقية من خلال تفصي مظاهرها في بعض مناطق السودان، ويست هذه المساهمة سجلاً كاملاً لحالة الحرب والسلام في السودان وإنما تسعى لتحديد السمات العامة للظاهرة في كل جزء من أبعاضها مع توثيق بعض الأمثلة المحددة ويحاول لكتاب في الوقت نفسه أن يوجه كثيراً من الاهتمام للأثر الاجتماعي الذي يشأ نتيجة لتحويلات السلبية التي تتعرض لها البيئة الطبيعية مما يشكل عاملاً مهماً لتأجيج الصراعات الدموية، ويرى أنه ما دام الترددي البيئي وشح الموارد يؤثران بصورة فعالة على طريقة حياة الناس وعملهم فد فإنه من الضروري معالجة الشؤون الاقتصادية والقرارات السياسية ذات الصلة لتقوم أثرها على العنف في المجتمع

ويظل أفضل ما تحتوي عليه هذا الكتاب القيم هو التركيز على مسألة بريف

السوداني الذي أريدت عاباته وتدهور العطاء النباتي فيه نتيجة لتوسع الجائر في الزراعة المطرية (18 مليون فدان زراعة ألبه مملكتها حوالي ثمانية آلاف أسرة مقابل تسعة ملايين فدان زراعة تقليدية يمتلكها أربعة ملايين مزارع صغير). وأكد الكتاب أنه بحلول عام 2002 ستفرض كل العيادات الممتدة في شمال السودان ست مرات مساحة حرب.

وكشف الكتاب أن السودان فقد 17 مليون هكتار (40 مليون فدان) نتيجة لتعرية التربة جراء الزراعة المطرية الآلية -التي تنسم بالنهب- وأصبح أكثر من ستة ملايين شخص يعيشون تحت خط الفقر حتى بالنسبة للمقيمين السودانية، بينما برح حوالي أربعة ملايين شخص من مناطقهم إلى أواسط البلاد حيث الأمن بعدالي أفضل نسبياً، بالإضافة إلى ثلاثة ملايين شخص فقدوا أرواحهم بسبب الحرب والمجاعة وجاء في الكتاب أن الحكومات المتعاقبة منحت ملايين الأمدنة للصورة السودانية وشركاتها الإقليمية والعالمية على حساب سكان الريف، ودنث في شرق السودان وجنوب النيل الأزرق وحبل النوبة وأعالي اسيل وغيرها من المناطق في حزام السامو الواقع بين خطي 7 15 شمالاً، ودون صحيح تقوم حكومة الجبهة الإسلامية بتوزيع ملايين أخرى من الأمدنة على مزيديه، وأورد مثالا لشخص واحد منح حوالي نصف مليون هكتار (1,040,000 فدان) بل وقس اشروع في حمر قناة جوبقلي بوقت طويل كلمت الحكومة شركة هولندية بإعداد دراسة جدوى إقتصادية للتخطيط الزراعي لمنطقة السودان مما أثار المخاوف لدى السكان المحليين الذي حملوا لسلح لحماية بيئتهم من النهب والتدمير وصمان بقاتهم فقد بدأت لحرب الأهلية الشاية بالهجوم على حجارة قناة جوبقلي وبصرب مشآت شركة شيقرون لاستخراج النفط. فهل لحرب التي تدور حاليا هي صراع بين العرب والأفارقة وبين المسلمين والمسيحيين أم هو نزاع على الموارد في المقام الأول؟ إن هذا الكتاب الذي يقبض بالمعلومات الموثقة يؤكد أن الأسباب الحقيقية لإمتداد

هذه الحرب هو الصراع من أجل الأرض والنمط والمياه ويقول إن عائد النمط أهم عند حكومة الجبهة الإسلامية في الخرطوم بما لا يقاس من دجون آلاف الجنوبيين الإسلام ولم يعمل الكتاب دور الهوية في الصراع حيث لاحظ أنه يتعامل مع استمرار التناحر والقتال فكلف طال أمد بحرب كلما أحدث قضايا الهوية مكانا متقدما في وعي وإدراك المفاتين من لجبيين

قدم للكتاب باستهالة صافية الدكتور صلاح آل بدر- مدير مؤسسة المجتمع المدني السوداني بمدينة كيمبريدج بالمملكة المتحدة وأثره بالشروحات والتحواشي كمساهمة رالعة في هذا العمل المختلف.

2 يناير 2001م

حروب الموارد.. المؤلف

لَمْ أَحَدُ مَسْوَماً لِلإستمرار في عرض لكتاب القيم السوداء حروب الموارد والهوية، مما أوردته في الأسبوع الماضي يكفي فلسف في حالة عرض لمحتوياته والمهمون يسارعون لاقتنائه باعتباره وثيقة لا عسى عنها احتوى أحداث متلاحقة لا تفأ تترى ويضل الجرح مفتوحاً عميقاً ناراً ومائلاً لا يعري حتى الحلي بسياسه كد أنه من الصعب خترابه لأن كل سطر فيه بل كل كلمة حديرة بانتوقف والتأمل فالصراع المسلح المرير والحرب الأهلية العاشمة تمتد وتشمل مناطق وسعة من بلاد السودان . ترافقها انمجاعات وانتشار الأوبئة ولأمراض والتعكك لأسرى والحريرات التي تشكل موقفاً من تفلح سنوات طويلة من السلام في إزالته.. هذا الكتاب يؤكد أن كثيراً من المثقفين السودانيين لا يعمض لهم جرح ولوطن يواجه خطر التمزق والتجزئة وإن كان هناك ما يحمي لهذه السوات المعجاف التي احشدت بالأهوان ولأحدث الثقال هي البقعة التي انتظمت قطاعاً واسعاً من امثقفين فكتبوا ووثقوا وأعادوا النظر في كثير مما كان يعد صرباً من لمسلمات وقدموا مساهمات جليلة من شأنها أن تشكل أساساً راسخاً لإعادة بناء لوطى وكاتب الدكتور محمد سليمان واحد من هؤلاء وإن لم يحب عن ساحة الفعل الثقافي والفكري والسياسي حيلة لعقود الأربعة الماضية . أي مد أن كان في عصارة الصب ونفتح الوصي في تلك لسوات العاصفة. سوات برشت الذي ترجم أشعاره هو من الألمانية:

وردت المدن رمى القروى

حيث تفسى فيها الجوع

وعم القحط

وجشت الناس أواك الثورة

زمن السخط

مصحطت، فصببت وإياهم

أعلنت الرقص

وأنكرت قسار الأحوال

في هذا الدرب، وعلى هذا أموال

فصببت الوقت المصروح إليّ على ظهر الأرض

ولد الدكتور محمد سليمان بأم درمان في نفس العام الذي شهدت فيه العاصمة الوطنية نشأة مؤتمر الحريجين العام. تلك المؤسسة التي لعبت أحضر دور في التاريخ السياسي المعاصر بالسودان. كانت تتويج لكل ما عتمس في النفوس مدحون لعراة البريطانيين فاتحين. ثم تزامنت مراحل طفولته مع تطورات الحركة الوطنية ونتائج لحرب العالمية الثانية، وما أبش من أحداث وتطورات دستورية واحتدام الحركة لوطية التي أفضت نتائجها إلى إستقلال البلاد

كانت قد هبت رياح جديدة عدة الحرب ووعدت أفكار مختلفة مع نتصارات الموفييت في متانيجراد ودحرهم للبارية وتشكل وعي جديد عبر لدي ألعنه الجمعيات الثقافية التي تشكلت من نواها لأحزاب السياسية وشأت حركة نقدية عارمة.

كان محمد سليمان في تلك لسنوات طفلاً عريماً يقضي أوقاتاً جميلة في عابة المسط لمجاورة للحي بغرب أم درمان - كما تباون ذلك في كتابه مجسد التعبيرات

الإيكولوجية العميقة التي طرأت على البلاد - بطارد الحيوانات الصغيرة ويجمع الثمار البرية والحشرات الملونة - ويعود إلى مدار يطلع من أثر طعنت لأشوك في باطن قدميه الحافيتين - يرعبه عواء الصبح اندي يتجاوب قبل المعيب

عندما التقيته في العاصمة البريطانية في صيف عام 1999 فاجأته بأنها كُنْ تعرفه منذ سنوات - دراسته الثانوية في مدرسة المؤتمر بأم درمان حيث كان شقيقه الأصغر الدكتور فتحي يتقدم بعامين - وكيف أنه فتح لك كنوز مكتبته التي تركها بالسودان أيام دراسته بألمانيا ورويت له كيف تملككت لدهشة والعجب وبحر طالع - لأوب مرة - أشعار باسم حكمت وبوس آر جون وديبويرود وبول بيلوار وولت وبتما ونه اس إيبوت وميكوفسكي وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وبند الحيدري ومحمد صالح بحر العلوم وعبد الرحمن الشرقاوي وصالح عبدالصبور ونوح اسر الحسن وجيني عبد الرحمن ومحمد الفيتوري وكتابات إرنست هيمنجواي وفرتر كافكا ومكسيم جوركي وشتاينبك وريتشارد رايت... وغيرهم كانت تجربة ثرية ملائمة وقتذاك بالرهو والإحساس بامتلاك الحقيقة - ما أن انتهيت حديثي حتى حصل الدكتور محمد سابعان بشقيقه فتحي المقيم بألمانيا وسادت معه بعض من ذكريات تلك الأيام.

كُنّا مجموعة من الأصدقاء حين لبب دعوته لمعشاة في داره العاصرة بالكتب والشعر وحب الأحرار - كان المطر يهمني حين استعيلت بمودة وحررة وجنس يتوسطنا مشبع حواشي بالألفة والصدقة - كان يقضي فترة نقاهة بعد صراع مرير مع مرض لثيم قومه بروحه المقدامة ومؤررة أصدقائه لذين لارمونه في كل لحظة - وأحد يقرأ علينا بعض أشعار برنولت برشت التي ترجمها إلى العربية - وكانت قد صدرت لتوها كأفصل ترجمه للشعر لأجبي - ترجمة لا تتماهى مع النص وحسب وإنما تكتسب روحا خصوصية ماثلة صادرة من ذات شاعرة ومبدعة.. كانت تلك الليلة ليلة للشعر والمطر والأصدقاء.. الثالث الذي يسعد لكاتب.

ملقى محمد تعليمه الأولي والأوسط في حي انعرب بأم درمان والثانوي في بين وادي سيدنا وحور طقت أما تعليمه الجامعي فقد تقاسمته جامعتا الخرطوم وفريدريك شيرر بألمانيا، وقد حصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء الفيزيائية كما حصل على درجات علمية في التعليم واللغات التي يجيد منها العربية والإنجليزية والألمانية والروسية والروسية، وعمل محاضراً ثم محاضراً أول ثم أستاذاً مشاركاً في جامعات الخرطوم وحوبا وألمانيا وإنجلترا وله ثمانية مؤلفات وقدم حوالي خمسين ورقة علمية (وكان مؤلفه الأول قد صدر عام 1961، باللغة الألمانية والأخير عام 2000 باللغة العربية) ويجري الآن أبحاث حول الصراعات المسلحة في منطقة القرن الأفريقي حيث يعمل مدير المعهد البديل لأفريقي بنند منذ عام 991 ويعيش الآن في إنجلترا مع زوجته، الدكتورة فاطمة بابكر محمود ووحيدتهما مرة التي تدرس العلوم التطبيقية في جامعة بيرمنجهام. كرس حياته للعلم والمعرفة والدفاع عن قضايا أمته، ولم يؤثر حياة الدعة والراحة في بلاده أو في العواصم الأوروبية ولكنه يرى يقاتل دون ما يراه حقاً للمستضعفين فدفع ثمن ذلك عالياً سجوناً ونهياً وتشريد

احتتم مقدم كتابه الدكتور صلاح آل بندر ذلك الاستهلال بقول رائع «أما المساهمات الرصينة مثل ما يقدمه الممكر محمد سيمان في هذا الكتاب فهي كعملية النمو الواعدة الصابرة، رغم شاطئها العائق لا صوت لها ولا يهتس بها إلا القليل، فمن سمع يا ترى صوت نمو الشجرة السامقة لوارفة الظلال»

9 يناير 2000م

في حكايات كانتربيري السودانية

برامبل.. المستبد العادل

كان الإعجاب برجال الخدمة المدنية والعسكريين البريطانيين قد بلغ ذروته مع بلو، الإمبراطورية شأواً لَمْ يسبق أن حدث مثيله في التاريخ وقد تضمن كتاب «فيكتور يون متالفون» مؤلفه ليتوب استراخي أربعة سادج مسطعة عبرت عن تلك الفترة المهمة في تاريخ برامبل. كان الجنرال عردون أحدهم. وقد أضاف استراخي اللثام عن حقيقة تلك الشخصية التي جمعت بين القسوة والتسلط وإن لم نحل من روح الأخلاقية المسيحية المتطهرة. أما برامبل فقد كان مدعية صغيراً لَمْ يتألق إلا في حدود مدينة أم درمان التي لا تزال تذكره حكمها بيد من حديد. كان رودولف سلاطين قد سبقه في الشهرة في تلك المدينة التي عاش فيها سنوات أسره ثم إتبعها مفراً به حين عاد معتقلاً عام 1905. لا أن برامبل ترك بصمات أكثر عور في قسمت المدنية، الشارع والسيما وذكريات تسلطه وعدله وموكبه الصباحي في أحياء المدينة والسوق.

أسموه برامبل بيه - هكذا أطلق عليه ناعمة إجلالاً ومحبة رغم قسوته وتشدده في سبيل تطبيق القانون وفرص النظام مدب كل الذين رأوه وكانوا راشدين، وحتى يد، بقي منهم أحد قد لا يستطيع أن يقدم صورة كاملة عن ذلك الرجل الذي شغل ناس أم درمان لعدد من السنوات. لا أن مستر إليوت بالهور سمفتش المركز السابق بحكومة السودان - قدم ب صورة حيّة وكافية عن شخصية برامبل الذي عمل معه فترة بمركز أم درمان قال بالهور إن برامبل كان يعمل في البحرية الملكية حتى وصل

إلى رتبة رائد، ولكنه قضى معظم سنوات حياته العملية بعيداً عن الروتين العادي وكما حدث للجنرال عردون فإن اسمه قد نبع في لصين حيث كان يعمل وربما كان قد جاء عن طريق الجيش المصري حيث بدأ خدمته في السودان بين قبيلة الموير والوعند عرفته كان يعتبر ملكاً غير متوح لمدينة أم درمان وكان أهلها يحبونه ويقدرونه لأنه على الرغم من ذلك القناع لمتشدد كان هو وروحته قد ندرا نفسيهما دون حدود بتحسين أحوال الرعية كان المستر برامبل يهتم حقيقة بالحرف لمحبيه ونجح فعلاً في تطوير أعمال العصاة والجلود إلى مستوى ما كان يمكن تحقيقه إذا ترك الأمر للجهد المحلي».

ووصف بالمرور الموكب اليومي لدلت الممشى بعينين بريطانيتين لا كما كان يراه السودانيون بالطبع. وقال إنه في تمام الساعة السادسة صباح كل يوم كنت تحشد أمام مقر برامبل مجموعة من رجال الشرطة بزيهم الأبيض الناصع، وبعض الموصفين السودانيين يدين يمتطون السيول كالمأمور وصابط الشرطة بالإصافة إلى عدد من شيوخ الحارات يركبون على الحمير وعندما تعلق الساعة السادسة تماماً يهرح برامبل ممتطياً صهوة جواده ومرتدياً حودة «ولرلي» التي وضع عليها شعار الحديوية رأس فيل من العصاة على أرمية حمراء لامعة، وجاكتة من الجلود مع أشرطة الرتبة على الكمين، والحداء المبدائي والسهمار كان هذا هو الزي الرسمي المحصن لحولة المدينة وكان يفترض أن يكون بالمرور دائماً مرتدياً نفس الزي بانتظار برامبل مع الآخرين ولكن في أحد الأيام وصل متأخراً عباده برامبل بقوله «أنت يا خنزير الجحيم، لديك ررار فاتح»، وبعد تلك اللحظة لم يصل متأخراً. وروى بالمرور أنه قد حدث مرّة في إحدى الجولات بسوق المدينة أن مروا بمجموعة من النسوة اللاتي ما أن رأينهم حتى أطلقن برعاريد وتكرر المشهد لثلاثة أسابيع متتالية وما كان الأمر ليطلق علي برامبل ندي أوقف حصانه في لمرّة الأخيرة، ونادى «يا عوص الكريم» فأسرع إليه الباشجاويش عوص الكريم يريه الرسمي الكامل

أصوات

وسيمه يصل على حاضرة العرس فأمره برامبل بالقاء القبض على النسوة وأخذهن إلى المركز ولما عاد إلى مكتبه وقّدم إليه استطاع أن يتبرع عتراههن بأن الجرارين قدموا خمسة قروش للوحدة منهن حتى يصدرن تسبيها بالرغاريد ندى مرور موكب لعشتر ليستعدوا بتعطية اللحم بالموود حتى لا يصبح هدفا للدياب وكن قد دعين في البداية بأنهن يرعدن إعجابا به وبعدله، إلا أن ذلك لم يقنع الرجل الداهية

وقال بالمر إن لغة برامبل العربية كانت محدودة وكثيرة الأخطاء، إلا أن ذلك لم يؤثر على رباطة جأشه حين يتحدث للأحرار، وكان لديه ثلاث عبارات مفصلة يستخدمها دائما «دا مصوع» «مش ممكن» «وانت محبوب من هبع». أما إذا استدعى الأمر الإستمارة في المحادثة فيأدي مترجمه هاشم ويقول له «كلمه يا هاشم كلمه» فيتولى هاشم انترجمة بسيل من الكلمات العربية، فيقول برامبل «تمام، فهمت الآن أذهب بسلام».

وروى مستر بالفور أيضا أنه حين انتشر مرض الجسري ذات عام بأم درمان كان الناس يتهربون من التطعيم. وحدث أن احتشد جمهور عقير في فناء المركز لمتابعة إحدى القصيدا المهمة، فما كان من برامبل إلا أن أمر بإغلاق أبواب المركز واستدعى ممرضين من المستشفى على عجل ومعهم معدات لتطعيم وعلى الرغم من المعجاة التي كان يمكن أن تؤدي إلى نوع من الشعب إلا أن الجمهور استمر لموقف بصحك يشوبه نوع من الكآبة ومدوا أذرعهم جميعا للتطعيم.

الثقاء بالفور بعد فترة من نقله من مدينة أم درمان حيث عاد إلى العاصمة لأداء امتحان اللغة العربية الذي تعقبه الترقية، فقال له برامبل أنت تحتاج لكلمتين عربيتين فقط فتوقع أن يسمعه عبارتي «دا مصوع» «مش ممكن» إلا أنه في هذه المرة قال له «الشدة مع العدل»

احتشد كتاب «حكايات كانتريري السودانية» بأكثر من عشرين رواية لمبريطانيين

شغفوا وظائف في مختلف المهن بالسودان وقد صدر في مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بأم درمان في طبعة فاحرة تسر القس وتسعد القس وتنعّم الروح جمعها وحررها دويّاد هولّي -الإداري البريطاني السابق في السودان- وقدم بترجمتها الأستاذ محمد أحمد الحصر التوم فأبلى وأحسن

تحدث جميع من كتبوا بحب نادر وأعجاب شديد بالسودانيين وأكدوا أن السموات التي قصوها بالسودان كانت من أسعد فترات حياتهم، وقدموا لنا تجارب ماضية وصورة بادرة عن سودان ما قبل الاستقلال

27 مايو 2003



سلاطين مرنديا ري الأنصار بعد هروبه إلى مصر

الأميرة نصرة وحوريات مارجان

ما كان بدور بطلنا أن قرية السورية الواقعة بالقرب من مدينة ودمشق كانت تحنص قصرًا متينًا شُيِّد على طراز أحد المعابد القديمة يربيه لأثاث والرياش الفاخر وبعض بالحوري الحسان وتقدم فيه أطيب أنواع الطعام التركي كان ذلك قصر الأميرة نصرة بنت عدلان سليلة ملوك سمر الدين هوى سلطانهم بدخول العراة الأتراك في عام 1822 كانت الأميرة نصرة قد تجاوزت الأربعين بارعة الجمال ذات بشرة صفراء تشوبها حمرة ذهبية أحادة استطاعت بسهولة وبسر أن تسجّم مع نظام الحكم التركي الجديد وتستقبل سديته في مقرها وتقيم مع بعضهم علاقات تجاوزت كل الحدود هي وابنتي رعم أنهما كانتا مفترنتين برجلين من كبار الأعيان الذين تعاونوا مع الأتراك وفي ذات ليلة قصد حصنة من الأوروبيين كانوا يقيمون بدمشق قصر الأميرة وبمجرد بروجهم من الخيوط أحاطت بهم الجوّاري الفسات يحملن أية انفرج الجميمة المريبة بالقشوش والملاي بشراب الأبري وقدمنها وفقًا لطقوس معينة وكانت الجوّاري يرندن الرحط وهي مبور كثيفة من الجلد تستر ما بين المرأة والركبتين وكان يترين بالأسورة والمجول وعقود ذهبية من الحرر وتندلي من رؤوسهن على الوجوه مبدليات ذهبية رادتها رونقًا وجمالاً. ولما حنّ الليل حاولت الأميرة نصرة أن تسجّ لأوروبيين اثنتين من هؤلاء الجوّاري الموندات إلا أن الصدفنة لم تتم لأسباب مالية خاصة بالروار. وفي مارجان كتب أيضاً للأميرة نصرة تمتلك منزلاً تحيط به حديقة صغيرة بالإصافة إلى عتبة من أشجار السط الكثيفة المحصر. نصمي على المكان مطراً حلالاً وفي مشهد آخر دخل بعض الأوروبيين تلك العتبة حلياً للصيد فقادتهم الصدفة إلى شاطئ ليل ليبدأوا بعدد من الجوّاري المرحات يربو على المثنين يسبح ويغسل الملابس ويتواش في الرمال وبعضهن يتنعن

حلف الأشجار مثل الحوريات. كانت تلك الميتات من جوارى الأميرة التي يبدو أنها احتفظت بحر الملك والسلطان حتى في ظل تلك التحولات السياسية العميقة

استطاع رجل أوروبي مجهول الهوية أن يسجل تلك لمشاهد من الحياة السودانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ما كان يستطيع الوقوف عليها نولا العثور على مخطوطه الذي قام بترجمته من الإيطالية إلى الإنجليزية ريتشارد هيل وإلى العربية الأستاذ عبد العظيم محمد عكاشة. نحن مارلينا نتوق لمعرفة المزيد عن التاريخ السياسي والاجتماعي للأمة السودانية ويبدو أن المؤلف الإيطالي الجنسية عاش بسط بين الناس منذ وصوله إلى السودان في بداية القرن التركي عام 1822 م ولم يتأثر بأوساط السلطة الحاكمة في رؤيته بتلك الأحداث التي صاحبت القمع ومحاولات تجسيد مراميه فوصف رجال قبائل الدينكا والشلوك بالثبات في معالجة الجيش الفاري الذي ظل يش عازاته لصيد لرفيق وانتقد بمرارة بصادج أخرى من السودانيين الذين تدافعوا بالمساكن للحصول على الرخصة وكسب المال بالساق ومحالة الحكم الظالمين الذين وصفهم بالقسوة والتسلط والاستبداد تناول المصير أيضا الوقعة الأسطورية لأبناء شرق السودان أمام القوة التركية العاشمة التي حاولت إحصاعهم بأحد الأساليب كما تناول تمرد عرب رقاعة أبوروف والشيخ أبو ريش (عرب الحمدة) كما تطرق لمؤلف لوصف عادات السودانيين ومعتقداتهم وقول الشيخ لديهم وإكرام الصيف.

ومن المعروف كما لا يمتلك إلا معلومات عامة عن الانتفاضة الشعبية معارمة التي صحرها السودانيون ضد العرة لأتراك عقب مقتل إسماعيل باشا بن محمد علي في شدي ولا يعرف سوى حادث الحريق ووصول الدفتر دار من كردفان ليثار لصهره وليطارد الملك بحر إلا أن الواقع أن الانتفاضة هذه عمت أرجاء السودان وكادت أن تقضي على القوات الغازية لولا غياب القيادة المركزية الواعة باستطاع الفاري أن يستفيد من العزلة التي صاحبت ذلك التحرك. كما استطاع الكاتب أن يمدد

معلومات ذات أهمية عن تلك الأحداث وفي مشهد ثم يكرر معتاد في السودان كما أن كتب التاريخ لم تتطرق كثيراً بسوجه، وصف المؤلف الإيطالي موقف الشيخ رجب ود يشير العور (أحد شيوخ الجمعة بالعطيش) في مواجهة الإعدام بالجلوس على الحروق وذلك في عام 1836 وكيف ودع أهله في هدوء وشجاعة وأدى ثباتاً بادر أمام جمهرة من النساء ثم توجه إلى أمة الإعدام العجيبة. وقبل التنفيذ ندد بسلطة الأتراك ودع الناس للإطاحة بها وتناور الكاتب سيرة أحد الأقطاط والذي كان سكرتيراً للحكماء حرر شيد ناشأ إلا أنه كان مقرباً منه ودانعمود كبير استطاع من خلاله أن يعتكف في سائر داراً محنة تعص بالعثم وانعدم من الجسبين وكان من بين هؤلاء الخدم حارية شركسية أحصاها من الحكماء لأنها من جسيته إلا أنه اضطر بعد أن انكشف سره إلى الزواج منها بعد أن أعلن إسلامه وصمى نفسه محمد نور الدين. والعريف أن سلالته لا تزال تعيش في مدينة الكاملين ومعروفة بأولاد الأفيدي. الدهش الكاتب لما رآه في قرية حبيبة بالحريرة حيث كان شيخ أحمد اربيع الوبي المعروف وولد الشيخ حمد النيل يتمتع بمرنة كبيرة ويتراحم الناس بتفيل بدء رأي الكاتب أن الشيخ اربيع كان يتكلم بعاشة وبواء الأسر البغيرة في بقرية انواقع أن التكية صلت مكاناً معروفاً لإقامة انخير ل واستضافة المريرين لدى معظم مشائخ الصوفية في السودان.

ووصف المؤلف مدينة ود مدي التي يبدو أن العاصمة انتقلت إليها من سائر في تلك الفترة بأن رؤيتها كانت تتعدى بمقادم إليها بسبب العابات الكثيفة وقال إن مبانها شيدت دود تحيط وبه لا شيء فيها يسترعي الانباه سوى الشكات العسكرية وكذلك مرل قائد لفرقة نشافة الذي تم بناءه من طابقين بجدران صلبة ووصف المستشفى وأقسامه لمحتدة حتى عرفة العمليات والحجرات المحصنة للمرضى والمرصين والصبب المماوب والسكانب والأحر حانة ثم مصبح وقدر إن سوق ود مدي كان يتكون من مجموعة من الأكواح أقيمت على حطيس متوازيين وتم

دلت بالإضافة إلى الإهتمام بأنواع الرياضة كالبولو وسباق الحيل وكرة tennis وفي أيام أعياد الميلاد ورأس السنة يحد المرارعون والعمال مادة دسمة للمحدث عن حفلاتهم السادة عندما يترسحون سكارى ويحبب بعضهم عن الوعي ويحتلظ الحابل بالبن كانت تلك الأخبار ينقل تفاصيلها السواقون والمراسلات وكان يأتي بعد الإنجليز في المرتبة الباشكنية والمحاسبون المسؤولون عن ملك امدنر وحسابات المرارعين وحرف مستحقاتهم. وكانوا جميعهم من الشوام ولأعاريق والأقباط صارلهم أقل درجة بكثير من منازل المفشين وليس مسموحاً لهم مشاركة الإنجليز في أنديهم فيتجمعون في مزارل عر بهم للسهر والمقامة. وكانوا يترشون ويعرضون أفاوات بأشكال مختلفة على المرارعين كترويديهم باللعب لحيولهم ولأبقار البن وغير ذلك مما فعل الباشكاتب القبطي رياح عبده الذي قرّر أن يبيع بقرته عن حريق البانصيب (الكرتلة) ليقتص ثلاثين جنيهاً بينما قيمتها الحقيقية ثلاثة جنيهاً فقط وكان الممشون الإنجليز تسرعهم هذا انديوك الرومية لشي يقدمها بعض المرارعين في عيد الميلاد ويعكس ذلك في معاملتهم لهم والنظر بعين لرمصا.

كان المرارعون رجالاً وساء يعمون في الخيط ويوجهون الكثير من الصعوبات إلا أن مجتمعهم في المشروع برز متماسكاً وذلك رغم اختلاف أعراقهم فكانوا يجتمعون في أوقات صرف الأرباح والعلاوات ويناقشون المشاكل العائلية والإجتماعية والإقتصادية التي أفرها قيام المشروع بالمصنفة

كان المستر ربيي أحر محافظ أحبيي لمشروع الجزيرة - يتحدث مع مساعديه حول مستقبل المشروع بعد عيابه إذا تسلمه نائبه السودسي مكبي عباس كان يتوقع له فشلاً قريباً فقد لارمتهم النظرة الدوية للمصر الوطني إلا أن عالما هوسديا إعتاد ريادة المشروع سوياً ليعتقد بعض التحارب التي أقيمت بالجزيرة كتب عن مستقبل المشروع يقو إذا أعلن لتفكير في مستقبل مشروع الجزيرة بعد تخلي البريطانيين عنه تبادر إلى الأذهان ما سينتجم عن ذلك من مشكلة فهل نلقي القول بأن في

يكن فيها سوى بعض الأقمشة ذات الألوان الباهتة بالإضافة إلى الأحذية والحرر والسكر والبن والبهارات وغيرها. وأفضل ما في السوق كان ذلك السمفهي الذي يحتل مكاناً قصيب عند نهاية أحد الصميين ووصف المؤلف البذرية بأنها كانت قدرة لدرجة لبشاعة تسنر فيها الأمراض والأوبئة بسبب مياه الأمطار الأسنة المتراكسة كما أشار إلى عدم وجود دورات المياه والمرحيص الأمر الذي يضطر السكان إلى قضاء الحاجة على حافة النيل مما يحرم الناس فرصة السره على الشاطئ

أعجب المؤلف ببلدة لمسلمية التي طلت مردهرة ومركراً بجداراً تندفق إليه السلع من الحبشة ومصر والحجار ويرخر سوقها الذي يقام في يوم الثلاثاء من كل أسبوع بأقمشة الموسويين الهندي والمستحجات لأوروبية وغيرها بالإضافة إلى البصائع الواردة من مختلف المناطق السودانية إلا أنه نهم بعض تجار المسلمية بأنهم كانوا يستخدمون قاطمي لطرق لقتل ونهب انتحار العرباء العابرين وقال إن عدد من المنهجين ومن بينهم الشيخ مدني شحبول شيخ المنطقة قد أوقفوا لمدة من الزمن قبل أن يطلق سراحهم. أما في سار فقد لعت إنباهه أن الموسرين كانوا يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي بعيداً عن النيل ويقوم بملاحقتها الأرقاء الذين يعيشون في قرى أمة مع أسرهم ويجدون رعاية إنسانية من مالكيهم الذين لا يحرمونهم أطفالهم عن طريق البيع وعكس ذلك حمل المؤلف بشدة على الأوروبيين الذين كانوا يعاملون أرقاءهم بمنتهى المظاظة ويسومونهم سوء اعداب إلى درجة قتلهم لأنه الأسباب. الحقيقة أن تلك العثرة كانت من أسوأ المراحل التاريخية التي شهدتها لسودان حيث كانت أهداف محمد علي تتجسد في صيد الرقيق لاقتيادهم للخدمة العسكرية ونهب ثروات الوطن وخاصة الذهب وقد وصف زيارة محمد علي الكبير لسودان وتلهمه للحصول على اندهب إلا أن محاولاته بدت بالفش ولم يستطع أن يحصل على ما كان يتمناه وتراعى إلى سمعه من وعثرته وقد أسهب المؤلف الإيطالي في وصف حملات صيد الرقيق التي كان يقوم بها لأتراك

أصوات

والقسوة المتناهية التي تلامها، إلا أنه أكد أن الأمور ما كانت تتم بسهولة لأن حيرة رجال القبائل وشجاعتهم وقدرتهم على تعقب القوافل وتلقيب المعتدين دروساً لا تسي بعد تحليلهم ذويهم

كان هذا الكاتب المجهول جزءاً من مجموعة لأوروبيين الدس وفدوا إلى السودان لتفديد مشاريع محمد علي وكان منهم لأطباء والصيدلة والبيطرة والمهندسون، فرنسيين وإيطاليين ويونانيين وإنجليز وغيرهم جاءوا من أحضان الطبقة الوسطى الأوروبية متحسين بجرح حروبها وهرانمها وإحقاقات انتفاضاتها الثورية جاء بعضهم بحثاً عن المال والبعض الآخر عن المغامرة والبات الدات وهناك فرنسي آخر تعرض لنفس تجربة نظيره الإيطالي وكتب نصاً عبارة عن يوميات يلقى الضوء على تلك الفترة التي لا نعلم عن تفاصيلها الكثير، ولجروا أن يحملان عنوان معنى تخوم العالم الإسلامي حقبة من تاريخ السودان 1822-1841

لكارب.. وقصه مشروع الجزيرة

عرف السودان الفطن من قديم.. ما جاء به مشروع الجزيرة في القرن العشرين كان يموهياً في تلك المنطقة وخاصة على ضفاف النيل الأبيض وكان من الصادرات الرئيسية في عهد العونح الفطن واندور كما عرفته مناطق في الجنوب أبيض وقد ذكر بيركهاردت أنه في حلال وعوده بشندي عام 814. رأي المسوحات القطبية آية من سار كانت منطقة الجزيرة امتداد. واسماً تعمده العابدات والحشائش الصالحة للمرعى من مشرف الحرطوم حتى الحدود الأنثوية وعرفت المنطقة بجزيرة سار، وجزيرة الحرطوم، وجزيرة مالك ود أبوروف - رعيم قبيلة رعاة انهوي التي كانت قطعها هي وعبرها من القبائل تجوب تلك المنطقة هي رعدة مسوية من أقصى جنوبها حتى الحرطوم ومن تواضع أن لجزيرة كانت في الأركان الموصلة في القدم جزءاً من الحصرة بالسودان فلا يزال الساس يكتشفون بين وقت وآخر آثاراً تدل على ذلك.

ظهرت فكرة رعاة القطر بالسودان لأول مرة في مذكرات كتبها الرحالة هولرويد عام 1839 حين مرّ بالجزيرة في طريقه إلى كردفان. وفي عام 1904 عقب الاحتلال البريطاني للسودان بسنوات قليلة بدر سير وبنام جارسنتين مستخدم بوزارة الأشغال المصرية بشر تقرير عن مديح النيل العليا نصح فيه بشدة بضرورة تشييد حراة أو قنطرة في منطقة سار على النيل لاررق لري جزء من أرض الجزيرة. وأحدثت الحكومة البريطانية تفكير في تنفيذ المشروع بحدية بسبب صحوط أصحاب مصانع العزل بلانكشير الذين توجهوا إلى تحارة العزل بلقصر الناعم تدريجياً ولما كان إنتاج القصر المصري طويل السيلة يتعرض للانخفاض إتجه بتفكير لإقامة المشروع

أصوات

وفي عام 1913م بحث مجلس العموم البريطاني لقرض الذي كانت تطالب به الإدارة البريطانية في السودان لتأسيس مشروع الجزيرة ووافقت حكومة لندن على العرض الذي كان مقدراً بثلاثة ملايين من الجنيهات

وفي عام 1911م فكرت حكومة السودان في تجربة الري بالجزيرة فصلت من الشيخ عبد الباقي العركي أن تبدأ التجربة في قرية (طيبة) التي زودت بوابر كبير لري الأراضي الزراعية الأمر الذي أحرر مجاح أقصى إلى نتائج غيرت من واقع المنطقة ومن ثم تطورت الإمتدادات بعد التجربة الإستطلاعية الأولى في طيبة لتشمل مناطق أخرى باري بالعلميات كالمجاح عبد لله وبركات وبدأت الحكومة في تشييد الحراة عام 1914م ولكن لعمل توقف بشوب الحرب العالمية الأولى يستأنف مجدداً ويكتمل في يوليو 1925م

وتدرج العمل في مشروع الجزيرة عبر تجارب عديدة ومنوعة حتى أصبح الركن الأساسي لاقتصاديات البلاد وحتى بات يعرف بالمشروع الأكبر من نوعه في المحيط الإقليمي العربي والإفريقي

في بدايات العمل لم يكن حظ السود بين في العمل بالمشروع وافر وكان حكره للأجانب مع السيطرة تامة للمعصر البريطاني وكان السود يول الأوتل الدين إحتلوا في وظائف بسيطة بالمشروع فتية ثلاثة . أكبرهم في بدايات العشرين من عمره وأصغرهم لم يتجاوز لسادسة عشرة وكان عمر محمد عبد لله الكارب أحدهم وحدو أنفسهم في محيط راحر من لأحانب بريطانيين ويونانيين وشوم ومصريين كانوا عرباء في وسط بلادهم إلا أنهم صمدوا وتحملوا المشاق والمكاره ومصايقه وعجرفة الآخرين بدءاً بكارب مرارعا عادياً ولما يول بالمرحلة الوسطى وبعد تحرجه منها التحق بالمشروع موطفاً صغيراً وتدرج حتى أصبح نكاً للمدير العام وأحرر عضواً في مجلس إدارته.

أصدر المستر آرثر جيتسكل - وهو شقيق أحد أشهر رعماء المعارضة في بريطانيا- كتاباً في عام 1959 بعنوان «الحرية» قصة تنمية في السودان». وأرسل نسخة منه إلى الكارب وسمح به بالرجوع إليه في حالة كتابة مذكراته عن تجربته بالمشروع، والتي تناولت الأحداث التي مرت به طوال سني خدمته.

كان امستر جيتسكل قد انضم إلى خدمة مشروع الجزيرة فور تخرجه في جامعة أوكسفورد في عام 1932 وعين مفتشاً صغيراً بأحد فئاتيش العبط بالمشروع وراول عدة وظائف قبل أن يصبح مديراً للمشروع في عام 1945 (في عهد الشركة الزراعية) ثم صار بعد ذلك محافظاً لإدارة المشروع بعد تأميمه في لأول من يوليو عام 1950 واستمر إلى أن تقاعد في عام 1952.

كتب السيد عمر محمد عبد الله الكارب مذكراته بعنوان " الجزيرة قصة مشروع ورحلة عمر " مرص فيه العام وانخاص بشكل مختلف متعرض لتجربة المشروع من قيامه في تدخل ممنوع مع سيرته الذاتية واهتم بإرفاق وثائق في غاية الأهمية تجعل من الكتاب مرجعاً اقتصادياً واجتماعياً لا عني عنه.

وصف الكارب الحياة الاجتماعية في مشروع بأنها كانت تعصف بالعراق والمعارقات، فالمرارعون كانوا يظفون إلى الموظفين الإنجليز كحكام وكانوا يطلبون منهم المساعدة في حل فصايهم أمام السبوت، الأمر الذي كان يثير كثير من امتناع الحكومة المحلية إلا أنهم كانوا إذا أحسوا بأي نوع من الإذلال لا يخشونهم ولا يتورعون عن مبارلتهم وكان للموظفين الإنجليز وضع متميز تحصر بهم منازل مفروشة ومرودة بكثير من الصروريات، وخاصة لهاتف الذي يتم توصيله عقب استلام الممار من لمقاول مباشرة وكانو يمنحون سلعيات بشرء الحبوب التي كانت تستخدم بدلاً عن السيارات التي تم بكن قد عرفت بعد وأقيمت لهم الأندية الخاصة المجهرة بكل أنواع التسلية والترفيه وكميات من بكتب التي ترد من إنجلترا مباشرة

أصوات

النهائية لجلاء القوات وابتدع بعضهم متهااتين بفحصون لموجودات بل تصادقوا لحجز المكاتب أثناء سير المفاوضات وفق الأهرري على مقابلة المستر راو كأحد لحبراء الدين عمد حماد توفيق إلى الإستعانة بهم إثر زيارة له لبودلهي وقبل لحصت من معادرتهما - هو وبحيري - لمكتب رئيس الوزراء طلب المستر راو من الأهرري حجة أن يادن له ليقول كلمات قليلة صحابه يجب أن يعلم صباط الجيش وبتدعوا لتحكم التنظيم السياسي المدني وهذه كانت واحدة من اعتبارات الرئيسية في الهند عندما حصلت على الإستقلال إذا سم يحدث هذا الأمر سيأتي يوم يتجرأون فيه عليك ويلقون بك وبورارتك في السجون، صحك الأهرري ضحكة واثقة مميرة وانتهت المقابلة ولم يلبث أن مضت سنوات قليلة حتى ألقى به العسكريون في السجن مرتين، لم يتحصل فيه المهانة والفهر في سريرة الأشيرة فأسلم الروح

كانت لتجربة الهندية على الدوام نصب أعين الخريجين السودانيين الذين تعلموا عبء النضال الوطني، حتى أن مؤسستهم الأولى أطلقوا عليها اسم «المؤتمر» تيمنا بالمؤتمر الهندي، وكانوا يتابعون بانبهار وأعجاب حركة الشعوب الهندية ونضحياتها والتعقيدات الإجرائية التي صاحبت معاصر الإستقلال فالتجربة الهندية الآن رغم ما تواجهه من عثرات شأن دول العالم الثالث أثبتت رسوخا ونجاحا ومريد من الايمان بالديمقراطية كما أحررت انتصارات في مجالات الصناعة والإنتاج لم تعد حافية على المراقبين أما نحن في السودان فمارالت حراحيما نازقة بما فعل السوء، مث.

قصة المستر راو مع الرعيم الأهرري وردت ضمن مذكرات السيد مأمون بحيري التي صدرت أخير في الخرطوم بعنوان «لمحات.. من تجارب رحل خدمة عامة من جيل الرواد السودانيين». وبحيري رجل خدمة مدنية معروف وإقتصادي مرموق تدرج في السلك الوظيفي بوزارة المالية وتولى مناصب مهمة

استطاعة القائمين بالأمر الآن الحفاظ على نفس المستوى من حث الكفاءة والمقدرة^٩ لا يحتاجنا على من نشك في أن السيد مكّي عباس الرئيس الحالي موظف من انطراز الرفيع، وهو في رأي كس صحيح لأي مؤسسة دوية إنه عملاق الروح والبدن. مراد جامع الطاقة متدفق الحماس تأقب النظر. سريع الفهم حاصر لبدية لا يحار في الإجابة مع ثبات القبول شخصية طاعية. مسيرته. وهو في نفس الوقت رجل مهذب من قمة الرأس إلى أخمص القدم. هكذا وصف العالم اليهودي مكّي عباس الذي تسمم منصبه في عام 1956م

وبدأت عمليات السودنة تشمل وظائف المشروع وأثبت أولاد البلد جدواتهم وكفاءتهم فبيع الأداء في المشروع دروته في الحركة والنشاط والمقدرة والحماسة، حتى اعترف المستر جيتسكل بعظمة المستوى في أول ريادة له بعد سودنة الوظائف وعند ريارنه الثانية عند قيام مشروع المناقل

استعرض الكارب عدد من الشخصيات التي عملت بالمشروع وما قدموه من جهود وانتهت مدة خدمته في أواخر أبريل عام 1964 بعد أن أمضى 35 عاماً في رحلة بداهة في صحبة التاسع من يناير عام 1929 عندما حصر إلى المشروع باحثاً عن عمل منطياً ظهر حمار والده وأقيم له حفل شاي صبح بميدان مكتب الرئاسة ببركات تحدث خلاله عدد من المسئولين وقدمت له الهدايا وهدى بدله من أحل لمشروع اندي أنقى فيه رهرة شبابه وهكذا استطاع هذا الرجل العصامي أن يقدم لوطه خدمة لا تقس عن مساهمته في تلك المؤسسة الشامحة بكتبة تلك المذكرات الثمينة ولعل ذلك يكون ناعناً للقائمين على أمر المشروع الآن لانتشاله مما أل إليه من تدهور وأحوال تؤرق الحاديين على مصلحة البلاد.

لقد أحس مركز الدراسات السودانية بمؤسسه الدكتور حيدر إبراهيم على شر هذا الكتاب في إطار مجهوداته الرائعة في لتوير وإشاعة الوعي



التجهيزات الأولية لتشبيد هزان سنار

مأمون بحيري والخدمة المدنية



في ذات صباح قليل إعلان إستقلال السودان بقليل، كان الرعيم إسماعيل الأهرري رئيس الوزراء ووزير الداخلية في أول حكومة وطنية مسهمك في وضع الترتيبات النهائية المتعلقة بجلاء القوات الأجنبية من السودان. وكان ينتظر تقرير عن سير المفاوضات مع قيادة الحاميات البريطانية التي كانت تقيم في ثكناتها بحري حول تسليم الموجودات غير العسكرية. وعندما حمل مأمون بحيري التقرير بتكليف من وزير المالية حماد توفيق رافقه المستر راو، أحد كبار موظفي الخدمة المدنية في الهند والذي كان في زيارة للسودان. كان ذلك مرحل يبدى رهبة عارمة في لقاء الأهرري منذ وصوله إلى الخرطوم وكان يشكو بكياسة ولطف من التأخير في تلبية تلك الرغبة ولاحظ مأمون بحيري أن مستر راو كان يكثر حيرة ثرية تثير الإعجاب عندما كان يتحدث عن التجربة الهندية في استلام الحكم من البريطانيين وقبل السماح لهم بالدخول إلى مكتب الرعيم الأهرري علما أن القيادات العسكرية السودانية كانت قلقة بشأن الترتيبات

أصوات

بختياره في مهمة دولية دعا إليها السكرتير العام للأمم المتحدة المستر دج همرشولد، وكانت تلك المهمة عاجلة ومهمة شاركت فيها مجموعة قليلة من أشهر وأقدر الاقتصاديين عهد ذلك من العرب والشرق ودول آسيا فقد كلّفوا بالقيام بتقدير العوائد الاقتصادية والاجتماعية التي تعود للبشرية من حراء نزع سلاح، فأنهوا المهمة بسجّاح وفي الوقت المحدّد وأكّدوا أنّ نزع سلاح يعود على البشرية بعوائد اقتصادية واجتماعية لم تحصر على لبال كان ذلك في مقر الأمم المتحدة بنيويورك في عام 1959.

21 مايو 2002م

وقد عمل وزيراً للمالية والاقتصاد خلال فترتين للدكتاتورية العسكرية (نوفمبر ومارس) حيث كان يتوهم أن نظام «المستبد العادل» هو نظام مثالي للسودان إلا أنه توصل إلى قناعة نهائية بعد كل هذا الاستبداد العسكري الذي محق كل أوجه الحياة في السودان أن الديمقراطية هي الحق والمسطق والتاريخ مهما تعامى النعاع وأرجف المرجفون.

ظل مأمون بحيري لمدة خمسين عاماً معاصراً للأحداث والمتغيرات حيث برزت مؤهلاته وقدراته على المستويين المحلي والإقليمي والمستوى العالمي أحياناً. وعندما وجد وقتاً كافياً ليكتب في الولايات المتحدة التي ذهب إليها مستشهقاً لم يحاور أن يدعي بطولية أو بروس موقفاً.. وأخذ يتحدث عن تجاربه في العمل بروح المجموعة أو الفريق. والرحل ظل محمود السيرة لم يتورع في شبهة ولم يؤخذ عليه ما يشين تاريخه. كان يعمل بما يراه نافعاً لبلاده وينصرف دائماً بروح موظف الخدمة المدنية التي خاض تجربتها وهي هي ذروة تألقها وعظمتها. وعندما استشرى الفساد في سلطة مايو وأحكم لمرهون الطوق حول بحيري وريوائه كل قبج وأوهام، بالمصمة والحلود وديروا مكائد سياسية وأبرمو صفقات أودت بكل مكاسب اللوطى كان الرجل بعيداً. فطبعه لم يكن يؤمله للحوص هي ذلك حتى وصفه أحمد سنيما المحامي بأنه كان دكالا طرش هي الرقة.

والخدمة المدنية لا يذكرها السودانيون إلا وتعمهم مشاعر الأسى والقسوة لا لأنهم فقدوا بها هبة الدولة وحمائتها وحسب ولا الخدمات التي كانت تحرص على تقديمها.. ولكن لارتباطها بوحدانهم لأنها كانت الحاضنة التي برزت منها الصبغة الوسطى، شريحة الأمدية المتميزة التي ظلت أملاً للأمة وملاّت فراغ القيادة في المجتمع المدني السوداني وأبحرت كثيراً مما يعتمد عليه الآن.

كان أول الدروس في اصراط الخدمة المدنية التي تلقاها مأمون بحيري حدث عند تعيينه لدى عودته حريجاً في أوكسفورد للعمل بالسودان عام 1949. كان قد درس الاقتصاد والعلوم السياسية والفلسفة فتقدم بطلبه للالتحاق بمصلحة المالية ورغم الحفاوة والترحيب بمقدمه من جانب إثنين من كبار موظفي المصلحة لبريطانيين، إلا أن تعيينه لم يكتمل لأنه كان أول سوداني جامعي يتقدم للعمل وليس هناك وظيفة «على مفاصل» أو اعتماد مالي متاح لشغل مثل هذه الوظيفة تتصمه الجزائية بالتالي

لم تكن مصلحة المالية الحالية من لموظفين السود بين الأكفاء، بل كانت نزع بالعشرات. إلا أنهم جميعاً كانوا قد تخرجوا من كلية عردون التي لم تكن سوى مدرسة ثانوية علي (تجهيري). ولما كان التعليم الجامعي قد أخذ في التهور خلال تلك السنوات إلا أن كلية الاقتصاد لم يتم إنشاؤها إلا في عام 1959 كما كان هناك تمييز واضح بين البريطانيين والسودانيين في الوظائف ومخصصاتهم وكان الإنجليز يبررون هذا التمييز بأن السودانيين يخدمون بلادهم وتلزمهم التصحية. وهو منطق يعتقر للياقة وروح العمل.

استقر رأي المسؤولين في مصلحة المالية على أن يلتحق بحيري مؤقتاً معلماً بمصلحة المعارف إنى حين إكتمال إجراءات تعيينه في المالية بعد إعداد الميراثية الجديدة. فتوجه إلى المعارف حيث استقبله وريها رجل التربية والرعييم الشياشي عبدالرحمن علي طه مرحباً وأحالته إلى مدرسة حنتوب الثانوية. وهناك استقبله مستر براون الذي كان أحد نظار المدارس البريطانيين المتميزين والذي عمل لفترة طويلة في السودان مدرساً للعلوم. وسره اللقاء الودود وروح الصداقة الذي تعمير به لقاءه مع براون الذي كلفه بتدريس التاريخ الإسلامي قاحت به هذه الفرصة الوقوف على الحياة في مدرسة حنتوب الجميلة وهي لا تزال في عامها الرابع مرهوبة بكوكبة من المعلمين الأقداد ذوي

المستويات الرفيعة كاصصري حمرة، وعد لحليم علي طه، وهاشم صيف الله، وغيرهم من الأساتذة المؤهلين، كما تميز طلابها عهدهم بالتفوق الأكاديمي والاجتماعي والرياضي وعلى الرغم من ظهور الانجازات السياسية في المدرسة إلا أن الإسجام كان تاماً والهدوء سائداً

كان مأمون بحيري محظوظاً حين قدر له الالتحاق بكلية فكتوري في مصر، التي كانت مدرسة ثانوية رفيعة المستوى تقبل أبناء الأعيان والأسر الكبيرة وتمثل ممطاً إبحرياً ظل متوارثاً منذ العهد لفيكتوري. استكثرها عليه مفتش إبحيري في حديث مع والده قائلاً: إن تلك الكلية حاصة بأبناء الباشوات والطبقة الارستقراطية، وكس بحيري الأب أصحم المفتش بقوله: فوهل سميت أن اسي هو حميد السلطان علي دبر، حمر سلاطين لغور، وبعد ذلك التحق بجامعة أوكسورد التي بررت كإحدى أعرق الجامعات في العصر الحديث، وما كان ذلك انتاهيل ليتوفر بمأمون بحيري لولا أن والده كان أحد انضباط في قوة دفع اسودان الذين تم إلحاقهم بوظائف إدارية في الحكومة

بات مأمون بحيري أحد الكفاءات النادرة في الخدمة لعامة بالسودان وساعدت شخصيته لديناميكية في ترقيه ونسبه كثيراً من الوظائف العليا واستطاع عدة الإستقلال أن يسهم في تأسيس النظام المالي للدولة الوليدة وإدخال عملة وطنية للمرة الأولى وإشاء بنك مركزي بكل ما يتطلبه من إدارة جديدة تتمتع بالكفاءة اللازمة، ذلك بالإصافه إلى تأسيس البنك الحكومية لمخصصة وبنك القطاع الخاص لأول مرة، على الصعيد المحلي أما على الصعيد الإقليمي فقد برز لبرجل دور فعال ومساهمة رائدة في تأسيس أول بنك عموم أفريقيا، الأمر الذي دفع القارة لأن تشرفه سكيمة القيام بمسؤولية أول رئيس لثلاث المؤسسة الوليدة وأعيد إنتخابه لنفس الموقع لدورتين

وعلى الصعيد العالمي كان بحيري نجماً لامعاً في المشهد الاقتصادي حتى تم

أصوات

هذا المعهد فمكتب النشر ومجلة الصبيان احتلا مكاناً صغيراً ببحث الرضا قبل أن ينقل إلى المحرموم وفكرة تعليم الكبار بدأت في قرية أم جر القريبة من مدينته اندويم تحت إشراف بحث الرضا

هذه التجربة التربوية تجاوزت حدود السودان لتشمل المصطفين العربية والأفريقية ففي عام 1939 زار بحث الرضا الدكتور أحمد عبدالسلام الكردي رئيس رابطة التربية الحديثة بمصر وأعجب أعجاباً عظيماً بأسلوبها العدي وقلة التجربة إلى بلاده حيث أنشأت الرابطة مدرسة أوبية ريفية في قرية المسيل خارج القاهرة

كما دعت الحكومة لمصرية عدداً من أساتذة بحث الرضا وفي مقدمتهم الأستاذ عبدالرحمن علي طه الذي حاصر عن «بحث الرضا» وأسلوبها ومبادئها وكان موضعاً للإعجاب والتقدير كما احتلّت التجربة ألباء حصر موت وعدن «وقتذاك» ولصومال وبجيريا فهرعوا إلى السودان طلباً للمعلم

كان أبو عوف وطياً مهتماً بالشأن السياسي منذ عصابة النصارى وانضم لحزب الأمة عام 1949 ودخل الجمعية التشريعية بحكم منصبه البراري وكان موضع ثقة الإمام عبدالرحمن المهدي ومستشاراً له كما شارك في جميع وفود حزبه للمفاوضات التي دارت بمصر وبلجيترا بشأن الإستقلال.

وعندما تولى الأستاذ عبدالرحمن وريرة المعارف اهتم بوضع سياسة ثابتة للتعليم في الشمال والجنوب قامت على مبدأ لإبصار وتوفير الإستقرار للمعلم وتوسيع قاعدة التعليم مع مراعاة النكم والكيف. وفي أحد مواقع الجبهة تقدم باستقالته من المنصب البراري لمحاكم العام البريطاني احتجاجاً على عدم الموافقة على سودنة منصب مدير التعليم بتعيين الأستاذ عوض ماني فيه، فتراحت الإدارة البريطانية وأدعت لموقعه

وُلد لأستاذ عبدالرحمن علي طه في أول القرن العشرين -1901- في أسرة

التربوي المؤسس الأديب الشاعر والزعيم السياسي

عبد الرحمن علي طه



«أفت علمني السياسة والشعر»

علي نور - شاعر المؤتمر

هبطت حجاج الأفعان انعمت تردد لأكثر من خمسين عاماً شيداً عدياً شجياً
في كل مدن والقري واليو دي السودانية تردد به حماس وعبطة وحبور في أحر
كل حصة ندجمرانيا في السنة الثالثة لابتدائه . كان هذا النشيد الذي شد بياط
القلوب - بأوتار لا ترتحي - بكل بقاع الوطن من القولد حتى يامبيو ومن محمد
قول حتى ببوسة وفعل في النفوس فعل السحر ولا يزال ينوهج فيا بحس لكبر
بعد مرور عشرات السنين ويبعث حبيب وروحاً وطنية مأججة في كل الأجيال
كان هذا الشهيد قد ألهه التربوي لمؤسس والأديب الشاعر عبد الرحمن علي طه
الذي حمل عبء تربية الشعب في السودان الحديث - هو وكوكبة من المعلمين

الأعداد. كانت مادتا الجغرافيا والتربية الوطنية قد وصفت تحت إشرافه المباشر في معهد التربية ببحث الرضا، فأعد كتاب «سبل كسب العيش في السودان» الذي لا يزال يدرس بالمدارس الابتدائية مع تعبيرات طليعة وقام برحلات حقيقية بمناطق السودان المختلفة بصحبة ممر عريش من المعلمين منهم لأساتذة مكّي عبس والنور إبراهيم وعثمان محجوب وأحمد إبراهيم مريخ وسر الختم الحليفة وشملت الرحلات القولد وريرة والجفيس وبابوسة وبامبيو ومحمد قول وودسلفاب وأم درمان وعطبرة تلك الرحلات التي صاغها الأستاذ عبدالرحمن- أبوغوف كما كان يحبو لمريدته أن يكوه- شعراً سهلاً يساب إسباباً في الحاجر في قصيدته:

في القولد لتفت بالصديق أعم به من فاضل صديق

كان لا يره لمار في قرية بحت الرضا إلا متأبطاً ملفاً من الأوراق أو مرجعاً من المرجع، وكبوا لا يرونه جالساً إلا وهو مكب على عمل بحدوده، كتابة أو مسافحة مع زملائه وتلاميذه في شأن من شؤون التربية والتعليم نقل أبوغوف إلى بحت الرضا في عام 1935 بعد عدم من إثنائها ليشغل منصب نائب العميد فأصبح «الديمو» لمحرك للعمل في التدريس والبرامج والتدريب وتأليف الكتب وأعمال الإدارة العامة ووضع السياسات المتطورة كما كان اللسان المعبر من المعهد في كل المحافل والتجمعات ولدى كل مسؤول ولما كل رثر

وكن عميد المعهد آنذاك هو التربوي البريطاني مستر قريش الذي ترك بصمات واضحة في أسلوب ومناهج التربية والتعليم إلا أن القائد الفاعل لتلك التجربة بخصوصيتها السودانية وفردتها كان الأستاذ أبوغوف. وقد وصف ذلك أحد عذريه بقوله «كان وجهين لعملة سماها (بحت الرضا) إذ مسحت واحدة من الوجهين فقدت العملة صفها المميزة».

كان أبو عوف عانداً في التربية معلماً بأصولها متابعاً وهاوياً بهماً لتصوراته - وكان معلماً مطبوعاً سمح بسجائيا ساعدته على ذلك شخصيته المثمناسكة وقدرانه المدة في الخطابة والإلقاء ولتمثيل وأسلوبه لرحمين في الكتابة باللغتين العربية والإنجليزية وشاعريته المتميزة التي نوه بها شاعر لمؤتمر علي نور عندما رثه قائلاً: «أنت علمتني السياسة والشعر»

يُخصّ مستر قريش دور أبي عوف في تحرية «بحث الرضا» في كتاب له أهداه إليه بقوله «إلى ذكرى عبدالرحمن عني طه نائب لعهد لائس عشر عاماً وأون وزير تعليم في السودان والذي بدو أماته ووفائه لما كان بهذه التجربة أن تنجح» وتحدث عن أبي عوف بحفاوة فقال «وكان ذا نفوذ فريد بين المعلمين العدمي، أما بين صغار المعلمين فقد كان تقريباً الوحيد بين هيئة التدريس لذي «يحبشون» - بالمعني لا يجيني السليم» وبالمسبة إليها نحن الأجانب كان المرجع في أسلوب المعاملات اليومية ومثلاً في الإخلاص للعمل يدي قطعاه عني أنفسنا، وأصاف «تمكّن نائب عميد السوداني من التأثير على الآخرين عن طريق أسلوبه في دروس البلد بأن يشير إلى بقاها الصحف فيه أمام تجمع المعلمين في دروس تمجيدية التي أصبحت معلماً بارزاً في كل يوم خميس»، وكان أبو عوف من رؤد المسرح السودبي بلا جدال وكان يجيد التمثيل ويؤلف المسرحيات ويدفع إليه الطلاب ولا يمتأ يردد أن الذي يجيد لتمثيل لا بد أن يجيد التدريس لأن «مفصل مسرح صغير بطله المعلم ومشاهدوه اتلاميذ وإن أفلح لمعلم في لتمثيل استطاع توصيل المعلومات إليهم دون عياء أو ملل اصمات مصلحة المعارف ورأت الحاح الباهر الذي حققه معهد «بحث الرضا» في مجال التعليم الأولي إنحه التفكير إلى إصلاح «مرحلة الوسطى» وصدر القرار بتكليفه بإنشياء بهذه المهمة عام 939.

أما الشهرة الواسعة وانمكاته الرفيعة التي احتلتها «بحث الرضا» إنما تهيأت بمفصل مشاريع رائدة لمهوس الشغل بالبيئة. وكانت الأفكار الخاصة بها تسع من داخل

من عصرية مؤتمر و نقطت صلته به وظلّ يستحب عصباً في لجة التنفيذية في كل دوراته إلا في ندوة الثامنة حيث قنصرت عصبية على الهيئة استيبه ونوى رئاسة مؤتمر الحريجين في دورتين وذلك بعد إلقاء الرئاسة الشهرية وأصبحت الندوة كاملة وفي أولها قدّم مذكرة المؤتمر الخاصة بمطالب البلاد في أبريل 1942 وعندما احتدمت الخلافات في أروقة المؤتمر بين معسكر الاتحاديين والاستقلاليين وفتح فيها لبعض كان صوته الهادئ العميق يجلجل محدراً من عواقب الأمور ومؤكداً صعوبة تطبيق الديمقراطية في بلد متحلف كالمسودان ودعا المتعلمين لتخلي عن العجلة وتبادل الاتهامات بالحيانة الوطنية واكتساب القدرة على التفريق بين ما هو ذني وموضوعي كما دعاهم لالتفات إلى شعبهم ولعمل على تعليمه وتنقيحه وتأهيله ليحسن لتصرف في ظل الديمقراطية كان يتحدث كرجل دولة مسؤول مُسلطاً الضوء على المشاكل التي لا تزال تعاني منها البلاد.

كان الأستاذ إبراهيم أحمد واحداً من المؤسسين لحزب الأمة. من أنه كان أحد خمسة من أعدته جلسوا يبحثون له الاسم المناسب حتى يستقر بهم رأي لإحتياده وكان إنصافه لحزب الأمة متسقاً مع نشاطه ومشاركته في العمل بعدم بالإضافة إلى صداقته التي لا ريب أنها قد ألقت بظلالها على قباعته ولم يكن الرجل بالذي يسعى للأصواء التي لا تناسب صباه الهادئ الرزين الباهر من الحضانة الربوة والإثارة العاصفية والمترفع عن المشاحبات والنساب قبل أن يكمل حزب الأمة عامه الثالث إستقال إبراهيم أحمد منه لتفرع بتعليم وإن ظل ولاؤه قائماً للحزب ولخطه السياسي.

تعود علاقة السيد إبراهيم أحمد بك المهدي إلى أيام شبابه الباكر حيث كلف بالإشراف على صيانة منزل السيد عبد الرحمن المهدي بالخرطوم (دار الوثائق حالياً) الذي اشتراه في سنوات العشرين من أحد لأحباب واستطاع المهندس

مرموقة بقرية عمارة الجعليين قرب الحصاحيصا، وتلقى تعليمه الأولي بمدرستي رفاعة والمسلمية والأوسط والثانوي بكلية غردون التذكارية ولما جرى اختيار بعض لطلاب للدراسة في جامعة بيروت الأمريكية تمّ استثنائه لأنه - حسب ورد في ملف خدمته - لا يحتاج لمن تدث الدراسة بعلمه لحرير وإمكانياته الواسعة

وكان قد تخرّج في قسم المعلمين في عام 1922 وعمل بالمدارس لوسطى وشهدت تلك الفترة نشاطه انباكر في المسرح والمحاضرات بنادي بحريين بأمدردمان مع رصفائه حسين شريف وعبد المجيد عبد الحميد وعبد الله حبيب وصديق فريد وعرفات محمد عبدالله وعوض ساني وعلي نور وأبو بكر عثمان

كان آخر منصب تقلده هو وزير الحكومة المحلية حتى نوفمبر 1958 حيث عاد إلى قريته عمارة الجعليين (التي أعاد إليها اسم أريجى لشاريجي) والتي عمل على إصلاحها باستعطاف وتوفير مياه الشرب والكهرباء والخدمات الصحية والتعليمية حتى أصبحت قرية نموذجية.

سارعت جامعة الخرطوم إلى تكريمه بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية في القانون اعترافاً بفضله وبذله وريادته كما كرمته أريجى وأقامت له مهرجاناً ضخم وأطلقت اسمه على المدرسة الثانوية العامة للبنين بالقرية

انتقل الأستاذ عبدالرحمن إلى رحمة مولاة في نوفمبر 1969 بمستشفى الحصاحيصا إثر بؤة قلبية وشيع جثمانه الآلاف في موكب مهيب وراثه عدد من الشعراء في مقدمتهم عبدالله محمد عمر انبا وعلي نور وعمران العاقب وتادرس بحقوب الرشوطي.

عفة اليد واللسان

إبراهيم أحمد



صدمتُ تمَّ إختياره كأول رئيس سوداني لبلدية الخرطوم في عام 1946م كان إبراهيم أحمد أحد أبرز رجالات الخدمة المدنية والعمل لعام ويقت على أعلى قمة صرح تعليمي في البلاد... ولكنه حصل على قطعة أرض بالمدينة شأنه شأن الآخرين.. ولما تمَّ يستصع تشييد بناء عليها ردها بعد عام من حيازتها إلتراماً بالقانون. فنة كانوا يعملون ذلك وقتذاك.. دع صحت ما يحدث في هذه الأيام العبراء وبعد التوصل إلى إتفاقية عام 1953 ووقع الإختيار عليه ليكون عضواً ممثلاً للإستقلاليين في لجنة الحاكم العام كان يتعين عليه أن يطلب التقاعد على الرغم من أنه لم يبلغ لسن القنوية للمعاش فقد بقي له ما لا يقل عن لعام ليستحق معاش كاملاً فرفض المعاملة الخاصة في هذه الحالة وطالب بتسوية تتناسب مع ما قصاه من سنوات في الخدمة بل أنه لم يمانع إد عومل وفقاً للمادة (32/ب) من قانون المعاشات وما كان بالذي يحال عليها كان كما

وصفه عاروه لا يشعله عن عمله لهو ولا هوى ولا أبعد عنه استهوار أو عرص ولا دفعه للتقصير فيه حمول أو مرص بن روي عنه أنه لم يسم في حياته قط في قبولة أو ظهر وبعد نور الحزب انوصي للاتحاد في أول انتخابات عامة احتار الحزب السيد سيرسيو أيرو بدلاً منه في لجنة الحكم العام فأشأ إبراهيم أحمد مكتباً للاستشارات الهندسية وعرضت عليه كثير من الشركات الأجنبية أن يكون وكيلها بالسودان ولكنه أثر لرفض لأن كبار موظفي الدولة من طلابه الذين لا يوقع أن يرفضوا له طلباً . وقد لا يتفق الطرب مع مصلحة السودان

وفي أول حكومة قومية تم تشكيلها بعد الاستقلال تم إختياره وزيراً للمالية واستمر في هذا المنصب حتى وقوع انقلاب نوفمبر 1958 حيث أثر الابتعاد عن الساحة السياسية وقام بتأسيس أول بنك سوداني هو بنك التجاري - وأضحى مديراً له بعد إختياره من جانب المؤسسين - الذين لم يملك أسهماً منهم وهو صاحب الفكرة وطل كذلك حتى تأميمه في عام 1970 وفي صباح اليوم التالي لإعلان التأميم جاء إلى مكتبه ببنك ليسلم أوراقه الخاصة ويودع موطفيه.. ولما عرص عليه سائق سيارة البنك أن يأخذه إلى منزله رفض ذلك بإعتبار أن السيارة أصبحت منذ ذلك اليوم ملكاً للدولة ولا يحق له استخدامها وعاد إلى داره في سيارة الأجرة.

كان إبراهيم أحمد من الأعضاء الأوائل في نادي الخريجين بأم درمان وحين انقسم الخريجون إلى فريقين متصارعين مجموعة الشيخ أحمد العيل ومجموعة محمد علي شوقي واستقانت جماعة العيل من السدي كان إبراهيم أحمد عضواً في تلك اللجنة التي سيطرت عليها جماعة شوقي وحين نشأ مؤتمر الخريجين العام في عام 1938 كان إبراهيم أحمد من المؤسسين وانتخب في هيئته التنفيذية ولجنته التنفيذية وطل ينتخب عضواً بالهيئة التنفيذية للمؤتمر ولجنته التنفيذية في كل دوراته حتى الدورة الثامنة لعام 1945 حيث إستقال مع آخرين

وهكذا يستمر الإمتحان

لَمْ تستمر الدراسة في مدرسة رفاعة غير عام واحد استغرق حوالي عشرة أشهر، وأُكملت حوالي شهرين في عامها الثاني، وقد صدر أمر بإغلاقها عقب وفاة «عديوي عباس مباشرة»، وتولي سعيد باشا بأسبوع واحد، وأمضى رفاعة «صهطاوي أربع سنوات بالحرطوم وقفل بعدها عائداً إلى مصر، بعد أن شك مُرُشكو من تلك التجربة التي اعتبرها مضيّ وكيداً سياسياً ومحاولاً لتخلص منه باعتباره واحداً من رجال العلم البارزين الذين لَمْ يهتق عباس بقاءهم في القاهرة واعتبر بعض المؤرخين أن الأمر يعود إلى موقف رفاعة من ولاية العهد بأحقية سعيد على غيرها كان يخطط عباس لتولية إبنه

بعد زيارة الرحالة الإنجليزي هاملتن للمدرسة أدهشه القدر الذي استوعبه التلاميذ من المعارف في عام واحد، ولاحظ «أن السنوات لطويلة التي تُضيق في التعليم في الشرق حتى يصبح المتعلمون شيئاً مذكوراً تختصرها في «حرطوم إلى حد كبير، وإن لِسُرعة الملحوظة عند الأولاد في الحفظ والإستيعاب قد تمت الاستعادة منها إلى أكبر درجة ممكنة»

وأشار رفاعة إلى أن بعض تلاميذ المدرسة تمّ توظيفهم في المدارس التي أنشأها «عديوي إسماعيل بالسودان في السنوات اللاحقة، وكان من بين تلاميذ المدرسة «ساضي بك الذي عمل سكرتيراً لفردون أنباء حكمدارته الأولى التي استغرقت ثلاث سنوات، ووصفه فردون بقوله «إنه تعلم في مدرسة لحرطوم على يد علامة مشهور، ووصل إلى درجة من العلم تجعله يقف على قدم المساواة مع «حريجي أرقى معهد أوروبا، فمما يوجد موضوع لا يمكنه التحدث فيه بطلاقة، وهو يعرف حكومة البلاد وصرائبها وتاريخها، كما يمكنه لكتابة عدة رموز دون النظر إلى مفاتيحها».

الشباب أن يسجر مهمته على أفضل وجه بل ويصيف من إبداعاته تلك لأعمدة الصفحة ذات انطرار الشرقي وهي أعمدة ديكورية لا تسد الساء في الواقع وإنما تحيط انفسر بالهبة والجلال وقد كان بين إبراهيم أحمد ومحمد الحليفة شريف - بن عم السيد عبد الرحمن وصهره - صديقة ومودة منذ أن ترافلا في دراسة وفي العمل بالكلية ويبدو أنه هو الذي قدّمه لسيد عبد الرحمن وبمرء من أقطاب بيت المهدي ثم لم يلبث أن تولى المهندس إبراهيم أحمد مهمة مسح مشاريع انقطن الحاصة بدائرة المهدي الزراعية في الجزيرة أباً وغيرها من مناطق السبل الأبيض ولم يكن يتقاصر أجر نظير أعماله تلك بسبب تلك العلاقة. كما أن صلته الشخصية بمحمد عيسى شوقي ومحمد صالح الشقيطي - ولاخير توهدت علاقته به بسبب رواجه من أخته - ساعدت في تعميق صلته بالسيد عبد الرحمن حتى بات من أقرب مستشاريه إليه والمعروف أن إبراهيم أحمد لم يكن ضائعاً ولم يعرف بولاء لإحدى العائفتين - المختمة ولأنصار - وأنه بشا وسد أهله النوبيين المعروفين بولانهم للطريقة الحتمية . وقد عرف من حؤولته وأصهره أنهم من كبار الأسر الحتمية بمنطقة النوبة.

وُلد إبراهيم أحمد في حلفا دهم في عام 1899 وبدأ رحلته مع العلم في خلوتها ثم انتقل إلى المدرسة الأولية ثم الوسطى.. وقد حرص والده خلال تلك السنوات أن يبعث به إلى صديقه المرحوم محمد أحمد الفضل - أبن ناظر لمدرسة أمدرمان الأولية والتي افتتحت عام 1899 - وهو أيضاً جد الشاعر الراحل صلاح أحمد إبراهيم لأمه - وذلك لتطوير قدراته اللغوية ومكيبه من اللغة العربية وكان متفوقاً في جميع سبي دراسته حتى قل بكية عردون لندكارية في عام 1916 واختر في قسم الهندسة لبروره في مادة الرياضيات واتسمت أعوام دراسته في الكلية بالتهوق والامتيار حتى احتارته معماً بها فور تخرجه وقد برر أيضاً في النشاط الرياضي ومارس صروباً من لرياضة كالتنس،

وكرة القدم حيث كان حارساً للمرمى بفريق الكلية، كما شارك في التدريب العسكري «الكذبت»

رغم إحتكار البريطانيين للوظائف العليا، إلا أن إبراهيم أحمد بمشاورته وحسن أدائه ترقى فأصبح مراقباً لشؤون الطلاب بالكلية ثم نائباً لمديرها. وفي الأوقات اللاحقة أصبح أول رئيس لمجلس الجامعة التي عاصرها في أواخرها المحنة كما أن إتقانه لعمله كمهندس ومعلم أكسبه كثير من الاحترام والتقدير بين زملائه الأساتذة - سودانيين وبريطانيين - وحلاليه والكثير من المهندسين كما أدى ذلك إلى تحسن وضعه الوظيفي وبصورة مستمرة حتى عدة من كبار أساتذة قسم الهندسة بالكلية، وتوافق ذلك مع تعاطف سمعته بين المهندسين مما أتاح له فرص إنجاز كثير من الأعمال الهندسية المهمة في شبابه الباكر.

وقد تم تعيينه عضواً بمجلس مديرية الخرطوم قبل قيام المجلس المنفصلة لكل من المدن الثلاث، كما إلتحق كأول رئيس سوداني في أوائل عام 1946، وذلك في إبان الصراع الحربي والخصومة السياسية وأعيد إنتخابه لمسئ المنصب أكثر من مرة حيث تم إنجاز الكثير في عهده وتم التخطيط لما هو أكثر وأعظم ورغم انتمائه الحربي فإن السيد إبراهيم أحمد التزم بمعايير تنقسم بالحياد والبعد عن لتحرب خلال عمله بالمجلس البلدي

بشترك إبراهيم أحمد في عضوية كثير من بلجان الحكومية. فكان العضو السوداني الوحيد في لجنة التعليم التي في عام 1943 وعمل في لجنة السودنة في الفترة ما بين 1944 و 1949 ولجنة تطوير القسم التجاري بالمعهد الفني في عام 1960 كما ترأس لجنة الشؤون الإجتماعية بالجمعية التشريعية واختارته لجنة المتاحف والأثار عضواً في فبراير 1942 وظل عضواً بمجلس أمناء مدرّس الأحفاد لأعوام طويلة وبعد إستقالته من النشاط السياسي بحرب الأمة وعقب

قيام الجمعية التشريعية ثم اختياره عضواً بمجلسها التنفيذي بلا أعضاء مصلحية والمعروف أن كل عضو من أعضاء ذلك المجلس سودانيين وبريانيين تولى مسؤولية وزير أو وكيل وزارة

رحم الله الأديب الأستاذ عثمان حسن أحمد اندي طُلّت الثقافة السودانية والتوثيق والترجمة لأعلام البلاد هاجساً به وهماً مقيماً ما أدرح وسعاً في سبيل ذلك.. وحقق لكثير رعم حياته القصيرة. ومن بين ذلك كتابه القيم (إبراهيم أحمد حياة إنسان) كتبه رغم أنه محسوب على معسكر الإنحاديين تاريخاً ووجداناً.. بذل فيه جهداً وجمع وثائق مهمة تتصل بحياة الرجل الثرية وتحدث إلى الكثيرين من معاصريه ومحبيه وعرفي فصله. وكان الأمل فيه عظيماً أن يواصل عطاءه في هذا المجال لولا أن تحطه لردى وهو في قمة صحته وحيوته.

9 أكتوبر 2001

الطهطاوي في السودان



رفاعة الطهطاوي

كان الشيخ محمود القباني تلميذاً بمدرسة لحرطوم التي أنشأها وأصبح ناصراً لها رفاعة رافع الطهطاوي في منتصف القرن التاسع عشر فوصف يوم الامتحان الذي حضره الحكمدار وجمع من الموظفين صدحت الموسيقى وتم تقديم الشربات والقهوة والسجائر، ثم تقدم تلميذان فأشدا قصيدة بصوت شجي، ثم أثنى الحكمدار على المهام وقتش صفوف التلاميذ وانصرف وتشكلت لجان لامتحان اللغتين العربية والفرنسية والحساب وطل المتحجون بالمدرسة لا يعادرونها لمبارلهم للمعلم الذي يتناولونه بالمدرسة حرقاً ودجداً وحلويات طيلة أيام الامتحان وقال لقباني إن الامتحان كان شفهياً والحساب على التحنة، والخط يقدم في كراسته التي تسمى «عزلمة» وكنت أنا قد اجتزت الامتحان بتعوق في الفرنسية والعربية والحساب، ولكن حصي لصعف في يدي لم يكن جيداً فأر دوا أن يسفصوي في الامتحان، وكان الفائز إذ حرج تعرف به الموسيقى.

الرحيل المباغت

إبراهيم أحمد عبدالكريم



فجأة بواترت أباء مفنقة عن مرصه وخصورته وتدهور حالته. ولم تمض أيام حتى غيبه لردى وهو في صفوان حبانة ودروة عطائها وعندما خرجت العاصفة في موكبها لمهب الأسبوع الحاصي لشبع جثمانه إلى مقابر فاروق بالخرطوم كانت ملناة ومباعته. هذا لوجه الأليف الذي ظل يطل عليها مرة في الأسبوع من شاشة التلفزيون، من دون سائر الوجوه، كان يشير إهتمامها وأشواقها لموودة لأيامها الحالية كان يطل عليها بصوته المديد وكأنما يو سبها مشجعاً، ها أنت لك ماص عظيم وتاريخ مجيد، وهؤلاء المبدعون أباؤك وأنت سيدة ولود، رأى هؤلاء انمشيعون فيه مثقفيهم العائين ومبدعيهم لراحلين ومبايهم انضائين والصورة انبية للشخصية السودانية الممتلئة بالرهو واستواصع. رأوا فيه تعويصاً جريئاً عن جهامة لواقع ومرارة العيش وفتامة الليالي وشبحوخة لروح وانطواء الأمل كان يحاول أن يستمد قيساً من الخليل وكرومة وصرور ويوقد شمعة في عتمة النفق الضويل ليهيئ مسارب المعوس اليائسة ويمنح ناهدة إلى الحاصي السعيد

وساطتي بك هذا أصحى باشكاتب الخرطوم . وهو سوداني من قبيلة المحس
وقد صلب الجبال هكس في حملته العسكرية كأحد الأعيان ولقي مصرعه في
معركة شيكان الأسطورية المعروفة

عاش رفاعة في الخرطوم حريماً متبرماً بأحوال المدينة التي لا ترقى لأيام
باريس التي أمضى فيها خمسة أعوام هي عمر بعثته التي اتسمت بنشاطه
ومثابرتة وكدهه في القراءة والترجمة والتأليف حتى أصبح أحد أبرز رموز
المثقفين في الشرق وأين هو من أيام مدرسة الألس التي كان مدير لها حيث
وصفه أحد مؤرخي سيرته بأنه «كان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند
الثلاث الأخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات واقفاً على قدميه يدرس اللغة أو
فنون الإدارة والشرائع للإسلامية والقوانين الأجنبية، وكذلك كان دأبه معهم في
تدريس كتب فنون الآداب العالمية، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن
الاشتغال بالترجمة أو التأليف، وكانت مجامع لامتحانات لا ترهق إلا به، وقال
فيه تلميذه صالح مجدي «كان مجلسه رهوان الله عليه مجلس مسرور وأفراح،
وطالما حضرته وسمعت فيه من لطيف المزاح ما يشهد به برقة المزاح بأن سحره
الحلال يقوم للعليل مقام العلاج».

وعلى الرغم من شكوى رفاعة وتبرمه من الخرطوم التي اعتبرها مسمى له إلا أنه
كان نجماً من نجوم تلك العاصمة وكان يشارك في المناسبات المهمة وقد
حدث أن أقام حفلاً أمام منزله بمناسبة خطوبة ابنة سلطان تركيا إلى ابن والي
مصر ودعا إليها أعيان الخرطوم من السودانيين والأجانب وفي مقدمتهم رئيس
مجلس الدعوة ومدير الخرطوم.

كما كان لرفاعة صانوه الذي كان يجتمع فيه المثقفون من شخصيات الخرطوم
والعاملين في التجارة والرحالة الأجانب ومثلي القنصليات، وكان يلبي دعوات
 كبار رجال العاصمة ويشارك فيما يقدم من احتفالات وقد حدث أن حضر مأدبة

عشاء دعوته إليها لأميرة بصرة ست عدلان كريمة أحر مدوك الفونج عام 1852
احتفاء بمقدم الرحالة الأمريكي بايارد تيلور إلى الخرطوم وقد أقام رفاعة صلات
وثيقة وصداقات مع الأجانب لمقيمين بالخرطوم والعبريين، من بينهم الدكتور
بيبي الفرنسي، كبير أطباء لحكومته والدكتور ريتز نائب انفصل سبباوي
وحلفه هجلى والدكتور بولجر رئيس البعثة الكاثوليكية بالخرطوم، والرحالة
جورج ملبى وأندريه ملبى وهاملتى - وهؤلاء إنجليز - وببايارد تيلور الأمريكي
وشارل دديه الفرنسي - وجميعهم ذكروا رفاعة في مؤلفاتهم الخاصة برحلاتهم في
السودان وأدركوا إمكانياته العلمية والثقافية. وقد تحدث شارل دديه عن سعة
إطلاع رفاعة وموسوعيته وتمكنه من اللغة الفرنسية ومكانته عند العبريين بها.

كان رفاعة قد تخرج من الأزهر وعمل فيه مدرسا لمدة عامين قبل ترشيحه
واعطاً وإماماً لإحدى فرق الجيش الجديد الذي أنشأه محمد علي، ولما تم إبعاد
أوب بعثة كبيرة إلى فرنسا تم إختياره إماماً لها.. وهكذا تغير مجرى حياته حين
اعتبر مبعوثاً شأن الطلاب الآخرين فأظهر تعوقاً بمشاورته وشغفه بالقراءة، وإستطاع
أن يقرأ في كل العلوم وإن كان أكثر ميلاً للجغرافيا والتاريخ فكانت ثقافته
موسوعية فقرأ الفلسفة والأدب الفرنسية، ومؤلفات فولتير ومونتسكيو وجان
جاك روسو وراسين وشملت قراءته علم المعادن والعلوم العسكرية والرياضيات
وعبر ذلك، كما ترجم وهو في باريس اثنتي عشرة رسالة، معظمها رسائل صغيرة
أو فصول من كتب كبيرة في شتى العلوم والعلوم والتاريخ والجغرافيا والسياسة
والأخلاق والعلوم العسكرية والهندسية وعلمي المعادن والصحة

عاد رفاعة من باريس يحمل إحالة الرحمة وهي يده الأخرى مؤلفه الشهير
«تحليل الإبرير في تلخيص تاريخ أو الديوان لفسس بيوان بدرس» الذي وصف
فيه بدرس وأحوال الفرنسيين وعاداتهم ومظاهر الحضارة العربية، والذي يعتبر
أحد أهم كتب الاستشارة الداعية إلى الحداثة

إحصاءات

وكانت الرعة في التأليف لدى رفاة قد ظهرت في وقت ماكر مند أيام الطب في الأهره، فقد نظم في ذلك لوقت أرحوره في علم الكلام، وأحد عن أستاذة شيخ حس العصار منه إلى العلوم العصرية إلا أن إهتمامه الأساسي كان متجها إلى التاريخ والجغرافيا، إلى الدرجة لي حتم مؤلفه المعاصر برحلته بموله «وإن شاء الله تعالى يصير التاريخ على اختلافه مقبولا من العرسيات إلى لغتنا، فقد تكلمنا بترجمة علمي التاريخ والجغرافيا بمصر لسعيدة بمشيئة الله» وقد استطاع بالفعل أن يترجم عدداً كبيراً من كتب التاريخ من العرسية إلى العربية.

وكان لرعاة مجهودات مقدرة في مجال التربية والتعليم بشخصيته الأهرية التي صقلتها الثقافة الغربية الحديثة، كما كان أثره واضحاً في إصلاح تعليم اللغة لعربية وإختيار أساتذتها وإعداد نماذج للتلاميذ فقد وضع كتاب النحوة لمكتسبة في القواعد والأحكام وأصول النحوة بطريقة مرصية، وغير ذلك من كتب المقررات.

وإلى جانب تلك القدرات المتعددة برز رفاعه في مجال الصحافة الذي كان أول من ارتاده حيث أوكل إليه إصدار جريدة «الوقائع المصرية»، بعد أن صدر قرار بذلك من مجلس الشورى في يناير 1842، وعمل رفاعه منذ البداية على إنشاء الصحيفة على عرار الصحف العرسية فاحتار لها محررين ومترجمين ومصححين ممتازين منهم بحية من تلاميذه حريجي مدرسة الألس ومن أبرهم أحمد هرس الشدياق ولسيد شهاب لدين.

كتاب «رعاة الطهاوي في السودان» ألّفه الدكتور أحمد أحمد سيد أحمد وصدرت طبعته الأولى في عام 1973، وقد بذل المؤلف جهداً مقدراً في جمع لمعلومات من مصادر متعددة وقد سبق أن قرأت لهذا المؤلف كتاباً بعنوان «تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري 1820 - 1885» أهديني إياه أحد

أحمدقائي المهتمين بثقافة وتاريخ السودان، ولم أستطع العثور على أي أثر لهذا المؤرخ الكدود وقد ذكرناشروه أن هذا الكتاب «تاريخ مدينة الخرطوم» هو في الأصل رسالة حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه من كلية الآداب قسم التاريخ، تحت إشراف أستاذين جليلين هما الدكتور محمد مؤاد شكري والدكتور محمد أببس في عام 1963 وإنما الذي عرفني على الرسالة أنسي اشتريتها من سور الأزبكية من نحو عشرين عاماً، وبعراً لأهميتها رأيت نشرها في سلسلة «تاريخ المصريين» تكريماً لصاحبها الذي لا أعرفه ولا أعرف إن كان حياً يرزق أو صعدت روحه إلى بارئها؟»

19 فبراير 2002

الأعمال الحرة والتجارية والزراعية. إلا أنه وصل الكتانة ومراسلة الصحف حتى قرر السفر للإقامة بالخرطوم ليجد موصفاً ينطق منه لتحقيق طموحه انداقي وهناك لقي بصدقه الفاتح النور الذي عرض عليه المشاركة في إصدار صحيفة إقليمية بمدينة الأبيض ولما سافر إلى مصر للاستعداد لحوص هذه التجربة بالتدريب في دار «أخبار اليوم» حيث وافق الأساد مصطفى أمين قال إنه التقى في مساء ذلك اليوم بمجموعة من الشيوعيين السودانيين الموجودين بمصر وذكر أن من بينهم عبده دهب، وعبدالمجيد أبو حسيو، ومحمد عثمان حودة، وصالح عرابي، وبعض الطلاب السودانيين الذين يدرسون بالجامعات المصرية كان ذلك في مايو 1945 وقال إنه توجه إلى مكتبة «الميدان» التي يمتلكها هنري كوريي واقتنى مجموعة من الكتب العارضية التي طبع في موسكو وندد واشترك في مجلة الأوقات الجديدة «الأزمة الحديثة» التي كانت تصدر في موسكو باسم «الحرب ولطفة العاملة» وجاء في مذكراته أن عبده دهب صاحب دار «أخبار اليوم» والمحررين العاملين فيها وقال له «إن هؤلاء سيمملوك الديماغوجية والفاق»، فصرف النظر عن دار «أخبار اليوم» وزار مجلة «أم درمان» التي كان تصدرها مجموعة الشيوعيين بالقاهرة وكان رئيس تحريرها المرحوم محمد أمين حسين لمحمدي ويشترك في تحريرها الأديب الهادي العمرابي وقال إن أبو حسيو شرح له البيان الشيوعي، إلا أنه لم يفتنع بالموضوع

ويمضي عبدالله رحب في مذكراته شروحاً أسباب مشاركة الأعلام ليساريه في صحيفته «الصراخ» التي أصدرها عام 1950 بأن الأمر لم يتعد الصداقة وبعض الأهداف المشتركة التي تتلخص في الخلاص من الاستعمار ومحاربة الطائفية وأشار إلى أسماء هؤلاء الكتاب ومنهم عبدالرحمن عبدالرحيم الوسيلة وعبدالحال محجوب، والتجاني الطيب، وقاسم أمين، وحسن الظاهر رروق، ثم

لَمْ يَكُنْ إبراهيم أحمد عبدالكريم مجرد مقدم لبرنامج ومديرًا عامًا سابقًا بشرطة، ولكنه كان موسوعة فنية وكثرًا بثرات يتدر برنامجها بسمت هادئ وفور حال من التطلع والتعلم والإدعاء والمحاولات الجادة لتصحيح ادوات بئري الحديث ويشقق الكلام وبعد إلى أعمق مشاركيه وصيروف حلفه وتخرج بأفضل ما لديهم ويصعق بكل موده وإشياء بكل ما هو مذهش وحديد يقارب ويوارب وي طرح أفكاراً نقدية في منهي الجدة والصفوة

تميز إبراهيم بانتصوق واندياء المادر وهو صابط بالشرطة ولعت توقد دهنه الأنصار خلال دوراته التدريبية في أوروبا. وأحد بترقى في مجاله حتى بال رتبة المريق وعدا مديراً لشرطة. وكان محباً للأدب وحافظاً للشعر. يحيط نفسه دائماً بالأدباء والعنايين وكان ناقدًا صائباً وأديباً لودعياً حصيفاً سمعه دائماً ذكره متفردة وبديهة حاضرة وواعية حافظة وكان إهتمامه بالناس جراً من تكويده الشخصي حيث كانت والدته اسمعفور لها الحاجة حليلة بنت لحفاجي امرأة جلييلة لشأن برة بسنة، عارفة بالتاريخ والأدب الشعبي.

بدأ إبراهيم نشاطه الثقافي بالمشاركة في برنامج التلفزيون حيث عرفه الناس وظلوا يتبعون برنامج «فرسان في الميدان» الذي كان يعده ويقدمه مع الشاعر المحسن الحسن والإعلامي حمدي بدر الدين ثم لم يلبث في لسنوات الأخيرة أن أحد يقدم برنامج «سديم الليل» الذي إستضاف فيه عدد من المبدعين القدامى والجدد وشخصيات إجتماعية وأدبية وفنية ولا ريب أنه إستطاع أن يركم قرائاً من المصنوعات ولأعالي وأن يوثق لتاريخ الفن لأصيل.

إلتقينا للمرة الأخيرة في منزل صديق لعمر الطيب الأديب لدكتور نور الدين إبراهيم شلقامي بأم درمان في أغسطس عام 2000، وكنت في عطلة نسوية، وذلك خلال حمل العشاء الذي ظل يقيمه لدكتور نور في كل عام احتفاء بما كانت الأمسية خريمية عليه لسمات والدار الرحبية تموج بعدد من الصيوف.

أدباء وصحافيين ومثقفين وصفوة من متعلمي مدينة كوستي وحصل إبراهيم متأخراً فالملأ الدار عارقة في صمت جميل تصغي لشدو النجان لتناج مصطفى بصوته الهامس لأعنيه المترعة بالحسين ثم عني صديقنا النجان الأستاذ عباس تلودي بحسنة النحاسية التي تصيب ألقاً وبعداً جديداً للأعاني المادرة المزيزة التي يتحيرها بحسه لفي الربيع كانت تلك الأمسية مشحونة بكثير من العواطف والشجن حيث تبادلوا الذكريات مع أصدقاء الطفولة والصبا الذين جاء بعضهم بكاميراتهم والتقطوا كثيراً من الصور وانقص السامر بعد تناول طعام العشاء، وقبل أن يصرف انعمت مع دكتور نور والأستاذ إبراهيم على أن نلتقي في دارنا في ميعاد حددناه، ولكن حالت دون ذلك ظروف طارئة.

لقد شقَّ علي إبراهيم على الكثيرين ممن عرفوه ولمسوا في شخصه بين العريكة ودعائه، الملق واليساطة وحب الآخرين ، بسأل الله له الرحمة وتعازيه الحارة لأسرته المكلومة هي الخرطوم وكوستي

7 مايو 2002

المصامية والمثابرة

عبدالله رجب



كنت أراه في سوائه الأخيرة يحشي في شوارع الخرطوم يطلع قليلاً وهو يحمل حقيبته الجلدية المكتورة بما فيها من أوراق ومجلات وصحف وعصاه التي لا تفرقه. وأحياناً كنا نراه جالساً في «البيوت» أو «الإستقلال» أو «أتيب» ، دائماً تجده منكباً على القراءة أو الكتابة، يترحم في أغلب الأحوال. وفي أمسيات لاحقة صرت ألقاه في «مكتبة أفريقيا» في أم درمان بصاحبه الرحيم «موسوعي يونس محمد الحسن الدسوقي».. أجدهما منغمكين في لعب النرد. يشادلان بدعايات والعبارات الساحرة. وأحياناً أجد مجلسهما عامراً يصمم بعض من مثقفينا المحصرمين أمثال حسن أبو جيل، وعبدالله محمد فرح، وأحمد شامي وغيرهم يتحلقون أمام المكتبة بينما يتلوى صف طويل من رؤد السينما المجاورة راخين نحو شباك لتذاكر ويونس يعتاط ويتبرم من السدوك الفع الذي يديه البعض منهم.

تعصر بلادنا بشمادح من الشخصيات المتميزة التي تركت أثراً واضحاً في الحياة السودانية، فبلادنا لا شك منجبة - وبرر من بينهم من واجه الحياة بلا عذرة ولا تأهيل أيام كان التعليم هو جوار مرور للوضع الاجتماعي المتميز والحظوة كانت فرصه جد قليلة لا تمكن إلا صهوة من الساس من لحصول عليها، والأستاذ عبدالله رجب كان واحداً من هؤلاء الذين صعدوا دوائهم وشقوا طريقاً ممعباً في وعورته فهو لم يستطع أن يتجاوز المرحلة الأولية في تعليمه - رغم نجاحه وتفوقه - فاصبر لأن يتحد سبيلاً أحر لإعالة أسرته التي فقدت عائلها، وعن أفصل ما حققه بعد النجاح المهني الباهر الذي أحرزه، حيث ارتفع يداته من طعولة معذبة ومرهقة بالعمل إلى أحد أبرز الصحفيين وكتاب المترجمين في السودان وهو أنه خلف ثروة أدبية رائعة من أدب السيرة الذاتية، فقد ظل يكتب قصائد مدكرات أعيش منذ البدايات الأولى لسنوات الخمسين في جريدة «الصراخة» وحتى مطلع سنوات الثمانين في جريدة «صحافة» كتب بصراحة وعفوية وصدق وإستطاع بشفاية نادره أن يؤرخ لمسطقة السيل لأرق وسبعة وحركة التجارة والثقافة فيها، بث حرارة وحيوية في كل لشخصيات التي كتب عنها، وشحن مواقفها بدلالات موحية أشبه بما يبده الروائيون المقتدرون، وتناول في مدكرات أعيش قراءته المبكرة ونمية مهاراته في الإطلاع وتجربته في العمل التجاري وافتتاحه لمكتبة بمدينة مسحة.. وكيف إستطاع أن يرودها بالكتب والمطبوعات التي تصل من القاهرة فيتقنها لموظفون ومثقفو لمدينة، وتم تلبث هذه المكتبة أن باتت منتدى لتجمع هؤلاء المهتمين وحلقة للمقاش وتبادل المعارف على عرار ما كان يحدث في مدينة أم درمان

كان عبدالله رجب يرسل الصحف المحلية ولعربية وكان جريئاً مقدماً لا يتردد في فصيح معارسات الإدارة البريطانية واستبداد المحتشين والحكام الإنجليز وكثيراً ما كان يتعرض لمصايفات والاستجابات ورغم نقله في

أعظم المواقف وأجلها هي صمت وسكون

قال عنه الدكتور منصور خالد «دبة صبحتي الأكثر عمقاً براحدا الكريم كنت في العهد المايوي. أتلقاه في دار بدر الدين ومتجع حسن مالك فكان كحطرات السيم في دث المجلس. هو أقل من عرفت من ناس عبثاً على جلأسه، أو ثقلأ على مقاعديه، استهوسي فيه يومذاك رربة الطبع ورجاحة العقل وسماحة الحلق فسميت وبدر الدين لأستدراجه للأحراط في ما كُنا فيه - عمر الله لنا - تأبى محمود في سماحة جملة وكأنه يقول لكم ديسكم ولي ديس» تأبى انورارة، وتأبى انسافرة، وتأبى البرلمان، حتى كرهيم لنعارضة فيه. يومذاك كُنا سمي به الرقيب، ولا رقيب إلا رب العباد، ثم ذهبت مايو وجاء عهد جديد... وظل محمود هو الاسم الذي يهتف مسماه... لتقيا على إنفاق في جيب ليشني بمسعى إخوانه الذين توسموا فيه خيراً لتصبيه وريراً للمعدل وحامياً للقصاص الشعبي. ذلك اصطلاح آخر ينتمي للمهديوي أكثر مما ينسب للديموقراطية. قال محمود إن كان القصاص هو سيادة حكم القانون فأنا معكم أما إن كان هو الانعدام فهذا ليس من شره»

وقال الأستاذ محبوب محمد صالح، «في يوم أن جاء إلى سلك المحاماة، جاء يحمل تلك الحبرات المتميزة والعريضة من ميدان الصحافة، ومن منصة القضاء ومن يرث الثقافة والوطنية، فكان محمود في خدمة المستضعفين - يفتح لهم قلبه ومكتبه ويتبنى قصاياهم ويهدد عن حقوقهم. - وما جعل المادة يوماً أساساً لقبول قضية أو الدفع عن مظلوم، ما جاءني مظلوم يطلب عوناً قانونياً ولا يملك تكلفته إلا أخلته إليه ثقة في محمود لينتقى شكواه ويتنس مظلومته ويسري للدفاع عنه، لا يطلب حراً ولا شكوراً وكانت حقوق الإنسان شعله الشاعر، ولا يقبل الصيم لأحد، ولا يتساهل في انتهاك يقع على فرد في أي مكان وقد حول قاعة مكتبه إلى مقر إجتماعات لكل الهيئات الدفاعية التي تكونت للدفع في قضايا الرأي والمكر يحمل الهم كله ويقود في توصع جم ويسوق الحجج في صوت واثق لا يعلو

محمد سعيد معروف ومحمد الحسن أحمد في أوقات لاحقة. وكانت الصحيفة قد إتخذت خطاً يسارياً متشدداً وجد صدى عميقاً في أوساط الناس في تلك الفترة المنتهية. وقد إستمرت في الصدور منذ أول يناير 1950 وحتى 31 أغسطس 1961 صدر خلالها ألفا عدد وكتب فيها العشرات من الكتاب والصحافيين الشباب حيث رأى العديد من الأعلام أنور لأول مرة فيها وتخرج من مدرسته الكثيرون منهم جعفر حامد البشير ومحمد الحسن أحمد، وعصمت يوسف، ومحجوب عبدالمالك، ومحمد عبدالرحمن شهبون، وصالح أحمد إبراهيم، وعلي الملك كشف عبدالله رجب في مذكرته عن تجربة تعاونه للإعلامي مع نظام نوفمبر العسكري الذي إستمر حتى عشية ثورة أكتوبر الشعبية حيث سبب له كثيراً من المضايقات وأضعف من تأريخه المشرف وقال إنه بعد الانقلاب اشترط سدته على الصحف قيوداً كانت نتيجة توقف لـصحف الحرية الصريحة مثل «الاشقاء» و«الأمة» و«الميدان» وبقيت صحيفت الطائفتين «البلبل» و«صوت السودان» قبل أن تتوقفا أخيراً بسواغي لقيود العسكرية. وبقيت صحف الأفراد «الرأي العام» و«السودان الجديد» و«الصراخ» و«الأيام» و«الزمان» و«الأحرار» -رحمي سليمان- - وبسما أوقفت صحيفة «الأيام» لبعض الوقت. وأصل الشرك العمل بـصحيفة «المورسج نيوز» وبأعمالهم التجارية، وهاجر بشير محمد سعيد إلى نيويورك للعمل بسكرتارية الأمم المتحدة. وفي أواخر عام 1961 قابل هناك الفريق إبراهيم عبود ومراقبيه وكان من بينهم صديقاه الوريان أحمد خير وزيادة أرباب اللدان توسطاً لعودة الأيام في أوائل عام 1962

وكان مكتب الاستعلامات قد أصدر صحيفة «الثورة» في أغسطس 1960 وكلف عبدالله رجب ومحمد الحسن أحمد بتحريرها إلى جانب قبلي أحمد عمر، ومحمد فصل الله، لأن عبدالله رجب انسحب من المهمة في ديسمبر من نفس العام وقال إن الصحف المستقلة تعاوت مع الحكم العسكري بلا

يستثاء وأن محمد سعيد معروف ومحمد لحسن أحمد صوتنا إلى جانب محوري «الصراحة» الآخرين بالتعاون ولَمْ يعبدا قرار حربهما برفص الحكم العسكري وفي تلك الأثناء تسلم محمود أبو العرائم جريدة «الصراحة» من وزارة الاستعلامات وسماها «الصراحة الجديدة» وأحد عبد الله رجب يتسلم حسين جيبها شهرياً مقابل حق الإمتياز لَمْ يسكر لأستاذ عبد الله رجب تعاونه مع نظام الفريق عبود وقال إنه فعل ذلك «باعتباره نظاماً سودانياً» وقال إن وقوفه معه كان أشرف من التهاوت وإدعاء البطولات كما حاول أن يفعل آخرون

وتعرض عبد الله رجب لتجربته في التعلم الذاتي والقراءة الحرة وأورد عناوين الكتب التي اطلع عليها والتي تحوي شتى أنواع المعرفة.. وربما يكون قد ساعده أيضاً أنه أدار مكتبة في سبعة وارتبط بعلاقات واسعة مع لمتقنين والمهنيين بالقراءة وتبادل الكتب والمعلومات. وعن من أطرف تجاربه بداياته في اللغة الإنجليزية. فقد روى أن اشباب من آل قوته الذين كانوا يجاورونه في السكن - شرعوا في تعلم تلك اللغة وقام بتدريسهم الأستاذ بشري عبدالرحمن مقبول وفي الشارع ويجوز الموقع الذي إتخذه مكاناً لبيع السجائر والكبروسين جاء بكرتونة بيضاء لأحد هؤلاء الشباب وطلب منه أن يكتب له الحروف الإنجليزية التي كتب إلى جانبها الحروف العربية المقابلة لمساعدته على نطقها والتعرف على محارجها. ومن ثم أحد يدرت نفسه على تعلم الهجاء ويتمرن بمفرده على قراءة عناوين السلع وإعادة كتابتها من صناديق السجائر والكبريت وعلويات وطرود الأقمشة وطرود الرسائل. وحينما تقدم قليلاً أخذ يطلب مساهم اللغة الإنجليزية من المدارس المنتهضة في مصر. ثم واصل كدحه في التحصيل حتى تفوق في لغة الإنجليزية وبت أحد القلائل الذين يترجمون في مستوى رفيع منها ولها وقد تم إختياره في سنواته الأخيرة كأحد كبار المترجمين في العصر الجمهوري ونشرت له لصحف كثيراً من لترجم في شتى صرور

المعرفة وخاصة في «شؤون العالمية وعلم النفس» ويعتبر عبد الله رجب صاحب أول ترجمة عربية لوثيقة حقوق الإنسان وقام عبدالله رجب بـ «مذكراته» ستصح من كلاسيكيات الشعب السوداني، مثل «طفقات ود صيف الله» وسوف تعيش في وجدان هذا الشعب تشاقلها «الأحبال جيلاً بعد جيل» وما ذهب الرجل بعيداً فيما قال، فما كتبه جدير بالاهتمام بإعباره سجلاً وفي الحياة الاجتماعية التي عاشها وتمتعت عيشه عليها منذ سنوات العشرين في القرن العشرين وكانت تجاربه المختلفة وتنقله من مكان لآخر وجرائه في محاولة التعرف إلى الناس والأشياء والاستفادة من المعرفة سبباً في ثراء وتنوع وأهمية تلك المذكرات، وهي بعنوان «مذكرات أغيش»

توفي عبد الله رجب في عام 1986 وهو في السبعين من عمره أنفق منها جواني خمسين عاماً في العمل الصحفي.

رجلٌ من حسنات هذا الزمان محمود حاج الشيخ عمر



«ما من حصة محمد في الرجال إلا وكانت فيه».

د. منصور خالد

ما كنت أحسب أن نقرأ من الناسفاعلين ذوي القيمة والأهمية في مجتمعنا السوداني نفوت معرفته لأننا نرغم أن نهتم بالأعداد من معاصرينا وأسلافنا، حتى حاجنا في العام الماضي أستاذنا الدكتور فيصل عبدالرحمن عني طه بسعي محمود حاج شيخ عمر المحامي، فأثنى عليه وأطراء وبيّن مكانته وبوّه بقصده إلا أنني لم أكن قد سمعت عنه رغم أنني لا أعبر نفسي عريضا على مجال القانون، فقد خرجت هي إحدى كلياته. رال عجيبي الآن من تقصير توهيمه في نفسي حين أذكرت أن إحدى سحايا محمود كانت لعمور من لصوء والصوماء، و اتحاد

أصوات

ولد الشيخ القدال في كسلا في مطلع القرن العشرين لأحد كبار رجالات الطريقة الحتمية فقد كان والده حليفة للحلوة قريباً من السيد محمد عثمان بن السيد محمد الحسن أمير عني حتى بعد صحبه في سعاد إلى مصر حين خرج من السودان إلى الثورة المهدية فتشبعت روحه منذ ميلاده بذلك العبق الصوفي التليد الذي توشعت به مدينة كسلا وشأ في كنف طاهر ساعد في تكوين شخصيته التي عدت نموذجاً في اسلوك ومكارم الأخلاق بعد أن أكمل تعليمه لأولي في كسلا ثم إختياره للدراسة في مدرسة العرفاء بكلية عردوب وكانت تلك المدرسة تقوم بإعداد الطلاب ليصبحوا مدرسين في المدارس الأولية . نخرج في هذه المدرسة معلمون أفاض تركوا أثراً واضحاً في تاريخ التعليم الرسمي الحديث أمثال مصطفى أبو شرف وحسن بحيلة وود عيسى ريادة وإمام لحصر الإمام وعثمان هاشم وغيرهم

عمل لشيخ القدال مدرساً في شرق السودان منذ تخرجه وكانت تلك المنطقة تحتاج لمعلمين موهوبين قادرين على تعهم أحوال وطروف القبائل التي تعيش فيها . وتحتاج إلى صبر وتحمل وقدرة لتستمر المدارس وتؤدي مهمتها بجاح . وقد استطاع القدال أن يصرب مثلاً رائعاً لمثل هذه النوع من المعلمين الذين كانت تحتاج إليهم بلاده في تلك الفترة الباكرة والخرجة من تاريخها وقد برغ بجمه بالفعل في أواخر سنوات الثلاثين عندما بدأ شرق السودان يتحدث عن ذلك انفتى المدرس خريج كلية العرفاء

وحيث بدأ معهد بحث الرضا دوراته التدريبية المشهورة (الكورسات) للمعلمين كان القدال من أبرز لوائح الذين إلتحقوا بها.. حيث توحدت صلاته مع المعلمين الذين أنجروا الثورة التعليمية في السودان.. عبدالرحمن علي طه (نائب العميد) ومكي عباس وغيرهم من أستاذة بحث الرضا الذين حبروا معنده مما أدى إلى ترشيحه بسمر إلى حصر موت حيث استطاع أن يمش بلاده بأروع

بالجدة ولصباح ولكنه يشتد الحق بالمسطق و لحجة»

وقال علي محمود حسين زميله في مهمة المحاماة محمود كاس فارس الحبة هي هذه المهنة، ومن ثم فإن همه الأساسي كان إشاعة الحريات، لم يكن يرى للحرية حرباً ولم ير لها لونا ولكنه رأى قيمة يسعي أن يستمتع بها الجميع ومدد عهد مايو وحس في ظل هذا النظام ظل محمود هو قائد مسيرة الدفاع عن الحرية في جميع القضايا، وباعتقل إسباني لا وتماطروا بحو مكتبه وحوله يحتمي فيه ويستترشد برأيه، ويستهدي بحكمته ويستعمل إمكانياته من أجل العداة، ومن أجل الديمقراطية.

أما تيسير مدثر فقد وصف محمود حاج الشيخ بأنه لم يكن مثقفاً طاروسياً متعالياً، وهو يتمتع بما لا يتمتع به جيش جرار من لصقوة الرحسية التي تنتمي بدائرة الثقافة و المعرفة وديدها الضحيح والصخب والتفريق كان عزيز لعلم هي كافة العلوم الإنسانية ممتلك بالتقدير و الاحترام للتقاليد الإسلامية، والسودانية الأصيلة، ولا عرو هي ذلك فهو ابن الشيخ العجيب انور حاج الشيخ عمر دفع الله أحد أبرز رموز الحركة الوطنية الحديث في السودان

كان أول من نادى إلى دهي حين أبلغني دكتور فيصل ممي محمود هو شخصية حاج الشيخ عمر أول من هتف بشعارات معادية للاستعمار البريطاني في مقابر أم درمان خلال تشييع جثمان انماور المصري عبد الحائق حسن عام 1924م. وقد دفع ثمن ذلك حكما بالسجن وبات أول سجين سياسي في معارك الحركة السياسية الحديثة. وقد أعجبني وصف منصور خالد بذلك الشيخ المااصل حين قال يومئذ دا الذي لا يفاخر بحاج الشيخ ودعمر، ذلك الشيخ شديد لقتل، منقطع القرب كان عالما بارز، في باحات العلم وبيتا هدارا في ساحات النصال، أذكره لأنه أورت محمودا و حوته ميراثا خلقيا حسيما مما بهم إلى حيث يسعي أن يكون الرجال»

أصوات

ودكر الصيب حسب المرسول قصة حدثت في أيام رمادية كابية أضحت فيها رؤوس
نقش وعابت روح التسامح والتسامي فقال اكد قد قبض على لأح فاروق البربر
بسبب خطاب جد حبيب أرسنه للإمام المهدي، رحمه الله، في لجريرة أب، فصفقنا
ببحث عن أحد يتولى اندفع عنه فأعيانا البحث حتى جئت لمحمود وقل له،
محمود هل تتولى لدفاع عن فاروق في المحكمة العسكرية التي سُكِّت على
عجل؟ فقال بقوة نعم، ومن يدافع عنه إن لم أفعل أنا! . وقال أحد الحاضرين هذا
مسلك وعرا فرد محمود إن لم أفعل سأمزق هذه الوريقة، مشيراً إلى رخصة
لمحاماة المعلقة على حائط مكينة. ذهب محمود ليدافع عن فاروق والأحرار على
عجل فكان لحكم بالإعدام، ولكنه حمف وعاش فاروق وشأت بينهما صداقة
أبدية

عمل معلماً في صده الباكر، ثم اشتغل بالصحافة، وكان مراسلاً حريصاً وسياسياً
بصحيفة الرأي العام، من جبهة القتال في السويس يان العدوان الثلاثي، على
مصر عام 1956 ثم عاد وأكمل درسته للقانون في جامعة القاهرة فرع لخرطوم،
واشتغل بالقضاء ثم إستفاد ليتفرع للمحاماة التي نجح فيها وكرس حياته لإغاثة
لمحتاجين وإغاثة الملهوفين ومساعدة ضعفاء

وقع في يدي الكتاب الذي حمل صون «محمود حاح لشيع عمر موقف
ومبادئ» والذي تضمن كلمات أصدقائه وعارفي قلبه الذين أحسوا وما تجاوزوا
وأوجوا الرجل محقه في حمل تأليه، فأردت أن أشرك بقراءه فيما قيل عن ذلك
النبي الذي عر أمثاله في هذا الزمان.

انقذال، رئيساً لحكومة حصر موت

لا أدري لماذا قفرت صرر سيريالية إلى ذهني حين قرأت رثاء محمد عثمان ياسين للشيخ انقذال بقوله «وبحسب إذ نودع انقذال باشا سعيد انقذال إلى ملواه، الأخير نودع فيه آخر مثال نجيب العصاميين السودانيين لأوائل أمثال ربيع الربيع في تشاد وسوركتي في أندونيسيا.. الذين تركوا بصماتهم في مصائر دول شقيقة ذهبوا إليها بمحض إرادتهم في ظروف قاسية فأدو رسالتهم حبر أداء» وربح هو «مقائد المعروف الذي شق طريقه إلى غرب أفريقيا بعد أن رفض الاستسلام لجيشي الإيطالي في بحر اعرال واحتنف مع سليمان لربيع وهناك حارب الفرنسيين ورفع راية المهدية وقتل في معركة هورت لامي الشهيرة بعد أن أسس دولة لا تزال أثارها شاحصة. أما أحمد سوركتي فقد كان يعمل مدرساً لعلوم الدين في مكة حين استدعاه المظفر العلويون لمهاجرون في أندونيسيا بيقين لهم مؤسسات ربوية فأنشأ مدارس الإرشاد التي نالت شهرة واسعة امتدت من أندونيسيا إلى حصر موت عن طريق المهاجرين العائدين ومن خلال المدارس التي أنشأها على نمط مدارس الإرشاد التي أسسها سوركتي هناك

جاء الشيخ انقذال إلى حصر موت معارفاً في عام 1939 ولا يزال شاباً في العقد الرابع من العمر ووصل إلى ميناء المكلا وحيداً لم يتعرف إليه أحد ولم يستقبله أحد هرباً عن تلك الديار التي لم تشاهد كثيراً من السودانيين بعد . وبعد ثمانية عشر عاماً خرج ذلك لفتى من حصر موت بعد أن تجاوز الخمسين في وداعه سلطان البلاد وأعيانها بعد أن عاش بينهم معلماً ووزيراً للمعارف وسكرتيراً للدولة (رئيساً للحكومة)

الأنطاسي البارز والعالم الموسوعي

التجاني الماحي



صديقنا لشاعر عبد الله إبراهيم موسى شابو، كان ريحانة أماسينا، يغيب عنا أحياناً فجأة مسحوراً. نعانته حين يعود فيعندنا بأن هوى الكوة جلب عليه فهرج إليها، يمازح ويقول «سهر على شاطئ النيل بالكوة نتحدث هي كل المعارف، نعلم لاجوم والمجرات وحين يستشكل أمر تلفت فري شبحاً من بعيد يصطاد في النيل، لا نعرف من هو فذهوه، نحنكم إليه، نعرض عليه ما غمض عينا، يتفجر متكاملاً في أكثر مسائل الفكر عموصاً فجدا صابت ويعود هو إلى حيث كن، وكأنه لم يفعل شيئاً يصحك شابو ملء رثيته ويؤكد أن شباب الكوة جميعهم هكذا علماء وعادون ومبدعون مكبون على المعرفة والثقافة. وهذه هي روح التجاني التي لا تزال تصوع في فضاء لبلدة ودروبها بأريجها انفواح هذا المكان سائرت على أثر دماء الشاعر لشيخ إسماعيل الدقلاشي صاحب الريابة، قبل أكثر من أربعة قرون.

ما يكون ويقدم نموذج الشخصية السودانية بجمع أبعادها

استطاع الشيخ القدل بقدراته الفذة أن ينقل تجربة بحث الرضا في الثورة العلمية بما يتناسب مع ظروف حصرموت وبدأ منذ عام 1940 في تنظيم المدارس وكان بالمكلا مجموعة من المدارس في حصر لشسة فكوّن منها ثلاثة فصول للمرحلة الابتدائية، وانفق طلاب المتميزين وشكّن منهم الصف الأول للمرحلة المتوسطة، وكوّن من طلاب المدرسة الإنجليزية لصف الثاني وفي أواخر عام 1941 افتتحت المدرسة الوسطى في المكلا - أو في الواقع تحولت لمدرسة الإنجليزية القديمة إلى مدرسة وسطى حديثة، إنطلقت الدراسة فيها مع الإهتمام بالنشاط حيث تمّ تشكيل فرقة لتمثيل بالمدرسة قدمت مسرحيات متميزة بدأها الشيخ القدل بالمشرحية «حرب البسوس» ثمّ نوات المسرحيات تحت إشراف الأستاذ عوض عثمان مثل «مجنون ليبي» و«الأمين والمأمون» وفي «سبيل نجاح» ويعتبر المعلم السوداني عوض عثمان مؤسساً بالحركة المسرحية الحديثة في حصرموت كما يعتبر مؤسساً للفرقة الكشفية التي نظمها وأشرف عليها حتّى أن أحد أعضائها الطالب صالح بن همام (يعمل الآن طبيباً بالسعودية) شارك في معسكر كشفي نُقيم في فرنسا

كانت المدرسة الوسطى في حيل - بأورير بمودحية... والوحيدة في حصرموت... ويتمّ إحتبار التلاميذ لها بعد إمتحانات تنافسية يجلس لها المئات. وقد وفرت لها ابدولة إمكانيات كبيرة كان مهجها الأكاديمي رفيعاً، حيث يمتزج النشاط الذهني بالبدوي مما يرقى بالعملية التربوية إلى درى عالية من التكامل، ويمارس لطلاب فيها نشاطاً ثقافياً واجتماعياً متشعباً الكشافة. ونادي صغار العراعرين وجمعية التمثيل. والجمعيات العلمية. والصحف انحائية ويسودها جو ديمقراطي رقي يجسّس تلاميذها في حالة مستمره من لتعليم والتعلم الأمر الذي يدفع بهم نحو الخلق والابتكار، فأصبحت ذات طابع

أصوات

صغوي، معامل وفصول وداحيات وكات انجمنيات المدرسية تتنافس كجمعية
تسبيح بأنواعه وتحليل الكتب المدرسية وبأدي صغار بمرارعين اندي يقوم
أعضاؤه بحرق الأرض ورراعتها وتعهدها بالري، ثم بيع المحصول، وكانت أعمال
بأدي تتورع بنظام دقيق تحت إشراف إدارة من لتلاميذ يجتمعون ويناقشون
بقرارات ويحللون ثم يتفقون في جو تسوده الديمقراطية.

وعندما رار مستر قريقت - الذي كان عميداً لمعهد بحث الرضا - حصرموت
بدعوة من المستشار البريطاني لتقويم ما تم انجازه من الخطة التي وضعها عام
1938 ومدى نجاح الشيخ لفيال في تعيدها، كتب عن التقدم الحقيقي الذي
لحقه وشكر كثيراً وقال: «ولكن لا عراة إذا تذكر أن الشيخ لفيال كان هنا»

ثم يقتصر دور الشيخ لفيال على أن يكون رائد لجيل السودانيين الذين
هاجروا سحر التعليم في اليمن الجنوبي ولكن ارتفع به طموحه ودكأه إلى
مرتبة الوزارة التي يرتقاها فصار وزيراً للمعارف وحدث بعد أن منح لسلطان رتبة
باشوية في عام 1945 ثم لم يلبث أن تم اختياره رئيساً للوزراء وذلك في أكثر
مقاطعات تعليمياً وثقافة.

ثم يكن لفيال وحده حين يهض بالعملية التربوية في حصرموت بل كان إلى
جانبه معلمون آخرون حصارمة وسودانيين من بينهم الأستاذة عوض عثمان،
حريح بحث الرضا، وحسين حوجني معلم اللغة الإنجليزية الذي وصل إلى
حصرموت عام 1944 وسعيد أيوب القدس، ومحجوب ريادة حمور، وإبراهيم
مجدوب مالك وأحمد بانكر العمدة والدين قال عنهم مستر قريقت «وما
يشجع أيضاً أن الأساتذة السودانيين الستة يؤمنون أنفسهم مع احتياجات
بلاد»

وفي عام 1951 قدم المستشار البريطاني تقريراً شاملاً عن التطور الإداري

وانزعجي في حضرموت وذلك بعد عام من تولي الشيخ القidal منصبه الجديد فقال إن سكرتير الدولة الذي عُيّن حديثاً يمثلث مقدرات إدارية حقيقية ويحظى بالاحترام على امتداد البلاد وهو رجل حكيم ودكي وله شخصية قوية جد ومعروف براحته واستقامته ولقي تعييه ترحيباً من الجميع وقد استطاع أن يقبض على رمام الأمور بحرم وأظهر بهماته الإدارية التي كانت الحاجة ماسة إليها لسنوات عديدة. وما زال معاصرو القidal يتحدثون عن استقامته ويتحسرون على أيام حكمه الزهية.

وعندما رار محمد عثمان ياسين حضرموت موفداً من قبل الأمم المتحدة في سبعينات القرن الماضي كتب عن النظام النقضائي في حضرموت يقول «وقد أدهشني وملاً خيالي أثناء درستي الإدارية لتلك المنطقة النظام النقضائي الإسلامي فيها الذي شارك في وضع أساسه المرحوم القidal» كان القidal أيضاً قد اتخذ خطوات نحو تطوير النظام الإداري وانتدب داريين سودانيين متميزين من بينهم لعاضل الشميع الذي وصل إلى حضرموت مساعداً للسكرتير لشؤون المالية كما ابتكر نظام المؤتمرات الإدارية واهتم بتدريب الإداريين المحصّرة لتولي الوظائف العليا في بلادهم وتم بالفعل إرسال الأستاذ محمد عبدالقادر بامعرف إلى مدرسة الإدارة بكلية الحقوق الجامعية. وعاد ليحمل ورياً للسلطنة وفي أثناء تولي الشيخ القidal رئاسة الحكومة ظهرت بشائر المعط في حضرموت. وحاول الإنحسير توقيع اتفاق على عجل بين حكومة حضرموت ولشركات الإنجليز واستطاع القidal أن يقنع السلطان بأن توقيع مثل هذا الاتفاق سوف يظل من بقاء الإنجليز في البلاد. ونجح في عرقلة الأمر طول فترة رئاسته للحكومة التي انتهت في عام 1957

عاد القidal إلى السودان قبل إنتهاء عمده بعام وعمل في حقن التعليم مرة أخرى وخاصة في كسلا في كامل حيويته وتدفقه هي كتابة الشعر الذي ظل

أصوات

ملازماً له طيلة أيام حياته العامرة وصفه صديقه أبو شرف بقوله ماسر حلو
سعيد، فكاهة اللسان، متعفن في الحديث متعير للمقط، فأنت في مجلسه لا تجسر
على الكلام ولو كنت تشتتبه لأن متعتك الحققة أن نصغي بكل جورحك إلى
هذا السرد، وكأنه أعلام البلايل فهما الشاعر الملهم، ولمؤرخ لمتمكن
والخطيب الممهور، والمتحدث البرع، والسياسي الحادق، وهو قبل ذلك كله
بمسلم الصافي النفس، الخطيب لسريرة المتسامح دائماً، فهو عني نور من ربه»

من المصادفات السادرة أن يجب مثل هذا الرجل بحياة اشربة هذه ونجاربه
لمتعددة ابناً مؤرخاً هو الدكتور محمد سعيد القدس الذي استطاع أن يرسم
لوحة لوالده في عاية الروعة والاعدال، لم تصح به عاصمة ولم يهره هوى
وكانت الوثيقة حاضرة في كل صفحات الكتاب لذي وضع به عنوان هو «الشيخ
القدس باشا» معلم سوداني في حضرموت ومضات من سيرته 1903 - 1975

26 أكتوبر 2002

والطب المسمي بجنييف، كما استضافته كثير من الجامعات الأمريكية ليقدّم
اعشرات من المحاضرات عن الطب النفسي. انتقل لتجاني الماحي إلى رحمة
مولاه وهو في الخامسة ولستين من عمره حياة تجمّد قدرة الإنسان للا محدودة
على نيل المعارف والتحصيل والسحر إلى أعلى المقام

لَمْ يحظ التجاني الماحي بالترقيم الذي هو جدير به، شأن الكثير من العلماء
والمبدعين في بلادنا، فهذه السيرة لأقرب إلى الأسطورة كان ينبغي أن تجد من
يهتم بها حتى تلهم مثقفينا وعلماءنا لشباب. لاسمك إلا أن نتقدّم بالشكر
والعرفان للقائمين على مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي في أم درمان، الدين
قاموا بنشر كتاب «التجاني الماحي، سادن المعرفة»، الذي صدر أخيراً لمؤلفه
الدكتور حسن أبشر لطيف وتقديم الدكتور محمد إبراهيم «شوش الدين» حاولوا
بحسب وحدوة أن يقدموا طرماً من السيرة العطرة للراحل التجاني ويصوموا للمكتبة
السودانية التي تعنقر كثيراً سيرة الأعداء من أعلامنا.

حين إديهمت الأفاق في الصف الثاني من سنوات لستين في القرن الأول
وعامت لرؤيه وانهمت السبل وعاصت يبيع لأمل بعد أن تصوحت أوراق
أكتوبر الأحصر وعصفت بها ربح الصعائر وأحلام العصفير، ساد انصوط وبلغ
ليأس مداه في أوساط المثقفين، فأعرب الكثير عن لصيق والتبرم من تلك
الاحالة التي أنهت إلى الراهن الكتيب سياسيون أقدية ير كصون مهافتين
على السسطة والجهاء تحكمهم روح العلاوات والترقيات والتمرع في تراب المبري
دور جدرة واستحقاق بعورهم المدرات العسكرية والثقافية ويفتفرون إلى البرامع
ووصوح الرؤى. تنفت هؤلاء المثقفون ثم بعدوا سوى لتجاني بمودح يحتلدى
وشخصاً تهفو إليه النفوس فاستعذت عبد الله علي إبراهيم ملتاعاً، في مقالته
شهيره تنك به التجاني الماحي قارىء الأنواح رآه وحده الباحث عن الحقيقة
والسادس للمعرفة والمتعطف عن لعادت ادبياً يقصي ليه متقلباً في متنون
يكتب والمنحطوطات وسحابة بهاره في مواساة المرصى وللهووس بالواجبات
وقصاء بحاجات. احتفى به مبتدراً بقوله وإد أجلس لأكتب عن العالم العلامة
والجبر القهامة وقطب رماه وغوث أوده، سيدي ودحري التجاني الماحي أحس
بالقافية لشروود انتي ثم يسلث وعز دروبها إلا فحون شعرة تفرق بابي طبيعة
بأدب وامتنال انسجع اندي يتدلته لركاكة والإدعاء والرحوف والبوشي نحب
بمسلس قياده ويممحي نفسه محترراً لأدبع فصل هذا الكاهن، سادس المعرفة
والقائم بسقاية طلابها المجتهدين المكوددين، وإد أشرع في شكره أريد طولاً
وانتشر عرصاً وأسمى كالأثير، كأفواف لهر العطر، كريمة مطلع الحريف كأريج
بهار القهوة في جلسة مكسال في ظل الصحن، أندعم في الوجود، يندعم في
الوجود، أنهر وأستهير وأسنكر كفى يحبي لشال من هو بها كلف معرم بعد
أن ستحقه سيطان يردان بها طهره بشكر سيدي التجاني الماحي أقرط آدان
اسامعين الصماء، وأحلى جيد لرمكان العاقل وأربس وجه الحياة لميتش، قال
«إن التجاني إذا نكتم يصعد العلم من رأسه دحاحين دحاحين وحسم كل مقطع

من حديثه بالارمته «شيء عريب» فيعود للمعرفة بدهشتها لقديمة التي صلت تدفع بالمكتشفين من الحمام عراة كم ولديهم أمهاتهم وكان يتحدث عن الصبري وابن حلكان وابن حدود والقلقيدي والمعوذي، وعن ابن طباطبا وابن طراوه وحلف الأحمر وحيد الرواية وعن عبد الحميد وابن الحميد والقاضي «باصيل» وابن لأثير وعن علقمة الفحل ولجأهظ وسيبويه وابن ماسويه وابن شهيد، وعن يعاقحي وروسر وتحتمس واحسانون واسكندرية، عن سوفكليس وشكسبير وويرروريرث وشوسر كان يجيد اللغات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليهوسا فضلاً عن العربية ويعتبر حجة في اللغة الهيروغليفية ومرجعاً في تفسير لغاتها. وفي أيامه الأخيرة كان يدرس لفرنسية والألمانية وبعد ذلك يجد وقتاً لعقد مجالسه المكرية بصوت ويتحدث وسط مريديه وتلاميذه، كما يجد وقتاً لريرة المرضى في صابهم ومساعدة المحتاجين من المثقلين والسياسيين ويمحص عائنته كل عطفه، تخصص التجاني «ساحي» في الطب النفسي وبرع فيه حتى تجاوز صيته المنطقة العربية والأفريقية، حيث احتارته منظمة الصحة العالمية حيناً إقريباً لمنطقة شرق البحر المتوسط، وباتت أبحاثه ودراساته مراجع علمية موثوقة يتم تدريسها في أقسام الطب النفسي في كثير من أنحاء العالم إلا أن التجاني كان مهتماً بالفلسفة والتاريخ والاجتماع والأدب والإدارة والحضارة الإسلامية. لقد كان موسوعياً، في جميع هذه العلوم ويؤمن إيماناً ر سحاً بأن المعرفة الإنسانية بمختلف صروبها تقود إلى حياة وحدة.

حينما رار المخرج والعالم الموسوعي المستشرق الفرنسي جاك بيرك الحارطوم توحه إليه ذات مساء وخرج منه تملؤه الدهشة والإعجاب قيل إنه في مكتبة. وأفريكانا، كان يقدم إليه المشرف عليها أحر الكتب التي وصلت إليه عن الطيور وقد بلغ ولعه بالمتحولات القديمة أنه كان يسافر إليها في روسيا وأفغانستان والصين والهند وبلاد اقوفا وأسابيا ومنه حين كان عصوا في

أصوات

مجلس سيادة رارت السودان الملكة اليرايث الثانية فأهداه مجموعة يادرة من الرسائل كان فيها ما يثبت أن الجيرال عردون إتسم بالشجود والفحش وسرقة أنواع نادرة من البلاط كان يؤكد بذلك أن أخلاق السودانيين لا تسمح لهم بالابتزاز ذلك رغم ما كان يعلمه أن بريطانيا لاتزال تنظر شرراً إلى السودانيين حين يأتي ذكر عردون الذي طموه قديماً أعماله برابرة نادم.

كان الدكتور النجاني يمتلك أكبر مكتبة يمتلكها فرد في اسودان، راحرة يكتب التراث الإنساني بمختلف اللغات، كما احتوت على ستة آلاف مخطوط أثري نادر، وحينما عرض عليه بيعها بأموال طائلة رفض ذلك مستكراً وأثر إهداه إلى جامعة الخرطوم

لَمْ يعمس النجاني في العمل السياسي كما فعل رصافوه الحريجون كان لا يطلب مجد، عندما أحس بالصيق في مؤسسته الحربية التي تكلفت عظامها واستعصت عليه وهو العالم النفسي، هجرها باستقالة كانت حديث الناس.

كان ميلاد النجاني في بلدة الكوة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض في عام 1911 وتخرج في كلية كتشبر الطبية عام 1935 وعمل في معظم مدن السودان، وفي عام 1947 توجه إلى بريطانيا مبعوثاً للدراسات العليا في جامعة لندن، وبعد عامين قضاها هناك عاد ليؤسس عيادة للصحة النفسية عرفت بمستشفى النجاني (ماحي للأمراض النفسية، والعصبية بأم درمان، وبت أشهر أطباء علم النفس على المستوى الإقليمي حيث ختارته منظمة الصحة العالمية مستشاراً في عام 1959 وأقيم في لاسكندرية حتى عام 1964 ومن ثم عاد إلى بلاده ليتم اختياره عضواً بمجلس السيادة في حكومة أكتوبر كان الدكتور النجاني يتميز بالحياة والنشاط النجم فقد شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والندوات وترأس أول مؤتمر عقد بإشراف الأمم المتحدة في التعليم

أصوات

سقوط الحرطوم في يد الإمام المهدي وعدم معرفة مصير عردون

واحتفظ الدكتور التجاني الماحي ببعض أوراق البردي، وهي من أقدم المواد التي استخدمت في الكتابة قبل اكتشاف صناعة الورق، وقد كتبت عليها نصوص عربية كل هذه القائمة عبارة عن إشارات لتلك الأسفار المترجمة والدوريات والكتب النادرة والمحفوظات التي لا تفقد الآن بشمس والخرائط لقديمة التي رسمت قبل تطور علم الجغرافيا ولرحلات الاستكشافية، حيث كانت معظم أجزاء أفريقيا ومناطق أخرى من العالم لم يتم التعرف عليها. كما أن هناك عدداً من النخع لأثرية السامرة واللوحات

5 يونيو 2001م

مكتبة المتحلي الماحي

لا بد أن الأمر سيكون طريفاً لو قدر لك أن ترى خريطة جغرافية للسودان القديم قد تعود إلى عام 1525 - كما هو مكتوب عليها - أو إلى ما هو قبل ذلك فبدلاً من نهر عطبرة ستري نهر تاكاري وبدلاً من سهل البطانة ستجد جزيرة مروية كما ستجد مدن قري والحديدة ومروي وشندي وسواكن والأبيض وسمار «وود حيدر» ولعينفون وقد كتبت «حيلفون»، إلى أنك لا تجد «الخرطوم ولا أم درمان اللذين بررتا كمدينتين في القرن التاسع عشر ويتضح في تلك الخريطة السيل الأزرق من منبعه في بحيرة تانا، التي ورد اسمها في الخريطة ترانا أو ديبا، إلا أن منبع السيل الأبيض لم يكن معروفاً آنذاك لذا تراه تائها في أواسط عرب أفريقيا من غير منبع. وقد كتب عليه النهر الأبيض، كما كتب على البحر الأحمر الخليج العربي أما إمتداد الصحراء الذي يتأخم حدود السودان لعربية فقد كتب عليها بخط واضح «أماكن غير معروفة»، أم موقع بلدة الكوة الحالية فقد كتب عليها «أليس» هذه الخريطة المأدرة من مخطوطات مكتبة الدكتور المتحلي الماحي التي بلغت ألفين وستمائة وخمسين مخطوطاً في مختلف العلوم من بينها مصاحف وتفسير وكتب ميرة وأحاديث شريعة ومدائح

بمجرد دخولك المكتبة التي تم إهداءها لجامعة الخرطوم في عام 1972 يطالعك تمثال للمتحلي وهو ممسك بالكتاب الذي أحبه ويات جزءاً من حياته حتى النفس لأخير تحتوي المكتبة على تسعة عشر ألف مجلد من الكتب والمخطوطات والخرائط من بينها ألف كتاب عن الطب وألف كتاب عن علم النفس وألف وثلاثمائة كتاب عن السودان وألف وخمسمائة عن التراث العربي وخمسمائة عن التاريخ القديم وثمانمائة وخمسون عن التاريخ الحديث وسبعمائة

وستون خريطة. وثيقة الكتب شملت جميع علوم المعرفة، كتاريخ العلم والفلسفة والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الفلك وكتب الزراعة وعلم النبات وعلم الحيوان والتربية وعلوم الاجتماع والعلوم السياسية والاقتصادية والفنون والتصميم والموسيقى والأدب والموسوعات ولقواميس وكتب بالعربية وغيرها.

أما مجموعة كتب السودان فتعد الأكمل حيث شملت جميع الكتب التي تناولت السودان باللغتين العربية والإنجليزية وغيرهما فيها بحثان من مجلد يحتوي على رسائل غردون بخط يده - وقد صدر هذا الكتاب في عام 1885 - وهناك أيضاً إحدى عشرة نسخة من كتاب سلاطين «البار ولسيف في السودان»، منها نسختان باللغة الإيطالية طبعتا عام 1898 وأربع نسخ من طبعة إنجليزية صدرت عام 1898 أيضاً والطبعة الثالثة لها وتاريخها 1922، كما توجد نسخة باللغة الفرنسية طبعت بالقاهرة في عام 1898، ونسخة طبعت في لايبزج عام 1896 باللغة الألمانية.

وتضمنت مكتبة التجاني حوالي ثلاثين كتاباً مختلفاً عن غردون صبيح أحدها شعراً وصدر في لندن عام 1885 ووجدت نسختان من كتاب بعوم شقير «جغرافية وتاريخ السودان القديم والحديث»، كما توجد مجموعة كاملة من «السودان في رسائل ومدونات» منذ عام 1918، ووقائع مجلس الحاكم لعام 1910 حتى 1925 ويوجد أيضاً كتاب عن بعثة لسنار ودنقلا صدر عام 1822، ولا توجد منه سوى نسخة أخرى واحدة بمكتبة الجامعة كما توجد كتب الرحالة الذين احترقوا القارة مازين بالسودان أيام انكشوفات الجغرافية والتكالب على المستعمرات أمثال ستانلي وبركهارت وجوستون وبروس وغيرهم. وهناك أربعة مجلدات تضمنت صوراً قديمة عن السودان عند زيارة الرئيس الأمريكي روزفلت للحرطوم في عام 1910، ودلت بالإضافة إلى قصاصات للصحف الأمريكية التي

تابعت لرحلة وهناك طبعة خاصة بادرة من سيليوجرافية السودان لإبراهيم حنسي تحمّل توقيعه، ومجلدة تجليداً فاحراً مرر كشافاً ومذهباً ومبطلناً.

ويوجد كتاب إحتوى على مطبوعات المملكة المتحدة فيما يتعلق بمصر والسودان تضمن مكاتبات خاصة عن العمليات الحربية البريطانية في السودان والتي تمّ تقديمها للبرلمان البريطاني عام 1885، كما يوجد مطبوع يوميات عباس بك سكرتير المحرل هكس والذي قُتل معه في معركة شيكان عام 1883، وقد طبعته دار المعارف بمصر.

تشتمل مكتبة التجاني العاظمي أيضاً على كتب للتاريخ القديم تبلغ خمسمائة مجلد منها أكثر من 250 مجلداً عن تاريخ مصر الفرعونية من مؤلفات بدح وماسيرو وفلندر بيري وعن التاريخ الأوروبي هناك ثمانمائة وخمسون مجلداً منها جزء كبير عن تاريخ بريطانيا والتاريخ لأفريقي وتاريخ لشرق الأوسط، ومن كتب التفاسير هناك تفسير الرزقي وتفسير لدر المشور لسيوطي والكشاف للمحشري وتفسير الثعالبي ومن المصنفين ابن تيمية وتفسير أخرى ومن كتب السيرة هناك ابن هشام وكتب أخرى بلغات غير العربية ذلك بالإضافة إلى كتب الفلسفة الإسلامية كمؤلفات ابن رشد و«إحياء علوم الدين» لغيرائي وتوجد عدة طبعت من الثورة يعود تاريخ إصدارها إلى عام 1949، كما توجد عدة نسخ من الثورة باللغة العربية يعود تاريخ بعضها إلى القرن التاسع عشر.

أما عن الأدب ففي المكتبة طبعتان من كتاب الأعاني ومختصر الأعاني، كما توجد طبعت من «ألف ليلة وليلة» بالإنجليزية ولمّ تغل من دواوين الشعر كديوان المتنبي بشروحات العكبري والعلامة الوحيددي والبرقوقي وسليم إبراهيم صادر وناصف البارحمي ولجنة لتأليف والترجمة ولشر بمصر إحتفالاً بألفية ميلاد الشاعر، وهناك نسخ من شرح «إخوان الصفا» لإبراهيم القاضي وبه حاشية من تفسير

العسكري والوحداني، كما تجد «رباعيات الحليم» و«سقط الرمد» للمعري وشروحه وبانمكتبة عدد من الكتب الخاصة بتاريخ العلم لمؤلفين أمثال جورج سارنون وألدو ميللي وكتب الفلك لعلماء أهداد مثل البيروني وأبي الحسن لاراي أما كتب الطب الذي هو مجاله فهناك حوالي الألف كتاب، منها مائتان وسبعون باللغة العربية، مثل كتاب «القانون في الطب» لابن سينا والذي يعود تاريخ طبعه إلى عام 1593 - وهو يحتوي على ألف وثلاثين صفحة بالحروف الدقيقة - وكتاب «عيون الأبناء في طبقات الأعيان» لاس أبي أصيبعة، وقد نشر في عام 1883 وكتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» بيوسف ابن رسول العباسي المجوسي - وقد ألفه صاحبه للملك عصف الدولة بن بويه، وكتاب «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية المتوفى عام 751 هـ أما علم النفس، الذي اشتهر به الدكتور التجاني الماحي وداع صيته فقد وجدت مذكرة بحظ يده على علاف كتاب في علم النفس جاء فيها «هذا الكتاب أهده لي الصديق العزيز إسماعيل أهدي الأرهري يوم 1935/6/6، وهو كتابه الذي قرأه في علم النفس بالجامعة الأمريكية، وهو أول كتاب في علم النفس أقرؤه» وقد بيع عدد الكتب الخاصة بعلم النفس في مكتبة التجاني ألف كتاب، معظمها لمؤلفين من القرن العشرين إلا كتاب «تفسير الأنام في تعبير الأنام» لابن سيرين، وقد تم تأليفه في عام 1096 هـ كما يوجد كتاب «لغة لغة» للرازي.

تصنفت مكتبة التجاني الماحي أيضاً سبعة «اليوميات» احتوت على عدة خطابات لعردون وليفجستون وصموئيل بيكر ووجت وغيرهم، من بينها آخر ما كتبه غردون في حياته بأم درمن يوم 14 ديسمبر 1884 عبر فيه عن سعادته لأنه أدى الواجب الموط به وهناك قصاصات صحف منها قصاصة من عدد صحيفة «تايمز» اللندنية صادرة في السادس من فبراير 1885، نشرت فيها بريقة عن

للاحتياجات وأساليب الرقص من قبل لأوساط المحافظة والمعلقة لم تكن الإدارة البريطانية تمدى حماساً للتعليم بصورة عامة وتعليم الفتيات بصورة خاصة. ولكن كانت تدرك خطورة الوعي الذي يمكن أن يتمحصر عنه تعليم الأمهات. لذا أن الأمر تم باستمرار طويلاً حتى بدأت الأوساط المستنيرة تطالب الحكومة بالتوسع في لتجربة فافتتحت خمس مدارس للبنات في مدن مختلفة. وكان ذلك في عام 1911. استمر التوسع ببطء شديد حتى تم إنشاء كلية معلمات لمدارس الأولية في عام 1921 وفي عام 1948 أسس الشيخ أبو بكر المليك أول مدرسة أهلية وسطى للبنات بأم درمان. وذلك بعد أربعين عاماً من إنشاء أول مدرسة أولية ومن ثم بدأ التعليم الأهلي في التوسع والانتشار بسبب الوعي الذي انتظم البلاد وحظ، الاتحاد النسائي خطوات أوضحت الاستعمار حين أسس مدارس وسطى للبنات في عام 1953 بأم درمان، والخرطوم وكان التعليم الثانوي قد بدأ بمدرسة أم درمان ومن ثم أتيح للبنات السودانية دخول كلية الخرطوم بجامعة فخرجن بأعداد قليلة ثم تليث أن أردت بمرور السنين.

طيلة هذه الفترة ساهمت المرأة السودانية في اتصال حب إلى حب لرجل منذ ثورة 1924، وحتى بيل الاستقلال كما أحدثت تتسهم الوظائف المهمة وتكتب في صحافة منذ بداية سنوات الأربعين. وكان أحياناً يكتبن بأسماء مستعارة وقد صدرت أول مجلة نسائية في السودان عام 1947 قامت بإصدارها الأسيرة تكوي سر كسيان- وهي سودانية من أصل أرمني- باسم «بنات الوادي» وشهدت منتصف الخمسينيات صدور مجلة «صوت المرأة»، التي باتت تحررها أقلام سودانية برئاسة فاطمة أحمد إبراهيم، وكانت تمويلها بالإضافة إلى التحرير عضوات الاتحاد النسائي. والسيدة فاطمة أحمد إبراهيم تعتبر نموذجاً رفيع المستوى في الاهتمام بقضايا وضعها وكتسابها لاحترام جميع الاتجاهات السياسية لتمكسها بأخلاق وقيم سات البلد السودانيات وكانت إحدى

المرأة السودانية..

تاريخ طويل وتحرية خصبة



عاجة كاتف

«الست نحب الفارس.. . تمسيت لو أراني معتزبت أفدي بيس القتائل»

محمد أحمد المهدي

«الرجل عظيم والمرأة عظيمة.. . وليس أعظم من والدته الرجال»

وولت وثمان

لا أحد يستطيع أن يتصور تلك الحادثة التي كانت تتكرر يومياً في إحدى سنوات الأربعين من القرن الماضي حين التحقت فتاة سودانية بالعمل كموظفة في مصلحة الاقتصاد والتجارة. كانت تخرج من دارها بأمر دربان فتستقل الترام يرافقها أخوها حتى باب المكتب في المحطوم ثم يعود بها بعد ساعات العمل بنفس الصورة. كانت ترتدي ثوباً محتشماً وتغطي وجهها إلا العينين ومع ذلك كانت تتعرض للسباب والمحصب بالحجارة من قبل

الدهماء الذين اعتبروا تجربتها تمرداً على الأعراف والتقاليد وحتى في داخل المكتتب ثم تسلم من ترمت رملاتها الموططين الذين رفض البعض منهم مجرد التعامل معها في إطار العمل، وأقسم بعضهم بالطلاق على ألا يجلس في غرفة واحدة مع «حرمة» ومع ذلك لم يحص أكثر من عامين حتى بلغ عدد الموظفات تسع فتيات من أكمس تعليمهن الثانوي في «مدارس الأجنبية» والتحقت بمصلحة الاقتصاد والتجارة، ولم تكن تلك تجربة العتاة الأولى في العمل بالسلك الوظيفي فقد سبقت إلى ذلك فتاتان هما أسماء قريفي وأبيري جمعة سعيد اللتان انتحقتا بمصلحة التلغونات في عام 1920.

لم يدرك هؤلاء الحمقى أن المرأة السودانية تاريخاً طويلاً حائلاً بالمآثر والمواقف الجليلة، ولم يعلموا أن الكنداك، الملكة التي حمت مروي حتى عام 25 ق م استطاعت أن تدحر الحامية الرومانية في كل من جزيرة الغينة وأسوان وأن قائمة أركل احتشدت بملكات أخريات إردت بهن حصاراً بيته ومروي، وإن أمان رتس بنت الملك كاشتا (715-664 ق م) حكمت النوحه لقيلي من مصر على عهد أخيها، وقد وصفتها بعم شقيق بقوله: «ولهذه الملكة في متحف الجيزة تمثال من حجر الجرانيت بقدر أهيف وقوام رشيق ووجه صبور جميل يرميه لتاج على رأسها والأساور العريضة في معصمها والحجول الكبيرة في رصعها على مثل أساور السودانيات وحجولهن هذه الأيام»

وهي المجتمعات الرعوية القديمة في السودان لقديم بررت المرأة إلى جانب الرجل بمشاركتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للقبيلة وقد تولت قيادتها الفعيلة في المعارك والمصادمات مثلما فعلت شعبة المرغومية في البطانة وبكرة بنت مكابر الجعلية التي كانت مقاتلة شرسة حتى أنها تمسعت عن الزواج ورئسته بعد حين فأنجبت علياً - وما زالت منطقة جبل أم علي تعرف باسمها وفي مجال العلم برزت شقيقات عالمات أدرن الحلوي وعلمن النساء، يذكر

التاريخ كثير، منهم أمثال فاطمة بنت جابر التي علمت القرآن في حلوتها بقرية ترايح القرية من كريمة -إلى جانب أخويها إبراهيم وعبدالرحمن- وهناك عائشة بنت ود قidal التي درست بحلوتها بجهة جبل الأولياء كثير من النساء والرجال. وفي الشرق بمناطق لجاء اعتمد لتدريس في الحلاوي أساساً على النساء. وفي العرب يعترض أن تكون روجة شيخ الحلوة مثله تحفظ القرآن وتدرسه في الحلاوي وبررت هناك شيخات متعقبات أنشأ الحلاوي بأنفسهن وأكثرهن من قبائل لغور والبرغو والمساليت»

وحين اندلعت الثورة المهدية أطلقت طاقات النساء فشاركن في المعارك منذ الوهلة الأولى وصحبن أروجهن وحوالهن يحمين ظهورهم ويصمدن حراجهن ويقاتلن خلف الجيش بحسن العصي العليظة ويهرجن بالأناشيد بحماسة ويذكر التاريخ ربعة بنت مرعي الكناينة التي سارت على قدميه ثلاثة أيام بلياليها عشقت انصافي وبوهاد وانغاداب الموحشة لم تخش الساع ولا الصباغ حتى وصلت إلى معسكر الإمام المهدي في قدير فأبلغته بتحريك قوات العدو من مشودة لقتاله. فاستعد لذلك وأذق القوة مرارة الهزيمة في أقل من ساعة وكذبت لحاجة ست البسات أم سيف التي حملت أمر التسليم إلى صالح ود المث في فداسي وواصلت مشاركتها في معارك الثورة حتى حصار الخرطوم حيث استشهدت في أغسطس 1884 هي وعدد من إمائها المقاتلات كما سقطت شهيدات أخريات أمثال خديجة بنت سوركتي، وفاطمة بنت أم الحسن، التين كانتا تعالجان الجرحى.

كان الإمام المهدي برأ عطوفاً على النساء يحترمن ويقدرن ويمتلئ خصابه بتوفيرهن والعمل على حل مشاكلهن -وكان يتدخل حين يستشره في تفاصيل حياتهن. وكان يستشير بميلاد البسات. وقد تسمى أن يجب منه من الفتيات لبصاهر لقبائل، وذلك في سعيه نحو صهر الأمة السودانية وتحقيق

أصنافه

وحدتها الكبرى

وهي امهدية ثم إلماء نظام التعليم المرتبط بثقافة الاحتلال التركي وتم تشجيع الحلاوي لتعليم الجسسين فانتشرت في أم درمان ومناطق الدامر، والممرات بشدي والجريزة إسلاج والجريف، وحلفاية الملوك، و ستمر معهم هذه الحلاوي حتى انحكم الثنائي، وقد برزت بساء شيعات متعقبات حلال سوات المهدية كن يظفن بالبيوت بتعليم النساء.

في العهد لتركبي بدأ امبشرون امسيحيون نشاطهم في السودان عام 1846 وشمل مناطق مختمة . فأقاموا مدارس مختلفة للأطفال يعلمونهم القراءة والكتابة والحساب ولنجارة والبناء والرسم والعماء والموسيقى وأحدث المرأة بصيب وفر من تلك لتجربة فتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإيطالية الأمر الذي مكن الباررات منهن من السفر إلى مصر وإيطاليا وقد ذكر الأب اليأس ف طويلوي في كتاب «دور الإرساليات الكاثوليكية في حركة الكشوفات الجغرافية وعلم الأجسام في السودان» أن من بين هؤلاء الفتيات طريفة أوديت «من الديوك»، وبحر النيل حسن من دارعور، وبحنة ربحان من «دار مساليت»، وقد تلقين تعليمهن بمدينة فيروا الإيطالية، وعلمت المبشرات المسيحيات النساء والفنيات في بيوتهن من الصبح والنخيلة والتطريز ومبادئ القراءة والكتابة، كما ساعدن على تعليم كثير من الإماء بعد تحريرهن من التوليد والتمريض.. دون أسس حديثة، ولكن دبت شكل البدايات الأولى في هذا المجال.

كان الشيخ بابكر بدري طبيعياً على مستوى القارة لأفريقية حين سعى في مطلع القرن العشرين لتعليم البسات في السودان، فأشأ مدرسته الأولى عام 1907 وألحق فيها بناته وبنات الأسر انقريية من عائلته ورعم ذلك ظل هذا

مؤسسة نموذجية في المجتمع المدني

الإتحاد النسائي السوداني



فاطمة أحمد إبراهيم

كتبت الدكتورة فاطمة بابكر محمود بروحها الطليقة ابوثة وجرأتها لمشروعة وغصبتها العادل المتسامح عن قضية المرأة فأوتت ورايت وأدعت كتنة ما عهدت مثبها في هذا المجال . هي الدقة والتشوع والنراء والتبول الصارم . وهي الأكاديمية الحاذقة بلا ريب والأديبة الكاتبة المتمردة طرقت السروب الوصرة لاراد لها سوى الإيمان بإنسانية الإنسان وبقصية أحتها المعدية أجبرتني أن أعود إليها . وما كنت أظن أنني سأفعل بعد تقديم كتابها في الأسبوع الماضي . عدت هكذا بحظي ربما لا تكون منتظمة لأن مؤلفها والمرأة الأفريقية بين الإرث والحداثة يلح عليك أن تعود إليه بين لحظة وأخرى . أنتحسه في كل وقت وهو على مكتبي . أحاول أن اقتصر شيئاً . إلا أنه يحتاج لقرءة متأنية عميقة . تستمتع بما فيه وتستريد فتتحد الحريد . فما يحتويه يلح عليك بشكل هاجب وفرح محبوباً إستوقفتني تساويها لتجربة المتظمات التي ابتدعتها المرأة السودانية

أصوات

قباداب الإتحاد النسائي البارزات، كما أصبحت رئيسة لإتحاد ساء العالم كأول عربية وأفريقية شغل هذا المنصب الرفيع. كما كانت أول نائبة برلمانية في المحيطين العربي والأفريقي، وتقيم لأن في العاصمة البريطانية

وقد حاصبت للمعدة الممتدرة والأديبة البارة الأستاذة ملكة الدر محمد عبد لله معامرة مأكرة وحديرة بالشاء حين أصدرت رويتها «الفراع العريس». وذلك بعد أن بائت واحدة من كتاب لقصة القصيرة المبدعين.

لقد استطاعت المرأة السودانية تحقيق دانها وأثبتت جدارتها وقدراتها في الاعتماد عليها.. وشعنت أرفع المنصب وتولت حقائب ورورية. وطلت ترود عن أسرتها وتحمي أطفالها في كل الظروف القاسية لتي مر بها الوطن وهي هذه الأيام الصعبة التي فرضت الهجرة على الرجل وقفت المرأة السودانية سدا له في عيابه وحصوره، كما اضطرت في كثير من الأحيان للهجرة أيضا في سبيل تحسين ظروف العيش لها ولعائلتها. واستطاعت أن تصمد في المنفى البعيدة وتكتسب خبرات جديدة وتهل من المعارف في الجامعات ومجالات لعمل المختلفة وفي ظروف الحرب بالجوب طلت المرأة السودانية تدافع عن وجودها وتعمل على استمرار الحياة

تمكك لمثقفات السودانيات الآن على كتابة تاريخ المرأة السودانية.. فمقدن البدوات وقدمن المحاضرات، وأحدث مساهماتهن تترى في هذا الشأن كما اتسعت حركة التوثيق لتصيف تجربة جديدة لنشاط المرأة وتنوع اهتماماتها، وقد قدمت الدكتورة حاجة كاشف بدري مؤلفاً في حياة لتماسك والثراء بعنوان «الحركة النسائية في السودان» استطاعت من خلاله أن تمهد إلى التحري التاريخي للمرأة السودانية وقدمت مباح صاطعة للنساء السوديات ودورهن في الحياة السياسية والثقافية.

والدكتورة حجة كاشف حرة، أصبل من معارك شعبنا الوطنية، وهي من أوائل الحريجات الجامعيات، وقد تعمقت في العمل الوطني والنشاط الثقافي والإجتماعي ولقابي واكتسبت تجارب في غاية الأهمية، الأمر الذي انعكس بشكل واضح على مؤلفها الغيس الذي صدر في الخرطوم عام 1984

2 أبريل 2002م



ملكة الناز محمد عينا

« المرأة الأفريقية بين الإرث والحداثة »

د. فاضمة بابكر محمود



صدر في العاصمة البريطانية أخيراً كتاب « المرأة الأفريقية بين الإرث والحداثة » للدكتورة فاضمة بابكر محمود كمساهمة بارزة في الكتابة حول هذه القضية الشائكة والمعقدة والتي تشغل حيزاً كبيراً من الاهتمام. واشتمل الكتاب برؤيته الشاملة العميقة على نواحي ورؤى حول التجربة الإنسانية للمرأة بعامة كما تناول تجارب النساء الأفريقيات في كينيا ومصر والسودان بصورة خاصة.

ويقول الدكتور محمد سليمان محمد مدير معهد ليديل الأفريقي ومقره في لندن إن هذا الكتاب يبيّن حاجة ملحة في نصّال المرأة السودانية من أجل تحررها وإعلاء كرامتها الإنسانية، وهو يسد ثغرة في المكتبة العربية في مجال القصايا العنمية والنظرية لحركات النسائية الأفريقية عامة والسودانية خاصة إنه حصيلة سنوات طويلة من العمل والدراسة والبحث

والدكتورة فاطمة بابكر محمود ناشطة سياسية سودانية معروفة وعاملة في مجالات العمل العام والدفاع عن المرأة. وهي أيضاً أكاديمية بارزة حاصرت في جامعة الخرطوم والجامعات البريطانية وقد تنقت تعليمها في شعبة العلوم السياسية كلية الاقتصاد والدر سات الإجتماعية بجامعة الخرطوم وجامعة «هل» بالمملكة المتحدة. منتجة بالجنة المركزية بالإتحاد السبائي السوداني مد عام 1970 ورئيسة لمظمة النسائية لحركة «البان-أفريكان». كما أنها عصبوة مؤسسة لكل من إتحاد الكتّاب السودانيين والمظمة السودانية لحقوق الإنسان لها عدة مؤلفات والعديد من الأوراق البحثية من أهم مؤلفاتها «البرجوارية السودانية هل هي طبيعة للتنمية»^{٢٩} ويتركز إهتمامها على قضايا المرأة والاقتصاد السوداني والإسكان وهي تقيم حالياً في لندن مع زوجها الدكتور محمد سليمان و بنتهما هرة.

وقد تلقينا منها بكنّ امتنان نسخة من هذا الكتاب لقيم المليء بالمعلومات والوثائق ولدي قام بتحريره الدكتور صلاح آل بندر بلعة رفيعة ربت لمحتوى العميق لهذا العمل الفكري لمتعبّر نتمنى أن نتاح لنا فرصة أوسع حتّى نتاول شيئاً يلقي ضوءاً على أهمية هذا العمل قبل توريعة والذي سيتمّ بإذن الله خلال الأيام المقبلة

١ أكتوبر 2002

أصوات

كانت لمشاركة الدكتورة حائدة راھر التي حرّحت في أول مظاهرة ضد الاستعمار في عام 1946 والأستاذة دسمة طالب اللّتين سبق أن أسست «رابطة المتبنات لثقافية» أثر بارز في دفع المبادرة بحشد المتعلّقات لإشياء تنظيم «الإتحاد النسائي»

ولا بدّ أن هؤلاء لريّذات قد تأثّرن بالحركة النسوية المصرية وفائداتها مثل هدى شعراوي بالإضافة إلى حركة التحرير التي شملت المستعمرات الأفريقية والسيوية خلال الحرب العالمية الثانية كما كن قريبات من تطوّرات الحركة الوطنية لسودانية. ولن يكون بعيدين عن حقيقة إذا قلنا إن هذا الإتحاد نشأ في أحضان نبت الحركة. كما أنه تراص مع بروز حركة اليسار السوداني - الذي كان أول تنظيم يفتح باب عضويته للنساء - وكانت حائدة راھر من بين أعضائه البارزين. ولا شك في أن كثيراً من الأساليب التنظيمية التي إبتدعها اليسار نمت الإستفادة منها في بناء تنظيم الإتحاد.

في المرحلة ما بين 1952 و 1965 طرح «الإتحاد النسائي» برنامجاً يدعو للتقدّم الاقتصادي والإجتماعي - كان متقدماً سبباً على تقاليد المجتمع السوداني عهد داك وخاصة في الريف - حيث طالب بتعميم المرأة ومساواة الأجور وتعويض فوايين لأحوال الشخصية. كما دعا لمحاربة العادات الباصرة مثل الشلوخ وغلاء المهور وإتفاق البدحي في المناسبات وركز على مسألة نشر الوعي ومحاربة الأمية وأنشأ موصولاً مسائية لمحو الأمية في بعض مدارس العاصمة ومدن الأقانيم.. وبادر الإتحاد النسائي أيضاً بإنشاء مدرسه وسطي للبنات في حي الخرطوم جنوب. كانت أول مدرسة للبنات يقوم بتأسيسها تنظيم غير حكومي ومد ذلك الوقت بدأ التفكير في إضافة القسم الثانوي الذي صادرته سلطة بحيري في عام 1969

لتحرير ذاتها وتأكيد عزمها على تحديد مصيرها ومشاركتها في صنع مستقبل بلادها

تحدثت عن تجربة المرأة السودانية منذ أن كانت شيخخة تؤسس الخلوي لتعليم الصبية ولصبوات حين نهضت معلمة مثابرة أو «حوارة» متألفة في كل العهود التي تو تارت الينا أخبارها حتى القرن العشرين الذي شهد طفرة لإسان «كبرى» وحين بدأ التعليم الرسمي إستعانت المرأة السودانية ولوج المؤسسات التعليمية العليا وتخرجت فيها عبر دورها المشهود

شدي ماكتبته عن الإتحاد النسائي والدور الذي لعبه في الحياة السودانية كإحدى المؤسسات البارزة في المجتمع المدني، رغم ما تردد عن ارتباطاته بتنظيم حزبي معين وأوصفت ملابس تلك العلاقة بكل جرأة وشفافية فهي عصوة قيادية منتخبة بالدجعة لمركزية بذلك الإتحاد منذ عام 1970. تلك المؤسسة ذات بصوت الحبير والتي ماعدنا نسمع عن نشاط لها منذ زمان ليس بالقصير. ران عليها مارن على مؤسسات لمجتمع المدني من مكور وموات ألحقته بها معاول الهدم والتخريب،

تداولت اكتابة نحارب التجمعات السوية الباكرة مثل «لادي النسائي» الذي شأ بمدينة ودمدي في عام 1926 وجمع ليعاً من روجات كبار الموظفين بمشروع الحرية ومبادرة من روجات لبريطانيين العاملين في خدمة لحكومة الاستعمارية عهد ذلك. وكان هدفه لا يعدو لتسلية ولترفيه. ولكن سرعان ما انفص سامره حين رأى فيه الوطنيون حروماً عن الثقايد والعادات عأثرت النساء السودانيات عدم إرتياده وتوقف نشاطه. وفي عام 1928 تكوت أيضاً جمعية المرشدات الكشمية التي أسستها البريديات واقتصرت عصبيتها عليهن بالإضافة إلى ست العجاليات لأحسية الأخرى كالأرم والاهريق والشوام

استمر كذلك حتى فتح باب عضويته للسودانيات في عام 1948

شأت «ربطة الميات الثقافية» في عام 1946 وصمت عدداً من سات المواطنين والمتعلمين ممن كانت أعمارهم تتراوح ما بين 18 و 22 عاماً وذلك بقيادة مجموعة من متعلمات أم درمان برئاسة خالدة راهر السادات التي أصبحت فيما بعد أول طبيبة سودانية وسكوتارية هاطمة طالب إسماعيل التي عملت حتى وفاتها بمجال التعليم. استمرت هذه الربطة لمدة أربع سنوات بشأن حلاليها أول مدرسة مسائية لمحو أمية لساء وروضة للأطفال.

كان ذلك برهاصاً لتطور وعي المرأة السودانية وإحساسها بضرورة إشاعة التعليم وسط الساء لتأكيد انتشار ذلك الوعي حتى يستطعن لإمساك بقضايا تحررهن تصاعدت الحركة الوطنية وبلغت ذروتها في سنوات الأربعين من القرن الماضي وساهمت المرأة السودانية بنصيب وافر في الأحداث السياسية والحركة المطالبة للعاملين وشاركت الممرصات لأول مرة في تنظيم تطاهرة مع رملانهم في نقابة عمال وعاملات وزارة الصحة وفي عام 1955 هارت إحدى الممرصات بمصوبة اللجنة المركزية لسفابة. أما «اتحاد المعلمات لشقاعي» فقد تأسس في عام 1948 ثم لم يلبث أن تطور بقيادة لأستاذة تقيسة الميث وأحريات وتحول إلى تنظيم مطسي في عام 1949 هو نقابة المعلمات واعترف به السلطات وتم تسجيله رسمياً في ديسمبر 1951.

سبق تكوين لاتحاد النسائي السوداني في مطلع عام 1952 شؤ تنظيمات نسوية أخرى مثل نادي ودمدي النسائي الذي تأسس في عام 1944 والجمعية الحيرية النسائية بمدينة الأبيض في عام 1951 و«اتحاد الساء الناطقات بالإنجليزية» - الذي أسسته الإدارة لبريطانية عام 1947 وجمعية «نهضة المرأة» التي أسستها السيدة رحمة عبدالله جاد لله (والدة السيد المصادق لمهدي) عام

1949، ثم جمعية الثقافة النسوية والتي تكونت بعد الإتحاد النسائي عام 1954

جميع هذه المنظمات كانت محدودة العنصرية والأهداف ولم تسع لقضايا مثل تحرير المرأة أو تبني أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية.

كانت صاحبة فكرة تكوين الإتحاد النسائي هي الأستاذة عريزة مكي عثمان أروق حين أشارت في بحث قدمته في كلية الآداب بجامعة الخرطوم إلى أن مشاركة المرأة السودانية في الحركة الوطنية لا يمكن أن تتم إلا في إطار تنظيم نسائي قومي جماهيري شامل. وبمبادرة مجموعة من المتعلقات ومن بينهن مؤسسات «رابطة الفتيات الثقافية» حادثة راهر السادات وفاطمة طالب إسماعيل وعريزة مكي أروق بالإضافة إلى مجموعة أخرى بدأت المناقشات حول تنفيذ فكرة التنظيم.

وفي يناير 1952 انعقد الاجتماع الأول بأم درمان في منزل الأستاذة عريزة مكي حضرته 28 من المتعلقات بالعاصمة المثلة وكانت أغلبهن من أم درمان.

وتشكلت لجنة التنفيذية الأولى للإتحاد النسائي السوداني من 15 عضوة هن بنون أدهم (ممرضة)، وثرى أمبابي (معلمة)، وسعاد عبد الرحمن (معلمة)، وحالدة راهر (طبيبة) وفاطمة طاب (معلمة)، وثرى الدرديري (طالبة جامعية)، ونفيسة المليث (معلمة)، وسعاد الفايح البدوي (طالبة جامعية)، وحاجة كاشف (طالبة جامعية)، وعريزة مكي (معلمة)، وخادم الله عثمان (ممرضة)، وفاطمة عبد الرحمن (معلمة) ومحاسن عبد العال (معلمة)، وفاطمة أحمد إبراهيم (معلمة)، وحديجة مصطفى (معلمة) وتم اختيار فاطمة طالب أول رئيسة للإتحاد

كان من أبرز أهداف الإتحاد النسائي هي تحرير المرأة من حالة الإردوح كأنثى في البيت وكمواطنة عاملة في المجتمع، والاهتمام بالطفولة والأمومة والدفع عنها، والقضاء على الفقر ومحو الأمية بتحقيق لتسمية الاجتماعية بالاعتماد على النفس.

كنت التقى بالعم ود القور أحياناً حين أكون جالساً في مكتب صديقنا وأستاذنا
الراحل محمد ميرعي بركة عنده الرحمة كان بركة قد تقاعد في أوئل سنوات
الثمانين واتخذ مكتباً له في المنطقة الواقعة شمال السوق كُنا نتقي فيه أحياناً
مع عدد من الأصدقاء حين كان ود القور رئيساً للطاخير في داخلية مدرسة
كوستي الأميرية الوسطى في أوئل سنوات الستين كُنا طلاباً فيها، كما كان
الأستاذ بركة معلماً يدرسنا للغة الإبحيرية كُنا في القسم الحارجي إلا أننا
نعرف ونصادق جميع عمال المدرسة بمن فيهم طاقم المطبخ ود القور ومحمد
ويحيى.

كشفت لنا ود القور ذلك النهار أنه عمل ضابطاً للملكة أمة وروى لنا ما رآه وما
أُتيحت له معرفته ثم يكن حديثه ذلك جديداً على أذني فقد سمعت أطرافاً من
أخبار تلك السيدة العجيبة من بين القصص والحكايات وأحداث اثاريح التي
كانت تزويها لنا الوالدة التي كانت تتدفق يسوعاً من الحديث في تلك الليالي
السعيدة، وما رينا مدينين لها - عليها الرحمة والمغفرة - فقد حذب مصدرنا
أساسياً في تكويننا المعرفي والوجداني، وطاقة ديماميكية شجعت دوات وحددت
توجهاتنا

كانت قصة الملكة أمة وما زالت جزءاً من تاريخ المدينة وما زالت اذاكرة
تستعيدنا كلما سافقنا لظروف قرب دار العمدة ود التوم في الطرف الجنوبي
لحي المربع كما كنت قد قرأت - ما لا أدكره الآن - ما كتبه الدكتور مصطفى
مبارك مصطفى عن الملكة أمة وما اشتجر بينه وبين الراحل الطبيب محمد
الطيب من سجل حزن هذ الشأن ومصطفى باحث وقاص ظل يبدى إهتماماً
عظيماً بمدينة كوستي التي شأ وترعرع بين ربوعها في حي المربع الذي
استضاف الملكة يوماً، وإن كان ذلك قبل ميلاده بسنوات ومعظم انقصص
القصة التي كتبها مصطفى مبارك تدور أحداثها في تلك المدينة التي أحياها

وكان الاتحاد النسائي في معظم الأحيان يستخدم المدارس الحكومية بعد اليوم الدراسي حيث تبدأ حصص محو الأمية في الرابعة بعد الظهر حيث تكون النساء قد فرغن من شؤن منازهن

تعاقبت على رئاسة الاتحاد النسائي فاطمة طالب ثم حادثة راو وحاجة كاشف بدري لفترة وجيزة قبل لحكم العسكري الأول ثم الأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم التي ترأسته منذ عام 1965 وحتى الآن

لقي الاتحاد النسائي معارضة ساهرة من قبل المسلمين منذ إنشائه وهجوماً منظماً من قبل أئمة المساجد والعناصر المتشددة التي رأت في طرحه خروجاً عن الدين والعادات والتقاليد ولكنه في نفس الوقت لقي تعاطفاً ومساندة من الفطحات المستنيرة والمثقفين الذين حضوا مسداً دالماً له.

دأب الاتحاد في سنواته الأولى على إقامة «أسبوع المرأة» في 28 سبتمبر وكان حدثاً مشهوداً تشقاه جميع النساء حتى الأميات منهن بكثير من الترحاب. وكان يوم «أسبوع المرأة» الذي يقام بأمر دعم كثير من النساء والرجال لحضور الندوات والمحاضرات ولمشاركة في السوق الخيري. يمتد الاحتفال سبعة أيام: يوم للطهولة والأمومة ويوم للعائلات ويوم للمصالحات، ويوم لفصحا العامة، ويوم للمناشط الفنية، ويوم للمباريات الرياضية، والأخير لمحو الأمية. وفي ختام الأسبوع يقام حفل عرائي ساهر يشارك فيه كبار الفنانين يقدمون أحدث الأغاني إلى جانب الأناشيد لوطنية وتلك التي تناول قضية تحرر المرأة مثل «عنية العبد حسن عضية» «هيا يا سعد وانت يا ثريا» «على الجهاد نشيد الحرية» وكان الأسبوع يشمل على المعارض للأعمال اليدوية والصور والشعارات الخاصة بتحرر المرأة، إلى جانب معارض الرسم والتطريز والحياطة والسبيج.

وكان الأطفال يشاركون بتقديم فقرات شعرية بالإصافة إلى الأغاني والأناشيد

أصوات

وكان الاتحاد النسائي أول من اهتم بالصوت الشعبية ولرقص الشعبي بترويجه
لرقصة الكمبلا المعروفة في جبال أنتوية

أصدر «الاتحاد النسائي» مجلته «صوت المرأة» التي شنت الحملات ضد
الرجل والحرقعة وصحلت على تحرير النساء من كل أوجه الخلف وقد لعبت
دوراً سياسياً بارزاً، كان دكتاتورية العريق عبود وكشفت سياساته بالمقال والصورة
والكاريكاتير، وكان يتم توريدها بصورة واسعة ويتابعها كثير من الناس.

صورتن للملكة أمنة



مبنى دار العمدة ولد القوم بحي المراهيج، جنوب كوستي
وقد قام مبني جديد على أنقاضها

اقترب الطاهي المكلف من الدار. كان حرس من الجند واقفين. حب هاماً وأعرب عن هويته أصبحوا به فدخل. فاده رحل من الفناء إلى غرفة كبيرة. دفع الرجل باب الغرفة وتأخر تقدم الطاهي داخلاً. ولكنه لم يلبث أن أجعل تماسك ثم تقدم. كانت هناك سيدة مهيبة قد ستوت جالسة على السرير. سحاسي الصنم بارعة الحس ذات جلال ومهامة تبدو وقد تجاوزت الأربعين، ذهبية اللون، واسعة العبير، ذات صفائر مميطة ترتدي على كتفها. كانت تترين بكثير من الحللي الذهبية أساور صحمة وفرطين مستديرين يتدليان أسفل الحدين ردت تعيته باقتصاب فهذا روعه وأحدث تشدث معه في الشأن الذي جاء من أجله وفي تلك الأثناء كانت هناك وصيفة تحمل مروحة من ريش النعام وتقف إلى جانب السرير لذي تتناثر فوقه المطر والحبش.

حين كان الطاهي المكلف بصف ذلك المشهد حلته يقرأ في صفحة مسترعة من كتاب ألف ليلة وليلة أو نص مكتوب عن إحدى الكذابات في زمان ممدة مروي القديمة أو كأنه يعيد على مسامعنا كتيه الرحالة بروس حين زار شدي في القرن الثامن عشر ووصف الملكة سنا ذلك الرصف الذي جسده الرسام جحا وعبي عثمان حين رسعا المرأة السودانية في دروة أمجادها لتاريخية. وكما عبر المجدوب: «للمرأة التي نقت الحقيبة بأوصافها ومحاسنها»

كانت تلك هي الملكة أمة التي حلت صيفة على منزل العمدة محمد نتوم - عمدة مدينة كوستي - في عام 1929 بأمر من سلطات المركز. وقد تم إحصاء لدار وتهشنها بالصورة التي تليق بمقامها السامي لرفع كانت رهبة المحسن ويقوم على حراستها نفر من الشرطة ريثما تجري معها التحقيقات تمهيداً لمحاكمتها بالتهمة الموجهة إليها.

عاش الطاهي المكلف العم أحمد ود القور حتى عام 1982 ليروي لما ذلك لمشهد انفراد ولولا تلك لسانحة لذهبت به الأيام ويطوى إنس الأبد. حدثني العم ود القور كيف أن السلطات الحكومية أسدت إليه مهمة الطبخ لهذه لشخصية لأسطورية كان لا يزال شيئاً ممتكناً بالحيوية والعفون فكان يحضر يومياً لإعداد الطعام الفاخر لجلالة الملكة. وكانت وجباتها في العالب تتكون من لدجاج وأرغ الحنم ولحم الصان والحساء والحصروات وبعد الفراغ من مهمته عصراً يستأذنها في الحروح فتد يدها إلى كيس قريب من وسادتها وتناول جسيهات ذهبية دون أن تعدها فبأحدها وهو يتمتم بعبارات الشكر ويحرج ليعود في صبيحة اليوم التالي فيتكرر لمشهد لامية. وظل على هذا الموال حوالي ثلاثين يوماً حتى تم ترحيلها إلى مكان سجنها وتحدث صاحباً بأنه لم يضع تلك الثروة بل شيد بها داراً في الحلة القديمة بالصوب الأحمر وادخر ما تبقى حيث انتفع به خلال سنوات ماحلة.

كثير من الرجال وساء من رتبة العبودية فخرج بعضهم من سلطان سادتهم وأقامت لهم الحكومة مستوطنات لإيوائهم

وكانت للحكومة عد أشأت لجنة عرفت بقلم تحرير الرقيق وأسست رئاستها لمستر آركل الذي جاء دارياً ثم ما لبث أن تحول إلى عالم آثار قدم خدمات جليلة وفتح طريقاً للدراسات الأثرية في السودان

شاهد ساس في تلك الفترة مستر أركن برور فري حاملاً أوراق الحرية متحدثاً عن ضرورة انقضاء على استعباد الناس حيث لا فرق بين أسود وأحمر وأبيض وسكن كثير من هؤلاء الأرقاء رفضوا إستلام تلك الأوراق باعتبارهم أحرار يقيمون مع سادتهم السابقين بكامل إرادتهم كأهل لهم وأقامت الحكومة مستوطنات للأرقاء السابقين أو الأحرار الجدد مثل أسود وأم هيب وبابوسة وتحتج غيرهم في فري أصنفوا على بعضها أسماء بديئة للإساءة لهؤلاء السادة وقد أطلق الأهلون عليهم «رقيق أركن» بقصدون مستر أركن لدي أشرف على تحرير الكثيرين منهم.

وتم اعتقال عدد كبير من المالكين الذين ينتمون إلى ثلاث من القبائل التي تقيم في بادية النيل الأبيض وتمّ إستطع البعض منهم تحمل ظروف السجى العاسية فماتوا وهم الذين اعتادوا على حياة لدعة يتداولون كميات من العليب والربرة والقشدة بالإصافة إلى لحوم الطرند كازراف ولعراان والأراب ودجاج انواي التي كانت تعج بها عبات المصطفة في ذلك الزمن العبد

وفي تقرير كتبه مدير مديرية النيل لأبيض في 15 مارس 1929 إلى لسكرتير الإداري جاء وأنه في وقت مسكر من عام 1928 تمّ في المركز الجنوبي للمديرية إكتشاف عدد من الأرقاء من قبائل البرتا المسوردين حديث من أثيوبيا وتنج عن ذلك إستعادة 500 رأس رقيق وأطمانهم، وبسبهم عدد كبير جرى إستيرده مد

أصوات

وأذكر أن الطبيب محمد الطيب أشار أيضاً إلى أن مصطفى لا بد أن يكون قد ستقى كثيراً من المعلومات من عمه الإداري الشهير مكاوي سليمان أكرت لدي كان عليه الرحمة كثيراً من المعارف والمعلومات.

أما المستر جاكسون معشني مركز حلفا فقد قدم صورة أخرى لمملكة أمة رآها في الحبس حين قدم منقولاً إلى المركز كانت تقيم في دار مكونة من ثلاث غرف تقضي فيها عقوبتها بالسجن كتب عنها المطبوعات عبارة هي كتبه «لسودان.. أيام ومسالك» ثم يحاول أن يتناول قصتها وبفوص في تفاصيلها. ذلك على الرغم من أنه أدرك أنها شخصية محتشمة لا تماثلها امرأة أخرى من ساء بلادها امرأة تنمير بالجرأة والشجاعة ذات جبروت وسطورة قل إنها كنت تعيف جميع سكان تلك المنطقة حتى أنها أمرت بطرد جميع سكان قرية أثيوبية كانت في الجوار. وصف حالها عند اعتقالها حين أطلق عليها مستر مكلاين وحجوده يحاصرون دارها ذات ليلة. ظنت رابضة لجأش رعم لا اضطراب لدي ساد مرلها والحواف الذي اعتري أعوانها أصبرت على ارتداء حدائها بكعبه العالي وحواربها التحريرية. ثم تكتف بدلت بل وفصت التوجه مع مكلاين حتى وصفت شيت من لبودة على أفعها وعتمرت قبعتها سلوك أوروبي، لا ريب أنها كتسبته من أوساط أرستقراطية الأمهرة خلال إقامتها في أثيوبيا فقد كانت قرينة خوجلي ود الحس ندي هاجر أبوه إلى الحبشة خلال أيام المهديّة. ويحذر أسلافه من لمتمة قال جاكسون إن خوجلي كان يتظاهر بالاستقامة في العمل التجاري ويبيدي إستعداده للعاهل الأثيوبي بدفع ألف «وقية» من الذهب إذا تم صطه في إحدى المحاكمات. بعث خوجلي ود الحس بروحه لتقيم د حل لحدود السودانية. إتحدت إحدى القرى مقرأ بها واعتزفت الحكومة السودانية بوجودها حين عينتها عمدة يمتد سلطانها في رقعة واسعة تجاورتها هي بنموذها وسطوتها وأحكمت سيطرتها على الأهليين المساكين وصف جاكسون إستقلالها

لمفتش المركز الإنجليزي حين كان يرورها فتحيطه بمظاهر المعاناة والتفرد
وتقيم سرادقاً فحراً تفرشه بأنواع من السجاد الدار تتناثر عليه أرائك أليفة جاءت
بها من أثيوبيا. وقال إنها كانت تتحدث العربية وتمهمها بشكل جيد إلا أنها كانت
تنصر على التحدث بالأمهرية حتى تتعرف على مصيبتها بشكل وطيد. كانت
تنظر بأنها ممثل للحكومة إلا أنها في الواقع كانت وكيلاً لأعمال روحها الذي
وصفه جاكسون بالوصاعة والمكر حيث استطاع تمادي الوقوع في يد السلطة
لسنوات طويلة. ولما أحس أن الأرض باتت تميد تحت قدميه حتى بعث بروجته
إلى داخل الحدود السودانية للتوسع في تجارة الرقيق التي استطاع من خلالها
أن يجمع ثروته الضائلة. لقبها بالست ولَمْ ترد كلمة الملكة فيما كتب لقب
الملكة كان متداً في الأوساط السودانية أما الإنجليز في تقريرهم فكانوا
يكتبون الست أمة وصمها جاكسون بالمجرمة إلا أنه لم يستطع تجاهل مظاهر
العظمة الملوكية التي كانت تحيط بها نفسها ولا الصجر الأرستقراطي التي كانت
تعبّر عنه بصيقتها وترمها من جفاف الطقس في حيفا

كان جاكسون قد عمل إدارياً في حكومة السودان منذ أوائل القرن العشرين
وقد أحب هذه البلاد وكتب عنها بشغف وحماس وقد نقل ما بين أم درمان
والحلفاية والكاملين وسدر ومناطق الشلك والنوير في جنوب السودان وقد رسم
صورة قلمية بادرة. وفي عام 1929 تم نقله مهنشاً لمركز حلما حيث وجد الملكة
أمة سجيبة في تلك المدينة وأصبح لها فيما بعد صفحتين في كتابه السودان
دير آبد ويز. وقد صدرت طبعته الأولى في أبريل عام 1954 ولم يترجم حتى
الآن وقد صدرت له مؤلفات أخرى هي: «عثمان دقة» «وسس الدار» «والعاج
الأسود والأبيض» «النوير في أعالي النيل» «والسودانيون المقاتلون» «وعردون
باشا» (وهو الوحيد الذي تمت ترجمته إلى العربية) ما دلت ألهم بالشكر لابي
شقيقتي الأستاذ صديق مصطفى أبو قرحة الذي أتاح لي فرصة قراءة هذا

الكتاب من بين كتب أخرى عن السودان حملها إليّ عند حضوره من الولايات المتحدة في إيجرته الأخيرة.

في أوائل عام 1928 وقع حادث قتل في منطقة تقع جنوب غرب مركز كوستي أقصى ذلك الحادث إلى تطورات أدت إلى كشف أمور خطيرة كانت تجري في تلك المنطقة علق كان قائماً كان لم يمر أكثر من ربع قرن على إلغائه بموجب إتفاقية عام 1899. تلك الإتفاقية كانت قد ألغت الاتجار في البشر إلا أنها سمحت بتدرج تحرير الرقيق المبرسي لإعتبارات اجتماعية. وقد توفقت بالفعل تلك التجارة البغيضة ولم تبرز مشكلات بهذا الشأن حتى انكشف المستور في تلك المنطقة دعت سلطات مركز كوستي بشرطتها إلى مكان الحادث الذي كان صاحبه رقيقاً قتله سيده. فكشفت التحقيقات عن وجود عدد كبير من الرقيق كان يصل إلى ذلك المكان من داخل لمناطق الحدودية. وقادت التحقيقات إلى أن هناك سيدة تدعى أمية يلقبها الأهالي بالملكة تدير تجارة غير مشروعة من داخل مملكتها الصغيرة كانت تبسط نفوداً على الأهالي البسطاء وتستعمل بؤسهم وسداحتهم بالنصراف في أسائهم يبيعهم إلى وساء أو مشترين قادمين من مناطق البيل الأبيض يستمر الحال لسنوات عديدة حتى تمّ الكشف عن ذلك لسط الحطير كما كانت تمارس نشاطاً تجارياً آخر للتغطية على تجارتها الأثمة فتقوم بتعدين الذهب بعد الحصول على التبر من الوديان ومناطق المياه المتدفقة من الهضبة لأثيوبية وتضع جيبهات من لذهب عليها ختمها تحاكي بها جيبهات الذهب الإيجيرية

نشطت سلطات مركز كوستي واتدعت شرطتها في ابو دي الجبوبة والجبوبة العربية للبحث عن صحايا تجاره الرقيق فاصطريت المنطقة وأحد مالكو الرقيق في إجمائهم في العبابات والوديان وبمختلف الأساليب وعلى الرغم من ذلك تمّ القبض على عدد من الأثمين فأودعوا السجن في مدينة كوستي وتم تحرير عدد

بالموت حتى أوقفوا تقدمهم . واحتدمت المعارك ثلاثة أيام تصدعت خلالها
طوبى لمحاصرين نتيجة القصف المدفعي وقتل صغوة العرسان

ولما حاول الأمير شيخ قصده أحمد بجدهم من موقعه في السهل الأبيض تصدت
له قوة حكومية عرقلت تحركه. وعندما بدعته الشائعات بمقتل أبو قرحة لوى عسان
فرسه وأراد أن يهاجم قوات العدو وحده بولا أن أمست به المحاصرون ومنعوه من
محاولة الهجوم الانتحاري . كانت تلك المعركة أشبه بالملاحم الإغريقية حاصي
شعبنا صد العراة الأجانب . فالحصار استمر رغم تلك الاشتكاسة العسكرية وتم
تعزيز قوات الثوار بالأمير عبد الرحمن المجومي وتحركت القوات الرئيسية بقيادة
الإمام المهدي نفسه من كردفان لتحتل مواقعها بأم درمان.. ولم يبت أن صدر
القرار بافتحام العاصمة وتحريرها . وقد تم ذلك في صبيحة الإثنين 26 يناير 1885

المرأة السودانية طُنت طوبى تاريخها أحتاً للرجال . فالكنداكات ملكات مروي
شيدن الحصارا وقاتلن عراة . ومهيرة بنت عيود بمنعت عجيبها في صباح يوم
راعف بالدم تنتهض مرسان قبيلتها لمواجهة المعتدين .

وحفظ التاريخ لبونة بنت الميث سر حقها . فقد كتبت شعر يفور بالحماسة
والمعاني الثورية. مثلما فعلت شغبة المورعمايية التي جسدت فيم القبيلة في
أشعار جميلة نالت جرة من التراث الذي يعكس واقعا اجتماعيا رفضا للاستكانة
والضعف . وهناك شاعرات أخريات كتبن شعراً وطنياً خلال معصفت تاريخية
حاددة.. وقد حاصبت بنت المكاوي الإمام المهدي بأبيات مذهشة بقوبها .

طبل العز صرب هوينه في البرزه

وعير طبل أم كبان أنا ما يشوف عره

كان طال الوبر وسيه بالجـزـه

أصوات

لحرب وصدرت أحكام بالسجن على نضع مئات من الصالحين في تجارة لرفيق وجرى تبيان طرق قوافل الرفيق من الحشنة وكشف شعابها ومحاسنها، وأرسلت المعلومات للمديريات الأخرى، خاصة مديرية الفويح ولصمان تسجيل كل الأرقاء المسترقين حديثاً، تقرر تسجيل كل السود المنحدرين من صلب لرفيق كما تقرر إصدار أوراق الحرية لكل من يتطلب وضعه نوعاً من الحماية ولكل شخص آخر يطلبها.

أما مدير مديرية الفويح فقد كتب إلى السكرتير الإداري في 24 فبراير 1929 يقول «يبدو أن الوطواط على جانبي الحدود قد استجابوا للأمر بكن ما هو جدير بالإشارة حفاً أن كل حالات الاسترقاق لم تشمل أشخاصاً يقيمون في السودان كان كل الأرقاء من أيوب بصافة إلى ذلك فتجارة لرفيق بجمعتها كانت في أيدي عائلة حوجلي. ولم تحدث أية حادثة ذات أهمية من «الشيخ تورا قور» أو شيخ حمدان أبو قور؟ ثم اعتقال لست أمة وقدمت للمحاكمة وأديت وألغيت هموديتها، واستحب أقاربها إلى أيوب، كما تم اعتقال الوطواط لمتورطين وأرسلوا إلى كوستي للمحاكمة، وهرب آخرون إلى أيوب وانفصح أمر عمدة بلوارا وحرد من العمودية وبشكل عام يمكن القول، دون مبالغة إن تجارة لرفيق قد انقضت.

خرجت شرطة مركز كوستي إلى البادية الحبوبية لمركز حيث الرعاة يجوسون لفلوات بقطعان الماشية كانوا يبحثون عن إفادات تمرر الاتهامات المتعلقة ببيع لرفيق. عثروا على شابين برعيان قطعاً من الماشية، استجوبهما فقد الحديث إلى الكشف عن جريمة طلت عامصة لأكثر من اثني عشر عاماً فهي حوالي عام 1916م خرج علون وعساكر (من قبيلة سليم) يصحبهم الحثيم باندية (وهو تعايشي) إلى المنطقة الحدودية بين السودان والحشنة بشراء أسلحة نارية ولما كان علون يملك من المال أكثر من صاحبه فقد شترى رفيقاً (صين وثاة)

وهي الطريق تأمر الإنسان على علوان قفّلاه على مرأى من الأسرى لصغار باع
«قنلان الولدين لرجل من الجمع يدعي إبراهيم الشاهر ولعاق لأحد شيوخ
«سليمة» ثنات الشكوك ذوي المتيل علوان ودهوا يعتصم أثر الرحلة الدامية
ولمّ يحثروا على دليل فألبعوا سلطات مركز كوستي التي باشرت تحميصاً مع
عساكر وباندية ولمّ تجد دليلاً قاطعاً فأطلقت سراحهما وقتل ابلاغ مفتوحاً حتى
عام 1928 حين عثرت الشرطة على العلامين يرعيان أبقار الشاهر فاعتراها بما
رأياه من جريمة. وحيء بالعتاة بعيثة من قرية العليقة لتعريض شهامة لعلامين
والتعرف على المتهمين لئلا ينم يلبث أن أدباً ونفذ فيهما حكم الإعدام وكان
أحدهما قد عمل شريعياً في أعقاب ارتكاب الجريمة وحتى قبيل حدوث تلك
التطورات الدرامية

لَمْ تَشَأْ بعيثة أن تتوجه إلى مكان آخر عقب إبلاغها بتحريرها ولمّ تأبه لذلك
بل توجهت عائدة إلى العليقة لتستأنف حياتها في تلك القرية. فقد ألفتها وألعت
«الشيوخ الطيبين الذين أولوها رعاية حسنة ومحضوها عطفاً وإحساناً» تميّزت
بعيثة بحمان بارع وقوام لادن حتى أطلق عليها الناس في القرية لقب «الفرع
تروحت وأنجبت وعاشت طويلاً حتى شهدت أحفادها حراً من نسيج الأعراق
السودانية بنمردجه الإنساني المدهش.

لحاجة ست البسات أم سيف

عندما حلف صحيح المعركة وتوقف ذوي المدافع ونمَّ يعد بسمع سوى صرير الرصاص في أماكن متفرقة . كان ميدان المعركة الممتد من مناطق بري وحتى أقصى جنوب نجريف بعض بحث لقتلى و لجرحي المحتصرين والخيول النافقة كانت مجموعات من قوات الأتشار تعطي اسحابها لقتل الجرحى والجرحي بعيداً عن ساحة الموت . حينذاك عثروا على جثة الحاجة ست البسات كانت لا تزال ممسكة بسيفها وإلى جانبها خمس جثث لعتيات بدا أنهم كُنُّ يقاتلون إلى جانبها . سقط جميعهم بقذيفة مدفع واستشهدوا . كان ذلك في الرابع عشر من أغسطس عام 1884 أثناء حصار الخرطوم انتصرت قوات الجبرال عردون مؤقتاً وكبدت لمحاصرين أكثر من 2500 قتيل .

الحاجة ست البسات امرأة من أهالي بلدة القصية وإحدى قريبات الأمير محمد عثمان أبو قرحة فيما سمعنا في طفولتنا من أمهات وحيما روت السيدة رباح الصادق المهدي في دراسة قيمة كتبته عن سناء أم درمان في المهدية بشرتها مجلة «كتابات» التي تصدر عن مركز الدراسات السودانية بالقاهرة

حاولت جهدي أن أحصل على مزيد من المعلومات عن هذه لشخصية المهدية التي امتشقت حسامها وانحطت في الشباط العسكرية الثوري لتحرير السودان سيدها بات جزءاً من اسمها ست البسات أم سيف كتب عنها المؤرخ محمد عبد الرحيم أسطرا قليلة في معرض تناوله لواقعة الجريف في محصولة عن المهدية وقال « ومن العرب وحدث بين القتلى امرأة تدعى الحاجة ست البسات دنقلاوية من

سكان القطية وسيفها بيدها كانت تحارب إلى أن لفظت النفس لأحير فله در المتنبّي حيث قال .

وما التأيّث لاسم الشمس عيب ولا لتذكير فخر بلهلال (انتهب روية محمد عبد الرحيم). وقد علمت أيتها كانت امرأة ثرية ورعة استطاعت أن تحج بيت رعم مشقة السفر إلى الأراضى المقدسة في ذلك الزمن البعيد وعندما بعثتها دعوة الإمام المهدي هاجرت إليه لتقاتل في صفوف قواته، وعلمت أيتها أنها كانت قد حملت رسالة الأمير أبو قرحة إلى صالح ود المثل في فدايى. وقد نصبت لها حيمة بين الجيشين حتى تؤدي مهمتها المتعلقة بتسليم صالح بدخامة التركية في فدايى ويبدو أن لإختيار قد وقع عليها لأن الأتراك بدأوا يقتلون رسل الإمام المهدي كما حدث في الأبيض وتكرّما لها على الدور الكبير الذي لعبته في سبيل الثورة.

كان لبلدة القطية حظها الوافر من الشهادة في ذلك اليوم - يوم معركة الحريف - تجاوز السبعين شهيداً. فبل لم يمر أحد أحداً حُرقت النساء أمام منازلهن بيكس قتلاهن ومن بينهم أشجع الفرسان وأعظمهم بلاء. استشهاد نصر ومصطفى شقيقا الأمير أبو قرحة نصر الفتح نصره استحكامات الأتراك ليقتل بسيفه الجود المدفعية فلقى مصرعه بين صفوف العدو بعد استشهاد شقيقه مصطفى صرعت رصاصه فرس الأمير أبو قرحة قائد قوات الحصار فاهلقت الشلعات بمقتله الأمر الذي أصعب معويات جيش الثوار الذي لحق به الدمار بعد أن دكت المدفعية مواقعه كانت معركة عبقة شرسة استعد لها عرذون جيداً ليرفع الحصار عن المدينة وحشد أكثر من خمسة آلاف جندي بقيادة الأمير الای محمد على بك حسين الشلالى والسر سوارى حشم الموس بك الشيقى . تقلّمت القوات فجراً نقلها حمس بواخر مدرعة بصمائح فولاذية تحمل المدافع وانتظمت على السيل قبالة كل معسكر من معسكرات قوات الحصار . وأرلّت الحدود المشاة . وبدأ نصف المدفعية لتعبر هجومهم مواجهم الأنصار بشاتهم وجراتهم واستهانتهم

الحارح وجاء أبناء لأقاليم وصاروا هم البنائون والمجاريون والسيكانيين والكتاب وبعد أن يستمروا عن فوائد النهر أو حين يصابقهم « لأحشيديون » في أرافهم فانهم يحلقون بعيداً ويأتي من لأقاليم الأبعد من يأخذ مكانهم ولا يستطيع أن يهاجر كما.. ليس هناك مكان يتسع لثلاثين مليوناً من المهاجرين ولدلت سوف يطل السودان مأهولاً إلى قيام الساعة. ولكن بدل أن نسكه قصصاً من لدناب وبعض المهاجرين من النيجر وتشدد يريد أن يسكه أهله ويعرفوه فيه الحياة التي تليق بالأمميين ماء نظيف ومدارس ومستشفيات واتصال مستمر مع العالم الخارجي. وتحدث محمد الحكيم عن تجربة له مع وزير الخارجية المصري محمد بن عيسى حين كان سفيراً للرباط في واشنطن وتذكر قولاً أسره إليه بأن «ثقافة الأمريكية تحمل إقصاء للمسيحية بكل وضوح» وأدرك بعد خمس سنوات صحة وعمق هذه المفولة حين اكتشف أنه تحت أعلام الثقافة التجارية ونتاجها الإباحي والعرائبي هناك صخرة صلبة يرتكز عليها المجتمع الأمريكي هي صخرة المسيحية التي كانت السبب الرئيسي في نشوء أمريكا من لعدوم. كل هذا النتاج التجاري ليس به انعكاس في الكونجرس». ولاحظ محمد انمكي بمتابعته لدقيقة « أن لمدارس ترسخ قيم العائلة والتهديب على الطريقة القديمة نصف أمريكي ريف ونصف الآخر حصر صادراتها الأوس الكومبيوتر والحبوب. والريف متمسك بالقيم التقليدية وهي الحصر هناك من يتمسك بها. وهذا ما يجعل الشقة بيضا وبيهم عبر بعيدة كما يروح البعض صحيح إن فكرتهم عن ديس قد تشوشت كثيراً نظراً لما ترتكبه الأنظمة وجماعات التطرف من جر لم باسم الدين ولكن مار ل الأمريكيون يدخلون الإسلام وجوه عديدة للاحتلاف بيضا وبيهم أهمها أنهم لا يعرفون الفصل بين الفكر والعمل إذا اقتنع الأمريكي بمكرة ما فإنه يبعدها بلا تردد يهجر التدخين باصراً أطفال العراق يحافظ على البيئة بالعمل وليس بالكلام والآن أصعب شيء بأمريكا هو أن تجد مكاناً تدخن فيه. وعلى أيامنا كانت جزيرة ماهايتس كوماً من القمامة والآن بجزيرة وأمريك كلها من ديات المظافة استعادوا البيئة

موت رائع لامرأة شجاعة



د. أحمد الببوي

في ذلك النهار المظير من أغسطس الماضي عصت مقبرة هانوك كروس الإسلامية بالعاصمة البريطانية بعدد كبير من أفراد مجابة السودانية- عذماء وأصباء ومهندسين وقانونيين وشعراء وكتاباً وصحافيين وسياسيين وحللاً وسيدات محروقات دمعات. أحاطوا بقبر سيده من طراد فريد حملت بآ موتها طيلة ثلاث سنوات قبل وقوعه ما أبلغت أحداً سوى زوجها عاشت بين الناس بصورة طبيعية لم تستجد عاطفة ولا رثاء طلت في موقع عملها وهي في قمة الحيوية والشاهد كما طلت ترتب شؤون عائلتها الصغيرة لمرحلة ما بعد غيابها جاءت بوالدتها من الخرطوم إلى لندن ليعاد طفلاها عليها ررت أشقاءه المقيمين في أماكن متفرقة خارج السودان وودعتهم دون أن تشعرهم بعداحة الحط وقرب رحيلها وفي أسبوعها الأخير كانت تستقبل روارده شاشتها المعهودة وروحها العذبة دون أن يدري أحدهم أنها قد أعدت كل ما يتعلق بمراسم دفنها ومكانه تنقل أفراد الجالية السودانية بآ وفاتها هاتفاً في ذلك المساء الحزين وحدود المركز الإسلامي مكان

لإقامة الصلاة على جثمانها الطاهر. وهرعوا في صباح اليوم التالي إلى هناك فصحبت أصدقائي منهم إلى حيث التقيت بعدد كبير من الذين أعرفهم مقيمين وقادمين في عضلاتهم السنوية ومن هناك توجهنا إلى المقبرة الإسلامية حيث حشد جمعهم حول القبر صامتين. وما أن فرعوا من الدعاء بها بالرحمة وقرأوا لفاتحة على روحها حتى تقدم زوجها الشاب متمسكاً رابط الجأش ليصاح المشعين فرداً فرداً شاكراً ومقدراً ما تكبدوه في سبيل الوصول إلى ذلك المكان لقصي للمشاركة في أدائه واجب لعمه والمواساة كانت الدكتور Ingram ابدي قد تخصصت في علم الأمراض - بعد أن تخرجت في كلية الطب بجامعة الخرطوم - مما أتاح لها فرصة الإطلاع على حقيقة مرضها ومدى خطورتها وسرعة انتشاره. فلم نذهب بها ليعملوا للعلاج بالأورام في حياة بات الإسمردر فيها مستحيلاً لئلا شرعت رحم تعاقبها العلاج - في ترتيب أوصاعها في صمت وبشجاعة لا يتكرر نوعها كثيراً.

علمت أنها نشأت ينمى الأب وقامت بتربيتها هي وأخواتها أم مثارة حسرة استطاعت بكدها الشريف أن تمكنهم من إكمال تعليمهم في أفضل الجامعات وأن تورثهم كل فصائل وسجايا أمتها فكانت العقيدة إعدام أسطح مثان وأفضل نموذج لتلك التربية المترعة بالمعاني

وهي وقت لاحق إتقيت بابن عم العقيدة صالح أحمد ابدي الجيد. وهو شخص نادر يتميز بأريحية وحسن الخلق فأنحني بمرير من المعنومات عنها قال إن جدها من ناحية والدها هو "الجيد" صاحب إسم مصنع السكر المعروف ووالدها المهندس السابق بالأشغال عبدالرحمن ابدي الجيد وحدها من ناحية والدتها هو الشيخ محمد نصيب عمر الذي وهب حل حياته لرقية مصطفة العلاوي. أما أمها هي السيدة المثالية آسيا محمد نصيب عمر، التي لم يتحل عنها الأقربون عند رحيل زوجها شاركوها في حمل العبء وأروها وخاصة والدها الذي كان

أصوات

منه ماوى لطلاب العلم كب وجدت العون استواصل أيب من عمه محمد
البيوي الجنيد

بات وجود الجاليات السودانية في المهاجر واصبح حياً لم يعد أفرادها يتحدثون
عن عودة وشيكة أدركوا ما تنعرض إليه بلادهم من تدهور في كل أوجه الحياة
حافوا على مستقبل أبنائهم وما تحبته الأيام من محن وما جاوزوا بحديد العالم مد
أن درج فيه الإنسان شهد حركه لمستمر من دحل إلى سهل ومن بحر إلى نهر.
وبلادها بخصوصيتها الجغرافية كانت أكثر لأماكن التي شهدت هجرت الإنسان
وفي تنوع ثقافتها وتعدد أعرقها ما يؤكد ذلك ما تجاورنا لحقيقة فيما نقول.
ولإنسان السوداني ظل مقيماً في بلاده مد لأول جده من حده وعادته من غادر
إلا أن العقود انقضية الماضية سم شهدت هجرات كثيفة - من الخارج أو إلى الداخل -
سجلها التاريخ كان الحراك يجري داخلياً في إطار حدود السودان الجغرافية المحلية
بدا كانت هجرة أو سفر بعض الأفراد القليلين إلى الخارج حتى قبل سنوات أمراً
يثير الفسق والأحزان.

ما قرأت أقص مما كتب صديقنا وشاعر أمثنا المد محمد المكي إبراهيم المقيم
حالي بالولايات المتحدة عن هجرة سودانيين واعترايهم سم يكتب دراسة وأما
أجاب بحكمة وجرأة على أسئلة في بقاء له مع مجلة «كلمات سودانية» الصادرة في
ديسمبر الماضي ما رأى في الهجرة والاستيطان في المهاجر شراً مستصيراً بل رأي
في ذلك مصلحة وطنية كبرى وتنشأ بلحاية سودانية في الولايات المتحدة بأنها
ستصبح ذات شأن بعد رول العارض السياسي الراهن. وقال إن لكل شعوب الدنيا
جاليات مقيمة بأميركا وأن السودانيين هناك عناصر شطة مجتهدة يتقدمون ببطء
ولكن ثقة إلى الأمام وأشار لشاعر الحضيف الذي ينظر إلى الأشياء ويسعد إلى
جوهرها بعيني الرجل الحكيم إلى أنه لصبيعة تمقت الفراع ويدا شأ في السودان
فروع مسوف يأتي من يملأه ألا ترى ذلك يحدث لأن هاجر أبناء المدن إلى

يرل يحتل منصبه القيادي فيه. أما عبد الحالق محجوب فقد سماه أبوه عنى المأمور المصري الذي اتصل بالحركة الوطنية السودانية وندلعت أول تظاهرة سياسية بأمر درهان أثناء تشييع جثمانه وكان وابد عمر الدين على عامر قد أطلق عليه اسم علي عبد اللطيف

أما علي عبد اللطيف القائد الأول لتلك الحركة السياسية فقد ركز فكره السياسي على وحدة السودانيين أولاً ثم وحدة وادي النيل والواصح أنه كان يمثل وقائع لثورة المصرية ويهتم بشكل خاص بنشاط الرعيم سعد رحبول ولم تمنح تلك الحركة لسياسة فكر محدداً لأن نشاطها ركز على العمل اليومي الذي تجسد في الاحتجاجات والتظاهرات. وكانت قيم الشجاعة والشباب تلعب دوراً كبيراً في توجيه النشاط.

والواصح مما أسلفنا من قول إن هذه التجربة تحتاج لمزيد من الكتابة والتمحيص لأنها ارتبطت بشكل مباشر بالتطورات اللاحقة. وانشاء مؤتمر الخرطوم وتشكيل الأحزاب السياسية. التي قامت جميعها في منتصف سنوات الأربعين من القرن العشرين. ولا تزال تلك الأحداث التي وقعت في تلك الفترة تلهب الخيال وتثير الشجون حيث حاول أبطالها البحث عن حقوقهم وتحرير المصري لشعبهم.. ودافعوا عن هويتهم وروى المؤرخون أنهم أثناء التحقيقات معهم كانوا يصرون على أنهم سودانيون ويرفض الضبط لبريطانيون منهم ذلك ويعذبونهم مطالبين إياهم بذكر قبائلهم بدلاً من انتمائهم القومي.

لقد أرسى هؤلاء الرجال أسساً واسعة بقومية السودانية- على الرغم من سقوط البرنامج الذي طالما حملوا بتحقيقه، ورسوموا طريقاً معيداً بذمائمهم وتصحيحاتهم في محاولة للوصول إليه.

أصوات

الطبيعية من براءث الموت وإذا افتتح للأمريكي بمفكرة فتح حبه ليدعمها ولو بدولار واحد وفي العام الماضي عقدوا قمة لدراسة الأمريكيين الأحياء كان الهدف منها تشجيع العمل الطوعي المتطوعون في أي حارة هم الذين يراقبون الوضع الأمني ويجمعون أوراق الأشجار ويثولون حماية الأطفال ومعجزة. وإذا طلب شخص المساعدة فإنه يجد المئات مثل تلك المرأة السوداء التي أنجبت سبعة نوائم فترع عشرات النساء واحد ليعمل الملابس وآخر لعللي البرارات وتقديم اللبس وآخر لأشغال البيت وآخر للحفاسات... الخ

لكل ذلك لم يحش الشاعر محمد مكّي إبراهيم على الأطفال السودانيين من انحصارة الأمريكية التي تنسل إلى لروح فوننشريك في الواحد، ثم ير في ولادتهم هناك يرطون باللسان الأمريكي ويتشربون الثقافة الأمريكية صمرا. وأشد إلى عدم جدوى اختلاق المعادير التي يبرر بها لمعتربون بقاءهم في أمريكا حيث أصبحت هذه الهجرة واقعا في سبيله لأن يكون أبدا.

أنفاس لفسار في أحداث ١٩٢٤



صالح عبد القادر

وقف المعتقل لسياسي أبو زيد أحمد حسين - في مشهد لا يتكرر كثيراً - حقيباً بالذمة الإنجليزية في الجيود انبريطانيين الذين كانوا يحيطون بسجن كوبر فهد مشاعريهم وأحبرتهم كلماته المؤثرة على أن يعرفوا قضائهم من فوق رؤوسهم استحسنائه وتعبيراً عن نوع من التضامن كان ذلك في نوفمبر ١٩٢٤م في دروة الأحداث التي تلاحقت خلال تلك الأيام وأثناء التمرد الذي قاده المعتقلون السياسيون داخل السجن لا شك أن مثل ذلك الموقف كان يجسد وعياً سياسياً عميقاً وأسلوباً للعمل والدعاية واستعراض ما كان يمكن أن يتأتى لشخص عادي في مثل تلك الظروف

كان للحركة الوطنية التي برزت في حوالي عام ١٩٢١م - ممثلة في «جمعية الاتحاد السوداني» ثم «النوء الأبيض» رحم شديد وثراء عربي - تفجرت أحداث متسارعة وعتيفة كأنها أعدت لها إعداد وقد تميّزت بالدقة في التنظيم وروح التصحّة إلا أنها تطل كما رأى المراقبون قفزة في المجهول ، قادت إلى بين حول لم يسفر صحبه إلا

أصوات

بعد سنوات عذاب والعرب في أمر هذه المشاهد لسياسي أنه لم يكن جميعه من نصيب «جمعية اللواء الأبيض» وذلك معترف السلطات البريطانية أثناء المحاكمات حيث برأت الجمعية من مسؤولية المشاركة في التظاهرات باستثناء ثلاث حالات فقط، وحتى تظاهرة أم درمان الشعبية الكبرى التي أزعجت البريطانيين لم تشارك اللواء الأبيض فيها. هو الذي كان يجرى ومن الذي كان يعين ويحشد بتلك التظاهرات الجريئة ليس في العاصمة وحسب وإنما في عدد من المدن الإقليمية الأخرى^٩. على الرغم من بروز تيارين في الحركة الوطنية أحدهما التيار التقليدي الذي ترعاه رعماء العنصرية والمؤسسة القبلية وسأده لبريطانيون والآخر الذي عبرت عنه جمعية «اللواء الأبيض» إلا أن التغييرات التي طرأت على الواقع السوداني - ولم يتمكن أحد من التعبير عنها - خلال عقدين من الزمن كانت سريعة وعميقة. وكانت أهم العوامل لتلك التغيرات إقامة مشروع لجزيرة ادي صاحب إسماء وفود عناصر أجنبية - مهندسين وفنيين - من اليونان وإيطاليا وقبرص وجنوب أفريقيا حملت معها كثيراً من المفاهيم السياسية الجديدة التي سادت في أعقاب الحرب العالمية الأولى وخاصة بعد تأكيد انتصار لدولة ليوغيتيه ودورها للحرسيين البيض والتدخلات الأجنبية. وذلك بالإضافة إلى التأثيرات التي أحدثها المشروع على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي فقد كان تحولاً كاملاً وعميقاً.

وأشار معجوب عمر باشري في كتابه «معالم الحركة الوحدية في السودان» إشارات ذات دلالة حين تعرض لأحد أعضاء جمعية «اللواء الأبيض» ويدعى علي أحمد صالح ووصفه بأنه كان شاباً نابهاً تخرج من المدرسة انوسطى وعُرف بأنافته وإطلاعه وقال إنه أصعب بليبين ويعرف على رجل ماركسي يوناني اسمه اسفيكاس كان أستاذاً للفلسفة في جامعة أثينا وهرب إلى المحرطوم حيث أنشأ مكتبة. وأكد أن علي أحمد صالح كان يتردد عليه وأشار باشري أيضاً إلى أن صالح عبد العادر - أحد الأعضاء القياديين البارزين في جمعية اللواء الأبيض - تعرف على القنصل السوفيتي بجده في

بورسودان حيث زوده ببعض الكتب الماركسية ويقول باشري في كتابه أيضاً إن وائده تسلّم خطاباً من حلف الله جالد شاريج 27 يناير 1921 يدعو للاتصال بصالح عبد القادر الذي كان وكيلاً سفيرياً في مصلحة البريد والبرق ويتسلم منه بعض الرسائل ويسلمها لشخص يدعى أبو زيد وأعلم الظن أنه هو الرجل الذي شوهد يخطب في سجن كوبر بعد سنوات قليلة موصفاً قصيته لجنود البريطانيين.

أما الدكتور جعفر محمد علي بحيث فقد أورد في كتابه «النشاط الشيوعي في الشرق الأوسط» مع إشارة خاصة لمصر والسودان: إن عطبرة في النصف الأول من عقد العشرينات كانت معقلاً للنشاط الشيوعي في السودان وأن الحرب الشيوعي المصري تعلل إلى حد ما هناك حيث اكتشفت السلطات البريطانية في عام 1925 سحرة من برنامج الحرب المصري في الخرطوم وليس في القاهرة.

وجاء في كتاب «صدق أو لا تصدق» للرحالة أحمد حسن مطر أنه هرب في تلك السنوات من البلاد وكانت يديه صلبة بالنشاط السياسي حيث طلت تلاحقه محاربات البريطانيين في السودان وتتبع أخباره ورسائله وحاولت أن تنصب له كميناً من خلال أحد أصدقائه وقد روى هو كيف سافر إلى أوروبا واتصل بالكومنتيون وشارك في مؤتمر للشبيبة الشيوعية.

مهما يكن من حال فإن هذه المشاهد المتفرقة لا تعني أن بيداً يسارية سدد في تلك السنوات واستطاع أن يكون تنظيماً وقف وراء تلك الأحداث إلا أنها تؤكد وصول بعض هذه الأفكار - وإن كانت بشكل مشوش - ببعض الرعاعات التي كانت تبحث عن رؤية ومرجعية فكرية في مصالها لتحرير بلادها من الاحتلال الأجنبي.

وأظنه ليس غريباً أن نجد أبناء بعض رعماء تلك الأحداث قد شارك في النشاط السياسي الساري الذي تبلور في عام 1946، مثل عبد الوهاب رين العاديين عبدالتم الذي أصبح أول سكرتير سياسي للحزب الشيوعي والتجاني الطيب بيهكر الذي لا

إعدام قادتها وعن حملة فمعية شملت جميع الرعماء السيامييين بالسجن والنفي والتشريد. انتهت الثورة بهدية مأساوية فاجعة وسيطر على البلاد حرن كثيف ودخلت في ليل دجوجي قاحم وطويل أجبر فيه المثقفون على التراجع والانزواء والهجرة من الوطن وانصرف بعضهم إلى الأدب والعن كعشرات محمد عبد الله وتوفيق صالح جبريل

لَمْ تذهب أصداء الثورة أدراج الرياح انعكس أثرها في الحركة الثقافية وبررت أعمال أدبية لا تحلو من التجديد. فلابتاح لشعري لتوفيق صالح جبريل كان جديداً في شكله ومحتواه لا يمكن مقارنته بإنتاج أصرايه في معسكر المحافظين كعبدالله عمر البيا. وفي نشر كانت كتابات الناقد الأمين علي مدني تعتبر فتحاً إبداعياً جديداً لا مجال بمصاهاتها بما كان يكتبه حبيب شريف - الصحفي الأول - في «المضرة» رغم بلاعته وندامة ألفاظه. ولا يزال نقاد الشعر السوداني يرددون لعبارة الشافية بلأمين علي مدني «الشعر الجديد يتطلب ناقدًا جديدًا» وفي مجال لعناء بررت لموهبة العدة للشاعر الموسيقي العنان حبيب فرح الذي إبداع لأصية السياسية الحديثة وكتب قصيدة «عرة في هوك» وغيرها وعلى أنعام أهبة عبيد عبد لنور.

يا أم صفاير قودي الرسن

وأهتفي فلبحيكا الوطن

إبدعت تظاهرات الشعب واهترت شوارع العاصمة تحت أقدام العسكرين السودانيين ابواقفة ولعبع الرصاص في صدور صباط وجود الإحتلال البريطانيين في قلب الخرطوم.

لَمْ يقتصر تأثير الثورة على هذه الجوانب وحسب وإنما امتد إلى المسرح حيث شهد الناس عرفات -أحد قادة الثورة- ممثلاً بارعاً يشارك في عدد من

حيوية «الحرب المشاعب»

ورد في تقرير مدير مكتب المخابرات البريطانية بالحرمطوم في عام 1924 أن جمعية اللواء الأبيض صمت العناصر التي قد تشكل في المستقبل القريب «الحرب المشاعب» باعتبارها المنظمة الرئيسية المناوئة للإدارة البريطانية أي «الحرب الوطني» الحديث في السودان ورأى مدير ذلك المكتب - وهو المستر ولس - أن هذا التنظيم هو بلا وجهة لشاط يمارسه المصريون الوطيون من خلال تجمع للسودانيين متضامن مع مصر. وظهر ولس أيضاً أن المصريين يمولون هذا الشاط وحدد وسيطين هما محمد توفيق نفاصي بمحكمة أم درمان، وحسن عبد الوهاب الصابط بالجيش المصري. وحاول حصر عصبية التنظيم - خاصة بعد أن سمر نشاطه في التظاهرات التي أقصت مصجع الحرمطوم في ذلك الصيف الرهيب - ورأى أن عضويته لا تزيد عن مائة وحسين شخص موطفين صغار السن تتراوح أعمارهم ما بين السابعة عشرة والحامسة والعشرين. في أدنى السلم الوطيفي بالدرجتين السابعة والثامنة وجاء في تقرير آخر للمخابرات كتب في يوليو 1924 أن هؤلاء المشاعبين معظمهم من المواليد الذين تنحدر أصولهم من مصر.

والمستر ولس هذا هو ندي ورد ذكره في قصيدة للشاعر توفيق صالح جبريل أحد مؤسسي لحركة - يهجو فيها سليمان كشة الذي اتهمه التنظيم بإفشاء أسرارهم لمدير مكتب المخابرات -

سبعان كان بديع الرومان
معانيه ساحرة ساحرة
هوى لا يعي بساط الريح
وحطم مرآته الساحرة
فباع لضمير بعلس لولس
ألا أيسر ذمتك الطاهرة

كانت تقريره كليلة النظر صباغة لرؤية حبس ظل أن معظم عضوية التنظيم من
بمواليد مسحدرين من أصوب مصرية ومن أوائل الدين وصفتهم تلك
بفاري بالمستبين قبيحاً تعني أبناء الجود والصياط لسودانيين من سلالات
برقيق الدين فتدعهم الحكم التركي من مواضعهم في القرن التاسع عشر وعادوا
من مصر ليصبحوا جزءاً من الطبقة الوسطى الجديدة ، براعمها وحالاتها
بمتوتية وهي تنوق بتلعب دوراً في تشكيل مستقبل بلادها بالتححرر من لعود
لأجبي أردت السلطات في تقريرها هذه أن تحلل الأحداث وفق مخطورها
بقائم على بيوية مجتمع قبلي لا ربط قومي بجمعه . فانها أن تدرك أنه قبل
عشرين من السنوات فقط واحتمت جيشاً قومياً واحداً للأمة يحول دونه ودون
فتح البلاد حبشاً تصدى بلانة الحربية الحديثة التي رحمت فوق أشلائه.. ربما
يكون صحيحاً أن جزءاً من عناصر التنظيم كان من هؤلاء وأولئك ولكن ذلك
كان يرتبط بحقيقة التركيبة السكانية لمدن العاصمة الثلاث . وخاصة لدين
أدركوا ضرورة التعليم النظامي الحديث وتخرجوا في الهندسة التي تزدادت كثير
من الأسر في إلحاق أبنائها بها اتقاء بشرورها المحتملة . إلا أن ما أسفرت عنه
لأمام أكد أن التمثيل العرقي في ذلك التنظيم اندي شمل مدناً أخرى كان
متكافئاً ، وإن حدثت عن ذلك الأرياف القصية بحكم تنسي مستوى وعيها مثلما
توفر في التجمعات الحضرية .

وتقارير المحاورات هذه عملت عمداً كان يدور في وجدان المثقفين وعنداك من

موارد ثورة عارمة بعد سكون إستمر أكثر من عقدين من الزمان . كانت رؤيتهم خلالها قائمة وحلمهم عصي التحقيق . عجزوا عن التعبير عنه إلا بالتمثل بالماضي والأمجاد السالفة كتبوا شعرً روماسياً بعيداً عن الواقع وخطبوا في مناسبات الندية . ولكنهم سرعان ما أدركوا أن فُشور الحصار العربية التي أدخلها المستعمرون رافقتها القصة الأمية الحديدية والملاحقات القمعية والسيطرة على كل الأمور كان البريطانيون حارجين لتوهم ظالمين من حرب كوية وجدوا خلالها تأييداً من رعماء البلاد التقليديين الذين كان وعدهم قد عاد من إنجلترا بعد أن قدّم لتهاني للملك جورج الخامس على نصر «المؤزر» مشفوعاً بسفر الولاء.

برزت الحركة الوطنية كاشهاب الساطع بذت وكأنها كانت بلا موعد ولا مقدمات إلا أنها عثرت عن أمسي المثقفين وتطلعات لصفة الوسطى وتجاوبت مع ما كان يحتمل في مصر خلال ثورة 1919 . وما أعقب ذلك من مطالبات بالدستور وجلاء لقوات الأحسية لكنها لم تستطع أن تقدم نفسها كما ينبغي لم تلجأ لأساليب النصال انصيرة والدعوة .. وظل فكرها مشوشاً يتراوح ما بين وحدة وادي النيل تحت لثاج المصري والبحث عن القومية السودانية والدفاع عنها إلا أن لإجماع تلخص في رفض لاستعمار في كل الأحوال مع الاحتفاظ بضرورة قيام علاقة ما مع مصر

هجأة تفجرت الأوضاع السياسية واتدلعت المظاهرات وتلاحقت الأحداث حتى بلغت منعظاً عسكرياً خطيراً بالنظاهرة المسلحة لطلاب الكلية الحربية تصاممع الحركة الثورية الجديدة نفاقت الأحداث وأحسّت الإدارة البريطانية بحظورها فقررت إحراج الجنود والموظفين المصريين من السودان فتحركت قوة عسكرية سودانية من أم درمان واصطدمت بقوات الجيش البريطاني في الخرطوم في معركة شرسة قتل فيها من الحاسيين عدد كبير .. ولكنها أسفرت عن

أصوات

منهم الآن سوى تسريحهم الثقافي في مطاهر الأذكار الصوفية في الجريفة، نقابر ومواكب وجنب مراكشة دهب، ولكنهم تركوا آثارهم في الثقافة السودانية وأنماط سلوكها ولا بد أنهم أو بعضهم كانوا قد تأسسوا من الحصار المروية التي انزاحت سياسياً وتعمّرت ثقافياً بفعل الصراع العسكري والعزو الأجنبي ولكنها بثت إشعاعها في كثير من مناطق القارة الأفريقية وقد تكررت تلك التجربة مرات في بلاد السودان أكثر من غيره من البلدان بسبب موقعه وطبيعته الجغرافية كما حدثت فيه إنقطاعات حصارية وثقافية مدّ أن درج الإنسان على وجه الأرض.

رأى الأستاذ عبد الجبار في بحث البروفيسور حورير مدحلاً للنعميم المطري المحل أصراً بأصله واستنتاجاته النهائية التي تصب في حانة اندفاع المطري عن مفهوم المركزية وتكريس استراتيجية لمفي، وعلى عليه الحديث المشبوه حول الأعراق في السودان، وذلك حين قسم الجعليلين إلى خلس «أولاد عرمان» وغير ذلك الأمر ندي من شأنه أن يثير الحساسيات العرقية، ليس بين الجعليلين وهرهم من المجموعات العرقية، ولكن بين الجعليلين أنفسهم

وبرى الكاتب في دراسة حورير محاولة لتوفيق بين لثقافتين العربية والأفريقية معبراً عن الحبس إلى سنار كما تجلى ذلك في أعمال مدرسة العابة والصحراء وأسقط عليها نظرية العنق الثقافي. كما رأى في مساهمات عبد الله بولا وحسن موسى وعبد الله علي إبراهيم جدارة فكرية وتنظيراً حاسماً لما يتعقّق بالهوية وهم الدين انتصروا للأفريقية رفضاً سب الغول وعلوا في جلد العروبيين ودعاة الموقعية. وصعبين الصراع السياسي نصب أعينهم دون تعبير للمقاربات والمفارقات التي تميّز انثقافي عن السياسي.

وامتدح الكاتب فرائس ديج في تحليله الأحاجي قبلة المديكا لتوظيفه فهماً مفتوحاً لبصيره والدهن للاحتماعي والثقافي دون أن يتجاهل علاقات

المسرحيات - كما شهدوا على عبد اللطيف رعيم الثورة - يساهم في الإحراج المسرحي

مدنية الأولى أدرك تنظيم حركة اللواء الأبيض أهمية التعليم فتصممت مذكرة علي عبد اللطيف التي صودرت قبل أن ترى النور ضرورة التوسع في التعليم، إلا أنها - كما هو معروف لم تستمر لتشريع في رعاية مشروع التعليم - الأمر الذي بات من أهم وجبات الحركة الوطنية في سنواتها التالية - حيث أصر على مؤتمر الحريجين بمهمة لتعليم لأهلي فأنشأ مدارس وتطوعت عضويته للتدريس فيها - كما أنشأ «معهد القرش» وعبره من المؤسسات التي يرافق قيامها مع النشاط الوطني - يرفدها حماس الشعب ورعيته في التحرر والاعتناق

13 فبراير 2001م



التظاهرة المسندة لطلبة الكلية الحربية

رؤى جديدة حول مسألة الهوية



عبد الجبار عبدالله

أحد مبدئي الأستاذ عبد الجبار عبد الله دراسة قيمة حول موضوع الهوية في السودان الذي يتحد في معظم الأحيان كأحد لعوامل المهمة في الصراع المدمر الذي هدّ قواه وأقعده عن التقدم، جاء البحث تحت عنوان «السودان في متاهته... من الهوية إلى الوحدة أو وضع العربية أمام الحضان» مساهمة ثرية في إطار السجال الفكري الذي استمر خلال السنوات الأخيرة بين تيارات «عروبيين ودعاة لأفريقية والتوفيقيين المبادئ بالأفريقية» استهله بالإشارة إلى مصير «المثلث لبر» الأساسوي الفاحص في مسرحية الكاتب الإنجليزي الحالد وينيام شكسبير وكيف عصفقت به الأهواء والصراعات الداعية وأودت به إلى الجنون تلك التراجيديا التي تقطعها مع ما آلت إليه الأحوال في بلاد السودان

إستطاع الكاتب الحصيف أن يؤسس بحثه على رؤية نقدية ثاقبة تناول بها عملاً لبروفيور سيد حامد حرير حول الحكاية الشعبية عند الجعليين وقد جاء العنوان للعسل لمترجم إلى اللغة العربية هكذا «الحكاية الشعبية عند الجعليين تد حل العاصم الأفريقية والعربية لإسلامية» لم يفت الكاتب أن ينوه بقيمة

وسبق الكتاب وريادته العلمية، الأكاديمية حيث نشر في عام 1991 إلا أنه أبدى ملاحظات مهمة حول المحصلة المعرفية، والاستنتاجات النهائية للبحث. لم يكن هو أول من يشير النقاش حوله إلا أنه أعاد النظر فيه مجدداً وأخذ مدحاً لهذه المسألة التي وصفتها بـ «جرح الهوية والوحدة الوطنية، القديم المتجدد، جرح لا يعري بالنسبي فهذا هو أول الكتاب والنمحي والمشاركة الحثيئة والمكثفة في ما يدور الآن ولبلاد تقف في معترك الطرق لا تدري ما سيؤول إليه المصير

يرى الكاتب أن أبرز ممشي التيار لعروبي هم كتاب مجلة «العصر» ومن بينهم قيادات سياسية بطرت إلى السودان من راية واحدة، اختزلته سياسياً وجغرافياً وعرقياً وثقافياً وأن هذه القيادات رسمت فكرة ادبهاح بمرکز على بقية أجراء قطر الدائرة وهي فكرة توسعية استعمارية في الأساس، إلا أن تطبيقها على الواقع السوداني يقع في مستوى أدنى من مستويات التوسع والهيمنة، وتحدث عما وصفتها بـ «الإريحة الثقافية، أي أن الثقافة المهيمنة تبيع كتلة ثقافية أخرى مكافئة لوربها كتقافة مهيمنة وتحل محلها ونمحو شخصيتها بالكامل. تحدث السيد باقل أموم -أحد قادة الحركة الشعبية- في مجلس خاص يوماً مناسلاً عن اللغة التي كان يتحدث بها اسام بعد سقوط مملكة سوبا عام 1504 ولم يذكر لي محدثي كيف كانت الإجابة لكن السؤال «أثر في تلك الرعبات لحارة هي أن يكتب المثقفون على دراسة تاريخهم الثقافي والاجتماعي -لا سياسي وحده- لتعريف معارفهم النظرية وتطوير آرائهم السياسية وفقاً لذلك

كانت منطقة الجزيرة تقع ضمن مملكة علوة، النوبة المسيحية وعاصمتها سوبا، لم تفتح درايعها للعناصر العربية إلا لمن استطاعوا التسلل في جماعات قليلة كانت هناك لغة نوبية وثقافة ذات خصوصية ولكنها لم تلبث أن دابت في حضم الوافدين الجدد والمقيمين القدامى، لا أحد يدري أين ذهب «العروحي» وهم أهوم وصفتهم بعض المصادر لتاريخية بطول القامة وصحامة الجسم ولم ينبق

الدعاش حين قرأته حُبِلَ إليَّ أنْ كُنْ لسحر قد عادر نسحتك بدعاكس فعادت جسداً بلا روح . فما في مسختي كثير، وليس بعدء . الحق أني لا أستطيع أنْ أتَحِيلَ أنْ النسخة التي تكلمت عليَّ بها قد عادت شيئاً من السحر اختواء عبره لا أدري فيما تصح في الزمن الأني الذي تحدث عنه الور، وقال عنه إنه يتشكل الآن في رحم العيب، إن الفاكس لا ينقل دوماً الحروف محسب وإنما ينقل في بعض الأحيان روح التراكيب الفريدة المصيبة!

وجاء في الرسالة أيضاً أحامد جو لَمْ أعرفه، بل لَمْ أسمع به غير هذه الأسمية مما كتب الور، بيد أني بت أشعر أني صاحب مصيبة خاصة فيه، لا لاني من طينته لأنه ممن وصفو بأنهم ملح الأرض . أما بشير فأنني أعرفه وهو لمرط حيويته يصعب على المرء تحيُّل لموت فيه . حين لاقتني الور في ريارته الكريمة، بي في أحريات الألفية المصيبة في البحرين، وهي الربرة التي أشد إنبها في قصته الأخرى . ربما لَمْ نشأ أنْ نتذكر بشيراً، لعلمي من أجل ذلك لَمْ أعرف الور فيه وبشير كانت تصادفه أحداث عربية وندرة، وليس أعرب من أن تصل بهم طائرة تهبط اضطرارياً على بحر أسهم فيما بعد في الوصول إلى إثمافية أدبس أبايا

هد عس بداعي مدهش بكل المقاييس الفدية لا أستطيع أنْ استمتع به وحدي دون مشاركة لأخرين لَمْ أستاذن الور بعد وأنا أحاول أن أقدم منه بعض المقتطفات . علمت أنه عاد من الولايات المتحدة وأقام في الكويت ولا أعرف أكثر من ذلك فليعبر لي جرأتي ولا أطمع بجامع في ما ارتأيت

قال الور حمد «إن الصائين ابراحلين كانا شخصين قلقين مسافرين لا يستقر لهما قرار، صوفيان فنانان بل درويشان مجدويان . أراد عجن الرمان والمكان، والتعامهما في لقمة واحدة وفي دجيلة كل واحد منهما إحساس بدو الأجل، عبر عن نفسه في حمى التنفل التي ما برحهما أبداً كان بشير مثل حامد تعاماً، من حيث الرعبة في التنفل وكان كلاهما يبحث عن شيء ما بحثاً مصيباً لا

التأثير والتبادل ما بين الديسكا وغيرها من لقائات ودون التعلق بالأوهام بتواضع
ثقافة الديسكا وتأثيرها بالثقافة العربية

يرى الأستاذ عبد الجبار شأن المثقف السوداني إلى أن أزمة الهوية والثقافة
في السودان هي جوهر الصراع السياسي والاجتماعي بمفهومه الحقيقي
السيادي ودع إلى التسوية السياسية عبر دستور ديمقراطي يقر الحقوق
والحرريات الأساسية والعامة لكافة المواطنين دون الارتداد للالتزامات اديبية أو
العرقية أو الثقافية

اتحفا عبد الجبار برؤية ثاقبة ومساهمة ذكية نحن في أشد الحاجة إليها هي
ثلث لأجور المدلهمات، وأتمنى أن تكون هذه الدراسة قد وجدت سبيلها للبشر
لنعم فائدتها.

71 يونيو 3002م

«في كون الشَّلَاقَة عاقَة» وفيص من أريج الكتَّابة



النور حمد

ما رلت أدكر الأستاذ بابكر أحمد موسى الشاعر و لكاتب المسرحي - عليه
رحمة الله - حين كان يدرسن تاريخ أوربا في الصف الثالث (عمر) بالمؤتمر
الثانوية كان يدخل حاملاً حقيبتة انجلدية التي تحتوي علي كتب «المعقلين»
ندجأخذ مع أعراسه الأخرى كان إحساسه بالتاريخ عظيم فيتحدث في نودة
جالساً على طرف المصعدة، لا انكرسي في أغلب الأحيان يشدن بعديته العذب
وصوته المديد. ولا يخطئك حماسه لما يقون رعم هذوله وما رلت أدكر يوم أن
كان يتحدث عن الإصلاح الديني في أوربا متناولا شخصية مارتن لوتر، قال إن
كلماته كانت تخرج من فيه كشلال من نور، فأعجبتنا ذلك التشبيه وما زال عامداً
بالذاكرة وعندما وصف عبد الله علي إبراهيم الدكتور التجاني الماحي في مقالته
شهيره تحت «فريق الألواح» قال إن العلم كان يتصاعد منه دحاحين دحاحين
يستعار التعبير من «لطبقات» في معرض الوصف لأحد رجاء الصوفية العارفين.

حين انتقلت بالأساتذ السور حمد لأول مرة في مطلع الثمانين من القرن الماضي بمصر صديق الأستاذ لطاهر محمد حمد بمدينة كوستي ذكرني حين تحدث بمدرس نوتر أو ذلك الصوفي الملهم في تاريخنا العام بمأثر الرجال وكان السور في تلك الأمسية الفكرية البعيدة يتحدث لغة صبية جديدة ومهذبة تتدفق مفرداته وتنب عفو الحاضر في عقد نصيب من الكلام المحكم ما زال صداها يتردد في الأذن ثم أحبط بقلبه بعد ذلك بلا مرة واحدة عابرة بالمحطة الوسطى في الخرطوم. بباديا حديثاً قصير بقدر ما سمع لما لوفت وفي العام الماضي بدأت أتلقي من أصدقائي بأبوظبي إصدارة غير دورية ينشرها المصان الشكيلي والسائد المعروف حسن موسى لمقيم بقرى سمها «حهم» وتصدرتها هذه العبارة «جريدة لهدم التقاد والمعارضة»، تورع محاماً لمن يهمه الأمر ولمرسلة إسمهم حتى استنساخها وتوزيعها بمعرفتهم ولا ينشر أي جزء منها في الصحف النسيارة إلا بإذن ناشرها» والإصدارة ناجحة بكل المقاييس وتؤكد اهتمام المثقفين والكتّاب لسود بين وحديثهم على ثقافتهم لوصية وشاركت بالكتابة فيها أفلام جادة من بينهم لسور حمد لحسن المصنف فقرأت له مقالاً جيداً غير مسبوق لغة ومضموناً بعنوان «أهل الفترة» فلم أجد فارقاً بين حديثه وكتائنه نفس التائق الماور والفكر المشبوب والقدرة العدة على استنكاه التجربة ثم لم ألبث أن وقعت يدي على مقال بعنوان «في كون الشلالة عاقلة» تناول فيه سيرة ثلاثة من الصانين التشكيليين، ثلاثتهم رحلوا عن ديباء. قسم امادة إلى قسمين الأول بعنوان «عمر خير عاقل وحيد في حضم بمجانين» والثاني بعنوان «الرحلال حامد جو وبشير حريشة» يستعان من وراء ما بعد الأحداث أعجبي هذا لعن وخاصة ما كنه عن صديقه ابن عمي لأستاذ طه أبو قرحة المحامي «رجل المثقف والكاتب المصنوع» الذي احتفى بالعمل أيما حتماء وبمث رسالة عن طريق لفاكس من ابجرين حيث يقيم ويعمل وجاء في رسالته «ما كنه السور عن حامد جو وبشير حريشة أطيبت من رائحة

توجهت ذات مساء رتقي إلى مركز عبد الكريم مير عسي الثقافي بأم درمان، لاحظت جمعا على سطح مبنى المركز تشفق أب وصديقي ابدي صحته، وجدنا كرسيين فجلسنا. كانت غرفة صومل تؤدي مسرحية ما أسعدنا ما صنع اشباب على المسرح فانس كان مشحونا بالمرر والمباشرة هذا شعب لن يصيب ما دامت هذه طلائعه، بين وست انتهت الأمسية المسرحية انتقلت بالأستاذ كمال عبد الكريم مدير لمركز الذي أحسن إستقبالنا وأكرم وفادتنا وأتاح لنا فرصة لتعرف على أقسام المركز ثم انعمني بمجموعة من إصداراته، عكمت عليها أياما، كما عثرت أيضا على كتب حديده في مكتبة مروي أروث كثيرا من الظما، من بينها كتب نقدي عن الصب صالح للأستاذ عثمان محمد احسن الأكاديمي البارر ولثقف المرموق والأديب الشط عرير الإنتاج ما نشرعت بدقائه ولكنني استمتعت واستمتعت بكثير مما كتب، وهو محب وليس بافدا، يؤسس منهجا مختلفا في تدوله النص، يعجبي كما هو صديق للطبيب وعارف بفصله يندفع حين يكتب عنه ولكنه يصيب والطيب صالح كيانع امسك بحدبك دائما بشيء مه، كما تظفر بأريجه الفوح تحدث عنه وأسهب وسبق في إبداعه وتناول أشياء لم تكن يعرفها عن العالم الثري للكاتب والحق يقال إسي لم أتمكن من متابعة مقالته في الصفحة الأخيرة لمجلة «المجلة» ابدي اسمر لسوات، وكان الطيب يكتب عن الشعر وما كان ذلك يجد هوى في نفسي إلا أنه يبدو أن هناك ما كان يستوجب النظر والقراءة، شر رفيع وتناول دكي استوقفتي ما سافه من وصف لأحدى حداث الأمم المتحدة في عنوان الحرب الباردة كان وقتذاك مدوبا عن لإداعة البريطانية يتبع اندورة وكانت تلك الحصة للرؤساء هارولد ماكميلان وليس الوزراء البريدي وبيكي حروثشوب الرئيس السوفيتي وغيرهم وصف الأول فقال، بينما كان ماكميلان يقف حطيا على المنصة تلك ليره المتعالية قليلا، لتي يعلب عليها ذلك السام الأرستقراطي كان ينظر من حين لآخر إلى رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم،

أدري ما هو الأسباب التي كنا يقدمانها لنسمر عادة ولحركة الكثيرة وللشغل الذي لا يهدأ لم يكن دئماً مقبلة لقد كانت في أغلب الأحيان عللاً أكثر منها أسباباً لم يكن يكون بملكان أمرهما في ذلك لمحبي كنا مثل من حكم عليه بالنقل ولربما شاب نعتنهما بالنقل بين الأمكنة بعضاً من حالات الإدمان وفي موتهما في حادثتي مرور إشارة، وربما تشابه المصائر ويقول إن التشابه بينهما - في حالة تتبع القرئ - أفضى بكليهما إلى كلية الفنون معرفتي ببشير حريشة، تمت بعد التحاقني بكلية الفنون فهو كردفاني قادم من خور طقت الثانوية، ويسدو أنه كان مشهوراً في خور طقت مثل شهرة حامد جو في حنتوب، وقد توطدت صلاتي ببشير عقب نحرجه من كلية الفنون، وذلك بعد أن انضم إلى حركة الأخوان الجمهوريين. أما حامد جو فهو قريبي بشأن سويًا ونفاساً حياة قروية مشتركة، وتدرجنا في المراحل الدراسية من الابتدائية وحتى مدرسة حنتوب كان حامد يأخذ حياته لحظة بدخلة ولا يتحسر على ما فاتته، ولا يدع التطلع لما سوف يأتي يدهله عن حمال لحظته ابرهة كانت له قدرة على دفع الحياة في العدم. تصبح حنة حامد بالسياسة بي من غيره قاعاً صفصفاً، وخرائب ينعق فيها اليوم. وجوده حولي كان يحل كبريات معضلاتي لا أحتاج لأكثر من رؤيته أو وجوده من حولي لتذهب عني المحاولات الوجودية ولحزن والوحشة لقد كان متصلاً بالجوهر وممدود من الجوهر مدد عجيباً، وأهم من ذلك كله كان قادراً على أن يُعدي بحالته غيره.

قال النور به حين التحق بكلية الفنون الجميلة في مطلع السبعينات كان حامد مدرساً بالمدارس الابتدائية وكان يروره في الكلية نعرف على أصدقائه وأعجبه المكان وقرّر فعلاً الالتحاق به. أحسُّ بأن ذلك المكان المسمى بكلية الفنون ياسبه، لقد كان يبني أموراً على الحدس فعليه هو الذي يحبره - وحين يحبره قلبه بشيء لا يلتفت إلى متحدث آخر قلت له إن فكرته جنونية بل وسريالية مثل

أصواته

مسائر أموره لأخرى، فهو لم يكن يمارس الرسم أبداً، ولم أعرف له بهماً ما به غير
 ن حامداً أحب ذلك المكان وأولئك بقوم، أصر على حيدره وعمل له اقتنى
 الألوان والأدوات وصار يعمل مجد ويطلقني على أعماله وبالفعل الحق حامداً
 بكلية الفنون رغم أنني.

بعد موته أحسست بأنه فعلاً غريباً على هذه الحياة، بدا لي مثل من جرى
 رساله من المستقبل ليرسم لما بعضاً من صورته... وليقدم نموذجاً لإنسان جديد،
 لا يزال يتمحصر في رحم العيب. إنسان تحرر من الانكسار أمام الاستعلاء
 باللون والجس والطيلة وبالتحصيل المعرفي، ومن أي فهو يحاول به أي شخص
 لمير على الآخر، كان إنساناً لا يسلم للناس بالأمسيات لي يمشيها
 لأنفسهم. يحرص على لعني نفسه حتى يقبل العني أن يشاركه ما عنده ويحرص
 نفسه على صاحب الجاه، والسلطة حتى يسى صاحب الجاه والسيطة وصعيقه
 ويقترب من لحيات حتى لا تبقى لسطوة جمالهن هيبه، ويأفش من يرغم أنه
 ملم بموضوعه بنديّة تامة، وبغير شعور بالانكسار أو الدونية. كان حامداً أصمى من
 أي لواحني أنيته، في رؤية الفردق وكانت له قدرة فطرية، لا فلسفة فيها ولا
 تعقيد، تمكنه دائماً من السعاد إلى جوهر الأمور

رأى النور بشير حريشة لأول مرة عام 1971 بداحلية الحلة الجديدة التابعة
 لمعهد الكليات التكنولوجية وقد كان يسكنها بعض من طلاب كلية الفنون
 «رأيت في عرفة مجاورة لعرفي، يرقص رقصة «الجيرك» أو «الهورس» ثم أعد أذكر
 بالصبط واحدة من لرقصات العربية التي كانت فاشية في الأوساط المدنية
 لحرطومية أذاك استرعى انتباهي منذ أول وهلة بقوامه القصير ونمعه الأقوي،
 وحركات رقصه المتوافقة التي دلت على حس موسيقي سليم، وروح طليقة أيضاً

انطبع مشهد رقصه في ذهني وظللت أرقبه من بعيد في الكلية بإعجاب، غير
 أنني لم أعرف عليه عن كثب لقد كان هو في السنة الرابعة وكنت في السنة

الأولى ثم ما لث بشير بعد التخرج أن انضم للحركة الجمهورية، حيث تعارفا عن قرب. ولا أزال أذكر يوم سمر بشير إلى جوبا، ومعه حلف الله عيود ومحمد الحاج بعد أن تمّ عليهم إلى مكتب الشر بجوبا أذكر أنني كنت في ودعهم في مطار الخرطوم مع حسن موسى ومحمود عمر وربما آدم الناصفي أقفعت بهم طائرة «لغوكري- فريدمشيب» المروحية عند لظهور ولا أزال أذكر أن حسن موسى علق على شكل الطائرة بقوله إنها «تشبه الكديسه الحامل» وفي المساء عرفنا أن الطائرة قد وصلت طريقها «ما أردت بهذا القول إن حسن موسى عيه حارة ولكن التنسيبه استرعى إنتباهي وظل عائقاً بدهي قرابة اثلاثين عاماً انماصية». بجا بشير مع رفقاءه من تلك الحادثة الفطبعة بكل تعقيداتنها ثم مات لاحقاً في حادث سير بمدينة الأبيض. وبجا حامد حور عم أسفاره الكثيرة على شاحنات وباصات وحافلات وبكاسي وكاروات السود ن الهرمة وتومي هو الآخر في حادث سير في انجماهيرية البية».

5 فبراير 2002م

رواج ثقافي ونلاشي استسياسي



محمد صلاح

عرف الناس من لسياسة في السودان ، فهرهم لحطاب الديماجوجي العاجز
لسنطة مهترله ما قدمت سوى الكلام والشعارات ومريداً من الفشل، ولا يتطلع
الناس كثيراً أيضاً لخطاب المعارضة العاطلة عن الإبداع، والمنتخبة بالمراوحة
والاعتراب المعكري فلادوا بالآداب والثقافة وأحدوا يتدافعون للحصول على
الملاحق الثقافية للمصحف وليس هذا بغريب ففي رمان الجحر استسياسي ولصمور
المعكري يعتصم المثقفون بكل ما هو غير يومي يترفعون عن الأحداث التي لا
تفناً تتكرر ولا تأتي بجديد، يستطرون أيام المد ورياح التعبير أسست ذلك خلال
ريارتي الأخيرة للسودان في عطشي لسوية، وأسعدي ما رأيت عليه الشباب
يسهون من كتابة الواقع السياسي وأقول انهم الجميل.. يؤمون المكتبات
يفرأون، ويكونون الفرق المسرحية في المراكز الثقافية شباناً وشابات مفعمين
بالأمل ومسلحين بالحرارة وغفوية المبادرة ونصاعة الوجدان

حين تطرق للبعم في حديثه عن منطقة بحر العرلان، فقد « في هذه البلاد حيوان يسمى البعم أشبه شيء بالإنسان في صورته وقامته ويستأنس كالقردة وله شعر مستمر حلف ظهره على حائبيه. فائق في طوله . جميل في منظره يتعرف به السودانيون كما تتعرف العرب في عيون الجأدر والعرلان»

وكثير من يكون قد سمع عن البعم في معرض وصف جداتنا وأمهاتنا لمن يتميز بالعمى وبلاهة السبوك. ولا أعتقد أن أحداً قد تعرف به كما ذكر مؤلف الكتاب وربما يكون البعم هو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ولا يفتأ علماء الأنثروبولوجي مكشوفين في سبيل حل ذلك اللغز.

حين تمّ تعيين عردون للعمل بالسودان اصططح معه إبراهيم فوري هذا وزير معه عدة مناطق وخاصة الاستوائية وبحر افركل وقد أتاول تجربة ذلك الرجل من خلال كتابات أخرى محتمة.

وكان فقط الرباد حظه في شجدة فصولنا وستارة إنباه أيضاً فقد كان ذلك القبط العطري النادر من بين السلع التجارية المهمة التي كان يصدرها السودان إلى البلاد الأخرى. تطرق إليه كثير من الأحباريين يدين كتبوا عن بلادهم وكتبهم ما وصفوه ويبدو أنه يعيش -وربما لا يزال- في بعض مناطق الجنوب والجنوب الشرقي. ويتميز ذلك القبط العجيب بعطره القوي الذي كان يقول أهلها إنه كان يمزجه إذا أحس بالخطر يريد أن يشغل به عدوه المطارد ويلهيه بجمع العطر الذي يقدسه به كمادة هلامية يتم الاحتفاظ بها في قرون العرلان والأبقار وتستخدمه النساء في مستحضرات التجميل وإذا ما تمّ قتله فإن جلده يظل يصوع بالعطر فيحمر المكان كله. وكان يربط في يد الرصيح قطع صغيرة من جلده، وإذا ما تمّ صيده حياً يوضع في أقفاص بشارل الأثرياء

لَمْ يقتصر تواجد الحيوانات الوحشية على مناطق محدّدة بالسودان وإنما

ليس حس الهدام، هيئته مثل هيئة رئيس عمال شحن في ميناء، رجل لو حير ماكميلان لما احتار أن يدعوهُ إلى العشاء في داره في لندن مع صهره دوق ديشاير. إلا أن ذلك الرجل الذي يجلس متحفراً مثل دنت رابن، وهو نجم هذا لمهرجان دون منارع بيكيتا حروتشوف، أمين عدم الحرب الشيوعي وأقوى رجل في الاتحاد السوفيتي كان يصل قبل بدء الجلسة دائماً ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة عندما لاحظ مرة قلة الحضور هبّ واقفاً وصرح عاصفاً قبل أن يؤدي له، أين يذهب هؤلاء المدويون؟ إن دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفسحة والنسكح، ولكن للعمل لَمْ يلبث المدويون الذين كانوا يحسسون القهوة في لصالة الفاخرة ويتسكعون بالعمل في الردهات أن جاءوا يتسابقون إلى قاعة لجمعية العمومية لاحظ العيب أن جلسات تلك لدورة تحولت بمهارة إلى مصون مسرحية، البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الاتحاد السوفيتي ولشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والفقر هو دول الغرب.

وعندما كتب الطبيب صالح يصف الأم نيريرا التي رآها في مطار الخرطوم تهم بالمعادرة، قال «الآن منتظر إقلاع الطائرة التي سوف تعود به إلى باريس». يقصد أحمد مختار أمبو مدير «ليونسكو وقتذاك»، وكان الوقت أواخر الليل، فإذا صوء يسطع في أعينها التمت إلى مصدره فإذا بتلك السيدة العجيبة تدخل بهدوء كما يسبل انماء في الجدول، عليها الثوب الأبيض الذي اشتهرت به وحولها فتيات في مثل ريبها سمراوات هديات أو أثوبيات أو حليط من أحباس - ثم يكن معها سوى مودع وحيد ربما من إحدى منظمات الأمانة ذهب وملت عليها وعلمت منها أنها كست في سنار وفي الجزيرة جنوب الخرطوم، وأنها قصت شهراً تحاول أن تساعد صحايا المجاعة تهش لك كأنها تعرفك من زمن وتحديث بصوت حامت فيه لكنة هندية معهم بالمرح، وجهها منغص مليء بالتجاعيد وجه

حميل أجمل ما وقعت عليه عيناك، يدرك بوجوه كثيرة أحبتها وصاغت منك
في رحام الحياة، تملؤك بالحبور والحرر وتراها حفيضة جد وهي صغيرة الحجم
أصلاً كأنك تستطيع أن تحملها في راحة يدك، تريد أن تحتسبها وتقبلها كما
تحتسب جدتك أو أمك أو إبتنتك

31 مايو 3002م

البيئة الأمازونية التي اندثرت البعام في مملكة لحيوان

كانت أسعد أوقات طفولتي تلك لأماسي التي جمعت بالحكايات المشوقة والأحبار المثيرة وحكايات الغريبة عن محتلف مناطق السودان وخاصة الجنوب- لدي عمل فيه أجدادي تجاراً جوالي أفاق منذ منتصف القرن التاسع عشر.. ثم ولدي منذ أوائل القرن العشرين -حيث كان (عليه رحمة الله) مولعاً بالسفر والصيد.

كانت قصص الحيوانات وأبوابها تستأثر بجانب مهم من تلك الأحاديث التي كانت ترجيها إيسا ولديا فتثير الفضول وتلهب الخيال وكانت حين تتحدث عن البعام تمتلكها رغبة عارمة في رؤيته وصحبته في طفولتنا لسعادة تلك والبعام الذي هو من فصيلة القروود لم أعد أسمع عنه منذ ذلك الزمن وإن كنت عارلت أذكر وصف هيئته الغريبة من شكل الإنسان وسلوكه الهادئ لسبيل وحيه للذس ورصاء بالعيش معهم كفرد من أفراد العائلة. لا بد أن قصيلته قد انقضت وما عادت تسمى على الأرض شأن الكثير من الكائنات التي كانت تكاد لا تعصى في السودان ولكنها وبالحسرة اختفت إلى الأبد قبل أن يتم تصنيفها ضمن الكائنات التي درجت على ظهر هذا الكوكب. كان السودان حتى وقت قريب بمساحته الواسعة وعاباته الشاسعة ومياهه الوفيرة محمية مثالية لمملكة الحيوان.

وحيث طالعت أخيراً كتاب «السودان بين يدي عردون وكنشس» لمؤلفه المصري إبراهيم فوزي باشا- الذي صدر مرة واحدة قبل مئة عام- فرأت عجب

ولعل أطرف ما حدث في هذا الشأن إنَّ عردون باشا حين عمل بمناطق الجنوب جلب أفيالاً هندية داجنة للاستعانة بها في الحركة داخل العابات وشيد بها جنوده رربية وسعة تخرج منها لترعى في الحلاء المجاور. فكانت حينما تعود بحر النهار تعود معها بعض أفيالها الأفريقية لمتوحشة التي تصبح هدفاً لسهام جنود الذين يأكلون لحمها وتستولي الحكومة على أياها الثمينة

71 يوليو 1002م



إصطيان فيل في منقلا عام 1903م

أصوات

تماوتت في كشافتها من دنقلا في أقصى شمال البلاد كانت غرلان انتبل تنجول في عبات لسط وكان الرراف والجاموس والأسود والغرلان ترتع في امساطق لشعالية الشرقية وقد ذكر الدكتور عبد الله الصيب أن عملاً له اصطاد أسداً في بيرة الدمر، ولما أعياه حمله على دابته فضع إحدى رجليه لأمامه وأخذها ليرأها الناس

وفي إقليم عصيرة ثقت نهر الرحالة لإيجليري جورج مهلي أفر من النهر التي عتادت أن تخرج من نهر عطبرة إلى حمول القمع والفول المجاورة ليلاً لترعى فيها وتندوسها بأقدامها العليطة فتعيب فساداً وذكر أن أهالي إحدى انحرر الواقعة جنوب بربر طلبوا من لسطات إمدادها بقوات لطرد أفراس نهر فأرسلت إليهم مئة جندي لإصطيادها.

وقال بوركهارت إن عبات الناك كانت تعص بالحيوانات المفترسة كالأسود والسمور لرقط والغرلان والحيات والأفعى. وأن الأهالي كانوا يحاولون حماية ماشيتهم بحفظها في رايب من الشوك وأنه كان من المأدر أن يقتل أسداً أو نمر إلا في حالة دفاع عن النفس حيث إن الأهالي ما كانوا يمتلكون سوى السيوف والرمح التي لا تقوى على قهر ملك الوحوش

وقال بوركهارت إن السمور كانت تكثر في الأودية الشرقية المتاخمة لمدينة شدي وفي مرتفعات الدندر وعلى بعد مسافة قريبة جنوب شرقي شدي كان يوجد لزراف الذي يصطاده رجاا لشكرية والكوهة ويستفيدون من جلوده في صناعة الدرق «لتروس» وترد إلى شدي للماعز الجببية الصالحة التي تتميز بقرونها الطويلة المنحنية حتى وسط الظهر وبلحمها اللذيذ المذاق ويسمى هذا نوع بالريل وهو الاسم الذي يطلق على العرال الأحمر في سوريا وبعد صيده يقودونه من أنهم مثلما يمعنون مع النعام الذي كان يكثر بتث لجهات . وريش نعام في شدي كان أقل جوده من النوع الموجود في الصحراء العربية

والأنواع الأكثر طلباً في أسواق مصر هي التي كانت ترد من أسواق كردفان ودارفور. وقد يوركهارت أن الفلاحين النجيين كان يحملون ريش النعام إلى أسواق مخلوطة بالسوقين الجيد والردىء ويستبدلوها بالسرة وكثير من الأهالي كان يربون النعام في منازلهم فيستأنس كما الطيور الداجنة

وقد ذكر الرحالة الإنجليزي وليام جورج براون أن دارفور كانت تبيع بالأسود والسمور والصباغ والذئب وابن أوى وقال إن صباغ كانت تسير في هيئة قطع يتراوح عدد أفرادها من خمسة إلى عشرة وترجع على القرى ليلاً فتسرع ما تستطيع صيده، وتفتك بالكلاب والدواب حتى بدت تدخل المنازل وهناك أيضاً غزلان التيتل ووحيد القرن والزراف وأفراس النهر التي كانت تعيش في المهيرات الصغيرة. أما الأفيال فقد كانت تسير في قطعان كبيرة يتراوح انقطاع ما بين 400 و 500 فيل وأحياناً يبلغ لألفين.

وكان عرب البقارة يهتمون بصيد الفيل الذي يعتبر صيداً من الشجاعة والجسارة وبداء الفتوة قبل أن يكون كسباً للحصول على العاج أو اللحم يطاردونها بالخيول ويفردون بالفيل الواحد يوسعه طعماً بالرماح حتى يسقط قتيلاً أو يصوبون نحوه السهم من فوق الأشجار. وأحياناً يحفرون حفراً في طريقه ليقط فيه.

وذكر الرحالة براون أن عرب السودان يصطادون الأسود والسمور لجلودها وأحياناً يأكلون لحومها لإعتقادهم بأنها تكسبهم الشجاعة والحرأة وانشبت في سمعك وأحياناً يتمكنون من صيد الأشبال ليبيعونها للتجار الجلالة الذين يصدرونها إلى مصر لتقدم كهدايا للسلاطين والكبراء

وقد ذكر المؤرخون أنهم لاحظوا وجود الأسود في قصور ملوك النوب في سنار وتحدث براون عن الطيور في دارفور وكثرتها كالدجاج العيسى والبيضاء الأحصر

الذي يستأنس في المنازل ويتعلم شيئاً من معردات اللعبة حتى يتم تصديره إلى مصر فيباع بأثمان مرتفعة

أما الرحالة السويسري بوركهارت فقد كتب عن الأنهار التي تجري في بحر العرال والتي تعج بالتماسيح وأفراس النهر كما تحدث عن حيوان عرف باسم «أم كرخي» قال إنه يتميز بحجم كبير مثل الحرنيت ورأس صغير إلا أنه غير مؤذ ذلك بالإضافة إلى الأفيال ووحيد القرن والرف وعران «أبو عرف» وهو في حجم البقرة يقرون صحمة يدفع بها نحو الصيد فيرده فتيلاً أو بصبيبه بجروح خطيرة وتحدث عن لجلاد الذي وصفه بأنه في حجم العجل وانتيل الجبلي

أما الرحالة الألماني فيرناند فيرن فقد شاهد الجزيرة أها الواقعة على النيل الأبيض بوسط السودان في حوالي عام 1840 قبل سنوات من إسطيان الإمام محمد أحمد المهدي وأسرته فيها. وقد كان يسكنها بعض من قبيلة الشك وقد وصف فيرن الحياة النباتية فيها وأنواع الحيوانات ولطبور ولاحظ وجود الأسود بكثرة وأفراس النهر. ولعت بطر فيرن في عادات قبيلة البارية بإقيم الاستوائية حرص الرجل منهم على أن يضع جدد الحيوانات المعترس الذي يصطاده فوق ظهره كدليل على شجاعته وذكرى لإنتصاره وتغلبه على الشدائد التي واجهته في حياته وكانوا يزينون رؤوس عصيهم بما يشبه قرون الشيران الصغيرة أو يكسوها بقطع صغيرة من فرائه وبشبه فيرن البارية في تمسكهم بهذه التعاليد بالجرمان القدماء حين يقول «وكما أن الأسر السيلة كانت تتحد من رأسي الحبر البري وانتور شعرات لها معني لتقدير والاحترام، كذلك فإن البارية يطرور لجنود وأبياب الحيوانات كرمز للبطولة والشجاعة أو التقدير لبعض الصعاع التي تعتار بها من غيرها من الحيوانات» ويضيف فيرن بقوله «لو لم يكن لمناح حراً لكان من المحتمل أن يصع البارية على رؤوسهم عطاء قبعات الحرب من ذات الفراء».

لعلهم ألا أحد في السودان يعرفها.

تناهت أخبار ذلك الأوروبي العجيب لطلاب الداحليات في الكلية بقلبي إليهم عبد الرزاق العتيابي وعمر الريح فجاءوا به ذات مساء حيث أدى معهم صلاة العصر والمغرب وأحد يحدثهم ويتدفق في الحديث متبولاً شتى صروب المعرفة ببساطة وتوسع ينمى عن عمق ثقافته وموسوعيته. وكان يتحدث باللغة الإنجليزية وكان من بين هؤلاء الطلاب الأستاذ حسن بحيلة في اسسة النهائية في قسم المعارف بكلية غردون عامذاك. وقد روى هذه الحادثة في مؤلفه «ملاحم من المجتمع السوداني» الجزء الثاني بعنوان «شخصية عامصة تمر بالسودان في الثلاثينيات» ثم نطل إقامة هذه الرجل طويلاً بالسودان فقد عادر على جعل وفي ظروف عامصة ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً.

61 يوليو 2002م

صالح مؤمن أوروبي لا تخطئه العين

كان براء ماس أم درما من منطقة أبو روف برندي جذاباً فوقه جاكيت وعمامة
ومسدلاً راحل أوروبي لا تخطئه العين يتحدث العربية الفصحى والإنجليزية
بطلاقة ويحوص في مختلف القضايا والمواضيع في المقاهي وأمام المتاجر
ويختلط بجميع طبقات الناس كمن يريد التعرف على الأشياء يقحم نفسه
متحدثاً ومتسائلاً وبحثاً. كان يحرص على حمل شهادة صادرة من لمعرب تؤكد
إسلامه واختياره اسم صالح مؤمن. مكتوبة بالعربية والفرنسية. يكتفي بذلك
ويتحاشى التفاصيل حول حياته ويؤدي الصلاة في مواضعها

كان حي أبو روف معقلاً للشباب ذوي همم عالية يتطلعون إلى فجر جديد
بعمسوا في التعلم والتثقيف الذاتي وكان عام 1930 الذي شهد ظهور صالح
مؤمن دروة تألفهم موزعين صغاراً وطلاباً في كلية عردون.. لا يكتفون وطبقتهم
ولا بغصهم بالاستعمار. ولم تكن السلطات عاقلة عن نشاطهم تحصى أنعاسهم
غاديس ورائحين لم تكن قد مضت سنوات طويلة على ثورة 1924 وما تمحض
عن نتائجها وتجربتها المدمرة ودروسها المريرة التي أخذ بتجرعها هؤلاء الشباب
مكبيين على الكتب بحثيين عن المعارف لرسم طريق الخلاص أو العثور على
أمل يعبر بهم ذلك الواقع الكئيب

وكانت سنوات ما بين الحربين من أكثر فترات التاريخ توتراً في لعالم كانت
أوروبا تودع حرباً وتستقبل أخرى وتجربة الإتحاد السوفيتي بزعامة جوزيف

متالين - باتت حقيقة راسخة والبارية تدق على الأبواب، تمثل دروة الأديبة الرأسمالية وجنوح الفكر العربي الحديث، وجاءت الأزمة الاقتصادية لتتهتر كثير من العسلمات، وتثير كثيراً من التساؤلات حول مصير الإنسانية التي انقسمت إلى معسكرين على المستويين السياسي والاقتصادي، كانت فترة حرجة تواجه مفترق طرق وعرة

كان لا بد هؤلاء الشباب أن يتصلوا بمؤمن.. لم يكن بعيداً عنهم فقد اُكثرت دار صغيرة في الحي إلى جوارهم يتحدث في مختلف المعارف والفلسفات خاصة في علمي الأجاس والاجتماع اللذين تخصصن فيهما بهرهم بثقافته الواسعة وعلمه العرير فالتفوا حوله يستمعون إليه لما كانت كلية عردون تروي تعشهم للمعارف، كانت تلقي إليهم بالعتات وتكتفي بتقديم القليل لهم بما يؤهلهم للوظائف الصغيرة ما كان تريد لهم ثوار متعصب يفلقون راحتها ويمصحون طبيعة الاستعمار.

كان صالح مؤمن يهاجم الاستعمار بلا هوادة في جرأة وعلاوية وسكن أنوف الشباب المتحفرة كانت تتشمم فبدأ الهمس واستربت لباس في حقيقة وفي طبيعة المهمة التي لا بد أن يكون قد وعد من أجلها ولماذا تعض سلطات المدينة الطرف عنه وهي التي يرعها ما هو أقل من ذلك؟ وهل كان يكفي أن تكلف شيخ بحارة ويدعى عبد الحكيم بكى بفقر إليها ما كان يقوله صالح مؤمن الذي يلتفت إلى لشباب ساحراً يتحدث بالإنجليزية فيطلب منهم أن يترجموا لعبد الحكيم ما يستطيع أن يقله للمفتش غير مكترث بما سيؤول إليه الحال رأت مجموعة شباب أبو روف في صالح مؤمن جاسوساً إنجليزيّاً مكلفاً بدراسة أفكار المتخفين السودانيين وتوجيهاتهم، متنكر في ري المستشرق المسلم القادم من المغرب.. وخاصة عندما حملت إليهم الصحف المصرية أبناء عن أن سورس الجاسوس الإنجليزي المعروف عادر المغرب في طريقه إلى

كان لورنس معروفًا على النطاق العالمي بعد أن اشتهر بالدور الخطير الذي لعبه خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918) حين عمل مستشارًا للشريف حسين ملك الحجاز وكيف تمكن من إقناع العرب بالوقوف إلى جانب بريطانيا وحلفائها في حربها ضد ألمانيا وجهتها ومن بينهم لأترك الدين صاق العرب بسيطرتهم وفسادهم عقودًا من الزمن وكانت بريطانيا قد أعلنت وعودها المكتوبة ولموثوقة بالسيادة للعرب على أوطانهم بعد انقضاء على النفوذ لتركيا ولكنها سكرت لها وتقسمت مع فرنسا وتركيا تركيا وابتدأت لورنس من خلال ما أصفي عليه من قدرات حارقة أسطورة تسعى على قدمين وخاصة عندما أصدر كتابه «أعمدة بحكمة السبعة» ثم ما لبث أن صدرت عنه مجموعة من الكتب عن حياته في بادية العربية ومعالماته ولا يربى لعلم الذي حمل عنوان «لورنس العرب» يحتل مكانه بارزة في تاريخ السينما.

لاحظ شباب أبو روف أن صالح مؤسس بحيد معرفة القبائل العربية وخصوصية حياة الصحراء وتفاصيلها الأمر الذي لا يتمكن منه إلا رجل عاش في تلك البيئة طويلاً وسبر أغوارها واهتم بدراساتها كما لاحظوا معرفته العميقة بعلم الآثار وقدرته على حل الرموز البهيمية وعلاقته المستمرة مع مستر أدبسون مدير متحف الآثار بكلية عربون وعلموا أنه كثيراً ما كان يساعده في هذ حلاسم كثير من الحروف والمقاطع المحفورة على الآثار

وكان صالح مؤسس بحيد لغة الأسبرنتو التي أُرِد من وضعوها أن تكون لغة عالمية يتحاطب بها الناس على اختلاف لغاتهم وقد حاول مؤمن أن يعلمها لتلاميذه - شباب أبو روف - وبدأوا في طلب الكتب الخاصة بدراساتها ووصلت بالفعل إلى البعض منهم إلا أن الرحيل المفاجئ لرجل العرب حال دون ذلك وكان الرجل يستخدم هذه اللغة في تدوين مذكراته في كراسات خاصة

يتطعنون خارج حدودهم وإن فعلوا فإنهم يتطعنون إلى الشمال والشرق لأنهم لا يعتبرون أنفسهم أفارقة بل عرباً. أما حوادث مارس 1954 فقد استأثرت بتقرير موسع كتبه الحاكم العام سير روبرت هاولورد الحارحية البريطانية جاء فيه أن المحاولات من المهدية قد تجددت ومن المحتمل أن يكون حرب لأمة قد أصعب فرصه في الحصول على السلطة عبر الوسائل الدستورية العادية وإن سلاحهم لأكثر فاعلية الآن هو إثارة الاضطرابات وقد حققوا هدفهم أثناء زيارة محمد نجيب إلا أن العلاقات بينهم وبين جهر البوليس أصبحت مريرة للغاية إن ما حدث يوم الإثنين الرابع من مارس كان من الممكن أن تنصاع خطورته حيث كان الانصار أقوياء وشجعان وثبتوا أمام إطلاق النار من جانب ليوبس وفي فترة معينة أثناء وقوع الاضطرابات وبعد مقتل القومندان البريطاني فقد رجال الشرطة لثقة بأنفسهم تماماً وإذا قدر بالانصار أن يندفعوا بقوة أكبر كان من الممكن أن يقتحموا القصر. وقد وصل بانعمل جماعة منهم إلى الحدائق القريبة من المعزل أنهم هادئون الآن ويلتقون جر حهم، ولكن لا يمكن إستبعاد وقوع حوادث أخرى أكثر خطورة أو حتى مذبحه إذا ما قرر حرب الأمة القيام بعمل ولو أن ذلك غير منظور في المستقبل القريب وأشير لتقرير إلى أن حتى المعتدلين أمثال المفكر إبراهيم أحمد هددوا بحملات لدم بينما أبلغ ميرعني حمزة روار أجاب بأن الاضطرابات كانت بسبب عدم ولاء الخدمة المدنية في السودان - وهو يعني بذلك بريطانيين ويعزو لتقرير - الذي تم إرساله كبرقية - الاضطرابات للتدخل المصري حيث أن مؤيدي حرب «الأمة» نستفهم رؤية مجموعات من السياسيين المصريين تروح وتجن بالإضافة إلى حطب سلاح سالم والاحتراق الذي يتخذ شكل أعمال لإحسان وتقديم السلاح وتسهيلات التدريب.

وعندما عاد السيد علي الميرضي من إحدى زيارته لمصر بعد إقامة طويلة

هودجكن في مشهد من لتاريخ السوداني المعاصر



د. فيصل عبد الرحمن علي طه

عندما عاد توماس هودجكن إلى السودان بعد ستة أعوام من الغياب كتب في مجلة «الأسبكتير» في عددها الصادر في الثالث من سبتمبر 1954 يقول «أسعدني أنني وجدت لسودانيين ودودين وموفوري الحيوية على النحو لدي ذكرهم به وكان من المبهج أن يرافقني في الباص ندي أقلبي من المطار طالب عائد بوطه من جامعة السجاط وقد أوضح لي هذا الطالب أن الحلول لكل المشكلات لأفريقية يمكن استنباطها من مبادئ أولية بيئة وبتنهجت عندما لتقطني من الحان الوصيغ الذي أنزلني فيه الباص مسلم جاد أبدى اسمه عندما علم أنني غير مؤمن، وقدم لي قصة من «سحوط» ساد لرائحة وكان مبهجاً أيضاً لجسوس تحت أشعة الشمس الساطعة في مقهى بالقرب من المسجد الاستماع للأعاني العرامية المصرية التي كانت تدار بصوت عال على الحادي «أنا سعيد في هذا الصباح الجميل . أنت حيدتي . وأنا أحب الحياة»

«وخلال ست سنوات من التعبير السياسي السريع صار كثيرون ممن كانوا متواضعين نسبياً عظماء فقادة أحزاب لمعارضة انديين كانت الشرطة تراقبهم بحذر أصحوا وررء كما أصبح الطلاب الواعدون موصفي خدمة مدنية بارزين ومحرري صحف ومحاصري جامعات. غير أنهم لم يتسموا بالعجرفة أو الجفاف»

«وبسما أنا جالس في المساء في «دار الثقافة» وهي مكان مشير للإعجاب ابتكره دوقلاس بيو بولد حيث يحتسي المرء القهوة ويلتقي بأصدقائه، كنت أستمع إلى سودانيين من ذوي الآراء انتقائية تماماً من أمة وانحاديين ويساريين ومحافظين وهم يناقشون الحركة الثقافية وقد تساءلت عما جعلهم شديدي العقلانية في نوحاتهم السياسية. ربما يعود هذا حريفاً إلى تقليد المساواة الإجماعية الراسخ في افقرية والأسرة. وجرت إلى عضولهم العنسي الذي حفرة خيالان من امدرسين الجيديين».

هذه الصورة الراهية التي رسمها هودجكن لسودان سنوات الخمسين من اقرن لماضي- عشية الإستقلال- جزء من الوثائق التي ترجمها «سرويسور فيصل عبد الرحمن علي طه لمجموعته من تدث الوثائق البريطانية السرية 1940- 1956 ودلت في إطار مساهمته المتميزة في بعدد ها. وقد تفصل مشكوراً باطلاعاً على نصوصها الأصلية بحظ يده. حتى ينسى للقرء لوقوف على مقتطفات منها ريشما تفصل إلى أيديهم قريباً.

وحاء في تقرير سياسي بتاريخ السابع من يناير 1955: «عداء سودنة بوطائف» من فيليب أدامر لمفوض البحري للمملكة المتحدة بالخرطوم إلى وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن «ومع السودنة الكاملة للإدارة فقد إنعصى أكثر من نصف قرن من الحكم الريعسي لجزء من أفريقيا يعادل في مباحته كل أوروبا افقرية وآل تصريف عمل الحكومة إلى سودانيين أنفسهم وقد تم هذا

أصوات

التحول سلاسة ملحوظة بلطيف باستثناء تظاهرة واحدة خطيرة حدثت بالحرطوم إن السلك السياسي والذي عثر لفترة طويلة كأداة نموذجية للإدارة الاستعمارية قد صار تاريخاً والإداريون السودانيون الذين تسلموا مقاليد الإدارة أقبلوا على عملهم بكل همة وحماس ودرجة من الكفاءة نادرة في دول شرق أوسطية.

سجل دبليو اتش لوس في تقرير سرّي أقوال لداوود عبد اللطيف الذي كان مديراً لمديرية بحر العرون يقول فيها إن هناك إشارات لتحول الرأي العام المتعلم نحو اليسار وإن هذه السرعة صهت حتى في أوساط كبار الموظفين السودانيين ورجح أن يكون هذا التحول نحو روسيا كدولة عظمى وليس نحو الشيوعية كظرفية أما توم برويني بوررة الخارجية البريطانية فقد كتب لمفوض اتجارى للمملكة المتحدة بالحرطوم بتاريخ الثالث من فبراير 1955 حول أحداث أدلى بها يحيى الفصلي لعدد من الناس في لندن وسبب إليه عزم الحكومة على إصدار تشريعات لمكافحة الشيوعية في القابات إلا أن الرسميين أبلغوه بعدم اقتناعهم بمحاربة الشيوعية عن طريق الفويس. وقد وصف التقرير يحيى الفصلي بأنه شخص مختل ليس من السهولة قبول آرائه بهذا الشأن لأنه قد يبرر ذلك عند الضرورة بأنه جاء كصالح من بريطانيا وجاء في التقرير أيضاً أن الحكومة البريطانية فكرت في توجيه الدعوة لفريق من القابيين السودانيين لزيارتها في ذلك العام إلا أنها أدركت في وقت لاحق أن هذا الأمر ليس يكون عملياً لأن رئيس اتحاد العمال وسكرتيره شيوعيان.

وتناولت إحدى الوثائق انتشار الشعور المعادي للعرب في الدول الأفريقية التي يحتلها الاستعمار الفرنسي، الأمر الذي دفع الفرنسيين بمناقشتها مع رصائلهم الإنجليز الذي عبّروا عن وجهة نظرهم للفرنسيين بأنه من غير المتوقع أن ينسحب السودان المستقل برعات دعوية إسلامية يمكن أن تهدد حدوده الجنوبية والعربية ورأوا أن السودانيين الشماليين محدودو النظر للعناية ولا

إلى القاهرة فوصلتها بعد عشرة أيام فقط قبل وصول البريد الذي يستغرق عادة ضعف تلك المدة أو يزيد لا يدري أحد كيف حدث ذلك - ولكن دواوين الحكومة المصرية وشوارع القاهرة أحدث تردّد ذلك الحدث بين التصديق والتكذيب حتى بلغها رسمياً في 21 نوفمبر.

بعد انتصاراته السريعة لمفاجئة والمتلاحقة بلغ الإمام المهدي بالبلاد أقصى درجات مرجعها الثوري وحرك كيانه المتعشّر للحق والعدل. وحلب قلبها بمواظفة العميقة وطرحه الجديد يقف أمام المجموع متحدثاً بصوته العالي العميق وهي مأخوذة بسمته الأسطوري المهيّب وقوامه الفرع امتدّت الوجدان وأتاح بلقوى الحبسة أن تطلق لتجاور واقع الحياة البائس ولربابة التهمسة.

كانت كلماته البسيطة الموحية تنسرب إلى النفوس انطباعاً فتفتح أمامها سوح الأمل أشتت الأمة السودانية وأثباتها المتنوعة - بني تافرت وقرنت بينها عصبية القبيلة - ما هي تتوحد خلال أشهر قبيلة وتقرب وراء هذا الإمام الشاب تشد مستقلاً واحداً وترحف لتحقيقه بقيادته العدة وروحته الصهبة وربابته الحفاقة التي لم تعرف الهزيمة والانكسار انتصارات أشبه بالمعجزات في زمان تكالبت فيه قوى الإستعمار - وهي في دروة إستكبارها - على المطفئين العربية والإسلامية اللتين لفهما ليل دجوجي طويل . ما ترى من خلاص سوى القيديل الباهت الضوء الذي كان يتلمس به جماع الدين الأعماقي ومحمد عنده طريقاً لا يعرفان له أولاً ولا آخر.

كان الإمام المهدي في الظروف التي سفت حملة مكس في قمة حيويته ونشاطه الدافق - العسكري والسياسي والعسكري - فتأبر على كتابة مشورات التي عمدت أدبا متكاملأ لثورته وجسيدا لعكره المتجدد . فكان يمارس عباداته الشاقة العميقة يعط ويوحه ويرشد ويرأس مجالس العرب المتعاقبة ويحفظ للعمليات العسكرية وما يسبقها من تدريبات واهتمام بالأحوال التشريعية والإدريّة - للدوة الجديدة

أصوات

بالاسكندرية لتلقى به دهبو. اتش لوس من مكتب محاكم العام بالخرطوم وقضى معه ساعة من الزمن يستمع خلالها لإبضاعاته عن مصر وقد نه به تجنب الحديث عن السياسة السودانية إلا أنه حاول إجراء مصالحة بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر. إلا أنه من الواضح أن المحاولة قد فشلت ورأى سيد علي في عبدالناصر رجلاً ذكياً جداً ومعقولاً ووصفه بأنه نسخة محبسة من صلاح سالم. ولاحظ أن عواطف السيد علي كانت لا تزال مع محمد نجيب كان ذلك في يوم 16 يونيو 1955 حيث قام لوس بتسجيل نص المحادثة في تقريره السري.

وبتصح من لتقارير التي سأولت أحداث التمرد في جنوب السودان التي وقعت في أغسطس 1955 والبلاد لا تزال تحت الحكم الذاتي برئاسة إسماعيل الأدهري أن لإداريين البريهانيين كانوا في غاية الإبرعاج وتوقعوا أن تتفاقم لأحوال وقد قدم سير همشري تريفيليان (اسفير لبريهاني في القاهرة) تقريراً عن اقتراح من صلاح سالم وهو الوزير المصري المكلف بشؤون السودان - بشأن القيام بإجراء عسكري بريهاني مصري مشترك في جنوب السودان. وقال صلاح سالم به وفقاً لمعلومات الحكومة المصرية فإن الوضع في المديرية الجنوبية يتدهور بصورة مفرغة وقد أظهرت التقارير أنه بعد الاضطرادات التي وقعت في جوبا قر المتمردين إلى العدة ومعهم 1500 بدقية و80 مدفع برين 200 رستين ونصف مليون طلقة ذخيرة «303» وثلاثة مسدسات وعدد كبير من سيارات. ورد عليه تريفيليان أن معلومات الحكومة البريطانية على السقيص من ذلك وأن الأوضاع تتجه نحو الهدوء. ثم اقترح صلاح سالم أن تتدخل الحكومتان بوضع قوات مشتركة بين القوات الشمالية ولتمرديين الجنوبيين ورد عليه تريفيليان أن لحكومة السودانية قد تستطيع التصرف بدون مساعدة من قوات خارجية ويسبقي مؤازرتها في جهودها لاستعادة سلطتها في الجنوب

سادت المخاوف مكتب المعوض التجاري البريطاني بالخرطوم مع بداية سودة الوظائف فكتب خطاباً إلى وزارة التجارة والصناعة في لندن في 16 فبراير 1954 يعرب فيه عن فرعه للاستبدال الوشيك بالموظفين البريطانيين بسودانيين في مصالح المسؤولة عن مشتريات الحكومة فيقول «بالأمس كان لنا نصيب الأسد في التجارة المتصلة بواردات حكومة السودان». ويقترح تقديم أسعار منافسة حيث أن بعض التحقيقات أسفرت عن أسعار غير مصففة لشركة ماكينات «مسجرة» كانت تحقق أرباحاً تزيد على 50 في المائة. وشركة جستنز المحدودة كانت تزود حكومة السودان بآلاتها الناصعة لسنوات عديدة بسعر - شمل أرباح وكتلها المحلي جلاتلي هانكي وشركاء - يتجاوز 100 في المائة ويحذر التقرير من أن لأوصاع تمر بمرحلة تعبير لك فيتعين على الشركات أن تقدم أسعاراً معقولة وإلا فسوف يقتلون لإبرة التي تبض دهباً

وفي تقرير بتاريخ 21 نوفمبر 1954 ذكر أنتوني يند وزير الخارجية البريطاني أنه التقى برئيس الحكومة السودانية إسماعيل الأزهري في لندن وأبلغه اهتمامه بأن ترسل شركة النفط الإنجليزية - الإيرانية ممثلين إلى السودان بعد أن تطورت قضية التنقيب عن النفط وقد أبدعه أزهري أن أفضل أمل في العثور على النفط تكمن في ساحل البحر الأحمر ومناطق الغرب والجنوب.

شيكاو . لمعركة الأسطورية



هكس



الإمام المهدي

وقف لورد فتر مورس أمام مجلس اللوردات لبريطاني معرباً عن أساه وحيرته حول الظروف التي أودت بجيش كامل بعدة ولعتاد يقوده صباط بريطانيون عظام فلفس عن آخره في بري كردغان في دقائق معدودة وكأنما تلعنه الأرض أو لمستة عيب ساحر فأزالتة عن حيز الوجود وقال إن التاريخ ثم يشهد مد أن ابتلع اببحر الأحمر جيش مرعون كارثة مثل تلك التي حلت بجيش هكس فأفنى عن آخره ونصبي عليه نصاء مبرها.

كان الجنرال هكس من النخبة لعسكرية المتألقة في العصر لبيكتوري شارك في حملة نامير التي فهرت الهلبة الأثيوبية لتأديب الأمراطور لمتنرد ثيودور وحين استنصحن أمر انشودة المهدي في السودان إلتحق لقيادة ذلك الجيش لذي شهد تلك «المأساة» التي لم تتكرر في التاريخ الإسماعي

كان لانتصار الإمام المهدي على جيش هكس في صحن يوم لاثنين الخامس من نوفمبر 1883 دوي هائل رددت أصداؤه السهول والوديان وحملت أبناء الريح

وحدا حدوده مؤرخون آخرون كالأب أهرندر إلا أن الصدفة وحدها والتي كانت أشبه بالخيال الروائي هي التي كشفت عن أهم تفاصيل المعركة، ودلت بالعثور على معكزة عباس بك سكرتير حكم دار السودان في جيب أحد شهداء كرري بعد حملة عشر عاماً من معركة شيكان فازالت كثيراً من حصايا الأمور.

12 نوفمبر 2002م

أصوات

التي انشقت تحت ظلال السيوف وأسمه الرماح - و لرعاية الشخصية المباشرة التي كان يوليها للآلاف من أنصاره

وصفه الأب أهرندر في كتابه «عشر سنوات في الأسر» والذي نحدث إليه لساعات طويلة وسير عور ثقافته ومعرفته في أمور اللاهوت بقوله «إن مظهره الخارجي أحاد للغاية، فهو طويل، قوي البنية، ساحر الحديث، لا تعارق الابتسامه شفتيه، عميق في معارفه»، أما رودولف سلاطين فقد وصف مظهره الخارجي أيضاً بقوله «رجل قوي البنية، طويل القامة، عريض العنق، صخيم الرأس، يلتفت النظر بعينين عسليتين برافتين، تحف وجهه لحية حالكة السواد وتميزه ثلاثة قصود مائلة في الخدين، دائم الابتسام» أما السودانيون الذين رأوه فكانوا يصغوه ويحتمون حديثهم بقولهم «ما يتوصف».

رأت الحكومة الحديوية ومن ورائها سد أن تحسم لأمر المتهورة في السودان بجيش لحب بقوده كبار الصباط البريطانيين لوأد لثورة وإعادة الأمور إلى نصابها في السودان. ما أدركوا حجم ما آلت إليه الأمور ولا التأيد الواسع الذي لقيه الإمام المهدي حيث أخذت تهرع إلى مبايعته القبائل والأسر والأفراد بعد أن تحلوا عن دينهم وأموالهم ليقدمو أرو حهم هذه للوطن ولتلك الدعوة الجديدة

إستخدم لإمام المهدي أساليب الحرب الشعبية في القرن التاسع عشر قبل أن تعدو بطرقات وممارسات لجبرالات تلك الحروب في القرن العشرين أمثال الجبرال حباب العيشامي وبين بيار الصيني وهيدل كاسترو وجبورا وغيرهم إستخدم أساليب «الأرض المحروقة» و«لمسة تأكل نفوس» و«درب شريرة» أحرقت السهل كله.

عندما تحركت قوات هكس في تلك العملة الموهلة التي أطلقوا عليها اسم القلعة أعلن الجبرال انبريطاني قومه اندي ظل يردده السودانيون إلى وقت قريب

هذه الحملة يستطيع جنوده أن يسدوا السماء بأسسه لبادي إذ مالت إلى السقوط وتثبيت الأرض إذا مدت بأرجلهم.

تحركت تروس آلة المهدي العسكرية ليوّجه الأحداث حسب منعطفه المدروس لمواجهة الحملة في إيقاع وتنسيق رائعين فقد عبّ المهدي قوة من أربع رايات على رأسها الأمير محمد عثمان أبو قرجة والأمير عبدالحسيم مساعد والأمير شيع هصه أحمد والأمير عمر الياس أميرير، وتم انتقاء ثلاثة آلاف فارس من الأبطال المعدودين ليكوبوا قواماً لتلك القوة.

عندما أشرفت قوات هكس على التربة المحصورة أطلق المهدي لغزاده الصان فاضفوا بفرسانهم عرباً لمسدوا المرحلة الأولى من الحطة العسكرية على نحو مدهش فأحلوا المنطقة من سكانها وأحرقوا الأرض أمام الحملة بردم الأبر وبالمناوشات المستمرة دون الصدام المباشر الذي حذر المهدي من وقوعه. فأرغقوها وقتلوا من حصده وأفقدها الروح القتالية بحصل لقمة سائغة فتتخطفها رماح المقاتلين المتعطشين بملاقاة العدو.

كان النشاط في معسكر المهدي بالجرارة - خارج مدينة الأبيض قد بلغ دروته لرفع كفاءة القوات بالتدريب القتالي تحت الإشراف المباشر للإمام الذي ظل يشدد على الانضباط وروح العمل الجماعي حتى تدرب بروح المردي والعمل العشوائي لدي يميز سلوك القبائل ذلك بالإضافة إلى إهتمامه بعمل المحاورات حيث أكدت المصادر أنه في ناريخ المعارك العسكرية لم يتمكن قائد من الإحاطة بالأبناء لمفصلة عن الحصص مثل تلك التي حصل عليها الإمام المهدي واستعملها بمهارة لأبعد الحدود . ووصف المؤرخون ملابس تلك المعركة بأنها كانت أشبه بمبارة للشطرنج حامية الوطيس كانت غاية شيكان أشبه بمصيدة أودعت الطبيعة في تشكيدها، مدخل واسع يعري بالدخول ويتسع لمواجهة الجيش. وعند التوغل فيها مسافة ثلاثة أميال أو أربعة تحد أن الباب قد أغلق من الإمام ما عد

فتحة صيقة توجه طريق كازفيل إلى الشمال فكأنما قيس النودي وفصلت العامة على ريات المهدي الثلاث تحتته من الأمام واليسار واليمين مستتره بأشجار العامة تاركة باب المصيدة مفتوحاً ليشقه طريق كازفيل وهو يحمل صفوف المربع المترحة نحو قلب المصيدة كان الركن الأساسي لحظة المهدي هو الاصطدام بجيش هكس وهو محرك ليس قبل ذلك ولا بعده

إن مجرد تحقيق ذلك النصر الساحق الحاسم على تلك القوة الصالحة في أقل من ساعة دون تفوق عددي يذكر - كما روح لمؤرخون الأوروبيون - يؤكد أن الفصل يعود إلى التخطيط الدكي والاستخدام المحكم للإمكانات المتاحة للمهدي.

وصف الرائد (م) عصمت حسن رلعو في كتابه «شيكان» الذي عدا مرجعاً مهماً لتلك المعركة أحوال المقاتلين قبيل اللحظة الحاسمة من المصادر التي توفر له فقال «كان منهم من يبكي متشوقاً للقاء ربه، ومنهم من يسم، ومنهم من يتكلم بالسريانية»، وجاء في أحد المشاهد الأقرب إلى الأساطير أن إدريس الحمدقاري أحد فرسان ربة عمر الياس كان يتمتع بقوة يدوية حارقة عداهم صافم أحد المدافع الجبلية التي عادة ما تجرها البغال - وأراحهم عن المدفع وتسير بسلاسله وبها حول صدره وسحبه بعيداً خارج الميدان وعاد بيواصل حوض معركة أما الأمير حمدان أبو عتجة أحد قادة الهجوم الأساسيين فقد ظل لسنوات طويلة إذا استعاد ذكرياته عن معركة شيكان لا يذكر أنه كان يسمع شيئاً أو أنه قتل أو جرح جدياً من قواك هكس إلا أنه عند انتهاء المعركة وجد رمحاً وثيابه ملطخة بالدماء، وقد مرّب تلك اللحظات العنيفة، وكأنها حثكرك الأيدي القاذضة على السيوف كل الأحاسيس فلم تترك لبقية الحواس شيئاً لسجله في العقول والذاكرة».

واحد الجرد وحيد بتقديم آون وصف للمعركة بعد استجوابه حدود أخرى قاتلوا في صفوف جيش هكس فحاول أن يبرر لهزيمة ويقلل من شأن الانتصار،

المندوب السامي البريطاني بمصر بإستثناء الأمير عثمان دقنة الذي ظل مقبداً حتى يوم وفاته في عام 1926.

وجاء في التقرير السنوي للإدارة البريطانية في عام 1907 تقرير لإستمرار إعتقال الأمري بأنهم قد يستحيون لتعصب أو لجحوش اتباعهم فيعودون مرة أخرى إلى المهديّة ويررعون بدور التمرد والحروب على الصّاعة من جديد. والواقع أن هذه الإحراجات جاءت متسقة مع خطط الإدارة البريطانية في احتثاث الحركة المهديّة وحرمان الأنصار من قيادتهم السياسيّة وحباط روحهم المعنويّة، الأمر الذي مكّن الإنجليز من القضاء على الانتفاضات التي رفعت لواء الثورة المهديّة خلال العقدين الأولين من القرن العشرين. بل أن الأحكام العرفيّة فشلت في تحقيق الهدف الرئيسيّ بزعزعة إيمان الأنصار الراسخ بعقيدتهم فعندما أرادوا منهم من قراءة «راتب الإمام المهدي» وجدوا أنهم يحفظونه في صدورهم فلم يتمكنوا من انتزاعه منها وفي هذا الإطار حاولت انتاثير على أسائهم بإلحاقهم بالمدرّس النظاميّة الحديثّة ومن ثمّ في وظائف حكوميّة تمكّنهم من الانخراط في الحياة لعمليّة وسياسات الدعوة الدينيّة إستعداداً لتلقي الثقافة الإنجليزيّة. وقد خصّصت لهم مدرّس في رشيد وحققا معروّلين عن أقرانهم من أطفال المسلمين. ونلقى بعضهم التدريب العمليّ في انقلعة كسروجيّة وبجاريين وأرسلت عددٌ لدراسة الزراعة في مررعة بمودحية في ميت الدبة قرب مدينة طهّا بإشراف أحد موظفي الجمعية الزراعيّة الحديويّة وهناك درّسوا الزراعة والمساحة وبعض مبادئ طبّ البيهري ونسقة العربيّة والحساب وفي خلال العطلات الرسميّة كانوا يتوجّهون إلى مسجدي دميّاط لزيارة دويهم وبعد إكمال دراستهم عمدت الحكومة إلى ترحيلهم إلى السودان حتّى لا يتأثرو بشعارات وأفكار الحركة لوطيّة المصريّة وشجعت الإدارة البريطانيّة آخرين من أبناء الأمراء على الدراسة المخاييه بمدرّس أم درمان وود مدني وكبة عردون وعملت على إستيعابهم في الوظائف الحكوميّة كما دوت

سجناء الصمير من أنصار الثورة لمهدي

حين تحرك جيش لعرو البريطاني نحو السودان بقيادة الجنرال كاتشر كان رودولف سلاطين الذي عاد يصحبهم مستشاراً للمخابرات أكثرهم تحرقاً للنار فقد مكث في أسر الحليفة سنوات حتى تمكن من الفرار إلى مصر كانت تملكه مشاعر الحقد وروح الانتقام فكان يتعرس في وجوه الأسرى عقب كل معركة أثناء الرحف. عله يتعرف إلى من ينمى انثور عليهم. وكان موسى الكاظم نعيم الحظ حين وقع أسيراً عقب إحدى المعارك فسعد سلاطين وتهلل وجهه فالكاظم كان قد أحرق له عمية لحنان عقب إعلايه إسلامه، حيث ورد إلى المهدي في كردفان مستسلماً في حركة مسرحية. باحثاً عن خلاصه الشخصي بعد أن أحس بأن دارفور، التي كان يديرها، لا شك في سقوطها ثم يتردد سلاطين لحظة في الأمر بتعديه فأشار بنف لحية الرجل وشاربه شعرة مشعة ثم قلبه وأصرم الدار في جثته وبهذه الروح وصل الرحف إلى أم درمان وبعد معركة كرري مباشرة أحد يبحث بحثاً محموماً عن من تبقى من القيادات التي نجت من المذبحة واقتاد لذين ثم انثور عليهم في مساء نفس يوم المعركة إلى ساحة الإعدام غرب مدينة أم درمان - ميدان الربيع الحادي - وحررت عمليات تصفية جسيمة شاملة - ثم شق عياله - ولم يستطع أن يحفي حبة أمه من مفطرة الحليفة عبدالله، للمدينة فصيح بتعقبه فور إلا أن الحملة فشلت في مسعاها وارتدت حالية. وبعد عام تمكن وحت من القضاء على الحليفة عبدالله، والحليفة علي ودخلوا، والصدیق بن الإمام المهدي، والأمير أحمد فصیل، وهارون محمد، أحي الحليفة، وإثنين من أبناء الحليفة وأمرء آخرين وعدد من الجيود في ذلك المشهد الأسطوري الذي لم يملك الجنرال نفسه إلا أن يعترف بعظمته وجلاله وفي الشكابة بالجريرة تحرشت قوات لعرو

بمجموعة الحليفة شريف وأقامت لهم محاكمة ميدانية عاجلة قصت بإعدامه مع أبي المهدي الفاضل وابشرى وأثقلت جثثهم بالحجارة وألقت بها في النيل بينما دفنت جثث القتلى الآخرين ومن ثم يقتل أو يجرح من صغار أبناء المهدي - عبدالله، وانطاهر، ونصر الدين، وعلي - فقد اقتيدوا للأسر بأم درمان ومن ثم أضيف إليهم أسرى أم ديكركت وقررت السلطات البريطانية ترحيل عائلات المهدي وحفاته اثلاث وعدد من أمراء التعايشة إلى المعتقل في رشيد بمصر

عُثِرَ على عدد لمجلة «النهال» المصرية - صدر في ديسمبر 1899 - وصف فيها أحد الكتاب وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر والمقال يمتن بالأخطاء التاريخية ويسم عن جهل فاصح بما كان يجري في السودان من أحداث كانت مصر جزءاً أساسياً منها ويهين أن الكاتب استقى هذا الوصف من إحدى الصحف الصادرة في عام 1899 تحتى اللغة - ثم يتصرف فيها - بركها كما هي - لغة القرن التاسع عشر بصفتها وركاكتها - لا أن بعض ملاحظاته جذيرة بالنظر فقد أوفي الساعة العاشرة من مساء 27 ديسمبر 1899 وصل إلى القاهرة أسرى الدارويش البالغ عددهم مائة وخمسون أسيراً ورحلوا فوراً إلى معتقل رشيد. وكان في مقدمتهم الأمراء الدين سلموا أنفسهم في واقعة 24 نوفمبر 1899 أحياء يوم قتل التعايشي ورايت دولته من الوجود ومن الدين أحصروا لأمير شيخ الدين بن الحليفة عبدالله والأمير يوسف الديكيم والأمير محمد زين و الأمير محمد فرار وعدد كبير من النساء والأطفال» ولاحظ لكاتب أيضاً أن الأمراء كنهم أصحاب شمم وللتعايشي بنات أسيرات وهن على جانب عظيم من الجمال والاحتشام، ببشرة حبشية اللون والرجال يحتقرون من يحلفون لحاهم ولا يرتدون العمامة وتمسكهم بالدين عظيم ولا يسيرون على المذاهب الأربعة»

وبدو أنهم وصلو في الأيام الأخيرة لشهر رمضان فكانو صائمين فقد إنهم في فجر يوم عيد الفطر اردوا ثياب بيضاء نظيفة ووقفوا للصلاة يؤمهم أحد كهول

أصوات

الأمراء فأحدو يطبلون للركوع والسجود حتى استغرقت الركعتان أكثر من ساعة من الزمن. فرأيت تلك المشاهد مع وصول الأمير عثمان دقة الذي أعرض في شرق السودان بعد أن بارح منطقة أم ديبكرات قبيل المعركة بقليل، فجيء به عن طريق البحر الأحمر إلى ميناء السويس فوصفه الكاتب أيف بأنه كان طويل القامة، متوسط الحجم، أبيض اللون، عريض الوجه مستدير، تحيط به لحية عظيمة، تعبر ملامحه الواسحة عن سمات الدكاء والشجاعة وكان يرتدي ثوباً أبيض به من كتفيه حتى قدميه - كعادة أهل السودان - وعمامة كبيرة على رأسه وفي أثناء ترحيله من البحيرة إلى عربة السكة الحديد إحتشد جمع عظيم من الأوروبيين الذين طالما تابعوا الصحف الإنجليزية التي بوخت ببطلانته و'حرقه لمرجع الفرسان البريطاني - فتدافعوا نحوه مسلمون عليه وامتدت إليه عشرات الأيدي فأحد يصاحبه فرداً فرداً ويتحدث إليهم بكل بشاشة وترحاب

لقي هؤلاء الأسرى معاملة قاسية من قبل السلطات البريطانية التي كبلتهم بالقيود الحديدية بدعوى أنهم يشكلون تهديداً خطيراً. إلا أن الصحافة الوطنية المصرية كشفت ظروف اعتقالهم واتهمت الإدارة البريطانية في مقالات عديدة بشرت في «الأهرام» و«المصر» و«اللقاء» و«المؤيد» سوء معاملة الأسرى وأحدثت صجة كبرى في هذا الشأن واهتم النائب البرلماني البريطاني برينر هورد بالعصية وكتب مقالات حادة باللهجة بصحيمتي «ديلي بيور» و«نيشن»، ودلت عقب ريارته لسجن دعياط في 25 مارس 1908 حيث قابل بعض الأسرى من الأمراء، واستمر برينر هورد مع عدد من رفاقه البرلمانيين الليبراليين في السحري عن أحوالهم والمطالبة بإحلاء سبيلهم

وكان لمناخ البحر الأبيض المتوسط البارد تأثيره الصار على أحوال الأسرى الصحية فتوفي بمرض السل أبناء المهدي نصهار عبدالله والظاهر ونصر الدين كما توفي الأمير محمود ود أحمد في عام 1906 ولحق به آخرون من بينهم بعض النساء. وظلوا يرسمون في قيودهم حتى عام 1909 حين أزيلت عنهم بتوجيهات من

إعدادة افتتاحها بإشراف وتوجيه معلمهم لمصريين، أم لتاتوا، فقد كانت محاولة مسرحية معركة كرري كعمل سياسي دعائي تم عرضه في عام 1899 للإشادة بانتصار الجيش الإنجليزي في تلك المعركة وفي عام 1903 شهدت ساحة لمود المبوي الشريف في رفاعة مسرحية قصيرة ألفها الشيخ بابكر بدري وقدمتها مدرسة رفاعة. أما التجربة الرائدة فقد كانت مسرحية من تأليف مأمور المركز المصري بالقضية عبدالقادر مختار، كان ذلك في عام 1908 وكانت بعنوان «نكتوت» ولعلها أول مسرحية سودانية طويلة تعرض في السودان، باللهجة العامية وتلعب أحداثها في «إدابة» لامرأة تدعى نكتوت وقام بالتمثيل تلاميذ المدرسة الابتدائية، وكانت تهدف إلى تهذيب الأخلاق ومحاربة بعض العادات السيئة ويكون بذلك هذا الرجل المصري قد سبق جماعة المؤلفين السودانيين الذي قدموا في أوقات لاحقة مسرحيات مستقاة من البيئة السودانية، وفي الوقت نفسه كان النادي المصري بالخرطوم يمارس نشاطاً مسرحياً فقد نشرت صحيفة السودان في أول حبر بها عن عرض مسرحي عربي بالسودان، في عام 1909 بعنوان «هقوات لملوك» وهي رواية أدبية أخلاقية وضعها حصرة الأديب عبدالعزير أمدي حمدي من موظفي مالية السودان مثلت بالنادي المصري في الخرطوم. وما أزعجت الساعة الثامنة مساء الخميس الماضي حتى أم جمهور عفير من كبار الصباط والموظفين الإنجليز والمصريين والسوريين دار النادي وأجاد الممثلون في تشخيص أدوارهم مما دعا إلى سرور الحاضرين، وانفرط عقد الجمهور وكنهم يشي على حضرة واضع الرواية وحصرات الممثلين ويلاحظ أن الجمهور السوداني كان غائباً عن حضور أول مسرحية طويلة تعرض على مسرح في السودان أما جمعية التمثيل والموسيقى السورية فقد تألفت من خلال أعمالها التي كانت تقدمها في مسرح السرور، بالخرطوم جنوب مبنى البريد ولبرق. وكان يديره الحوجة لويرو، بجانب قهوته الشهيرة، وقد بعث الجمعية نشاطها إلى أم درمان في عام 1912 على مسرح حشبي

مصلحة السكة الحديد مجموعة من أبناء هؤلاء لأمراء بورشها في حلفا بالإضافة إلى تدريبهم على البحارة وحلج القطن وغيرها من المهن. وقد تمّ بندهم جميعاً إلى عطفرة عام 1908 عندما تأسست رئاسة السكة الحديد وهي عام 1908 اقترح لجنرال وبحث ترحيل الأسرى سرّاً من ذمياط إلى حلفا حتّى يكونوا بمنأى عن ملاحقة الصحافة المصرية وعيون البرلمانيين البريطانيين إلا أنّهم بناء على نصيحة سلاطين الدي تمّ تعييه مفضلاً عاماً على السودا من د سبتمبر 1900، فقد تمّ ترحيلهم بصورة علنية بدعوى أنّهم يشكون من رطوبة العفص في مصر وبطالون بالترحيل إلى منفقة أخرى

أثّرت الحملات التي شنتها الصحافة الوطنية لمصرية والصحافة الليبرالية لبريطانية لتحسين أوضاع المعتقلين وإطلاق سراحهم في حمل سلطات الغزو على تحسين ظروف الإعتقال وتوفير الرعاية الصحية لهم، كما بدأت في الإفراج عنهم تدريجياً مع تحديد المناطق التي يسمي أن يتواجدوا فيها. ولما رأت الحكومة أنّه بات من المستحيل أن يتمكن هؤلاء الأسرى لملاحقون، وخاصة أفراد أسرني لمهدي وانخلفة من توفير العيش الكريم لأنفسهم بصورة عادية بسبب القيود التي فرضتها عليهم أحسّت أنّها مدربة أخلاقياً بمسحهم محصصات شهرية. وكان سلاطين الدي بات مسؤولاً عن كل المسائل المتعلقة بالدين، قد حدّد في البداية حجم تلك المحصصات، ثمّ ما لبثت الحكومة أن قرّرت زيادتها.

وفي عام 1919 قسمت الحكومة سجناء لأهبار السياسيين إلى ثلاث مجموعات.. الأولى تكوت من 77 أميراً بينهم يوسف الديكيم والحتيم موسى ومساعد فيدوم وإبراهيم محير، وقد أحسّ سببهم جميعاً ورفعت عنهم الرقابة الأمنية وسمح لهم بالعيش في أي بقعة يرغبون في البقاء عليها. أما المجموعة الثانية وتكوت من 19 شخص من أفراد عائلة المهدي وفي مقدمتهم السيد عبدالرحمن فقد فرصت عليها قيود خاصة واستمرت مرافقتها أميناً ذلك بالإضافة إلى المجموعة لثالثة التي

أطلق عليها لفظ المعتقلين، وقد ضمت خمسة أشخاص على رأسهم السيد علي عبدالكريم.

نقد بدل البروفيسور حسن أحمد إبراهيم مجهوداً مقدراً في كتابه «الإمام عبدالرحمن المهدي» وأورد لفصل الأول منه لهؤلاء الأسرى بعنوان «سجناء الصمير من المهديين»، فبحث في كثير من الوثائق البريطانية والتقى عدد من السبعين ببعض هؤلاء الأسرى الذين روى له أطرافاً من تجربتهم تلك التي لم يسلط التاريخ أنصاءه عليها كثيراً.

9 يوليو 2002



الأمير عثمان بقلعة في سجنه

بدايات الحركة المسرحية في السودان

مما لا شك فيه أن المجتمعات السودانية عبر التاريخ كانت قد شهدت صروباً من الفن المسرحي غير ذلك الذي يقوم الآن على الأسس المسرحية الغربية أو المسرح الإغريقي إن شئت القوي، فالإحتفالات الطقسية في المعابد النوبية القديمة وإحتفالات موسم الحصاد التي تحتشد بأنواع مختلفة من الرقص والأغاني هي مشاهد نستطيع أن نسميها بالمسرح الإحتفالي ومازالت مناطق عديدة في الأرياف والبادي السودانية تقدم بمادح إحتفالية ذات أبعاد مسرحية جذيرة بنأمل النقاد والمتابعين لفنون المسرحية. وفي العصر الحديث ارتبطت بشاة المسرح في السودان بشأته في الشام ومصر.

كان مارون النقاش اللبناني أول من قدم مسرحية بصفة جادة في منزلة بيروت في أواخر عام 1847 وهي مسرحية بعنوان «البحيل»، وقد يكون قد اقتبسها من «بحيل» موليير، ثم انتقل المسرح من بيروت إلى دمشق على يد أحمد أبو حليل النقباني الذي هاجر للهجرة إلى القاهرة بعد أن أعلق الوالي التركي مسرحه. وكان فيه يجمع بين التمثيل والموسيقى والغناء الأمر الذي شكل بدايات للشيخ سلامة حجاري وسيد درويش وميرة المهدية الذين أثروا لمسرح اللبناني في مصر وبعد النقباني جاء يعقوب صنوع ليهودي المصري، ثم سليم النقاش وكانوا كثيراً ما يتعرضون لسخط الحديوي فيأمر بإغلاق مسارحهم.

وهي مدرسة الحرطوم الابتدائية التي أنشأها الحديوي عباس وأسد إدارتها للمعكر نمجدد رفاعة رفع الصهطاوي بدأت محاولات مسرحية جسيمة وتؤكد المصدر أن أول عرض مسرحي قدمه طلاب هذه المدرسة في عام 1880 بعد

البدايات الأولى للصحافة السودانية

حسين شريف رائداً ومؤسساً ومفكراً



لا يتناول مؤرخ تاريخ الصحافة السودانية إلا ويستهلّه بالمحديث عن الصحفي الأول حسين شريف . فقد برز مهياً ناضجاً وكانياً ومفكراً وسياسياً ذا بصيرة نافذة حيث أصدر أول صحيفة سودانية لحماً ودماً في عام 1919، هي صحيفة «حصارة السودان» غنّ حسين شريف مهتماً بالشأن السوداني منذ نعومة أظفاره، ولا عرو فهو أحد ورثة قيادة الثورة المهدية، فأبوه انخليفة محمد شريف حامد، انخليفة الثالث للإمام المهدي، وأمه السيدة زينب بنت الإمام المهدي

وقد يشهد وائده برصاص الإنجليز عقب الفتح عام 1899 في الشكابة، فشا يتيماً إلا أنه ظل قريب الصلة بحاله السيد عبدالرحمن المهدي . وفي عام 1915 انتهت السلطات البريطانية بمحالة الخلافة العثمانية وقامت بنفيه إلى مقلّا بحروب السودان لفترة من الزمن عاد بعدها إلى الخرطوم ليمارس نشاطه الصحفي الذي بدأ في صحيفة «رائد السودان» وعندما أصدر صحيفة «حصارة السودان» في عام 1919 دشّن بها بداية التحقيق للصحافة السودانية، وفي تلك الصحيفة كتب أربعة مقالات خطيرة حاول فيها تحديد مستقبل السودان، كانت تلك الأيام تشهد

في حوش منزل الخواجة هور عرب مدرسة أم درمان الأميرية وواصل هذا الخواجة تقديم المسرحيات في داره حتى نهاية الثلاثينات وربما بعده، والمعروف أن صديق هور كان يمثل على خشبة هذا المسرح مع جماعته أثناء سنوات العشرين وما بعده. كما قدم فيه يوسف وهبي عروضه وكذلك بديعة مصابني مع فرقها للرقص والاستعراضات وما يصاحب ذلك من موبولوجات ومن بين ما قدمته لجمعية السوربة مسرحية «أثراب العرب»، لشجيب الحداد السوري الجنسية، وهو رعيم مدرسة الثعريب ومؤلف مسرحية «صلاح الدين الأيوبي»، التي اشتهر بها صديق فريد في السودان، كما اشتهر بها سلامة حجازي في مصر وكان فريق من لحريجين السودانيين قد تأثروا بهذه الفرق المسرحية الواحدة على الرغم من أن لنادي المصري قد توقف نشاطه المسرحي بعد ثوره عام 1924 حيث تم إخماد المصريين من السودان فقد أسس الخريجون، جمعية التمثيل، التي ضمت صديق فريد وعبد الرحمن علي طه وعوض ساتي وطه صالح وسامحيل فوري وعلي بدري وأبو بكر عثمان وشوقي الأسد وعبد الرحمن شوقي وقد شاركت جمعية التمثيل في الدعوة إلى الاكتتاب لتأسيس لمدرسة الأهلية بأم درمان وذلك من خلال لعروض التي قدمتها في أقاليم السودان المختلفة. وفي عام 1931، قدمت الجمعية مسرحية «صلاح الدين الأيوبي»، بمسرح نادي لحريجين بالأبيض حيث أسست لبطولة عبد الرحمن علي طه، وشرك في التمثيل مكادوي سليمان أكرت وإبراهيم يوسف سليمان ومكي عباس وعصر حمد ويوسف مصطفى التي وأمين بابكر وحسن ريادة، وفي معظم الأحوال يرتبط النشاط المسرحي بالعمل السياسي وكان علي عبدالصيف وعرفت محمد عدالله غير بعيدين عن هذا النشاط أما صديق فريد فيعتبر الرائد الأول للمسرح السوداني الحديث حيث استطاع تكوين حركة مسرحية إنتف حولها الجمهور السوداني منذ حوالي عام 1918 وواصل نشاطه هذا حتى حوالي منتصف الثلاثينات.

وفي أواخر تلك الفترة عمل على توحيه لعرق الشاشة ورشادها. أما جماعته التي أنشأها فكانت تتبدل وتغير بسبب التغيرات أو الخلافات أو ظهور الوجوه الجديدة التي كان يرعاه ويصقل موهبتها وقدم صديق فريد خلال نشاطه المسرحي عدداً من المسرحيات منها: العارس الأسود، وتاجر البندقية، ووفاء العائيت، والقبلة الفاتلة، وانتوبة الصادقة، ويوليوس قيصر وفي سبيل الناح، وصلاح الدين الأيوبي، وهران البندقية، وعطيل، ومجنون ليلى، والعباسة، ووفاء العرب، والمرودة وابوفاء، وعشرة وكل هذه المسرحيات كان قد تم تقديمها في مصر والشام وأعاد هو إخراجها في السودان وذلك قبل أن يمرر لكتاب المسرحيين الذين تناولوا الحياة السودانية في مصوصهم كبير هيم العبادي وخالد أبو الروس و سيد عبدالعزیز وأحمد عباس، رؤاد المسرح السوداني لأصيل لدين رتكرت أعمالهم على تراث وقوميتنا ولهجتنا وثقالهنا

تلقى صديق فريد، واسمه الكامل محمد صديق عثمان فريد، تعليمه في كلية عردون لتذكارية في أول قسم فيها أشبه بالمعلمي اللغة الإنجليزية والعربية والعلوم الحديثة، أي أنه مال أعلى تعليم في زمانه، وتخرج منها عام 1912 وكان من بين الذين تخرجوا معه محمد لحسن دياب وعبدالكريم محمد وحمزة فتحي حسين وكان شخصية صديق فريد المتعلم المثقف التي ولحت باب المسرح قد رفعت من شأن التمثيل خلافاً لما كان سائداً في العالم العربي من بؤراء للمثل وبعث له بالمشجعتني وضعه معاصروه بأنه كان طويلاً القامة، متكامل البنيان، ولاعب كرة ماهر في شبابه، د ملامح واضحة معبرة أسمر اللون مرحاً وساحر الشخصية سريع البديهة، قلق وقلبا شجاعاً جريئاً لا يكتوث كثيراً لما يرتكب من أخطاء وقالوا إنه كان واضح السيرت، جهير الصوت، باحتصار أنه كان ممثلاً من الطراز الأول، وكان صليبا في اللغة الإنجليزية، إلى الدرجة التي كان يعتقد رصعاؤه أنه حفظ الغموس الإنجليزية عن ظهر قلب، وكان يجري التدريبات المسرحية في منزل

أصوات

أسرته، الواقع شمال مدرسة أم درمان الأميرية، ويتمُّ عرض أعماله في مسارح نادي انجريجين أو الحواحة فوار أو مدرسة أم درمان الأميرية أو نادي الصباط الوطنيين بالموردة ولم تقتصر عروضه على العاصمة بل كانت لفرقة تنتقل أحياناً إلى عصيرة وبورتسودان والأبيض وغيرها من المدن الإقليمية

ولد صديق فريد بأم درمان عام 887 لأب عاصر ثلاث حقبات من تاريخ السودان وهي لتركية والمهدية والحكم الثاني وكان ذلك لأب قد نال قسطاً من التعليم أثناء الحكم لتركى بمدرسة الخرطوم مما أهله لأن يتم اختياره معلماً لأبناء العطيفة عبدالله وغيرهم من أبناء الأمراء، يدرسهم مبادئ الحساب وكتابة نصوص الرسائل. وعمل أثناء الحكم الثاني موظفاً بالمالية إلى أن واه الأجل المحتوم بعد عمر مديد في عام 1921. لا أنه كان قد تعرض للإعتقال في عام 1917 بتهمة تأييد دول المحور في الحرب العالمية الأولى وربما يعود ذلك لأصوله التركية وقد لعب عدد من أساقفه دوراً في الحياة السياسية والاجتماعية بالسودان

وقد ذكر بعض المصادر أنه لأسباب غير معروفة قرَّر صديق فريد فجأة الهجرة إلى أريتريا في بداية الحرب العالمية الثانية ومكث هناك إلى أن توفي متأثراً بالالتهاب الرئوي عام 1941 وهو في سن الرابعة والخمسين، وأشارت إلى أن مكان قبره مجهول، إلا أن الدكتور فيصل عبدالرحمن علي طه أكد أن صديق فريد كان قد التحق بقوة دواع السودان مرجحاً وعمل معها في جبهة أريتريا حيث توفي ودفن في الحفرة الحربية الإنجليزية بأسمره، وقد رآه قبره وقرأ العاتحة على روحه عند زيارة به لأسمره في عام 1963، ووجد مكتوباً على شاهد القبر بالإنجليزية «صديق فريد، مترجم».

10 أبريل 2001م

العادات الاجتماعية السلبية. ثم تلت صحيفة «حصارة السودان» أن انعمت في نشاط سياسي سافر لنفخ صد الداعين للوحدة مع مصر ونعدي حسين شريف في مقالاته للصحافة المصرية والدعوة للإتحاد تحت ائح المصري

في عام 1927 وبعد ثلاث سنوات من أحداث الثورة، تقدم الشيخ عبدالرحمن أحمد، المعلم بمدرسة الخرطوم الابتدائية للتصديق له بإصدار مجلة أدبية إلا أن طلبه ووجه بالرفض وفي نفس العام تقدم سليمان داود مدير صاحب مطابع «مديبل» بطلب لإصدار صحيفة باسم «الجريدة التجارية» فحصل على الموافقة وفي عام 1930 وصعت الحكومة قانوناً للصحافة وصدر رسمياً في سبتمبر من ذلك العام وبعد صدوره مباشرة تقدم محمد عباس أبو الريش بطلب لإصدار مجلة «النهضة» السودانية التي كانت تصدر مكتوبة بخط اليد تتناولها مجموعة من الأصدقاء وبعد صدورها في ثوبها الجديد أحد يكتب فيها محمد أحمد محبوب وسماويل لعتباني وعبدالعليم محمد ومحمد عشري المصديق وغيرهم من شباب الكتاب الذين برزوا في الثلاثينيات وتمّ لهم سوى أشهر قليلة حتى مرض صاحبها أبو الريش وظل يشرف عليها محمد أحمد محبوب وعرفات محمد عبدالله ولمّ عمر النهضة تنوياً بعد وفاة أبو الريش فتوفيت بعد أربعة عشر شهراً من صدورها.

بعد «النهضة» إنتقلت الصحافة السودانية إلى المعتزك السياسي وصدرت مجلة «الفجر» لصاحبها عرفات محمد عبدالله واستطاعت أن تملأ الفراغ في انساحة الثقافية والمكرية واحتضنت عدداً من الأقلام وخاصة تلك التي شاركت في تحرير «النهضة»

بعد بروز الأحزاب السياسية في المصنف الثاني من الأربعينيات أصدرت صحفها المعبرة عنها، كما صدر عدد من الصحف المستقلة، وأخذت الصحافة السودانية تنشق طريقها خلال السنوات الأخيرة للإستعمار مستشرفة المعهد الوطني

تطورات ثورة 19 9 المصرية وكانت تصريحات قادتها السياسيين حول السودان ومستقبله تستدعي حورا نشارك فيه جميع الأطراف المعنية إلا أن مستوى الوعي السياسي كان دون لطموحات المتعقبة بمثل هذا الحوار كان القادة السياسيون المصريون يتحدثون عن استعادة السودان ووحدة البلدين تحت التاج المصري، وبعضهم كان يتحدث عن حق الفتح، فانقسم السودانيون بشأن تلك الرؤى وبرز تياران أحدهما رأى مستقبل السودان في وحدته مع مصر، ولاخر دعا لانعصاص شركة الحكم الثنائي وافراد إيجلترا باسلطة ريثما يشتد ساعد الوطنيون السودانيين يتولون شؤون أنفسهم مع علاقة متميزة مع مصر. وكان حسين شريف منظر المهرق انثاني ومد دعا شريفا عن ذلك المعسكر حتى وفاته انميكرة في 1928، إلا أن أفكاره باتت أساسا نظريا لما عرف فيما بعد بمعسكر الاستقلاليين عن البعض أن حسين شريف من صنائع الاستعمار إلا أن سلطات الاحتلال كانت ماقمة عليه في الواقع حيث كانوا يحذرون السيد عبدالرحمن المهدي بأن «س أحتك هذا سيقودك يوما إلى جبل المشقة» رأت فيه رعيما وطنيا محتملا يخشى جانبه

أوعر اللورد كرومر لأصحاب صحيفة «المقطم» المصرية، وهم يعقوب صروف وفارس بحر وشاهين مكاريوس بأن يصدروا صحيفة في السودان، وكان هؤلاء الثلاثة لبنانيين يمثلون «دار المقتطف» التي بدأت نشاطها في بيروت ثم انتقلوا بالمجلة إلى القاهرة في عام 1885 كانوا قريبين من الإيجليز، إستمالهم اللورد كرومر لصرب الصحافة الوضعية في مصر مثل «الأهرام» لذا بدأت انصحيفة الأولى في السودان وثيقة الصلة بالإدارة البريطانية، أجسية في كل ما يحيط بها من مظاهر جاءت لخدمة النظم الجديد ففي عام 1903 حين صدرت بانخرطوم كان السودانيون خارجين لنوهم من ظروف عصيبة مشحين بالجرح بعد أن هزمت دولتهم، يحيط بهم انكوارث السياسية والاقتصادية والاجتماعية من كل جانب كان تعدادهم لا يتجاوز لمليون وثمانمائة ألف بكثير لا حظ لهم في التعليم

المدي الحديث ولا أساليب الحياة العصرية التي تسارعت خطواتها في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر جاء اشركاء ثلاثة يكابتهم الصحفية فاستوردوا المطبعة وأسودوا مهمتها لعمال مصريين ورئاسة التحرير شابه مكاريوس ومن بعده لحليل ثات وصدرت صحيفة السودان بانتظام ابتداء من أكتوبر عام 1903 نصف أسبوعية ولم تثن أن أصبحت أداة التعبير الوحيدة بحكومة الإحلال وأنشأت أول مكتبة للصحف الأجنبية ولأدوات المكتبة والمصنوعات، وهي مكتبة «سودان بوكشوب».

بعد إنتعاش الأحوال لاقتصاديه وتحرح عدد من السودانيين في كنية عربون ومدارس الحديثة الأخرى ليكونوا رأيا عاماً أشأ اليونانيون المقيمان بالسودان ساونو وحريستو عام 1911 مطبعة تجارية هي لحرموم، هي مطبعة فكتوري ثم حصلوا على موافقة بإنشاء صحيفة باسم «سودان هيرالد» باطقة بالعلمين ليونانية ولإنجليزية لتعاطل جانيته والأجانب الأخرين إلا أن بعض المهتمين بالأدب من سوريين ومصريين وسودانيين انصهوا بصاحبها مقترحين إصدار مدقق باللغة العربية يعنى بالأدب العربي وقد كان تصدرت صحيفة «رائد السودان» بتصبح ثانية صحيفة في تاريخ السودان ولتلقب دور برر في النهضة الأدبية والفكرية وتولى تحريرها الأدب والشاعر السوري عبد الرحيم مصطفى قبيلات، الذي كان يعمل في مطبعة سكة الحديد السودانية ووجد انجيل الذي قامت على أكتافه الحركة الأدبية والصحفية السودانية في بدايتها محالاً لشرك أعماله الشعرية والشعرية وانتقى على صفحاته خريجو المدارس الحديثة بالجيل الذي عاصر انشودة المهدي حيث كتب فيها محمد عمر البيا منشئ المحاكم الشرعية، وأبو القاسم هاشم شيع العلماء وبابكر بدري وعمر لأرهري أم جيل نكتاب من الحريجين فقد صم عبدالله محمد عمر البيا وعبدالله عبد الرحيم أمين وأحمد محمد صالح، وتوفيق صالح جبريل كان قبيلات رجلاً جريئاً ذا مروءة وكان لا يحصى تعاطفه مع تركيا

أصوات

ودول المنحور بعد شوب الحرب انعامية الأولى، فوجدت عليه السلطات لبريطانية وعندها كتب مقالاً حول مجاعة كانت قد اجتاحت البلاد شس عجبواً على الحكومة وعقد مقارنة بين معاءة الأهلى من الفقر ونظف العىش وما ىرهن فه الحكام المستعمرون والأجاب من نعم فتم عتماله وإبعاده عن السودان إلى مصر مخفوراً.

لَمْ تعمّر رائد بعد إبعاد قلىلات طويلاً فقد توقف عن الصدور في عام 1918، لا أنها سجلت انتصاره للسودانيين قبل أن تتوقف، حيث آلت رئاسة تحريرها لأول صحفى سوداني هو السيد حسين شريف. وعندما أدرك حسين شريف أن رائد لسودان ستتوقف عن الصدور نشر فيها مقالاً بعنوان «شعب بلا جريدة قلب بلا سان»، ناشد فيه السودانيين بالاككتاب لشراء مطبعة وصدر جريدة باطنة باسمهم نشر أفكارهم وانتاجهم الأدبي، وقد تحققت دعوته بصدر حضارة اسودان في 28 فبراير 1919 كأول صحيفة سودانية ملكية وتحريراً وقراء. هي تلك الفترة صدرت أيضاً مجلة «السودان» في رسائل ومسومات، باللغة الإنجليزية لتعنى بشر البحوث عن السودان وأهله وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم ليستفيد منها الإداري البريطاني خلال ممارسته لشؤون وظيفته.

كان الأعضاء المؤسسون لصحيفة «حضارة السودان» هم اسادة عبدالرحمن لمهدي وحليل عكاشة ومحمد الخليفة شريف وحسين الخليفة شريف، وعثمان صالح، وحسن أبو، ومحجوب فصل المولى وعبدالرحمن جميل كان من الواضح أن هذه المجموعة ذات صلة بطائفة الأنصار وتنت حول السيد عبدالرحمن لمهدي، أي ذات لون سياسي محدد.

في أول عهدها اهتمت الصحيفة بالقضايا الاجتماعية والمطلبية هدعت لإنارة لشوارع وإصلاح الطرق والتوسع في مجال التعليم والاهتمام بتعليم المرأة ومحاربة

السحر الأحمر والليل مدر القصصية وعد وصولهم رحب بهم على الطريقة السودانية كما ذكر الرحالة بايارد تيدر أنه لدى وصوله إلى الخرطوم دعتة الأميرة نصرة بنت عدلان إلى مأدبة فحمة في دورها وورعت هدايا على جميع المدعوين. ويبدو أن لأميرة نصرة قد إنتقلت من قصرها في السوربة لسكر هي العاصمة الجديدة الخرطوم.

وكانت لعلاقات أقوى ما تكون بين السودانيين والجالية المصرية - موطئين وتجارا - وقد تروح العمال المصريين من سودانيات واجبوا من عرقو في أوقات لاحقة بالمولدين.

وكان هؤلاء العمال يعملون كمديرين للمناهي وانحمايات العامة وحيارين وصانعي أحذية وحياطين وحلافين وفي إصلاح أسلحة الجيش أما لأقباط فقد كانوا قليلي العدد إلا أنهم كانوا يسعون للارتباط بالموظفين السودانيين ويتبادلون معهم الدعوات إلى الموائد وخاصة في المناسبات الدينية. والسوريون كانوا أكثر الجاليات عدداً بعد المصريين والسعاريين وكانوا يعملون موظفين في الحكومة ويسكنون في الأحياء الراقية إلا أنهم لم يعمدوا صلات عميقة مع الآخرين.

وقد نشأت مننديات ثقافية كانت تستعقب المنح من أعيان المدينة، كمندى المصكر المستنير راحة رافع لعنههاوي الذي جاء إلى السودان ناصر للمدرسة الأميرية ومندى إبراهيم بك مرزوق رئيس القلم الأفرنجي بالحكممدارية ومننديات الحكممدارين.

ويؤم هذه المننديات مثقفون أجناب ووطييون وبعض كبار التجار انديين يتحدثون عن تجاربهم بالبلاد وخاصة الجنوب الذي كان قد ارتبط بحركة التجارة منذ أوائل النصف الثاني من القرن وفي أحييات الحكم التركي في

وظلّ الحكم اشمولي هو العقبة الكؤود التي تصطدم بها الصحافة حيث
المصدرة والرقابة المستمرة مما أثر سلباً على مستواها ودفع بالكثير من الصحفيين
لمعادرة الوطن والعمل بعيداً في الصحافة العربية شرق وغرباً

15 مايو 2001م

الحرطوم في القرن التاسع عشر

يستند الإنسهار بالرحالة لفرنسي شاييه لوبس الذي رار الحرطوم في منتصف القرن التاسع عشر، فلم يستطع إحصاء إعجابه بالمدينة.. وربما أفرط في وصفها حين قال إنها تذكره بباريس بمجالها التي تشبه «البلييه روهال» الراحرة بكل ما يحتاجه الإنسان لعصري من ملابس جاهرة وأنواع العطور والدخان بالإضافة إلى حدتها الماء بشمارها المتنوعة التي وصفها بحدائق الشارليرييه أما الرحالة الإيطالي بايارد تيلر فنمى أن تكون شوارع روما وفنورسه هي مثل بطاقة شوارع الحرطوم ومهما يكن من حال فتظل هذه الصورة سببية لأن رحالة أجانب آخرين إنقلدو مظاهر كثيرة في تلك الحرطوم القديمة ماراقت لهم. ربما كانوا قد راروها في زمن الأمطار والميصادات التي كانت تغلف مستنقعات صغيرة تكون سببا في تشويه المدينة وتنتشر الأمراض. إلا أن عشاق الحرطوم - من الأجانب لذين راروها - كانوا هم لأعديبة ففي صحيفة «الأهرام» كتب أحد الأدباء لمصريين يصفها فقال «مدينة الحرطوم جامعة إلى جمال الموقع الطبيعي معادس النظم المدني والرويق العصري وأكثر أبيتها من الصحر واللبس الأحمر مردانة بالحبس والأحر، وقصورها في غاية البهجة والرويق وشوارعها منتظمة جداً. وفيها شارع يبتدئ من شاطئ النيل الأزرق وينتهي في جنوب المدينة يسمى السكة الجديدة استعادة من اسم السكة الجديدة في القاهرة وجميع سكانها محافظون على عادتهم الأصدية ثم شأ فيها التقيد العربي وعادات المدينة لأوروبية، حتى أن هناك نحو ألف شاب يتكلم باللمتين الفرنسية والإيطالية. وتحيط بها سباقين خصبة بصيرة يبلغ عددها حوالي مائتي بستان ولسكانها ميل شديد إلى تزيين منازلهم بالرياش العاخر ولديهم من

الملاهي وأماكن الرقص والمقاهي ما يريد على الحفلات وأشار إلى أن عدد سكانها يبلغ نحو 250 ألف نسمة حوالي خمسهم من السودانيين والأحرون من الأتراك والمصريين والسوريين والأوروبيين والمغاربة وفيها نحو عشرين عائلة فرنسية أشهرها عائلة الدكتور بتيه وحوالي 15 عائلة إيطالية وأربعين عائلة نمساوية ومثلها ألمانية وأشهر العائلات النمساوية عائلة الحواجة ديفيد النقاش ومن العائلات النمساوية عائلة الحواجة هالك ماحير وبها مائة عائلة يوغانية وحوالي عشرين عائلة من الأرمن أشهرها عائلة بطرس بث سر كيس.

واتحد كثير من الأوروبيين المرحوم وطناً ثانياً مثل كليان الحباط الألماني وهيرل نائب القنصل اللذين عاشا فيها لسنوات طويلة حتى قتلوا في معركة سقوطها عام 1885 كما كانت المرحوم نفقة لتقاء بين جميع الرحالة وطلاب السياحة ولصيد والمغامرين الباحثين عن الثراء السريع والمكتشفين الساعين لمعرفة مساعيل النيل سواء كانوا في طريقهم إلى داخل القارة أو في طريق العودة إلى بلادهم مبحرين في النيل أو لبحر الأحمر. وقد وصفها الرحالة ليجان بقوله: فقد كانت هي الجنة عند نقطة لا يتفاد بين المدينة والهمجية، إلا أنه رأى الجمالية الأوروبية تكون فيها أوروبا صغيرة غير عاصلة. فقد كانت الجماعات الأولى التي وصلت إلى المرحوم بعد الفتح بجوار مفلسين ومجرمين عناة وشذاد أفاق معامرين وفدوا ليحربوا حطوطهم في جمع الثروة أو ليحفظوا قبورهم عبر عاثين فارتلقوا إلى كل ما هو بعيد عن العصابة وأمعنوا في الفساد وتآخروا في الرقيق وأسماوا إليه وكانت دار الإرسالية الكاثوليكية مسدهم ومكان حملاتهم باختلاف مذهبهم.. وكانوا كثيراً ما يحتفلون بمسابقات الرواح ووصول أوروبيين جدد إلى لمدينة ليثعروا من حلالهم على أحبار العالم الخارجي وكان هؤلاء الأوروبيين علاقات بالسودانيين أيضاً وقد حدث أن استضاف قنصل النمسا الدكتور ريتز مشايخ قبائل مناطق ما بين

الثقافة في مواجهة النسيب

واقهر السياسي



عبدالكريم مبرفتي

لما أراد الملك بادى بن رباط ملك مسار إقصاع الشيخ إدريس ود الأرباب أرضاً واسعة رفض وقال له هذه لدار دار النوبة وأنتم عصيتموها منهم وأنا لا أقبلها، وجاء في كتاب الطبقات أيضاً أن الملك بادى ولد أونسه أهل توبته عن كل ما بهاد به الشيخ خليل الرومي لدي كان شيخاً صوفياً فقير خلق القميص

صلت المؤسسة الثقافية السودانية حول عهدها تريقاً ضد العلم والتسلط وقهر الأساد، وكان برورها ساطعاً في عهد الفوج الذي شهد بعض لحدوث الطاعة فتصدى لهم شيوخ الصوفية والرموهم حدودهم، معوهم من انتهاك حقوق الإنسان، ولما عرا لأتراك السودان وقاوم أهله ذلك الغروب سائلة نادرة كان لتلك المؤسسة مواقفها الجبهة فالشيخ إبراهيم عبدالدافع العقيه الصوفي كتب قصيدة حرص فيها على المقاومة ودفع الشمس نضاً وسجاً في ليمان حرة بالقاهرة رزح تحت وطأته طويلاً

السودان كان هناك متدى أحمد أمدي العوام لمصري لعربي السرعة والمضي إلى الخرطوم بعد الاحتلال لإنجليري ولدي أدى تأييده للثورة المهدية إلى إعداده قبيل تحرير المدينة

كان التعليم أندبي راسح القدم حين دحل الأترك إلى السودان وإستمر على هذا المنوال حتى دحلت الجماعات التبشيرية وأهمها البعثة الكاثوليكية التي باشرت نشاطها في عام 1843 وافتتحت مدرسة داخلية للأطفال الذين تبنتهم، وصممت إليهم بعض البيوت والعولدين وقد إستطاع تلاميذها بسهولة وبسرعة إتقان اللغة الإيطالية بالإضافة إلى العربية . كما تعلموا قدرًا من مبادئ الحساب والرياضة البدنية والرسم والصياغة . كما ألحق بها قسم تجاري كان يعد المصالح الحكومية في الخرطوم بحريجه واهتمت المدرسة بالتعليم المهني فافتتحت بها أقسام بنجارة ولحددة والحياكة وصناعة الأحذية والميكانيكا يشرف عليها خبراء إيطاليون وفي السنوات التالية عام 1859 بدأ التوسع في المدرسة حتى بلغ عدد تلاميذها ثلاثمائة من الأولاد ومائتين من البنات بحلول عام 1878 وكان من أشهر خريجيها القس الديسكاوي الأب دميان سرور الذي ألف أكثر من عشرين كتاباً عن عادات وتاريخ قبيلته ثم يبق منها سوى كتاب واحد موجود الآن بمكتبة المخطوطات بمجمع أباء فيرونا

وكانت بالخرطوم مدرّس أهلية للبنات تقدم في ليبيوت وتديرها ساء مصريات ومولدات متعلّقات يدرّس التصريز والطبخ ولشؤون الممرلية كما كانت بالخرطوم أيضاً ساء حافظات للقرآن الكريم يعلمن بنات عليّة القوم القرّآن والدروس الأدبية والنحو في منازلهن . وبافتتاح المدرسة الحكومية بالخرطوم التي أسست نظارتها لرفاعة رافع الطهطاوي ثم قبو مائتين وخمسين تلميذاً . وقد سارت المدرسة على سق المبتدیان بمصر من حيث النظام والمقرّرات وطريقة التدريس وعلى الرغم من أن المدرسة لم تستمر طويلاً إلا أن تلاميذها

عرفوا بمستوى رفيع وأجادوا لتعريب العربية والتركية وقد وصف الجبرال
عردون سكرتيره الذي كان أحد تلاميذها بقوله «إنه تعلم في مدرسة لخرطوم
ووصل إلى مستوى يجعله على قدر المساواة مع التعليم في أرقى المعاهد
الأوروبية . فقلما يوجد موضوع لا يمكنه الحديث فيه بطلاقة كذا في
إمكانه الكتابة بعدة رموز دون أن ينظر إلى مفاتيحها»

وأما الرحاة والمكتشفون من زوار الخرطوم في القرن التاسع عشر في
وصف لياليها التي كانت تحيها جماعة من المغنيات وراقصات «الموالم»
كان قد طردهن لحدوي عباس من القاهرة . فوجدن سوقاً في الخرطوم .. وكس
يدعين إلى حفلات الزواج ولولادة ولختان والترحيب بضيوف قادمين وكان
إلى جانبهم أيضاً راقصات سودانيات كن يرتدين «الرحط» . وكس جميعهن
يرقص على أنواع آلات موسيقية ويؤدي أنواعاً من الرقص منها المصري
والتركي والسوداني، ويعنن الأعاني المصرية والسودانية وأحياناً الحبشية.

الخرطوم في القرن التاسع عشر كانت عاصمة للترك بلا شك .. اشأوها في
أوائل سنوات غزوهم للسودان وازدهرت نتيجة للحبوة الاقتصادية التي
اكتسبتها البلاد . وفي بداية عهدها كان العصر الوطني فيها قليلاً يمثل في
من وفد إليها من عناصر كانت تسكن في المناطق المجاورة لها . ثم ما لبثت
الهجرات إليها أن تكثفت فهرعت إليها جماعات من الدناقلة والجمالين
والشايقية وخاصة عندما انفتحت الملاحة النيلية إلى الجنوب وسكنوا في
أحياء خاصة بهم وبعد أكثر من ستين عاماً هي عمر الاحتلال التركي للبلاد
اندلعت الثورة المهدية وسقطت لخرطوم واتخذ الإمام المهدي أم درمان
عاصمة لدولته لوليدة.

وتوَّخَّه الكثير من سكان الخرطوم إلى المدينة الجديدة وأقاموا فيها وحين
استعادت القوات البريطانية السودان باسم مصر أعادت عمارة لخرطوم

أصوات

المهجورة وتحذتها عاصمة لها وهكذا ابتقت حرطوم القرن العشرين ليتركز الاهتمام عليها أكثر من سابقتها التي لم تحط بكثير اهتمام من المؤرخين وخاصة فيما يتعلق بتاريخها الاجتماعي.

2 أكتوبر 2001م



قصر الخديوية بالخرطوم عام 1880

ولما بلغ ستداد الترك مداه وضاق السودانيون به درعاً حرح من عاءة تلك
لمؤسسة لمفكر الثوري والعائد السياسي العسكري محمد أحمد المهدي
لدي هر سكون المنطقة وتردد ذوي انتصاراته العسكرية الأسطورية في جبات
لعالم وانتصر وأقام دولة وطنية حددت قسماث القومية السودانية وكرسث
خصوصية ثقافتها ودفعث تلك المؤسسة إلى جانب شيوخاً ثور كالثيخ العبيد
ود بدر ولشيخ محمد الحير العشاي وشيخ الطاهر المجدوب والشع
لحسين المرهه والحس سعد العادي والسيد المكي الشيع إسماعيل الوبي
وعامر وأحمد المكاشفي وغيرهم امتشقوا الحسام واجترحو لمعجرات.

وبعد أحدث ثورة 1924 وإحمادها بدموية وصرامة صيقت الإدارة البريطانية
على المثقفين الحقاق وبكثت بالمشاركين فيها وقتلت فرس ابوظائف وساد
البلاد حو «حائق من الحصار لم يجد الحريجون ماصاً سوى تلجوء إلى
لمعرفة والثقافة، جمعيات تعقد في المنازل لقراءة والنقاش وتبادل ما يتيسر
من كتب ومجلات وصحف عربية وإنجليزية. فقرأوا لطف حسين، ومحمد حسين
هيكل في صحيفة «السياسة» وقرأوا في صحيفة «لبلاغ» لباس محمود العقاد
وزكي مبارك وإبراهيم عبدالقادر المازني. وكان الملحق الثقافي للصحيفتين
يلبض بأدراسات ولأبحاث العلمية والأدبية والإجتماعية والاقتصادية، وبعض
الحريجين هتموا بمتابعة نشر لجمعية الفاية البريطانية من كتيبات وأوراق
تروح بلعكر الديمقراطية لاشتراكي، كما تابعوا كتابات رعاء الجمعية كبردار
شو وهج ويلر وقد فطلت برامج بعض الأحزاب في أوقات لاحقة تلك
لتوجهات الاشتراكية الديمقراطية

وهي مذكراته ذكر أحمد حير أنه كان من المؤلف أن تردحم غرفة الشاب
بأكداس من المؤلفات العربية والإنجليزية والصحف الأجنبية، كما لاحظت
مجلة «الفجر» أن الشباب كانوا يقرأون حتى في الترام

كانت البدايات بجمعيات القراءة المشتركة وحلقات النقاش قد تشكلت بمدينة أم درمان في الهاشميات وأبوروي، وقد باذر بإشياء جمعية أبوروي الشقيقان حسن وحسين أحمد عثمان «الكدا»، وكان من بين أعضائها مكايي سليمان أكرت، وابور عثمان، وإبراهيم يوسف سليمان، والهادي أبوبكر اسحاق، وإبراهيم عثمان اسحاق، وإبراهيم أنيس، وإسماعيل العتاسي، وعبدالله ميرعسي، ومحمد محبوب لقمان، وحامد توفيق، وعبدالحليم أبوشمة وحضر حمد، والتجاني أبو قرون، وحسن ريادة جاهزت هذه المجموعة بعداء ساهر بطلامية ولإدارة البريطانية، أما جمعية الهاشميات فقد ضمت الشقيقين عبدالله ومحمد عشري الصديق، ومحمد أحمد محبوب، وأحمد يوسف هاشم، وعبدالحليم محمد، ويوسف مصطفى النبي، ويوسف المأمون والسيد العيل إهتمت جمعية الهاشميات بالكتابة وبرر منها شعراء وكتاب متميزون لعبوا دوراً كبيراً إبان الحركة الوطنية وبعد الإستقلال وساهم معظم هؤلاء في تحرير مجلة «النهضة». ولما عاد عرفات محمد عبدالله من السعودية عام 1931 وأصدر مجلة «الفجر» في يونيو 1934 أصبحت جمعية الهاشميات تعرف باسم جماعة «الفجر» ذات نزعة إستقلالية وترفع شعار «السودان للسودانيين». وقد تحدث السكرتير الإداري لحكومة السودان جيمس روبرتسون عن هذا الشعر في عام 1945 وقال «إنه بوفاة حسين الحبيبة شريف في عام 1928 تفرق شمل جماعة «السودان للسودانيين» إلا أن شعراءهم ظل حب وسط عدد من لموطنين ولصباط. وأشار روبرتسون إلى أن هذا الشعر عاد مجدداً للظهور بعد بضع سنوات كمصدر إلهام لجماعة من الشبان المثقفين عرفوا باسم جماعة الفجر، وكان يلقوهم عرفات محمد عبدالله. وفي حوالي عام 1931 أنشأ يحيى العفصلي جمعية أدبية ضمت عدداً من أصدقائه وزملائه في الدراسة منهم إبراهيم جبريل وعلي حامد، ومحمود العفصلي واليسع خليفة وبشير محمود ومحمد نور حسين ودوي مصطفى والحاح عوض الله،

أشخاص

وأحمد لسيد حمد وتعتبر هذه الجمعية بواة لما عرف في وقت لاحق بجماعة لأشقاء

أما في الأقاليم فقد أُنشئت جمعية أدبية بالنادي السوداني في عطبرة وأخرى بنادي الموظفين في ودمدني في عام 1935 وكان من المقرر تكوين جمعية أدبية ببادي الأبيض.

أشأ جمعية ودمدني الأدبية بعض أعضاء جمعية أبوروف من الموظفين الذين تم نقلهم إلى تلك المدينة، وكان من بينهم طه صالح وإسماعيل العتباتي وإبراهيم عثمان، صادق وإبراهيم أبيس وأحمد حير وعبدالله عبد الرحمن نقد الله وعلي نور والظاهر النيل وعمر عبد الغني ومصطفى الصاوي وأحمد مختار وميرعني دفع الله. وكانت تلك الجمعية قد تميّزت بالحيوية والنشاط فتلورت منها فكرة مؤتمر الحريجين في عام 1937 وقامت بتنظيم ألسج وأصبح مهرجان أدبي يقيمه مؤتمر الحريجين في تاريخه

هذه هي المؤسسات الثقافية والفكرية التي نشأت صغيرة متوصعة في منازل لأعضاء، ولكنها ما لبثت أن امتدت سواعدها واستطاعت تحمل عبء القضايا الوطنية في مؤتمر الحريجين حتى امتلئت منها الأحراب السياسية.

وتشهد العاصمة السودانية الآن نشوء مؤسسات ثقافية وأدبية في محاولة لإحياء نبت التجارب التي ساهمت في تشكيل الوعي الاجتماعي والفكري للأمة السودانية، ومن بين هذه المؤسسات مركز عبد الكريم ميرعني الثقافي بأم درمان

وعبدالكريم ميرعني يعتبر واحداً من المثقفين لطليعيين الذين شاركوا في الحركة الوطنية كان شعور بالثقافة والمعرفة الموسوعية ذا نبرة اشتراكية وإن لم يتم إلى حرب بعينه، وقبل رحيله بسوات تحول صالون مرله إلى سوة فكرية

وثقافية تتناول شتى صروب المعرفة، وقد ولد بمدينة أم درمان في عام 1923- تلك الفترة المليئة بالأحداث والتحوّلات منذ أحداث ثورة 1924- بعد سنوات من نهاية الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من متغيرات سياسية. وبعد تخرجه في كلية عردون -قسم الإدارة- بدأ حياته موظفاً بمكتب السكرتير الإداري، ولم يبعث أن تمّ نقله مأموراً بمركز بيلا ليكون بعيداً عن أجواء العاصمة الملتهية بالنشاط لوطني. ولما كان إهتمامه بحركة الوطنية عميقاً بالتعليم إستقاف عبدالكريم ميرغني من الوظيفة الحكومية وإتجه للعمل بالتدريس في مدرستي الأحفاد وأم درمان الأهلية.

وبعد فترة قصيرة التحق بجامعة بريستول في بريطانيا لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية وتخرج فيها بدرجة الامتياز في عام 1955 والبلاد على أعتاب إستقلالها. فوقع عليه الاختيار ليكون قائماً بالأعمال في السفارة السودانية الوليدة بلندن، وتعلم في السلك الدبلوماسي فأصبح سفيراً للسودان في الهند في لفترة التي شهدت محفواً حركة عدم الانحياز. كما عمل سفيراً لبلاده في اليابان وإيطاليا و اليونان ومصر مما أفاد في إثراء ثقافته ومعرفته حيث خلت دهره في تلك فترات معاصم مشرعة الأبواب وملئى السمراد والكتاب والأدباء. وبعد ثورة أكتوبر 1964 لشعبية أجمعت القوى السياسية على إختياره وزيراً للتجارة في فترة الانتقالية - وهي الوزارة التي عاد إليها في عام 1969 عقب انقلاب مايو ونولى أعباءها فترة قصيرة انتهت عام 1970.

وفي أيامه الأخيرة وقبل وفاته عام 995. إهتم كثيراً بعلم التداوي بالأعشاب وأنشأ صيدلية عشبية إنتفع بها كثير من المرضى وكان يعد الدواء بنفسه ويورعه بلا مقابل، وهذا المركز الذي أنشئه بمبادرة من أسرته يستكمل العطاء الحريص الذي قدمه لأمتة بلا من ولا أذى

8 مايو 2001 م

غربة الروح والتمرد الخلاق

معاوية نور.. صورة وحبر

إعادة طالب سوداني بالقاهرة إلى دياره بالحرق بالشمع!

الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
ومن بعد الحرق الشديداً
مؤامرة ضد نوراني
طالب من سوداني
دراسة فيها ذكر له
في القارة الأفريقية
أما هو حصل منه من
الحرق بالشمع في
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨
الجزيرة ٩ يناير ٢٠٢٨



يشعر المروء بكثير من الموعة و لأسى كلما جاء ذكر أحد مبدعينا العظام لدين
فصوا وهم في شرح لشباب، بعد أن حلقوا ما هو جدير بالخلود ومن بين هؤلاء
على وجه الخصوص خليل فراح وانتجاني ومعاوية والناصر قريب الله وعرفت
مقد كانوا والحق بقل تعبير صادقاً عن الروح السودانية الصاعدة قبل أيام كنت
أطالع إحدى لصحف المحلية حين عثرت على حبر قديم لصحيفة اللطائف
بمصرورة المصرية في عددها الصادر في 28 سبتمبر 1928 وقد جاء فيه أن
طالب سوداني معاوية محمد نور وحصل إلى القاهرة قبل أسبوع لإكمال دراسته
فيها بعد أن هجر كلية لطب بالخرطوم إلا أنه فوجئ بعد بضعة أيام بوصول حاله
من السودان ولما رفض دعوته له بالعودة إستعان عليه بالشرطة وعاد به كان
حاله ذلك هو الدرديري محمد عثمان القاضي وعصو مجلس لسيادة في وقت
لاحق وكان قد وقف على تربيته بعد وفاة والده وهو لا يزال صغير

كان الحبر مصحوباً بصورة معاوية وهو في التاسعة عشرة، إلا أنه يبدو حدثاً في الرابعة عشرة، كان قد أنفق عامين في كلية الطب «مدرسة كتشر» قبل أن يحسم أمره ويقرر التسلل خفية إلى مصر. كانت عائلته من العائلات المستيرة وقتذاك، وكانت تقدر تبوعه حيث كان المقبولون في تلك الكلية لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين. وكانت ترغب في أن تراه طبيباً من «السمع والبصر»

ما كان معاوية متمرداً على مستوى السلوك بل كان هادئ الطبع ودود هديته المعارف التي أخذ يسهل من فيضها وهو لا يزال في طور ليعاعة وبلغت دروتها بعد أن ألتهم مكتبة كلية عردون الراحرة. إلا أن هاجساً قوياً كان يلح عليه بدراسة الآداب في الجامعات الأجنبية.

ما كانت الصحافة المصرية تدرك أن ذلك الفتى الهارب أديب مرموق متألق تحتفي بكتابات صحافة المحرطوم ويوقع باسم «مطالع» وما كانت تدرك أنه سيعود من بيروت بعد سنوات قلائل ليضم الأوساط الأدبية في القاهرة ويصبح بدأ بمخالفة الفكر يتجرأ على نقد عميد الأدب العربي ويعد مكان رحيباً في صالون لعقاد

أحسن بحرته الروحية إدوارد عطية حين أدرك قيمة عبقريته وتناول تجربته في كتابه «عربي يروي قصته» ورسم صورة كثيفة للواقع الاجتماعي الذي أحاط بمعاوية في مدينة أم درمان خلال سنوات العشرين من القرن الماضي ووصفه وهو يقرأ لكبار الكتاب ولمفكرين الأوروبيين أمثال جين أوسنس والدوس هكسلي في جو من التفاسة والإملاق الثقافي

كان إدوارد عطية المدرس بكلية عردون صديقاً له وقد ساندته كثيراً في محاولاته بفناع أسرته بإسماع له بترك دراسة الطب والتحول لدراسة الآداب في الجامعات بالمحارج

وعريمة ومثابره ومماوسة شتى أنواع لصعوط نجح معاوية أخيراً في انتراع

موافقه عائته بالسفر إلى لسان للإلتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت على عفته الخاصة ومدد بنياته لأولى أظهر بصحاً وسوعاً وبرر اسمه دواياً في لمخافل الأدبية والثقافية وأحد يستخدم أساليب ومناهج ثم يعرفها الأدب لعربي من قبل وساعدته قراءاته الموسوعية وارتباده اندروب لوعرة والعسالك والاتجاهات النقدية الجديدة لأن يقف بدأ لمخالفة العصر ويقتحم عرب طه حسين نفسه حين كشف أن فكرة كتابه «الشعر الجاهلي» الأساسية منقولة عن لمستشرقين وأعاد كل محاولات لتجديد إلى مقلدها في الأدب العربي وحتى الشعراء الرومانسيين الذين تربعوا على عرش الدوق الأدبي عهد ذلك.. علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأحمر بهما . أوسعهم نقداً ووصفهم بمحدودية لعكر وغياب الوعي الشامل بتطورات العصر ومتطلباته والافتقار للحساسية لشعرية والركاكة ولتهالك.

نبح سريعاً وانبثق كالشهاب ثم لم يلبث أن غاب بعد أن افترسه اند . كان في لثالثه والعشرين حين لتقى بأندريه مارلو وأخرى معه نقاء صحبياً في القاهرة. تعاشى الموقف كبار الأدباء والمثقفين وتهيبوا الجلوس أمام وزير الثقافة لعربي الذي وضعه ديجول بأنه لرجل لوحيدي الذي لا يشعر بأي بتدال لدى لقائه ثم تكن جرأة معاوية جوف، عالية من محتواه فقد استطاع في ذلك لرمس لقياسي أن يستوعب لتيارات لعكرية والأدبية والإجتماعية والسياسية في لعالم لغت لأطار باكراً للمحركة العمالية وفكر الاشتراكيين المعايين بزعامة بيرارد شو و هـ.ج. ويدر. وكان السائد العربي الأول لذي أشار لأسماء مثل ت. س. ابيوت ود. هـ. لورنس وإديث سينويل .

كنت كثيراً ما استمع لذكريات عمنا لأستاذ مبارك بأكبر البشير -عليه رحمة لله- وهو أحد كبار رجال التربية بأم درمان - يحدثني عن التطورات الإجتماعية والأحداث التي شهدتها المدينة منذ سنوات العشرين حين تفتح وعيه طفلاً

بحي المورد. وكان أكثر ما يشير حربي حين يتعرض لمأساة معاوية.. قال إن «موصول كان يدفعهم وهم صبية أعرار إلى انتطلع من حلال نافذة العرصة التي حُبس فيها معاوية بمسول «مرفعين العقراء» كان قد تمكن منه الداء وهو ينصع للعلاج بالرقى ولتعاويد مقيداً بالسلاسل - محروماً من الطعام يتعرض لضرب بالسياط من وقت لآخر كان ذلك خلال النصف الثاني من سنوات الثلاثين كان شائعاً ولم يبلغ الثلاثين بعد - مهرولاً شاحب اللون وقد تساقطت أسنانه وشعر رأسه ما كان العلاج النفسي قد وجد طريقه إلى السودان شأن كثير من دول العالم. وكان الحيار الوحيد أمام أهل المريض أن يدفعوا به لتعرض بمثل هذه التجربة.

كثير من الناس يرى أن العبقرية العذبة والقدرات الاستثنائية للإنسان قد تقود إلى الجنون هذا المفهوم شائع لدى كثير من الثقافات ولم ينكره علم النفس الحديث ولا يرل هناك من يتحدث عن مأساة معاوية ويعروها لدكائه المفرط، بل أن هناك من يشير إلى أن حساد بيوعه دسوا به سمّاً عريضاً فلك به وأودى بحياته.

أتردد كثيراً على حي المورد وهو مهد للعبقرية لا ريب فقد درج فيه عدد من المبدعين شعراء وفنانيين ومفكرين يشرد ذهني وأما أمر أمم دورهم وأتوقف كثيراً أمام المكان الذي شهد عذوات وروحيات معاوية مثلما يحدث لي حين أرور منزل عمما المرحوم عباس محمد نور - شقيق معاوية - بالحلة الجديدة في كوستني وأحياناً د قادنسي خطاي إلى مقابر الشيخ حمد النيل التي لا تبعد عن داري - أتطلع باحثاً عن ذلك المكان الذي ضم حدث تلك العبقرية المؤودة. وحين قرأت مرة مقالة للشاعر و لكاتب المغربي محمد بنيس عن مقبرة للعظماء والمبدعين الألمان رأها بمدينة برلين خلال زيارة له كففت عن الأمل بالنظر برؤية ذلك القبر الذي وقف عليه العقاد طويلاً وانتحب

الاستعماري بسين

وصمبر المثقف



دوجلاس نيوبوند

قبل سنتين عندما كتبت السير دوجلاس نيوبوند السكرتير الإداري لحكومة
سودان مقالاً بشرته صحيفة سودان مثارة قال فيه إيسي بن أدحل في
تكهات حول مستقبل لسودان عدا القوم إن لا ربح لا يقف بك وإن أي
مريء يرغم أنه بمقدوره التكهن بمستقبل السودان لا بد أن يكون نبياً أو عباً،
إيسي أعلم أنني لست نبياً وأمن ألا أكون عباً إن قصاري ما تستطيع أي حكومة
أو أمة أن تفعله حبال المستنقس لذي هو بيد الله، هو أن تهين نفسها ذهباً ومداً
ومعويلاً لأي شيء يمكن أن يحدث وكالسفينة المبحرة في رحلة طويلة، فإن
عليها أن تعد نفسها لمواجهة أي رياح قد تهب عليها»

لَمْ تَنْصُرْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى رُوحِ انْتِشَاوِمٍ وَالْعَمُوطِ كَمَا يَبْدُو فِي صَافِرِهَا، وَأَتَمَّا
عَبَّرَتْ بِشَكْلِ وَاصِحٍ عَنِ اسْتَفْرَافٍ عَمِيقٍ لَوَاقِعٍ كَانِ وَلَا بَرَالٍ مَعَهَا فِي وَعُورَتِهِ .
يَصْعَبُ التَّكْهَنُ بِمَآلَاتِهِ لَمْ تَصْدُرْ عَنِ حَاكِمِ اسْتِعْمَارِي يَهْدِدُ بِمَصَائِرٍ غَيْرِ
مَحْمُودَةٍ بَعْدَ خُرُوجِهِ، وَإِنَّمَا عَنِ رَحْلِ مَشْفُوقٍ حَدَّثَ أَنْ تَوَحَّهَ إِلَى اللَّهِ مُتَصَرِّعاً

ومبتهاً يقول «يا أيها الإله انقدر مبع كل حكمة يا من تصرف عبائته الإلهية كل الأشياء على الأرض، بدعوك في رحمتك اللانهائية أن تحفظ أهل هذه الأرض وقبائلها، وأن تشملهم بكل حمايتك في المدينة والريف وفي الحبال والعبانة والمصحراء. تصرع إليك أن تقيهم من كل مصائب المجاعة والمرض وسفك الدماء. أفرغ في قلوبهم وعقولهم أنس هباتك ألا وهي التقاهم ليستبدلو بعدوة بالسلام ويحكموا العدل في مجالسهم ويشيعوا الرحمة في بيوتهم وينبذوا من حيائهم أفعال الشر».

توجه بيوبولد بهذه الكلمات لأهل كردفان فتصلى لهم كل الخير من صميم فؤاده «المسيحي»!! كردفان التي شهدت ما شهدت في تاريخها القريب - بعد أكثر من نصف قرن من إبتهالات مديرتها الإنجليزية هذه - حتى بات يحرسها الأجانب لتعمم بشيء من الأمن والاستقرار أما دارفور فدع عنها الحديث «فالحزن الأكبر ليس يقل» كما عبر المينوري يوماً

أحب بيوبولد بسطاء الناس - أهل الريف - حيث عمل وتنفذ الأحوال وأراد لهم صوتاً مسموعاً يجعل مصحاً عن قصايرهم حتى لا تصبح حقوقهم وحتى لا يتم ادبهم من أجل إسعاد الأعدية واستحق بمعارضة بعض الحريجين لتوسيع تمثيل هؤلاء البسطاء في المؤسسات الدستورية الوليدة وحذر من اتساع الحرق بين الريف والمدينة ودعى للاستجمام القومي وطرد أعداء تقدم في السود الجهل والفقر والمرض والحلاف

لم تكن إبتهالات بيوبولد كلمات حاكم أجنبي مستبد قابح في قصره ينظر إلى رعياء السود التعساء لمساكين يعرور واستعلاء. وإنما كانت كلمات مترعة بالإنسانية والحكمة والمنظرة الشاملة للبشر أليس هو الذي وصف المثقف في محاضراته «المجانب الإنساني للثقافة» - التي انتدر بها شاطئ «دار الثقافة» في الخرطوم - وقال إنه ذلك الشخص الذي يتميز بإنسانيته من كل شيء ولا

يسمح لأحمله المعرفة والفكرية بأن تجفف بنابيع تلك الإنسانية وهي أساطة وسعة الخيال وروح التسامح والمكاهة. ويصح بيوبولد المتعلمين السودانيين أن يتعرفوا على بلادهم من خلال المشاهدة الميدانية وأنصاف على مناهجها حتى يتمكنوا من حبها لأن الحب الحقيقي لا يشأ إلا بالمشاهدة ودعاهم إلى لتعني بالتسامح وتقبل لرأي الآخر لأن الحقيقة دائماً نسبية

لا بد أن بيوبولد كان يظن للمتعليمين السودانيين بعين الريبة والتشكك، وربما يكون قد أسس فيهم ترفعاً عن قصايا أهلهم البسطاء وميلاً للشعور بالذات أكثر من لتعني بالروح الوطنية ولا بد من الوقوف إزاء رد فعله من مدكرة الحريجين، وما إذا كان يناسب مع سعيه لحبر السودان. فالمدكرة التي رفعها إبراهيم أحمد رئيس مؤتمر الحريجين العام في الثالث من أبريل عام 1942 كانت تعبر عن أماني لسودانيين في الإعتناق بالإعلان عن حقهم في تقرير المصير عقب الحرب لعظمى مباشرة عاظ بيوبولد أن يدعي المؤتمر حقه في تعبيل الشعب لسوداني، رأى فيه حمة من الأندية لا يحق لها أن تتحدث باسمهم كان فاسياً وغطاً في التعبير عن ذلك ورد المدكرة لمدميها. وربما لا يسمع له حديه وحنوه على أهل الريف الذين يشكلون غالبية أهل السودان وكانت الإدارة البريطانية تسعى إليهم من خلال رعمانهم التي كان المتعلمون يرونها المعقل الثاني للرجعية بعد لطائفية. تلك الأفكار التي دفعت بتخليفتها جيمس روبرسون لأن يعمل على إنشاء الحرب الجمهوري الاشتراكي في ديسمبر 1951 ربما كان في ذلك نوع من لوصاية إلا أن بيوبولد لم يلبث أن اجتمع مع قادة الحريجين وأحزله وعود بتوسيع المشاركة في الحكم في إطار نظم دستورية متدرجة

وصف روبرسون بيوبولد بأنه كان رجلاً خصب الخيال مرحاً موحياً بالمحبة وافر النشاط متعاطفاً مع الآخرين يفيض بأفكار التقدم والعمل لخير الناس قراً كثيراً وبهتة بالأدب والتاريخ، سريع لتفكير بتغير عقل مقب وتطلع لمعرفة

الأشياء والتحقق منها. يكون دائماً القدوة الحسنة لمن هم حوله. رآه في كردفان مديراً لمديريتها في سنوات الثلاثين ثم أصبح نائباً له كمسكرتير إداري في الأربعين. وقال إنه كان معظوظاً أن بقي قريباً منه لسنوات واستطاع أن يقبس بعضاً من روحه في العمل من أجل أفريقيا وبعد أن حلقه في طبيعته كان يدرك أنه لا يستطيع أن تكون له تلك المزايا الشخصية الرفيعة فلم يشأ أن يحتل مقعده الأكاديمي كرئيس لمجلس إدارة كلية عردون

وقد كان بيوبولد هو الأب الشرعي لكلية الجديدة التي افتتحت في فبراير 1945 والتي تعد من أهم إنجازاته باعتبارها طمرة في التعليم العالي فهي إداري توصيات لجنة لورد دي لاوير تم تجميع المدارس العليا السبع - وهي الآداب والهندسة والعلوم والطب والبيطرة والزراعة والقانون هي كلية عردون وتم تعيين توتهيل مدير مصلحة الزراعة كأول عميد لها وبعد أن أصبح بيوبولد رئيساً لمجلسها - الذي ضم سودانيين ومصريين وبريطانيين - رشح عباس محمود العقاد لعصوية المجلس إلا أن المكائد السياسية في مصر تم تسمع بالموافقة على ذلك.

منذ سنوات بعيدة ظلت شخصية بيوبولد تتردد في خاطري. صورة لإداري الإنجليز المثقف الذي أهدى ثلاثة آلاف كتاب لتصبح بوابة لمكتبة جامعة الخرطوم الحالية والرجل الذي كان يتردد على درة عباس محمود العقاد أثناء لجوئه للسودان في الحرب الثانية والديمقراطي المثابر الذي أنشأ «الثقافة» بالخرطوم لتبقى مكاناً مفتوحاً لمحوار

بوهي بيوبولد وهو في الحادية والخمسين إثر إصابته بسم في الدم ودفن بالخرطوم حسب وصيته. وتحسر على وفاته كثير من المتعلمين وغيرهم من مختلف انطبقات، حتى الأستاذ أحمد خير - الوطني المتطرف في عدااته للإنجليز - وصفه بـ «السياسي الموهوب والأديب المصفوق والكاتب المطبوع

والمعالم المشقة المجد الذروب»، وقال إنه «بتلك لخلال والمؤهلات وثق
وشائج الصداقة مع عدد لا حصر له من الوطنيين من مختلف الميوس والثقافات
وظل حريصاً على الإتصال بهم أو مراسلتهم بدرجة كانت مثار الدهشة والتأمل»

بقاء في بحر المانش



الإمام عبدالرحمن المهدي

«باللعطة والسور، لقد انتهت المهديّة إلى الأبد».

في بركة من وجمت لزوجه في 24 نوفمبر 1899

في الخامس والعشرين من يوليو 1919 شهد قصر باكنجهام في العاصمة البريطانية وصول أول وفد سوداني يرور المملكة المتحدة كانت تقلهم عربات ملوكية ويرافقهم السير ونجت حاكم عام السودان واللورد جر تيفيل وغيرهم

وعندما وقف الوفد أمام الملك ألقى رئيسه السيد علي الميرعسي كلمة يهته فيها بإحراز النصر في الحرب العالمية الأولى وذلك باسم السودان ثم أعم عليهم بالباشين فمّنع السيد علي الميرعسي بيشان فيكتوريا من درجة فارس مع لقب «سير»، وبالبشاد نفسه من درجة رفيق لكن من الشريف يوسف المهدي والسيد عبدالرحمن المهدي والشيخ إبراهيم موسى ناظر الهندوة والشيخ علي لنوم ناظر لكبابيش والشيخ إبراهيم محمد فرح ناظر الجعليين

والشيخ عوض الكريم أبوس وكيل ناصر الشكرية كان الوفد الذي وجهت إليه لحكومة لبريطانية الدعوة لحضور احتمالات النصر يصم أيضاً الشيخ الطيب أحمد هاشم مفتي السودان ولسيد إسماعيل الأزهري قاضي شرعي مديرية دارفور، يدي صاحب حفيده الأستاذ إسماعيل الأزهري امدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية (رئيس أول حكومة سودانية) ليرافقه كمترجم كما صاحب لسيد عبدالرحمن المهدي ابن أخته حسن لحديفة شريف والشيخ جعفر أحمد شرعي انتاحرأم درمان واحترار الشيخان الطيب وأبو القاسم أحمد هاشم الأستاذ محمد حاح الأمين لمدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية أيضاً ليرافقهما.

لَمْ يكن ذلك الوفد اسوداني يحسن قصايا سياسية أو رؤية محددة لمستقبل لسودان غير ذلك لنظام الذي عرض نفسه بالحديد والنار، ويكاد أفرادهم يجمعون، أنهم يعمون بطروف أهل وبهالة من لا استقرار بعد اسسوت العجاف لني شهدتها البلاد في أحريات القرن التاسع عشر. كان جميع أفراد الوفد من زعماء ديبين إلى بطارقائل مسجحين مع الإدارة البريطانية ويتوفون إلى المرشد من التعاون معها إلا السيد عبدالرحمن المهدي الذي مارالت تطر إليه يعيون لتشكك والريبة كانت ترى فيه رعيم محتملاً لاضطرابات جديدة باسم الثورة المهدية ثُمَّ تكتف بما فعلته بعد انتصارها في معركة كرري وحملات الملاحقة والتصفية التي كانت مستمرة حتى ذلك العام الذي زار فيه الوفد لندن وحين قَدَّم السيف الذي ذكرت المصادر أنه يعود لوالده الإمام المهدي لا بد أن صوراً مأساوية كنت تلاحق ذاكرته ملا توقف معركة كرري لرهبة التي قتل فيها حوالي عشرة آلاف رجل دمروا وَلَمْ يقهرو كما عُرِ وستون تشرشل في كتبه دحرب شهر. والمعارك المتصلة بتصفية بقية رجال الدولة المهزومة أم ديبكرت النبي إستشهد فيها الحليلة عبدالله والحليمة علي ودخلوا وأخوه لصديق ابن المهدي . ثُمَّ المحررة التي شهدها هو شخصياً في اشكابة حيث

اعتس أخواه لعاصل والشرى والحليقة شريف وأصيب هو نفسه بطلق باري في كتفه كاسو، مجموعة صغيرة نهيم في العلوات ونفتات من ورق الشجر ثم سوات المعنى الداخلي من الشكابه إلى جزيرة العبل فلم حرمان تحت الرقابة المباشرة لروودولف سلاطين المعشش العام الذي عاد ليثار من سوات الأسر

استقبلته الصحافة البريطانية بروح عدائية لم تعرف المهادنة وكتب في عناوينها الرئيسية في الصفحات الأولى «وصول ابن المهدي قاتل عردون». كانت عمياء في حقدتها وإحساسها بمرارة مقتل عردون أثناء فتح الخرطوم لم تثبت من الأمور وما طرأ من تعيرات في موقف الرجل الذي أراد أن يقول للإنجليز بتقديمه السيف لملكهم أن الحرب التي مصت عليها سوات تجاوزت العشرين قد انتهت. وما أمدأ احتط طريقاً مختلف عن الأساليب الثورية.. التي ما عادت تجدي لفهر الألة الحربية الجديدة والامبراطورية التي لا تعيب عنها لشمس

كان أعضاء الوفد قد بحثوا قبل مقابلتهم للملك جورج الخامس فكرة تقديم هدية له ولكسهم صرخوا بالطر عن هذه الفكرة لصيق الوقت الذي لم يمكنهم من إختيار هدية مناسبة ولكن السيد عبدالرحمن المهدي فاجأهم بتقديمه هديته التي استشار فيها الحاكم العام ونجت باشا وبالت موافقته لم تكن تلك المفاجأة لسر السيد علي الميرعني رئيس الوفد والذي تعتبره الإدارة لبريطانية رجل اسودان الأول، فعبر عن استيائه لهذه المفاجأة للدرجة التي أعس رعبته في العودة فوراً إلى السودان احتجاجاً على هذه المبادرة التي قد تسحب بساط الرعامة من تحت قدميه كما أورد البرفيسور حسن أحمد إبراهيم في كتابه «الإمام عبدالرحمن المهدي». وقد أمضى صمويل عطية صابط المحابر الذي رافق الوفد لجنة بأكملها محاولاً إقناعه بالبقاء في لندن وعدم العودة إلى الخرطوم

في ريادة للخرطوم في نوفمبر 1926 -بعد تركه الخدمة في حكومة السودان-

انتقد سلاطين قرار الحكومة بالسماح للسيد عبدالرحمن بالتوجه إلى لندن قائلاً إنه لا يمثل إلا المهدية المتعصبة التي تشكل خطراً حقيقياً على الحكومة. ووصف سلاطين تقديم السيف للملك بأنه «خطأ بين وعرض مسرحي».

وقد أعلن السيد عبدالرحمن أن دعوة الحكومة البريطانية سرته «لأنها تنطوي على نوع من الإعتراف الذي كان خصومي يعملون جاهدين على إنكاره» واعتبر الزيارة ساحة لتوضيح موقفه بأن الحرب التي كانت قائمة قد انتهت ورغم ذلك مازالت الإدارة البريطانية في الخرطوم تعامله وكأنها مازالت ناشبة. وفي كتابه «دور السيد عبدالرحمن المهدي في الحركة الوطنية» قال البرفيسور حسن أحمد إبراهيم إن موالاة السيد عبدالرحمن للحكم البريطاني لم تنشأ عن قناعة صادقة أو يقين يتمشى مع مبادله بل فرضها الواقع السياسي. ويؤكد الدكتور محمد سعيد القدال في كتابه «تاريخ السودان الحديث» أن مشاركة السيد عبدالرحمن الحكم البريطاني اتخذت طابعاً سياسياً أكثر من كونها تأييداً أدبياً معنوياً.

وفي مذكراته اعتبر السيد عبدالرحمن أن الرحلة كانت فاشلة من الناحية السياسية، إلا أنها كانت مفيدة من الناحية الاجتماعية والثقافية، حيث سمحت لهم برؤية عالم مدهش رأوا فيه الإنجليز يمارسون مهناً وضعية عكس تلك الصورة التي تحيط بهم في المستعمرات حكاماً بصولون ويجولون. وقد تسنى له أن يركب الطائرة فوق سماء لندن بصحبه الشيخان علي التوم وإبراهيم محمد فرح.

شنت الصحافة المصرية حملة عنيفة ضد زيارة الوفد السوداني لبريطانيا حيث كان الشعور الوطني في حالة من الغليان في مصر ضد الإنجليز بعد اعتقالهم سعد زغلول ورفاقه الذين طالبوا بالحرية وب دستور للأمة. إلا أن تلك الصحافة كانت مدفوعة بعواطفها فتكبت الموضوعية في رؤيتها لتلك الزيارة. كان السودان قد خرج لتوه من تجربة مريرة جسدت لها دولة الخليفة عبدالله بحروباتها

المتواصلة التي خلقت كثيراً من الجراح والمرارات وأضعفت اقتصاد البلاد التي اجتاحتها المجاعات التي مات فيها خلق كثير.. فتناقصت أعداد السكان وضممرت قدراتهم.. فرأى من تبقى حالة من الإستقرار والهدوء تعم البلاد. كما رأوا في السياسة البريطانية المخاتلة عدلاً وأملاً جديداً في حياة أفضل.

في ختام الزيارة وفي رحلة قصيرة لم يتجاوز زمنها الساعة ونصف الساعة في بحر المانش التقى فقيه مغربي يدعى محمد الحسن الحجوي بالوفد السوداني فتعرف على أعضائه. وأعجبه حسن إستقبالهم له وبشاشتهم وفصاحة لسانهم وتأديبهم ورأهم أقرب شياً بالمصريين والتونسيين. ويبدو أنه لم يكن قد رأى سودانيين من قبل. وأخذ يتحدث معهم حول أحوال بلادهم وعن أوجه التقدم الذي طرأ عليها في السنوات الأخيرة والتعليم الذي أخذ في الانتشار وصدور الصحف التي بلغت أربعاً، هي «رائد السودان» و«حضارة السودان» و«السودان»، والرسمية «غازية السودان». وحدثوه عن القوانين التي تحكم البلاد والمنتجات الزراعية والنشاط الاقتصادي. وطلبوا منه أن ينقل ما حدثوه عنه إلى بلاده. وقد أطرى هو الإحتلال الفرنسي كثيراً وما رأى أنه قد قدمه للشعب المغربي من أسباب الظلمة والعيش في سلام. وأجاب عن تساؤلهم حول مشاركة الجنود المغربية في الحرب إلى جانب الحلفاء وحول إحترام فرنسا للدين الإسلامي واهتمامها بالمساجد وصيانتها.

كان ذلك الرجل قد قام برحلة رسمية إلى أوروبا بتكليف من السلطان المغربي مولاي يوسف لحضور عيد الجمهورية الفرنسية وإحتفالات الإنتصار على الحلفاء وقد وجد الفرصة سانحة للعبور إلى بريطانيا حيث زار لندن ومانشستر وقادته الصدفة ليستقل تلك العبارة التي أقلت الوفد السوداني. وكان الفقيه الحجوي هذا على قدر من الوعي والإستتارة حيث تخرج في جامعة القرويين وشغل منصب نائب الملك في منطقة المغرب الشرقي. ويعتبر حسب الدراسات

المغربية المعاصرة فقيهاً مجتهداً ومفكراً إصلاحياً تجديدياً دعا إلى الانفتاح والإستنارة والأخذ بمقومات التمدن لاكتساب القدرة على التقدم والمحاق بركب الحضارة الغربية.

وقد استطاع تلميذي الباحث السوداني عبدالله صالح سفيان المقيم بالرباط المثور على هذه الوثيقة النادرة أو النص الذي كتبه الحجوي حول لقائه الوفد السوداني الذي وصفه بصورة طريفة وأورد أسماء أفرادها باختلافات طفيفة أضافت كثيراً لطرافة النص الذي نشره بمجلة «كتابات سودانية» في عددها الثامن الصادر في يونيو 1999.

من بولون توجه الوفد إلى باريس ومنها إلى مارسيليا لركوب البحر مرة أخرى إلى مصر ثم إلى السودان عن طريق السكة الحديد.. فوصل إلى محطة الخرطوم في مساء السابع عشر من أغسطس. وكان في مقدمة المستقبلين نائب الحاكم العام واليوزباشي أحمد عبدالله سعد ياور الحاكم العام وممثلو الجاليات الأجنبية والأعيان وجماهير الشعب. وظلت الدور الخاصة بأعضاء الوفد تغص بالمهنيين لعدة أيام.

ووقف الشاعر المهندس عبدالرحمن شوقي في دار السيد علي الميرغني المحتشدة بالناس وألقى قصيدة مادية.. كما وقف نظيره الشاب الأستاذ أحمد محمد صالح وألقى قصيدة رائعة في إستقبال السيد عبدالرحمن حتى أوشك الناس أن يحملوه على الأعناق.

4 يونيو 2002

